خمسُ حَالاتِ من التحليل النفسى



تأليف
سيجموند فرويد
ترجمة
صلاح مخيمر عبده ميخائيل رزق
تقديم
مصطفى زيور



مكتبة الأنجلو المصرية

خمس حالات من التحليل النفسي

تأليف

سيجموند فرويد

ترجمة

صلاح مخيمر عبده ميخائيل رزق

مراجعة

مصطفى زيور



مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة



أسم الكتاب: خمس حالات من التحليل النفسي
تأليف : سيجموند فرويد
ترجمة : صلاح مخيمر & عبده ميخائيل رزق
تقديم : مصطفي زيور
الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
سنة الطبع: ٢٠٠٧
رقم الايداع: ٤٢٨٤
الترقيم الدولي:٦-٥٦٧-٠٥-٩٧٧

(أ)

تقــديم الكتــاب

بقـــلم

مصطفى زيور

نقدم فى هذ الجزء الأول من كتاب « خمس حالات من التحليل النفسى » ثلاث حالات هى حالات « دورا » و « هانز الصــغير » و « رجل الفئران » أما الحالتان الأخيرتان : « شريبر » و « رجــل الذئاب » فستنشران فى الجزء الثانى وهو تحت الطبع •

وقد نشر فرويد هذه الحالات الخمس فيما بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٨ • ويتضح من قراءة هــذه الحالات الخمس تقــدم فرويد فى شحذ فنيات التحليل فى ضوء تجاربه المتزايدة وما وفرته له من أضواء أكثر شمولا وأعظم نفاذا من خلال المحاولة والخطــأ • ومن أجــل ذلك فان الحالة الخامسة أعنى حالة « رجل الذئاب » أكثر الحالات عمقا من حيث العمــل التحليلى وأفضلها ثراء من حيث المعطيــات الناجمة من عمق الفطنة بالبنيان السيكولوجى التحتانى • وغنى عن البيان أن هذه الحــالات الخمس اختيرت من بين عشرات الحالات التى قــام بتحليلها فرويد وذلــك لأســباب تعليميــة من ناحيــة وديؤنثولوجية (واجب السرية) من ناحية أخرى •

وسبق أن ذكرت فى تصدير كتاب « تفسير الأحلام » أننا نزمع أن ننشر فى مجموعة « المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى » هــذه الحالات الخمس وذلك لأنه يكاد يستحيل على غــير الاخصــائى أن يتبين من قراءة الكتب التى تعرض قضــايا التحليل النفسى عرضــا نظريا مصدرها من الوقائع العيانية الاكلينيكية التى تتيحها عمليــة التحليل النفسى لمريض نفسى • وما يدور أثناءها من حـــــوار يدور شهورا أو سنوات ، بحيث يدرك صدق الاستنباط والاستقراء اللذين يسفران عن قضايا نظرية التحليل النفسى •

وأرانى مضطرا أن ألح على قضيــة كررت بيانها فى أكثر من موضع ، وذلك لمــا يبدو لى من أن النسيان يغلفها لدى الكثيرين وأعنى بها : أن الحق فى ابداء الرأى فى مبحث علمى ليس حقا طبيعيا وانما هو حق يكتسب ، واكتساب هذا الرأى بصدد قضايا التحليل النفسى لايتم الا بممارسة مايمارسه المحلل النفسى محللا ثم محللا • ومن أجل ذلك فلن يدهشنى أن القارىء المتعجل لهذه الحالات الخمس قد يشيح بوجهه فى موضع أو آخر منكرا أو مستنكرا • غير أن نشر هذه الحالات قد يتيح لقارىء متأن بسمة الصمود نعم أقول الصمود أزاء بعض الوقائع التى تستثير قلقا قد يكون خفيا عتيا معا ، ولكنه مع ذلك الثمن الذى لابد من بذله أن تستحيل لديه المجهلة معرفة •

ولايظن القارىء أننا معشر المحللين النفسيين نلزمه أن يخضع نفسه لتحليل نفسى على يد محلل نفسى قبل أن يقول لا أو نعم ، وانما نفرض ذلك فقط على طلاب التأهيل لمهنة التحليل النفسى حتى يزيلوا « النقط العمياء » فاذا هم مبصرون مستبصرون • أما القارىء الذى لايطلب الا معرفة فبوسعه ــ مستضيئا بما قرأ فى هذه الحالات الخمس ــ أن يقوم بتجربة أعلم أنها ليست هينة وانما تقتضى غلابا • وأعنى بهذه التجربة أن يحزم أمره على التصدى لفلتات لسانه وما يأتيه من نسيان طارىء وما الى ذلك ويخضعها فى صبر لمنهج التداعى الحر • فاذا أضاف الى ذلك اخضاع أحلامه بضعة شهور لهذا المنهج فسيتبين صدق القضية التى نعتبرها ذروة قضايا التحليل النفسى أعنى أن « الأنا مجهلة » •

فاذا كان الأنا ــ وخاصة بصدد نفسه ــ مجهلة فان كل مبحث فى النفس لا يصدر الا عن الشعور لايمكن فى أحسن تقدير أن يكون الا علمــا بنتائج المجهلة • وهل يغيب عن فطنة القارىء الذى يستطيع اخلاصا مع نفسه المعنى فى عملية التكوين العكسى أى أن يكون المــرء فى أعماقه كارها فاذا هو من حيث لايدرى محبا بالقياس الى الشعور المباشر • والواقع أن حصيلة العلاج بالتحليل النفسى هو أن يمس

الانسان فى أعماقه محبا أكثر منه كارها ، بعد أن كان فى أعماقه كارها أكثر منه محبا •

وأن قضية الأنا مجهلة يلزم عنها أن اليقين الشعورى مهما استخدمنا من عدد وأدوات نصقلها من حيث « الثبات » و « الصدق » ــ أقول أن هذا اليقين الشعورى شىء والحقيقة فى مبحث النفس شىء آخر • ولا مفر من ذلك مادمنا نستجوب الشعور وحده ، سواء أكان هـذا الاستجواب فى اطار معمل علم النفس أو فى أطار المعالجة الاحصائية أو فى اطارهما معا بحيث تبدو النتائج وكأنها ضد النموذج الفزيائى الرياضى •

فاذا أضفنا الى ثنائية الوجـدان Ambivalance (الكراهيـة والحب معا) ثنائية المعنى Ambiguity بحيث يكون الرأى عـدل نقيضه ، لاتضح لنا أن التنـاقض ليس كذلك بالقياس الى أعمـاق الأنا ، حتى صح القول أنه لا وجود لحرف النفى « لا » فى النشاط اللاشعورى كما أن هذا النشـاط لا زمانى • وبعبـارة أخرى فان الانسان فيما يبدو لنا منه لا ينطبق على نفسه ، فهو ما ليس هـو ، وهو ليس ما هو (اذا صحت استعارة هذه الصياغة الوجودية) •

وقد لفتت هذه النتائج للخبرة التحليلية النفسية انتباه جمهرة الفلاسفة المعاصرين المعنيين بالاستمولوجيا وفلسـفة العلوم ، من حيث أن هذه النتائج تقوض نظريات المعرفة من أسـاسها ، بحيث أصبح الكوجيتو الديكارتى بما كان يحمله من يقين موضـع تساؤل واستشكال على نحو أكثر عمقا واختـلافا عما قام به كنط وهيجـل وهوسرل •

وهل هناك ما يقض مضاجع اليقين أكثر من القول بأن معطيات الأنا الشعورى مطبوعة بطابع المجهلة والمبهمة ، وهى قضية سـبق لماركس أن طرحها فى ميدان الاقتصاد الاجتماعى ، ونيتشه فى ميدان

القيم • ولكن طرح هذه المشكلة من خلال قضايا التحليل النفسى كان أكثر ازعاجا وأعظم أرهاقا لذهن الباحث عن الحقيقة ، وذلك لأن قضية المجهلة الناجمة من الفحص التحليلى النفسى تحمل طابع الخبرة الواقعية الامبيريقية المتاحة لأى انسان يشاء أن يعيشها • وليس هذا مقـــام عرض المحاولات المعاصرة فى اقامة ايستومولوجيا جيدة تأخذ فى الاعتبار ديالكتيك الشعور واللاشعور وخاصة فى العلوم الانسانية • وتكفى الاشارة الى بزوع النهج البنيانى المعاصر بدأ فى الليمو سيقا ثم انتقل الى الأنثربولوجيا وغيرها من علوم الانسان ، فانبثق من هذه الدراسات « مقال » آخر لوغوس آخر ينبعث من أعمق أعماق النفس نقيا بريئا من شوائب المجهلة ، وبالتالى أدق اعرابا عن حقيقة الانسان بما هــو الانسان وشروط صدق المعرفة وكذلك حدودها لديه •

فاذا كان هذا حال فلاسفة الايستمرلوجيا وحال الكثير من علماء مباحث الانسان فمــا بال بعض علمــاء النفس يتباطؤون ويتشبثــون بمناهج البحث التى تبين قصورها فى ميدان النفس اذا هى انطلقت من معطيات الشعور وحده ، فأذا قيل أن قضايا التحليل النفسى لاتصلح لصياغة اجرائية تسمح بالتحقيق التجريبى والمعالجة الاحصائية فاننا نذكرهم بما قام به جون دولارد ، ونيل ميللر ، وماورد ، وروبرت ســيرز ، وكــارل هوفلاند ومعاونوهم وأتباعهم من صياغة اجرائية لمفاهيم التحليل النفسى فى اطار نظريات التعلم ، وما حصلوا عليه من التجريب المعملى من نتائج ألقت أضواء جديدة على بناء الشخصية غنم منها علم النفس الاكاديمى تقدما وثراء ، ثم ماقام بــه رايموند كاتل من استخدام مفاهيم التحليل النفسى على نطاق واسع فى قياس « أبعاد » الشخصية بأسلوب التحليل العاملى الاحصائى ، ثم ماتوفر لنا من معطيات من خلال التجريب المعملى الفسيولوجى باستخدام جهاز التسجيل الكهربى لنشاط المخ (E. E. G) اثناء النوم ومايتخلله من أحلام وما أسفر عنه هــذا التجريب من أن وظيفة الحلم أنــه حارس

النوم كما قال بذلك فرويد ـ منذ سبعين عاما ـ من حيث أن الحلم يقوم بخفض التوترات الناجمة عن ضغوط الرغبات فى أشباع هلوسى محرف .

وعلى هذا النحو من البحث تستطيع ميادين علم النفس ان تسير قدما متجهة نحو « وحدة علم النفس » كما ناقشها البروفسور لاجاش فى مناقشته الافتتاحية عام ١٩٤٧ (١) وذلك من خلال ضرب من « التغذية الراجعة » وحوار ديالكتيكى صادق بين المشتغلين بالتجريب والمعالجة الاحصائية والمشتغلين بعلم النفس الدينامى الاكلينيكى الـذى يفيـد من منجزات التحليل النفسى .

ويسعدنى هنا أن أقرر أنه بغير الجهد الأكاديمى الصادق الذى بذله زميلاى الأستاذ الدكتور صلاح مخيمر والأستاذ عبده رزق لمـا غنمت المكتبة العربية هذا الكتاب النفيس . ولابد من أن أثبت لكل ذى حق حقه . فبدون الخلفيه الثقافية الواسعة فى علوم الانسان بما فى ذلك قضايا التحليل النفسى التى أكتسبهـا الزميل الدكتـور صـلاح مخيمر أثناء دراسته بالسوربون (٢) ، لما جاء هذا الكتاب ترجمة دقيقة وواضحة مما لمـا كتبه فرويد عن الحالات الخمس .

مصطفى زيـور

دكتور فى الطب

رئيس عيادة الأمراض النفسية بكلية الطب بباريس سابقا

أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس سابقا

عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسى

---

(١) راجع : دانييل لاجاش : وحدة علم النفس ، ترجمة الاستاذ الدكتور صلاح مخيمر والاستاذ عبده رزق . مكتبة الأنجلو المصرية . الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥ . وانظر ايضا تقديمنا لكتاب انحراف الاحداث تاليف كمـال جندى أبو السعد ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٧١ .

(٢) دكتـوراه الدولة فى الاداب جـامعة السوربون ، عضو الجمعية الفرنسية الروشاخ ، عضوية الجمعية المصرية للمعالجين النفسيين ، عضو القطاع التربوى للمجلس الاعلى للجامعات ، عضوية لجنة علم النفس للمجلس الاعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية .



تصـــــدير

بقـــلم

مصطفى زيــور

أن العثور — بعد وفـــاة فرويد — على مجمــوعة خطاباته الى صديقه الطبيب « فليس » أماط اللثام عن كثير من الوقائع والظروف التى صاحبت ميلاد التحليل النفسى • فها هو فى خطاب بتاريخ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٠٠ يخبره أنه بدأ علاج فتاة فى الثامنة عشرة نعرف الآن أنها « دورا » التى يناقش حالتها ويعرض أهم تفاصيل علاجهـا بالتحليل النفسى فى هذا المقال الأول من المقالات الخمس التى نقدمها فى هذا الكتاب •

وقد انهت المريضة علاجها فى ٣١ ديسمبر من نفس العام ، أى بعد أحد عشر أسبوعا من بدء العلاج • وقد أنجز فرويد كتابة هذا المقـال فى يناير سنة ١٩٠١ ، ولكنه لم ينشره الا سنة ١٩٠٥ ، لأسباب تتصل بالحذر الذى يمليه الحرص على اخفاء شخصية المريضة •

وبدد التحليل النفسى لحالة المريضة وأعراضها وبخاصة السعال العصابى والأفونيا ، (انحباس الصوت) حول تفسير حلمين أعانا فرويد على النفاذ الى الصراعات اللاشعورية وفهم بنيانها ، فضلا عن الكشف عن خبرات فى الطفولة غلفتها الامنيزيا (النسيان) الطفوليـة بفعل الكبت • ومن ثم فان هذا المقال يعتبر — كما يقــرر فرويد فى خطابه الى فليس بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٠١ — أمتــدادا لكتابه والذى يسجل أعظم كشوفه أعنى « تفسير الأحلام » الذى صدر عام ١٩٠٠ وهذا يبين لنا لم كان عنوان هذا المقال فى بادىء الامــر « الأحــــلام والهستيريا » ، كما يقرر فرويد فى الملاحظات التصديرية لهــذا المقال (ص ٧) •

ويؤيد بنيان هذا المقال ماسبق أن قرره فرويد فى صدر كتابه « تفسير الاحلام » (الترجمة العربية ، دار المعارف بمصر ، صفحة ٣١): « وأن من قصر عن أن بين منشأ صور الحلم ليجهد عبثا فى أن يفهم المخاوف المرضية والأفكار القهرية والهجاسية أو فى أن يؤثر فيها تأثيرا شافيا » •

والواقع أن هذه القضية تفوت الكثيرين ، أعنى أن الدراسة المتعمقة الشاملة لسيكولوجية الأحلام هى الشرط الضرورى Sinc qua non لفهم « العمليات الأولية » اللاشعورية التى ينسج على منوالها الأحلام والعصاب والذهان جميعا • ومن أجل ذلك فان المحللين النفسيين ينصرفون عن التصدى لأى ناقد لم يبذل ماينبغى من الجهد فى دراسة تفسير الأحلام نظريا وعمليا •

ومع ذلك تنبغى الاشارة الى تكنيك « فنيات » التحليل النفسى حاليا ، اى بعد انقضاء نحو سبعين عاما على تحليل « دورا » ، تطور تطورا كبيرا بحيث لم يعد تفسير الأحلام يحتل مكان الصدارة كما هو الحال فى هذا المقال • وقد أرسى فرويد الأسس الاولى لفنيات التحليل النفسى فى مجموعة من المقالات ، نذكر منها مقاله « المرتقب فى المستقبل من العلاج بالتحليل النفسى « عام ١٩١٠ » ، ثم مقاله : « فى استخدام تفسير الأحلام فى التحليل النفسى (عام ١٨١٢) • ثم مقاله : «فى ديناميات التحويل» (عام ١٩١٢) ، ثم مقاله : «توصيات للأطباء عن منهج العلاج بالتحليل النفسى » (عام ١٩١٢) ، ثم سلسلة من المقالات بعنوان « توصيات اضافية فى فنيات التحليل النفسى » فى سنوات ١٩١٣ و ١٩١٤ و ١٩١٥ ، ثم مقاله « تحولات فى أساليب العلاج بالتحليل النفسى» (عام ١٩١٩) وأخيرا مقاليه «التحليل (النفسى) القابل للتمام وغير القابل للتمام » (عام ١٩٣٧) ومقاله فى نفس العام « التشييد فى التحليل النفسى » •

وغنى عن البيان أن فنيات التحليل النفسى لم يتوقف تطورها منذ وفاة فرويد عام ١٩٣٩ • وأخص بالذكر التقدم فى فهم ومعالجة التحويل ومضاد التحويل وها هو فرويد يقرر فى تذبيل هذا المقال (صفحة ١٠١):

«ان أكبر ميزة فى هذه الحالة من التحليل، وهى على التحديد، وضوحها غير
ميزة فى هذه الحالة من التحليل ، وهى على التحديد وضوحها غـــير
العادى الذى يجعل منها حالة جد ملائمه لان تكون أول عمل ينشر كمدخل
للتحليل النفسى ، لهى جد وثيقة الارتباط بأكبر عيب لها ، والذى يؤدى
الى توقف التحليل قبل أوانه • لم أنجح فى السيطرة على التحويل فى
الوقت الملائم • وعندما جاء الحلم الاول ، وهو الذى أعطت فيه لنفسها
انذارا بانه من الافضل لها أن تترك العلاج على يدى ، كان يتحتم على
أن أصغى أنا نفسى لهـــذا الانذار وهكذا اخذنـــى التحـــويل علــــى
غرة ، وبسبب هذا القدر المجهول فى شخصى الذى يذكر دورا بالسيدك،
انتقمت منـــى اذ أرادت أن تنتقـــم منــــه ••• فما عساه كان هــــذا
« المجهول ؟ انى بالطبع لا أعرف » فى هذه العبارات يتبين بوضوح
التقصير فى الفطنة الى التحويل فى الوقت المناسب ، وعلاقة هذا التقصير
بانعدام الفطنة الى مضاد التحويل • ولكن هذا التقصير يحمل معان
نفيد منها لابصدد فنيات التحليل وحسب ، وانما بصدد أحوال الانسان
بعامة ، تلك التى يجهد التحليل النفسى فى فض معمياتها ، وبخـــاصـــة
طبيعة تلك الحرب الضروس بين ارادة الجهلة فى مقابل أرادة المعرفة •

وجدير بالذكر أن حالة دورا اذا كانت تعتبر امتدادا ، كما سبق
القول ، لكتاب«تفسير الأحلام» فهى فى نفس الوقت ارهاص لكتـــاب
فرويد : « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » (الترجمة العربية : دار
المعارف بمصر) وهو الكتاب الذى سجل فيه كشوفه الثورية عن الحياة
الجنسية لدى الأطفال ، وعلاقة ماقـــد يكتنفها من التعثر باندلاع
العصاب فى سن الرشد •

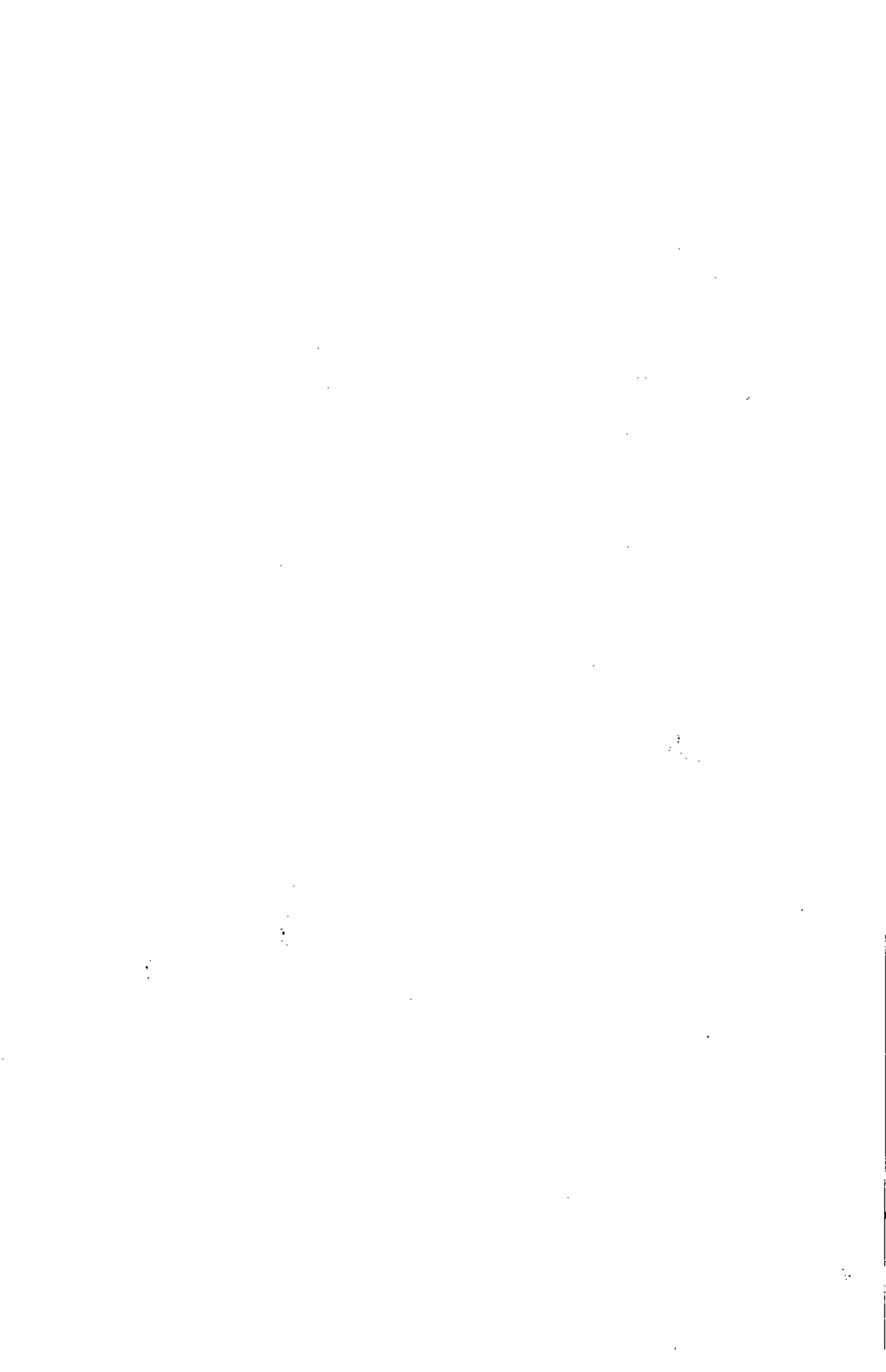


١

جزء من تحليل لحالة هستيريا

(دورا)

(١٩٠٥)



جزء من تحليل لحالة هستيريا (١)

ملاحظــات تصديرية

فى عامى ١٨٩٥ و ١٨٩٦ قدمت آراء معينة عن النشوء المرضى للأعراض الهستيرية ، وعن العمليات النفسية التى تحدث فى الهستيريا ومنذ ذلك الوقت مضت سنوات عديدة • وعليه ، فاننى أذ أعتزم الآن

ظهر أولا فى :

(1) Bruchstuck Einer Hysterie - Analyse Monatschrift Fur Psychiatrie und Neurologie, Bd. Xxviii, Heft 4 nud 5/1905.

ثم نشر من جديد فى :

Freud, Sammluna Kleinr Sehriften, ii, 1909.

ثم أعيد نشره بتصريح من الناشر Deuticke فى الاعمال المكتملة لسجيموند فرويد Gesammelte Sehriteten حيث يشكل مع أربع حالات تحليلية أخرى المجلد الثامن المعنون Krakengeschichten

ولقد تمت ترجمته الى عدة لغات ، وخاصة الى الانجليزية على يـــد اليكس وجيبمس ستراشى ، الطبعة الاولى ، لندن ، وولف ١٩٢٥ ، وهــو يشكل المجلد الثالث من المقالات المجموعة لسيجمند فرويد Collected Papers

المجلد الخامس من Cesammelte Werke المجلد السابع من
The Complete Psychological Works. of S. Freud Standard Edition

وتمت ترجمته الى الفرنسية على يد مارى بونارت ورليفشتاين عن النص الالمانى فى Gesammelte Schriften ، وظهرت الترجمة الفرنسية أولا فى المجلة الفرنسية للتحليل النفسى عام ١٩٢٨ :

Revue Francaise de Psychanalyse, t. II. Fase. I, 1928.

وهذه الترجمة الفرنسية ، والتى راجعتها أن برمان ، هي نفسها التى ظهرت عام ١٩٥٤ فى كتاب بعنوان :

Cinq Psychanalyses. Prsses Univers itaire de France

تأييد الآراء بتقديم تقرير مفصل عن تاريخ حالتها وعلاجها ، فليس فى وسعى أن أتجنب تقديم بضع ملاحظات تمهيدية ، وذلـك من ناحية كيما أبرز من زوايا مختلفة الخطوة التى أقدم عليها ، ومن ناحية أخرى كيما أجد من التوقعات التى يمكن أن تطلقها الآمال فى هـذا التقرير •

ولقد كان غريبا ولاشك اننى اضطررت الى نشر نتائج أبحـاثى دون أن تكون هناك أية أمكانية للزملاء من الاخصائيين لفحصها والتحقق من صحتها وخاصة وأن هذه النتائج كانت تبعث على الدهش وليست بحال مما يبعث على الرضا ولايكاد الأمر يقل غرابة حين أبدأ الآن بتقديم بعض من المعطيات التى أقمت عليها نتائجى ، فأجعلها فى متناول حكم الجميع • فلن أكون بذلك فى مأمن من النقد •

وكل ماهنالك أنه وأن كان قد عيب علي فى الماضى عدم تقديم أية معلومات عن مرضاى ، فسوف يعاب على الآن أننى صرحت بمعلومات ما كان ينبغى التصريح بها عن مرضاى • وكل ما أتوقعه هو أن القائمين بنقدى هم هم فى الحالتين نفس الأشخاص وقد بدلوا فحسب مـن أسانيدهم ، فان كان الأمر كذلك ، فلا يسعنى الا أن أسلم مقـدما باستحالة أية امكانية لوضع حد لانتقاداتهم •

وحتى لـو تجاهلت سـوء قصـد النقاد ضيقى العقول من أمثال هؤلاء ، فان عرض تواريخ الحالات سوف يظل بالنسبة لى مشكله يصعب حلها • وهذه الصعوبات ترجع من ناحية الى طبيعة الفنيات ، ولكنها ترجع من ناحية أخرى الى طبيعة الظروف ذاتها • فاذا كان صحيحا أن أسباب الاضطرابات الهستيرية توجد فى الدخائل الحميمـة للحياة النفسجنسية للمرضى ، وأن الأعراض الهستيرية هى التعبير عن رغباتهم المكبوتة الأمعن سرية ، فعندئذ يتحم على العرض المكتمل لحالة هستيريا أن ينطوى على كشف لهذه الدخائل الحميمة وفضح لهذه الأسرار • ومن المؤكد أن المرضى ماكانوا ليبوحوا بشىء لو خطر ببالهم أن أقوالهم يمكن أن تكون يوما موضع استغلال علمى ، ومن المؤكـد أيضا أنهم ماكانوا ليوافقوا بحال لو طلبنـا اليهم أن يأذنوا لنا بنشر

حالاتهم • ففي مثل هذه الأحـــوال فان المتزمتين والهيابين ســوف يقدمون على ماعداه واجب الكتمان الطبى ، معلنين فى أسف أن الأمر من طبيعة تحــول بينهم وبين خدمة العلم بتنويره فى هذه الظــروف • ومـــع ذلك فانى أعتقـــد أن على الطبيـــب واجبـــات ليـــس فحسب تجاه مريضه الفرد بل أيضا تجاه العلم ، وبأن واجباته تجاه العلم لا تعنى فى نهاية الأمر شيئا غير واجباته تجاه الكثرة من المرضى الآخرين الذين يعانون ، أو سوف يعانون يوما ، نفس الاضطراب • وهكذا يصبح من واجب الطبيب أن ينشر ما يعتقـد أنه يعرفه من أسباب الهستيريا وبنيتها ، ويصبح امتناعه عن ذلك جانبا يبعث على الخزى ، طالما كان بوســـعه أن يتجنب الحـاق أيــة اساءة شخصية بالمريض الفرد • انى لأعتقد بأننى قد اتخذت جميـــع الاحتياطات لأحول بين مريضتى وبين أن تتعرض لاية اساءة من هذا القبيـــل • لقد انتقيت حالة جرت مشاهد حياتها ، لا فى فينا ، بـــل فى بلــــدة اقليمية نائية ، ومن ثم فان ظروفها الشـــخصية لابد وأن تكون من الناحية العملية غير معروفة فى فينا • وحرصت منذ البداية على أن أبقى على واقعة علاجها عندى سرا أحرص عليه ، بحيث أن طبيبـــا واحدا آخر لا غير — ممن أثق كل الثقة فى كتمانه — هو وحده الذى يستطيع أن يعرف أن الفتاة كانت أحد مرضاى • وقد انتظرت أربع سنوات كاملة بعد توقف العلاج ، مؤجـــلا النشر ، حتى علمت بأن المريضة قد طرأ على حياتها تغير من طبيعة تسمح لى بالاعتقاد بأن اهتماماتها بالأحداث والوقائع السيكولوجية التى سوف أرويها هنـــا قد غدت الآن شاحبة • ولا حاجة بى الى القول بأننى لم أبق على اســـم يتيح لأى قارىء عادى بأن يقتفى أثرا ، هـــذا الى أن نشر الحالة فى مجلة علمية فنية صرفة من شأنه أن يقدم ضمانا ضد القراء غير المتخصصين من هذا القبيل • ولكننى بطبيعة الحال لا أستطيـــع أن أحول بين مريضتى وبين أن تتألم لو أن تاريخ حياتها وقع صـــدفة فى يدها • ولكنها لن تجد فيه شيئا لا تعرفه من قبل ، وقد نتساءل من عداها يستطيع أن يكتشف من تاريخ الحياة هذا أنها هى موضـــوع هذا المقـــال •

وانى أعرف بأنه ، فى هذه المدينــة على الأقل ، ثمــة كثرة من الأطبــاء ــ وهو أمر يبعث على الحنق ــ ســـوف يقبلون على قراءة تاريخ حياة من هذا القبيل لا على أنه اســـهام فى سيكوبا ثولوجيا العصاب ، بل على أنه « رواية ذات لغز ينحل » من أجــل تسليتهم . وأستطيع أن أؤكد لمثل هذا النفر من القــراء بأن كل تاريخ حيــاة ســيتاح لى نشره فى المستقبل ســوف يكون فى مأمن من فطنتهم ، بفضل نفس ضمانات السرية ، وان كان فى هذا التصميم ما ينطوى على قيود غير عادية تحد من حرية انتقائى للمعطيات .

هنا ، فى تاريخ هذه الحالة ــ وهى الوحيدة التى نجحت حتى الآن فى أن أمضى بهــا عبر القيــود التى يفرضـــها الكتمان الطبى وتفرضها الظروف غـــير المواتية ــ ســوف تجرى بأقصى صراحة مناقشة العلاقات الجنسية ، وســـوف نسمى الأعضـــاء الجنســية والوظائف الجنسية بأسمائها ، وفى وسع القــارىء الحيى أن يخلص من عرضى الى أننى لم أتردد فى أن أتحدث فى مثل هذه المســائل بمثل هذه اللغة حتى مــع فتاة شــابة . أيكون على اذن أن أتولى الدفاع عن نفسى فى هذا الأمر أيضا ؟ اننى ببساطة أطالب لنفسى بالحقوق التى لطبيب النساء ــ أو بحقوق أكثر تواضعا منها بكثير ــ وأضيف بأنها لعلامة غسق فريد شاذ الافتراض بأن أحاديث من هــذا القبيل تمثل وسيلة ناجعة لاهاجة الرغبات الجنسية أو لاشباعها . هذا الى اننى أستشعر ميلا للافصــاح عن رأيى فى هــذا الأمر فى كلمات قليلة مستعارة :

« أنه لما يبعث على الاسى أن يكون على المرء فى عمــل علمى أن يفسح مكانا لاحتجاجات وبيانات من هذا القبيل ، ولكن ليس لأحــد أن يلومنى على ذلك ، بل ليتهم بالحرى روح العصر ، التى بلغتــا بفعلها الى هذه الحالة التى لم يعد فيها من الممكن لأى كتاب جاد أن يطمئن على بقائه (١) » .

مقدمة كتاب : Schmidt, Beitrage Zur indischen Erotik, 1902.

وسوف اصف الآن الطريقة التى تغلبت بها على هذه الصعوبات الفنية فى صياغة التقرير الخاص بتاريخ هذه الحالة • والصعوبات هى جد هائلة حين يكون على الطبيب أن يباشر فى اليوم الواحد من ست الى ثمانى جلسات من حالات العلاج النفسى ، ولا يستطيع تدوين ملاحظاته أثناء الجلسة مع المريض مخافة أن يزعزع ثقة المريض وأن يرتبك هو نفسه فى امساكه بالمادة التى يلاحظها • والواقع أننى لم أنجح حتى الآن فى حل المشكلة الخاصة بكيفية الاحتفاظ بالمعلومات من أجل النشر ، وفى حالة تاريخ علاج طويل الأمد • وفيما يتعلق بالحالة الراهنة ، ثمة عاملان قد اعانانى : أولهما أن العلاج لم يطل لأكثر من ثلاثة أشهر ، وثانيهما أن المعطيات التى أنارت الحالة انتظمت حول حلمين (أحدهما جاءت روايته فى منتصف العلاج والآخر فى نهايته) • والصيغة اللفظية لهذين الحلمين قد تم تدوينها عقب الجلسة مباشرة ، مما جعلهما محورا أكيدا لسلسلة التأويلات والذكريات المنبعثة عنهما • أما تاريخ الحالة نفسه فهو وحده الذى أعتمدنا فى كتابته على الذاكرة بعد ما بلغ العلاج الى نهايته ، وكانت ذكرياتى عن الحالة ما تزال نضره ، وقد شحذها عزمى على نشرها • وهكذا فان تقريرى ليس دقيقا بشكل مطلق كنسخة صوتية ، ولكنه مع ذلك جدير بدرجة عالية من الثقة • ما من شىء ذى قيمة تعرض فيه للتغيير اللهم الا تفسيرات تغير ترتيبها فى بضع مواضع ، وقد تم ذلك حتى يكون عرض الحالة أكثر تماسكا فى شكله •

والآن ابين على وجه التخصيص مايوجد فى هذا المقال ، وما لا يوجد فيه • كان عنوان المقال فى الأصل • « الاحلام والهستيريا »، اذ بدا لى أنه جد ملائم لبيان كيف أن تفسير الأحلام يدخل فى تاريخ العلاج ضمن نسيج واحد ، وكيف يمكن لتفسير الاحلام أن يصبح الوسيلة لسد فجوات الذاكرة (الأمنيزيات) وفهم الاعراض • ولم

(٢) تفسير الاحلام ، دار المعارف بمصر (الترجمة العربية)
Die Traumdeutung, 1900

يكن بغير أسباب وجيهة ، أننى فى عام ١٩٠٠ أعطيت أسبقية للدراسة العميقة المضنيه للأحلام (١) على ماكنت انتوى نشره فى سيكولوجيه الأعصبة • وقد استطعت أن أتبين من الطريقة التى استقبل بها (كتاب تفسير الأحلام) مدى ضآلة التفهم التى تنقاها مثل هذه الجهود من جانب الزملاء فى أيامنا — ففى هذه الحالة لم يكن ثمة ما يسند الاعتراض بأن المعطيات التى أقمت عليها نتائجى لم يتم تقديمها ، وبأنه بالتالى من المستحيل التحقق من صحتها عن طريق فحصها والتثبت منها ، فبوسع أى شخص أن يخضع أحلامه للفحص التحليلى ، وفنيات تفسير الأحلام يمكن بسهولة تعلمها بالرجوع الى التعليمات والأمثلة التى قدمتها • ومرة أخرى يتحتم على هنا أن أؤكد ما سبق أن أكدته آنذاك ، من أن الشرط السابق الذى لا غنى عنه للوصول الى أى فهم للعمليات النفسية فى الهستيريا والأعصبة النفسية الاخرى هو : الدراسة العميقة لمشكلات الأحلام • فما من أحد يتنصل من هذا الجهد الاعدادى يستطيع أن يتقدم ولو لبضع خطوات فى هذا الميدان • وعليه فما دام تاريخ الحالة هذا يفترض مسبقا معرفة بتفسير الاحلام ، فسوف يكون جد بعيد عن أن يبعث الرضا فى أى قارىء لا تتوفر له هذه المعرفة • مثل هذا القارىء لن يجد فى هذه الصفحات الأخيرة بدلا من الفهم الذى يرجوه ، وسوف يكون دون شك نزاعا الى أن يسقط سبب حيرته على المؤلف ، والى أن يرمى آرائى بالخيالية المسرفة • والواقع هو أن هذه الحيرة تنتمى الى ظواهر العصاب ذاتها ، ولكن وجودها تحجبه فحسب ألفة الطبيب بالوقائع ، بينما تبرز هذه الحيرة من جديد مع كل محاولة لتفسير هذه الوقائع • ولا يمكن القضاء عليها تماما الا عندما ننجح فى أن نرد كل واقعة جزئية فى العصاب الى عوامل كانت مألوفة بالفعل لنا • ولكن كل شىء يميل على العكس الى أن يظهرنا على أن دراسة الاعصبة سوف تجرنا الى التسليم بكثرة المعطيات الجديدة التى يمكن أن تصبح شيئا فشيئا موضوع معرفة يقينية • فالجديد هو الذى يثير دائما الحيرة والمقاومة •

ومع ذلك فمن الخطأ الاعتقاد بأن الأحلام وتفسيراتها تشغل

مثل هذا المكان البارز في كل التحليلات النفسية على النحو الذي هي عليه في هذا المثال .

وبينما تاريخ الحالة الذي أمامنا يبدو موفقا بصفة خاصة من زاوية استخدام الاحلام ، فانه قد تكشف من زوايا أخرى أفقر مما كنت أرجوه . ولكن معايبه تتصل بنفس تلك الظروف التي جعلت نشره ممكنا . فكما قلت من قبل ، ماكنت لأدرى كيف اتناول المعطيات التي ينطوى عليها تاريخ علاج يمتد لعام كامل مثلا . فالتاريخ الذي أمامنا، والذى يمتد ثلاثة اشهر فحسب ، يمكن تذكره والاحاطة بـه في جملته ، ولكن نتائجه تظل قاصرة من أكثر من وجه . فالعلاج لم يتـم المضى به الى نهايته المرسومة ولكنه توقف بناء على رغبـة المريضة بعد أن بلغ نقطة بعينها . عند هذه النقطة ، لم تكن بعض مشكلات الحالة قد بلغهـا مجرد التناول ، ولم يكن بعضها الاخر قد حظى الا باستيضاح قاصر ، بينما لو كان العمل قد تواصل لكنا حصلنا ولا شك على أعظم استيضاح ممكن لكل واقعة جزئية في الحالة . وعليه فكل ما استطيع تقديمه في الصفحات التالية هو تحليل جزئى .

أن القراء الذين يألفون فنيات التحليل على النحو الذى عرضت عليه في كتاب « دراسات في الهستيريا » (١) ربما يدهشون كيف أنه لم يكن ممكنا في ثلاثة أشهر الوصول الى حـل مكتمل على الأقل لتلك الأعراض التى تم تناولها وسوف يعدو ذلك مفهوما عندمـا أوضـح كيف أنه منذ تاريخ صدور « دراسات في الهستيريا » تعرضت فنيات التحليل لثـورة جذرية ففى ذلك الوقت كان عمل التحليل يبـدأ من الاعراض ، ويستهدف القضـاء عليها الواحد بعـد الآخر . ولكنى تخليت عن تلك الطريقة منذ ذلك الحين ، لأننى وجدتها غير ملائمـة بالمرة لتناول البنية المرهفة للعصاب فانى الآن أترك للمريض أن يختار بنفسه موضوع عمل اليوم ، وبهذه الطريقة أبدأ من أى سطح يتفق

(١) Breuer und Freud. Studien Uber Hysterie, 4 op ed. Leirzig & Vienne, Deutleke 1895. Freud, Ges. Werke (Complete Works) Vol. I. Standard Edition Vol. II.

للاشعوره أن يتيحه لتنبهه آنذاك • ولكن بهذه الطريقة فان كل ما من شأنه أن يعين على القضاء على عرض بعينه يبرز على أجزاء ، تنتمى الى سياقات مختلفة ، وتتوزع على فترات زمنية جد متباعدة • وعلى الرغم من هذا العيب الظاهر ، فان الطريقة الجديدة تفضل القديمة بكثير ، وليس ثمة شك فى الواقع فى أنها الوحيدة الممكنة •

وازاء عدم اكتمال نتائجى التحليليه ، لم يكن أمامى الا أن أقتفى مثال أولئك المستكشفين الذين يكون من حسن طالعهم أن يخرجوا الى النور ، بعدما طال انطمارها ، هذه المتخلفات الأثرية التى لايمكن تقديرها بثمن • وأن تكن مبتورة • ولقد قمت بترميم ما كان مبتوراً ، مقتفيا أفضل النماذج التى التقيت بها فى تحليلات أخرى ، ولكننى كعالم آثار أمين لم يفتنى أن أبين فى كل حالة أين تنتهى الأجزاء الأصيلة وأين تبدأ انشاءاتى •

وثمة نوع آخر من عدم الاكتمال أقحمته بنفسى عن قصد ، فكقاعدة عامه لم أورد عملية التأويل التى كان يتحتم اجراؤها على تداعيات المريضة وأقوالها ، وانما أوردت فحسب نتائج عملية التأويل هذه • ففيما عدا الأحلام ، لم يتم ايراد فنيات العمل التحليلى الا فى مواضع جد قليلة • كان هدفى فى تاريخ الحالة هنا وهو الكشف عن البنية الخبيئة لاضطراب عصابى والعوامل المحددة لأعراضه • ولو أننى حاولت الاضطلاع بالمهمة الأخرى فى نفس الوقت لما كان من الممكن أن يتمخض ذلك عن شىء ، اللهم الاعماء لارجاء منه • فقبل أن يكون من الممكن أن نضع على نحو صحيح قواعد الفنيات ، وهى التى تم الوصول الى معظمها عن طريق الخبرة ، كان من الضرورى أن تجتمع معطيات من عدد كبير من تواريخ العلاجات • ومع ذلك فان الاقتضاب الناجم عن اغفال الفنيات لاينبغى المبالغة فى تصوره فى هذه الحالة خاصة • فجانب العمل التحليلى الاكثر صعوبة لم يتح له على وجه التحديد أن يبدأ مع هذه المريضة ، اذ أن عامل « الطرح » الذى تجرى مناقشته فى نهاية تاريخ الحالة لم ينجح فى أن يزدهر خلال هذا العلاج القصير •

اما عن النوع الثالث من عدم الاكتمال فى هذا التقرير ، فلا المريضه ولا المؤلف بمسئولين عنه • فمن البديهى ان تاريخ حياة واحد ، حتى لو كان مكتملا ولا ينفتح لأى شك ، لايستطيع ان يجيب على جميع الاسئلة التى تثيرها مشكلة الهستيريا ، فليس فى وسعه أن يقدم استبصارا بجميع أشكال هذا الاضطراب ، بجميع الاشكال التى تتخذها ابنية للعصاب ، بكل العلاقات الممكنة بين النفسى والبدنى التى يمكن أن نجدها فى الهستيريا • ليس من المعقول أن نتوقع من حالة واحدة أكثر مما يمكن أن تقدمه • وأى شخص لم يكن حتى الان متهيئا للاقتناع بأن التحليل النفسجنسى للهستيريا هو صحيح بصفة عامة وبلا استثناء، يندر أن يتهيأ للاقتناع بهذه الحقيقة حين يتزود بمعطيات تاريخ واحد • يجدر به أن يعلق حكمه حتى نتيح له ممارساته الخاصة الحق فى أن يقتنع (١) •

---

(١) (ملاحظة اضافية عام ١٩٢٣) ـ ان العلاج الوارد فى هذا المقال قد توقف فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٩ (الصحيح ١٩٠٠) وقد دونت تقريرى عنه فى الاسبوعين التاليين مباشرة ولكنه لم ينشر حتى عام ١٩٠٥ • وليس من المتوقع بعدما يزيد على عشرين عاما من العمل المتصل أن لا أجد فى ارائى عن هذه الحالة ، وفى عرضى لهاما تحتاج الى تعديل ، ولكن يكون من السخف الواضح أن أحاول،بالتصحيحات والاضافات • جعل تاريخ الحالة مسايرا لمعارفى « الحالية » • ومن ثم فقد تركته على حاله ، وفى كل أساسياته ، ولكنى فقط صححت فى النص أخطاء قليلة من السهو وعدم الدقة نبهنى اليها مترجماى الانجليزيان والممتازان ،مستر ومسز جيمس ستراشى • وفيما يتعلق بالملاحظات النقدية التى اعتقدت أن هناك مايبرر اضافتها فقد أوردتها فى ملاحظات اضافية بحيث يكون القارىء محقا فى أن يفترض بأنى مازال أتمسك بالآراء الواردة فى النص اللهم الا أن يجدماينقضها فى ملاحظات الهامش • أما مشكلة الكتمان الطبى التى ناقشتها فى هذا التصدير فلا محل لها فى تورايخ الحالات الباقية التى يشتمل عليها هذا الكتاب ، فثلاثة منها نشرت بموافقة صريحة من أصحابها (أو بالحرى ، فيما يتصل بهانز الصغير ، بموافقة من ابيه) ، بينما فى الحالة الرابعة (حالة شريبر) لم يكن موضوع التحليل شخصا بل كتابا كتبه المريض • وفى حالة دورا ظل السرطى الكتمان حتى هذا العام ، لقد انقطعت صلتى بها منذ أمد طويل ، =

= ولكن بلغنى منذ قليل أنها قد وقعت أخيرا فى المرض من جديد لاسباب أخرى وأنها أسرت الى طبيبها بأنها قد عولجت بالتحليل على يــدى وهى شابه . وهذا الافشاء من جانبها هو الذى أتاح لزميلى هذا أن يتعرف فيها على دورا ١٨٩٩ . وما من حكم عادل على العلاج التحليلى يجد موضعــا للملامة فى أن علاج الثلاثة أشهر الذى تابعته المريضة فى ذلك الحــين لــم يتمخض عن شيء أكثر من حل صراعها القائم ، دون أن يقتدر على أن يجعلها فى مأمن من الامراض اللاحقة .

اللوحـة الكلينيكية

فى كتابى « تفسير الأحلام » ، الذى نشر عام ١٩٠٠ • أوضحت أن الأحلام بصورة عامة تنفتح للتفسير ، وأن العمل التفسيرى متى اكتمل فان الأحلام يمكن أن تقام فى مكانها ، بشكل صحيح ومكتمل ، أفكار تجد مكانها الطبيعى فى سياق النسيج النفسى • واود فى الصفحات التالية أن أقدم مثالا للاستخدام العملى الوحيد الذى يسمح به فيما يبدو فن تفسير الأحلام • ولقد سبق لى أن ذكرت فى كتابى (١) كيف تأتى لى أن اتناول مشكلة الأحلام • فقد اعترضت المشكلة طريقى بينما كنت آحاول شفاء الأعصبة النفسية باستخدام طريقة خاصة فى العلاج النفسى • فعندما كان مرضاى ، ضمن الأحداث الأخرى من حياتهم النفسية ، يسردون أحلامهم ، وكانت هذه الأحلام توحى بأنها تتطلب الاندراج ضمن السلسلة الطويلة للتداعيات ، والتى تبرز فى نسيج يمتد مابين عرض مرضى وفكرة مولدة للمرض ، تعلمت عندئذ، أن اترجم لغة الحلم الى أسلوب التعبير العادى والمباشر لتفكيرنا • واستطيع أن أجزم بأن هذه المعرفة لاغنى عنها للمحلل النفسى ذلك أن الحلم هو واحد من الطرق التى يمكن أن تسلكها الى الشعور المواد النفسية ، هذه التى ، بسبب المعارضة التى يثيرها مضمونها ، منعت عن الشعور وكبتت ، ومن ثم أصبحت مولدة للمرض • وباختصار • فان الحلم هو واحد من المنعطفات التى يمكن بها تفادى الكبت ، أنه واحد من الوسائل الرئيسية التى تستخدم فيما يعرف بالأسلوب غير المباشر للمثول فى الذهن • والقطعة التالية من تاريخ علاج فتاة هستيرية تستهدف ايضاح الكيفية التى بها يلعب تفسير الأحلام دورا فى العمل التحليلى • كما أنها تتيح لى فى نفس الوقت فرصة أولى لأن أدعم ، فى تفصيلات تكفى للحيلولة دون مزيد من اساءة لفهم بعض آرائى عن العمليات النفسية فى الهستيريا ، وعن محدداتها

Die Traumdeu tung (rgoo) 1900

(١) الترجمة العربية : تفسير الاحلام ، دار المعارف بمصر ، الفصل الثانى •

العضوية . فاذا ماأفضت فى هذا الموضوع ، فما أحسبنى بحاجة الى الاعتذار عن ذلك ، اذ من المتفق عليه الان أن ماتلح الهستيريا فى تطلبه من الطبيب والباحث انما يمكن الوفاء به فحسب بروح البحث المتعاطفة الى أقصى حد ، وليس بروح التعالى والازدراء .

« لا العلم يكفى ولا الفن وحده
بل على الصبر أيضا أن يلعب دوره ! (١) »

فلو أنى بدأت بتقديم تاريخ حياة مكتمل ومتماسك ، لكان من شأنه أن يضع القارىء فى موقف جد مباين لموقف الطبيب الملاحظ . أن تقارير أقارب المريض — فى الحالة التى أمامنا تسلمت تقريرا من والد المريضة ذات الثمانى عشر عاما — عادة ماتقدم عن مسار المرض صورة شديدة البعد عن الوضوح . أننى أبدأ العلاج فى الواقع بأن أطلب الى المريض أن يقدم لى القصة الكاملة لحياته ومرضه ولكن حتى مع ذلك ، فان المعلومات التى اتلقاها لاتكون بحالة كافية لأن أتبين طريقى . فهذا السرد الأول أشبه مايكون بنهر تستحيل الملاحة فيه ، أحيانا ماتخنق مجراه الصخور ، وأحيانا مايتفرق ضائعا فى مستنقعات وجزر من الرمال . ولا يسعنى الا أن أعجب كيف يتيسر للمؤلفين تقديم تواريخ حياة بهذه الدرجة من الدقة والصقل فى حالات الهستيريا . ففى واقع الأمر ، يعجز المرضى عن أن يقدموا مثل هذه التقارير عن أنفسهم . انهم يستطيعون حقا تزويد الطبيب بالوفير من المعلومات المتناسقة عن هذه الفترة أو تلك من حياتهم ، ولكن من المؤكد أنه تعقب ذلك فترة أخرى تصبح فيهما ادلاءاتهم ضحلة ، تتخللها فجوات بغير ملء ، وألغاز بغير حل ، ثم تعقبها مع ذلك فترة

---

(١) Nicht Kunst und Wissenschaft allein
Geduld will bei dem werke sein !
Goethe, Faust, I, Hexenkueke.

(جوته ، فاوست ، الجزء الاول ، مطبخ الساحرة ، قارن الفكرة المشهورة « العبقرية صبر طويل » ، هامش الترجمة الفرنسية .

أخرى تظل غامضة تماما لاتضيؤها حتى ولا قطعة واحدة من معلومات يمكن الافادة منها • أن العلاقات — حتى الظاهرة — تكــون فى معظمها غير متماسكة ، وتتابعات الأحداث المختلفة تكــون غير مؤكدة • وحتى أثناء سردهم لقصة حياتهم ، لايفتأ المرضى يصححون واقعة جزئية أو تاريخا ، وربما يعودون ، بعد فترة من التردد ، الى توكيدهم الاول • أن عجز المرضى عن أن يقدموا بشكل مرتب تاريخ حياتهم ، من حيث أنه يمثل مرضهم ، لهو أمر لا يخص العصاب (١) • فهذا العجز ينطوى أيضا على دلالة نظرية هائلة • اذ آن هذا العجز يرتكز على الدعــامات التالية : ففى المقام الاول ، فان المرضى يحتجزون عن وعى وعن قصد جانبا مما ينبغى سرده — أشياء معروفة لديهم تمام المعرفة — لأنهــم لم يتغلبوا بعد على شعورهم بالحياء والخجل (أو شعورهم بالتكتــم حين يتعلق حديثهم بالآخرين) ، وذلك هو الدور الذى تلعبه المراوغة الشعورية • وفى المقام الثانى ، فان جانبا من معطيات ماضى المريض وتاريخ مرضه ، مما يجده المرضى فى متناولهم فى ظروف آخــرى ، يغيب عنهم حين يقومون بالفعل بسرد قصتهم ، ولكن دون أن يرجــع ذلك الى أية تحفظات مقصودة من جانبهم ، وذلك هو الدور الذى تلعبه المراوغة اللاشعورية • وفى المقام الثالث ، توجد دائما أمنيزيات

---

(١) بعث الى طبيب بشقيقته للعلاج النفسى ، وأخبرنى بانها تتابع منذ سنوات وبغير طائل ، علاجها كحالة هستيريا (آلام ومشية مضطربة): بدت الصورة المقتضبة التى أمدنى بها مسايرة تماما لهذا التشخيص • ولكنى طلبت الى المريضة فى الجلسة الاولى ان تسرد لى بنفسها تاريخ حياتها • فلما جاءت قصتها مكتملة فى وضوحها وتماسكها على الرغم من النوعيــة الخاصة للاحداث التى تنطوى عليها ، قلت لنفسى أن هذه الحالة لايمكن أن تكون هستيريا ، وقمت على الفور باجراء كشف طبى دقيق • وقد تمخض هذا الفحص عن التشخيص : خراع Tabes فى مرحلة متقدمة نوعا ، وقد جرى علاجها فيما بعد بحقن الزئبق H. Ginjections الـزيت الســنجانى huile grise على يد الاستاذ لانج • وحققت تحسنا ملحوظا •

(٢) أن الامنيزات والبراميتزيات ترتبط فيما بينهابعلاقة تتام فحيث تكبر الفجوات فى الذاكرة ، تقل الذكريات الكاذبة وبالعكس فان الذكريات الكاذبة هذه يمكن ، بالنسبة للنظرة الاولى ، أن تحجب وجود الامتيزات •

حقه ــ فجوات فى الذاكرة تغيب منها ليس فقط ذكريات قديمة ، بــــل حتى ذكريات جد حديثة ــ وبارامنيزيات ، هى خداعات ذاكرة أو ذكريات كاذبة ، تكونت بصفة ثانوية لتملأ تلك الفجوات (٢) • بـــــل أنه عندما تكون الأحداث ذاتها باقيــة فى الذاكــرة ، فــان الهــدف الذى تسعى اليه الأمنيزيات يمكن أن يتحقق بشــكل أكسيد ايضـــا متى أنمحت علاقة ، والعلاقة تنمحى بأقصى درجة من التأكد متى تغــير الترتيب الزمنى للأحداث • ومن ثم فان هذا الترتيب الزمنى يكــون دائما أكثر العناصر فى محتويات الذاكرة تعرضا للاصابة ، وأكثرها سهولة فى التعرض للكبت • ونحن نلتقى بكثرة من الذكريات هى فى المرحـــــلة الأولى من الكبت أن جــاز القـــول ، فهى ذكريات معبأة بالشكوك • وهذه الشكوك يمكن فى مرحلة لاحقة أن تخلى مكانهــا لنسيان أو لذكرى كاذبة (١) •

وثمة اعتبارات من طبيعـــة نظــرية تحملنا على أن نعتبر هذه الحالة التى عليها الذاكرة خاصية لازمة للأعراض الهستيرية • وفى مسار العلاج يدلى المريض بالوقائع ، التى ، وان تكن معروفة لديـــه طوال الوقت ، كان يحتجزها ، أو لم تخطر بباله • فالبارامنيزيات تنكشف استحالة التمسك بها ، وفجوات الذاكرة تمتلىء ولن يكون من الممكن الا قرب نهاية العلاج ، أن نجد أمامنا تاريخ حياة مكتمل ، يتتابع فى منطقية ، وينفتح للفهم • وبينما الهدف العملى للعلاج هو ازالة كل ما يمكن ازالته من أعراض ، واضعين فى مكانها أفــكارا شعورية ، فثمة هدف آخر ، الهدف النظرى ، وهو اصلاح كل ما لحق بذاكرة المريض من تلف • والهدفان متساوقان ، فعنـــــدما نبلغ الى الواحد نبلغ الى الآخر ، واليهما يؤدى طريق واحد بعينه •

وتلزمنا طبيعة الوقائع التى تشــكل مادة التحليــل النفسى أن

---

(١) حين يكشف مريض عن شكوكه اثناء سرده ، فقد علمتنا الخبرة قاعدة يتحتم بمقتضاها أن لانلقى بالا على الاطلاق لمثل هذه الاقوال التى يعبر بها عن حكمه • أما اذا تارجح فى سرده بين روايتين ، فينبغى ان نميل الى أن نعتبر روايته الاولى هى صحيحة ، وان نعتبر الثانية ناجمة عن الكبت •

نبذل ، فى تواريخ الحياة التى ندرسها ، من الاهتمام بالظروف الانسانية والاجتماعية الصرفة لمرضانا ، بقدر ما نبذل من اهتمام بالمعطيات البدنية وبالأعراض المرضية • وأكثر من أى شىء سوف يتجه اهتمامنا الى ظروفهم العائلية — وليس ذلك فقط ، كما سيتضح فيما بعد ، لمجرد تقصى وراثتهم •

أن مريضتنا — موضوع هذا المقال — ، وهى شابة فى الثامنة عشرة من عمرها ، تتألف عائلتها فضلا عنها من أبويها وأخ يكبرها بعام ونصف • كان أبوها هو الوجه المهيمن فى هذه العائلة ، ويرجع ذلك الى ذكائه وشخصيته ، بقدر ما يرجع الى ظروف حياته • وكانت تلك الظروف هى نفسها التى شكلت للمريضة اطار طفولتها ومرضها• وفى الوقت الذى بدأت فيه علاج الفتاة كان أبوها فى أواخر الأربعينات ، رجلا متدفق النشاط ، ينعم بمواهب غير عادية ، وكان من كبار رجال الصناعة ، ويعيش فى ظروف مادية ناعمة • كانت ابنته أشد ما تكون حنانا فى تعلقها به ، وبسبب ذلك فان قدراتها النقدية ، التى استيقظت مبكرة ، قد تأذت ، بنفس لدرجة من القوة والتبكير ، من جراء أفعاله وسماته الشخصية •

بل أن حبها لأبيها قد تزايد منذ عامها السادس بسبب الامراض الشديدة التى تعرض لها • ففى ذلك الوقت أصيب بمرض السل ، فانتقلت العائلة بسبب ذلك الى بلدة صغيرة تمتاز بطيب مناخها ، وتقع فى احدى مقاطعاتنا الجنوبية • وهناك تحسن سريعا مرضه الرئوى ، ولكن بالنظر الى الاحتياطات التى كانت ما تزال تعد ضرورية ، فقد استمر الأبوان والطفلان ، لعشر سنوات تالية ، يقيمون بصفة أساسية فى هذا المكان ، الذى سوف أسميه ب — : وعندما تحسنت صحة أبيها كان من عادته أن يرحل بين حين وآخر يتفقد مصانعه • وفى آخر فترة فى الصيف اعتادت العائلة أن ترحل الى منتجع صحى فى الجبل •

وحين كانت الفتاة فى العاشرة من عمرها تقريبا ، كان على أبيها أن يتابع دورة علاجية فى غرفة مظلمة بسبب انفصال شبكى • وقد تمخض هذا الحدث التعس عن قصور دائم فى بصره • ولكن أخطر

مرض عاناه وقع له بعد عامين تقريبا • كانت نوبة من الخلط العقلى ، أعقبتها أعراض شلل واضطرابات نفسية طفيفة •

ولقد اقنعه صديق له (يلعب دورا فى القصة سوف نعرض له فيما بعد) ، حين بدأت صحته بالكاد تتحسن ، أن يسافر الى فينا مع طبيبه ويحضر لى للاستشارة • ترددت بعض الوقت فيما ان كانت الحالة لا ينبغى اعتبارها شللا راجعا الى الخراع ، ولكننى أنتهيت آخر الأمر الى تشخيصها على أنها اصابة عامة فى الجهاز الوعائى ، وحيث أن المريض قد صرح بأنه بتعرضه قبل الزواج لعدوى متعينة (بالزهرى) فقد وصفت له دورة من العلاج الشديد الفاعلية ضد الزهرى ، كان من نتيجتها أن انحسرت جميع الاضطرابات التى كانت ما تزال باقية • وليس من شك فى أن هذا التدخل الموفق من جانبى هو الذى حدا به بعد أربعة أعوام أن يجىء الى بابنته ، التى كانت قد غدت ، خلال هذه الفترة ، عصابية بشكل أكيد ، وبعد عامين آخرين ، الى أن يسلمها الى العلاج النفسى •

وخلال هذه الفترة أيضا كنت قد تعرفت فى فينا بشقيقة له ، كانت تكبره بقليل • وكانت لديها شواهد تقطع بوجود شكل خطير من العصاب النفسى دون أية أعراض هستيرية مميزة • وبعد حياة أسقمها زواج تعس ، توفيت من هزال استفحل فى سرعة ، ظلت أعراضه فى الواقع غير مستجلاة تماما • وثمة شقيق أكبر لوالدة الفتاة ، تصادف لى أن التقيت به مرة ، كان أعزب ويعانى من الهيوكوندريا (توهم المرض) (١) •

---

(١) (لننتبه الى وجود عديد من الاقرباء الاخرين لدورا سوف يتتابع ذكرهم • فالمؤلف يتحدث مثلا فى ص ١٨ عن « عمها وبناته » الامر الذى يتضح منه وجود عم آخر لها غير هذا العم الاعزب • وفى ص ٨١ يأتى الحديث عن ابن عم شاب ثم عن ابن عم آخر ، وفى ص ٤٦ تبرز • ابنة خالة لها •• الخ وثمة صعوبة فى الاستنباط الدقيق للعمومة أو الخئولة فى بعض المواضع بالنظر الى التعبير عن القرابتين بكلمة واحدة فى اللغات الاوربية • المترجمون)

كانت الفتاة التى أصبحت ، كما أشرت ، مريضتى وهى فى الثامنة عشرة ، تتجه دائما بعواطفها الى أسرة ابيها ، ومنذ أصابها المرض اتخذت من عمتها السالفة الذكر مثلها الأعلى • ولم يكن أيضا ثمة شك فى أن الفتاة قد أخذت عن أسرة أبيها ليس فحسب مواهبها الطبيعية وتفتحها العقلى الباكر ، وانما اخذت عنها أيضا الاستعداد للمرض • لم أتعرف قط على أمها • ولكنى من أقوال الفتاة وأبيها تصورت أنها امرأة غير مثقفة ، وعلى الأخص عديمة الفطنة ، ركزت اهتماماتها فى الأعمال المنزلية ، وخاصة منذ مرض زوجها وما أدى اليه من تباعد بينهما • كانت فى الواقع تقدم لوحة لما يمكن أن نسميه « ذهان الزوجة ــ الخدامة » لم يكن بوسعها أن تتفهم آمال طفليها ، وكان شغلها الشاغل طوال اليوم هو تنظيف البيت ، آثاثاته وأدواته وأوانيه ، والابقاء على كل شىء نظيفا الى حد يكاد يستحيل معه استخدامه أو الاستمتاع به • وهذه الحالة التى غالبا ما نجد ملامح منها عند ربات البيوت العاديات ، تذكرنا ولا شك بأشكال الاغتسال العصابى القهرى ، وبصور أخرى من النظافة القهرية العصابية • ولكن ربات البيوت هؤلاء (وهذا يصدق على أم المريضة) ليس لديهن أى استبصار بمرضهن ، ومن ثم تغيب عندهن خاصية أساسية « للعصاب القهرى » • كانت العلاقة بين الفتاة وأمها يعوزها منذ سنوات الطابع الودى • كانت الفتاة لا تحفل بأمها ، وكان من عادتها أن تنهال عليها بالنقد فى غير رحمة ، وكانت بمنأى تماما عن تأثيرات أمها (١) •

---

(١) صحيح أننى لا أتبنى الرأى القائل بأن الوراثة هى العامل الوحيد المسبب للهستيريا ولكنى من ناحية أخرى ــ وأنى أقرر ذلك بالرجوع بصفة خاصة الى بعض كتاباتى السابقة « الوراثة والاسباب المولدة للاعصبة » ١٨٨٦ ، المقالات مجلد Collected Papers Vol. 1 التى حاربت فيها هذا الرأى ــ حريص على أن لايفهم من ذلك أننى اقلل من قيمة الوراثة فيما يتصل بالاسباب المولدة للهستيريا ، أو أننى أؤكد امكانية الاستغناء عنها وبالنسبة الى مريضتنا الحالية ، فان المعلومات التى قدمتها عن أبيها وشقيقه وشقيقته تشير الى وراثة لها ثقلها ، والواقع انه اذا كان لنا أن نعتقد بأن الشواهد المرضية من قبيل مانجده عند أمها ينبغى أن =

وخلال السنوات الباكرة ، كان أخوها الوحيد (أخوها الذى يكبرها بعام ونصف) هو المثل الأعلى الذى تتجه مطامحها الى التشبه به • ولكن العلاقات بين الأخ وأخته قد اخذت فى السنوات الأخيرة تتباعد أكثر فأكثر • كان من عادة الأخ الشاب أن يحاول ما وسعه الأمر أن يكون بمنأى عن المنازعات العائلية ، ولكنه عندما كان يجد نفسه مضطرا لأن يتخذ جانبا فى النزاع كان يقف بالحرى الى جانب أمه • وهكذا فان التجاذب الجنسى المألوف قد قرب من ناحية بين الأب والأبنة ، ومن ناحية أخرى بين الام والابن •

والمريضة ، التى سوف أشير اليها باسم دورا ، بدأت تظهر عندها ، منذ عامها الثامن ، أعراض عصابية • فقد اعتراها فى ذلك الوقت عسر تنفس مزمن ، مع نوبات بين حين وحين ، كان المرض أثناء يستفحل جدا • حدث الظهور الاول لهذا المرض عقب نزهة قصيرة فى الجبل ، ومن ثم كانت نسبته الى الانهاك الزائد • وخلال ستة أشهر ، كانت فيها ملزمة بالراحة وموضع عناية فائقة ، انحسر

= تنطوى أيضا على استعداد وراثى، فعندئذ يمكن النظر الى العوامل الوراثية عند المريضة على أنها متلافية • وفى تصورى ، فان هناك مع ذلك عاملا آخر أعظم دلالة بالنسبة للاستعداد الوراثى أو بتعبير ادق الاستعداد الجيلى عند هذه الفتاة : فقد ذكرت ان أباها أصيب بالزهرى قبل زواجه • وقد تبين لى أن نسبة مئوية عالية بشكل لافت من بين المرضى الذين عالجتهم بالتحليل النفسى ينحدرون من آباء سبق أن أصيبوا بالخراع أو ذهان الشلل العام، وسبب مايطبع طريقتى فى العلاج من جدة فانى لا أرى من الحالات الا أخطرها وهى التى ظلت تحت العلاج سنوات دون طائل • وبحسب نظرية ارب ـ فورنيه Erl - Fournier يمكن النظر الى الخراع أو الشلل العام عند الاباء الذكور أنه بمثابة دليل على أصابة باكرة بالزهرى والورم الذى انتهيت اليها من حيرتى كطبيب لامراض الجهاز العصبى ، الا وهى عدد من المقالات • وفى أحداث البحوث على نسل الاباء المصابين بالزهرى (المؤتمر الدولى الطبى الثالث عشر المنعقد فى باريس مابين ١ او ٩ اغسطس ١٩٠٠ : ابحاث فنجر وثارنوفكس وجوليان الخ ، لم اجد اشارة الى النتيجة التى انتهيت اليها من خبرتى كطبيب لامراض الجهاز العصبى ، الا وهى أن الزهرى عند الاب المذكور هو عامل جد فعال فى تشكيل الجبلة العصبية الباثولوجية للاطفال •

عنها المرض شيئا فشيئا • ويبدو أن طبيب العائلة لم يتردد لحظة واحدة فى تشخيص الاضطراب على أنه عصبى صرف ، وفى استبعاد أى سبب عضوى لعسر التنفس ، ولكن من الواضح أنه اعتبر هذا التشخيص مسايرا لاعتقاده بأن السبب المولد للمرض هو الانهاك الزائد (١) •

وقد أجتازت الفتاة لصغيرة الأمراض المعدية المألوفة للطفولة دون أن يخلف ذلك عندها أي ضر • وكما قالت لي بنفسها — وكانت كلماتها تستهدف الايحاء بمعنى أعمق — فان أخاها كان دائما يسبقها فى الاصابة بالمرض ، يعتريه عادة فى صورة جد هينة ، وبعدئذ كانت تتبعه الي المرض فى صورة خطيرة منه • وعندما بلغت الثانية عشرة تقريبا بدأت تعانى من صداع نصفى ومن نوبات سعال عصبى • فى البداية كان هذان المرضان يظهران دائما معا ، ولكنهما أصبحا بعد ذلك منفصلين ومضى كل فى مسار مختلف • فالصداع النصفى مضى أندر فأندر ، واختفى عندما بلغت السادسة عشرة • أما نوبات السعال العصبى ، التى كان يطلقها بغير شك زكام عادى فقد استمر حدوثها طوال الفترة كلها • وعندما حضرت الى العلاج ، وهى فى الثامنة عشرة ، كانت تجتاز نوبة وما تزال تسعل على نحو متميز • وهذه النوبات لم يكن من الممكن تحديد مداها ، فقد كانت تمتد من ثلاثة الى خمسة أسابيع ، بل لقد امتدت مرة بضعة أشهر • كان أكثر الأعراض ازعاجا فى النصف الأول من نوبة من هذا القبيل ، وذلك على الأقل فى السنوات القليلة الأخيرة ، ينحصر فى فقدان تام للصوت • كان التشخيص منذ وقت طويل هو : ان الأمر يتعلق هنا أيضا بحالة « عصبية » ، ولكن مختلف طرائق العلاج المألوفة ، بما فى ذلك المعالجة بالمياه والمعالجة الموضوعية بالكهرباء ، لم تتمخض عن أية نتيجة • فى مثل هذه الظروف استحالت الطفلة الى شابة ناضجة تتميز باستقلالية شديدة فى أحكامها وقد ألفت السخرية من جهود الأطباء ، وانتهت آخر الأمر ، الى رفض معونتهم ، كانت ترفض دائما

---

(١) وسوف نعرض فيما بعد السبب الذى أثار هذا المرض الاول •

الاستشارة الطبية ، وان لم يكن لديها أى شىء ضد شخص طبيب العائلة • كان كل اقتراح باستشارة طبيب جديد يستثير عندها المقاومة ، وكانت سلطة أبيها ليس غير ، هى التى جاءت بها الى•

رأيتها أول مرة فى بداية الصيف عندما كانت فى السادسة عشرة من عمرها • كانت تعانى من السعال ومن بحة فى الصوت ، وقد نصحت لها حتى فى ذلك الوقت بالعلاج النفسى • ولكن نصيحتى لم تقبل ، اذ أن النوبة كغيرها اختفت تلقائيا ، وان استمرت على غير العادة طويلا • وفى شتاء العام التالى قدمت الى فيينا وأقامت فيها مع عمها وبناته (١) ، وذلك بعد موت العمة التى كانت الفتاة جد مولعة بها • فى ذلك الحين أصيبت بحمى جرى تشخيصها : التهاب الزائدة الدودية (٢) • وفى الخريف التالى ، اذ كانت صحة أبيها تسمح بذلك رحلت الاسرة بصفة نهائية عن ب — موطن الاستشفاء • أقامت أولا فى البلدة التى بها مصنع الاب ، ولم يكد يمضى عام حتى انتقلت نهائيا الى فيينا •

فى ذلك الوقت كانت دورا قد بلغت زهرة الشباب ، فتاة تنطق ملامحها بالذكاء والجاذبية • ولكنها كانت مصدر نكد شديد لأبويها • كانت الاعراض الاساسية لحالتها هى الاكتئاب (العصابى) واضطراب الشخصية • كان واضحا أنها لم تكن راضية لا عن نفسها ولا عن عائلتها ، كان اتجاهها من أبيها غير ودى ، وكانت علاقتها شديدة السوء مع أمها ، التى تريد فى اصرار أن تستدرجها الى الاسهام فى أعمال المنزل • كانت تحاول تجنب العلاقات الاجتماعية ، وكانت تشغل نفسها — ما سمح لها التعب والعجز عن التركيز اللذان كانت تشكو منهما — بحضور محاضرات للنساء وبمتابعة دراسات جادة بدرجة أو اخرى • وذات يوم استولى الفزع على أبويها عندما عثرا فى مكتب الفتاة أو فوقه على خطاب تودعهما فيه لأنها —

---

(١) (فى الترجمة الفرنسية « وبنات عمومتها » اذ أن العم الوحيد الذى سبقت الاشارة اليه أعزب ، المترجمون) •

(٢) فيما يتصل بهذه النقطة ، انظر تحليل الحلم الثانى •

كما قالت — لم تعد تستطيع أن تحتمل حياتها (١) • والواقع أن اباها ، بفكره الثاقب ، أحس بأن الفتاة ليست لديها نية جادة للانتحار • ولكن الأمر مع ذلك قد هزه بشدة ، وذات يوم ، وعلى أثر مناقشة هينة بينه وبين ابنته ، اذ انتابها أول نوبة أغماء (٢) — واقعة حجبتها فيما بعد أمنيزيا — قرر الاب على الرغم من المعارضة التى أبدتها ، ضرورة حضورها الى العلاج •

وليس من شك أن تاريخ الحالة هذه على نحو ما أوجزته ، لايبدو فى جملته جديرا بالنشر • فهى ليست غير حالة « هستيريا صغرى » (Petite Hystérie) بأعراضها البدنية والنفسية الأكثر شيوعا • عسر التنفس ، والسعال العصبى ، وفقدان الصوت ، وربما الأصدعة النصفية مع الاكتئاب العصابى واللاجتماعية الهستيرية ، والتبرم بالحياة هذا الذى يحتمل أن لا يكون مكتمل الصدق • فثمة حالات من الهستيريا أكثر طرافة ولا شك قد سبق نشرها ، وكانت فى الأغلب أفضل فى عرضها ، اذ لن نلتقى فى الصفحات التالية بشىء عن مياسم (٣) الحساسية الجلدية ، أو عن انكماش الحقل البصرى ، أو ما شابه ذلك • ومع ذلك فقد أجترىء على القول بأن تلك المجموعات كلها من الظواهر غير المألوفة والعجيبة للهستيريا لم تتقدم الا قليلا بمعارفنا عن مرض ما يزال كما كان دوما

---

(١) كما سبق ان اوضحت ، فان علاج الحالة ، وبالتالى فان استبصارى بالاحداث العديدة المتشابكة • قدبقى جزئيا ومن ثم فهناك كثرة من الاسئلة التى لا استطيع أن أقدم لها جوابا ، أو التى لااستطيع ان أعول فيها الا على تلميحات وفروض • وقد وردت مسألة الخطاب هذه خلال احدى جلساتنا ، وأبدت الفتاة علامات الدهشه • تساءلت • « كيف بالله عثر على هذا الخطاب ؟ لقد اغلقت عليه داخل مسكنى • » ولكن حيث انها كانت تعلم ان ابويها قرآ مسودة خطاب الوداع ، فانى استنتج انها كانت قد رتبت الامر بحيث يقع فى أيديهما •

(٢) كانت النوبة فيما أعتقد مصحوبة بتشنجات وهذيانات • ولكن نظرا لان التحليل لم يبلغ الى هذه الواقعة هى الاخرى ، فليس بين يدى فى هذا الموضوع ذكريات اكيدة يمكن التعويل عليها •

(٣) Stigmata

لغزا هائلا • فما نحتاج اليه هو على التحديد ايضاح للحالات الأكثر شيوعا ، ولاعراضها الاكثر تواترا ونمطية • وكنت اكون جد مغتبط لو ان الظروف أتاحت لى آن أقدم ايضاحا مكتملا لهذه الحالة من « الهستيريا الصغرى » ، وخبرتى مع المرضى الآخرين لاتجعلنى أشك بحال فى أن طريقتى التحليلية كانت ستمكننى من ذلك •

وفى عام ١٨٩٦ ، وبعد قليل من ظهور كتابى « دراسات فى الهستيريا » (وهو الذى كتبته بالاشتراك مع الدكتور ج • بروير) ، سألت شخصية مبرزة من الزملاء الاخصائيين عن رايه فى النظرة السيكولوجية فى الهستيريا ، والتى جاءت فى ذلك الكتاب • آجابنى بصراحة أنه يعتبرها تعميما غير شرعى لنتائج قد تصدق على عدد قليل من الحالات • ومنذ ذلك الوقت رأيت كثرة من حالات الهستيريا ، وقضيت مع كل حالة أياما من العمل أو أسابيع أو أشهر أو سنوات فما من حالة واحدة لم أعثر فيها على المخدرات السيكولوجية المبينة فى « دراسات فى الهستيريا » ، ألا وهى صدمة نفسية وصراع وجدانى ، وعامل آخر — كشفت عنه فى مؤلفات لاحقة — هو اضطراب فى مجال الجنسية • ومن الطبيعى أن لا نتوقع من المريض أن يسعى الى الطبيب ، يلتقى به فى منتصف الطريق ، ليقدم اليه مادة غدت — بسبب جهادها نفسه لأن تبقى خبيئه — مولدة للمرض ، كما لا ينبغى على الباحث أن يقتنع بأول « لا » تعترض طريقه (١) •

---

(١) مثال على ذلك : زميل طبيب فى فيينا ، ربما كان اقتناعه بعدم أهمية العوامل الجنسية فى الهستيريا قد تدعم الى حد بعيد بخبرات من هذا القبيل ، عرضت عليه حالة صبية فى الرابعة عشرة كانت تعانى من قىء هستيرى خطير • عقد عزمه على أن يلقى اليها بهذه السؤال الاليم عما أن كانت قد سنحت لها على الاطلاق علاقة عاطفية مع رجل أجابت الصبية « لا ! » فى تصنع للدهشة ولاشك ، ثم قالت بعد ذلك لامها بطريقتها غير المهذبة : « تصورى ! » أن هذا العجوز الغبى سألنى ما أن كنت عاشقة :، وحضرت الى فيما بعد للعلاج • وقد تبين ولم يكن ذلك بالتاكيد فى الجلسة الاولى — أنها كانت خلال سنوات عديدة تستمنى ، وكان استمناؤها مصحوبا بلوكوريات (افرازات بيضاء) غزيزة (وهى وثيقة الصلة بالقىء=

فى حالة دورا ، — وبفضل ما كان لأبيها من فكر ثاقب أشرت اليه أكثر من مرة — لم أكن بحاجة الى أن أفتش عن مواطن الارتباط بين أحداث حياتها ومرضها ، على الأقل فى أحدث صورة له . قال لى أبوها أنه أثناء اقامته ببلدة ب — ربطته هو وعائلته صداقة حميمة مع زوجين كانت اقامتها هناك قد امتدت سنوات عديدة . كانت مدام ك — قد قامت بتمريضه الطويل ، واستحقت بذلك ، على حد قوله ، عرفانه الأبدى . أما السيد ك — فقد كان دائما أعظم ما يكون رعاية لدورا . كان يخرج فى نزهات معها عندما يكون بالبلدة وكان يقدم لها هدايا صغيرة ، وما كان لأحد أن يجد فى ذلك أى ضرر . وكانت دورا تعنى أعظم عناية بطفلى عائلة ك — ، فكانت تقريبا أما لهما . وعندما حضرت دورا مع أبيها لرؤيتى قبل ذلك بعامين أثناء الصيف ، كانا فى طريقهما للحاق بالسيد ك — وقرينته الذين كانا يقضيان الصيف على شواطىء احدى بحيراتنا فى الألب . كان على دورا أن تقضى بضعة أسابيع مع عائلة ك — بينما كان أبوها ينتوى أن يرحل عنهم بضعة أيام وخلال تلك الفترة كان السيد ك — يقيم هناك أيضا . وعندما بدأ أبوها يتهيأ للرحيل أعلنت الفتاة فجأة ، وفى اصرار شديد ، أنها سترحل معه ، ونفذت فى الواقع ما أصرت عليه . وعلى هذا التصرف الغريب من جانبها ، لم تلق دورا أى ضوء قبل مضى بضعة أيام . عندئذ قالت لأمها — وكانت تقصد أن يبلغ ما تقوله الى أبيها — أن السيد ك — قد اجترأ على أن يطارحها حبه وهما يسيران بعد نزهة على البحيرة . وفى اللقاء التالى طلب الأب والعم من السيد ك — أن يقدم ايضاحا عن الأمر ، ولكنه أنكر فى أشد الكلمات حسما أن يكون قد صدر عنه أى شىء يمكن أن يفهم على هذا النحو . ثم بدأ يلقى ظلال الشك على الفتاة ،

= عندما) ثم تخلصت أخيرا من تلك العادة ، ولكنها ظلت تتعذب ، فى امتناعها ، بأقصى احساس بالاثم ، الى حد أنها كانت تعتبر كل النكبات التى تحيق بعائلتها عقوبة سماوية على انتهاكاتها السابقة ، هذا الى أنها قد انفعلت بقصة خالة لها غير متزوجة كان حملها (وهو عامل ثان للقىء عندها) قد أخفى عنها أمره بنجاح فيما يظن . كانوا يتوهمون الفتاة « مجرد طفلة » ولكن اتضح أنها خبرت كل أساسيات العلاقة الجنسية

قائلا بأنه كان قد سمع من مدام ك — بأنها لم تكن تهتم بشيء الا بالمسائل الجنسية بل أنه كان من عادتها ، وهي في بيتهم على شاطيء البحيرة ، أن تقرأ كتاب مانتيجازا Manteggazze « فسيولوجية الحب » ، وكتبا أخرى من هذا القبيل . وأضاف قائلا بأن الفتاة في أغلب الظن قد أثارتها هذه القراءات الى أبعد حد فتخيلت — ليس الا — كل المشهد الذي وصفته .

ومضى الأب في حديثه قائلا : « ليس لدى شك في أن هذه الحادثة هي السبب في اكتئاب دورا وانفعالها وأفكارها الانتحارية . لقد مضت تلح علي بأن أقطع صلتي بالسيد ك — وعلى الأخص بمدام ك — التي كانت من قبل تجلها بشكل ايجابي . ولكن ذلك مالا أستطيعه . أولا ، لأنني أنا نفسي أعتقد أن حكاية دورا عن التصرفات اللا أخلاقية للرجل هي مجرد أخيولة استولت على عقلها ، وثانيا ، فانني تربطني بمدام ك صداقة نبيلة ولست أحب أن أؤذي مشاعرها . فهذه المرأة المسكينة هي أتعس ماتكون مع زوجها ، هذا الذي فكرتي عنه ليست جد عالية . فقد عانت هي نفسها كثيرا من أعصابها وأنني سندها الوحيد ولست في حاجة — بالنظر الى حالتي الصحية — أن أؤكد لك ما من شيء غير مشروع يشوب علاقتنا . اننا لسنا غير كائنين تعيسين يتعزيان ماوسعهما الامر اذ يتبادلان التعاطف الودود . فأنت على علم من قبل بأن زوجتي لاتمثل شيئا بالنسبة لي . ولكن دورا التي ورثت عنادي يستحيل زحزحتها عن كراهيتها لعائلة ك — ، فقد اعترتها النوبة الأخيرة على أثر حديث ألحت على فيه من جديد أن أقطع صلتي بهم . أرجوك أن تحاول ، وأن تردها الى الصواب » .

لم تكن أحاديث أبيها تتفق تماما على الدوام مع هذه الكلمات ، ففي مناسبات أخرى كان يحاول أن يلقي بمسئولية سلوك دورا الذي لايطلق على أمها ، التي كانت غرائبها تجعل الحياة في البيت مستحيلة على الجميع . ولكنني قررت منذ البداية أن لا أصدر حكما على حقيقة الأمر حتى أستمع الى الطرف الآخر أيضا .

أن التجربة مع السيد ك — مغازلته لها وما ينطوي عليه ذلك من جرح لشرفها — تشكل على مايبدو الصدمة النفسية في حالة دورا ،

هذه الصدمة التي سبق لبرويرولي أن اعلنا منذ وقت طويل أنها للشرط الضروري السابق لحدوث اضطراب هستيري • ولكن هذه الحالة الجديدة تنطوي أيضا على كل الصعوبات التي حملتني منذ ذلك الوقت على أن اتخطى هذه النظرية (١) ، هذا الى صعوبة اضافية من طبيعة خاصة • ذلك أن الصدمة التي تبدو لنا في حياة دورا ، كما يحدث غالبا في تواريخ الحالات الهستيرية ، تقصر عن تفسير أو تحديد الطابع المميز للاعراض ، ففهمنا للامر كله ما كان ليزيد أو ينقص لو أن الصدمة قد تمخضت عن أعراض أخرى تماما غير السعال العصبي، وفقدان الصوت والاكتئاب ، والتبرم بالحياة • وينبغي أن نضيف هنا أيضا أن جانبا من الأعراض — السعال وفقدان الصوت — كان قد سبق ظهوره عند المريض قبل الصدمة بسنوات ، وأن ظهوره الأول ينتسب الى طفولتها ، من حيث أنه ظهر في عامها الثامن • وعليه فاذا كان علينا أن لا نتخلى عن نظرية الصدمة ، من المحتم أن نرجع الى الوراء ، الى طفولتها ، مفتشين فيها عن أية تأثيرات أو انطباعات كان من الممكن أن يكون لها أثر شبيه بأثر الصدمة • ومما هو جدير أيضا بالملاحظة أنني حتى في دراستي للحالات التي لم يسبق فيها أن ظهرت الاعراض الاولى • ابان الطفولة ، وجدتني منساقا الى أن أرجع الى الوراء ، الى السنوات الاولى من تاريخ حياة المرضى (٢) •

فعندما تم التغلب على الصعوبات الأولى في العلاج ، روت لي

(١) انى تخطيت تلك النظرية ، ولكنى لم أتخل عنها ، بمعنى أننى اليوم لاأعتبر تلك النظرية خاطئة بل غير مكتملة • فانني لم أعد الح بالاهمية على « حالة شبه النوم المغناطيسي » المزعومة ، والتي كان يعتقد بأنها تظهر عند المريض أثر الصدمة ، وكان يعتقد انها المسئولة عن كل مايلي من ظواهر سيكولوجية شاذة • واذا كان من الجائز في عمل مشترك تحديد الانصبة فيما بعد ، فاني انتهز هذه الفرصة لاقرر أن الغرض الخاص « مجاله شبه النوم المغناطيسي » — وهو الذي يميل كثير من النقاد الى اعتباره محور كتابنا — كان بكليته نتاج مبادرة من بروير فاني من جانبي أعتبر أن استخدام هذا المصطلح لالزوم له وأنه مضلل لانه يقطع تواصل المشكلة ، التي تنحصر في تبين العمليات السيكولوجية الخاصة بتكوين الاعراض الهستيرية •

(٢) CF: The Aetiology of Hysteria (1896), Collected Papers, Vol.I, S.E. Vol III P. 191

دورا حدثا أبكر مع السيد ك ـ هو الاجدر من الحــدث الاخر بــأن يفعل فعل الصدمه • كانت اذ ذلك فى عامها الرابع عشر •

وكان السيد ك ـ قد رتب معها ومع زوجته ان تحضرا اليه عصــر يوم فى محل عمله بالميدان الرئيسى ببلده ب ـ لمشاهدة موكب دينى ولكنه اقنع زوجته بالبقاء فى البيت ، وصرف مساعديه ، بحيث كــان بمفرده عندما وصلت الفتاة • وعندما اقترب موعد الموكب ، طلب الى الفتــاة أن تنتظــره عنــد بــابه الســلم المؤدى الى الطابق العلوى ، ريثما يغلق الباب الخارجى لمحله • ثم عــاد اليها ، وبدلا من يخــرج معها من الباب المفتوح ، ضم الفتاة فجاة اليه وقبلها على شفتيهــا • كان ذلك بالتاكيد وعلى التحديد موقفا من شأنه أن يثــير شــعورا متميزا من الهياج الجنسى عند فتاة فى الرابعة عشرة لم يسبق قط أن اقترب منها رجل • ولكن دورا اعتراها فى تلك اللحظة شعــور جارف بالاشمئزاز ، فانتزعت نفسها بشدة متملصة من الرجــل ، وتجاوزته مهرولة الى بئر السلم ومنه الى باب الشــــارع • ولكنها مــع ذلك استمرت تلتقى بالسيد ك ـ ولم يشر أحدهما قط الى هــذا المشــهد الصغير ، وعلى حد قولها فقد احتفظت بالأمر سرا حتى اعترفت بــه أثناء العلاج • ولكنها على أية حال ظلت بعــد ذلك فترة من الزمن تتجنب البقاء منفردة مع السيد ك ـ • وكان السيد ك ـ وقرينتــه قد رتبا قبيل ذلك مشروع رحلة لبضعة أيام ، وكان من المتفق عليه أن ترافقهما دورا • ولكنها ، بعد حادث القبلة ، رفضت الاشــتراك فى الرحلة ، دون أن تبدى أى سبب لذلك •

فى هــذا المشــهد ـ وهــو الثــانى فى ترتيب السرد والاول فى الترتيب الزمنى ـ كان سلوك هذه الصبية ذات الأربعــة عشر عاما يعد بالفعل هستيريا تماما • فأنى دون أدنى تردد ، أعتبر هستيريا كل شخص تولد عنده فرصة الاثارة الجنسية الاشمئزاز (١) ليس غير ،

---

(١) (فى الاصل الالمانى وفى الترجمة الانجليزية حرفيا « مشاعر غير سارة » ـ المترجمون) •

أو على وجه الخصوص ، وذلك سيان ظهرت لديه أو لم تظهر أعراض بدنية • أن استجلاء ميكانيزم انقلاب الوجدان هذا لهو مشكلة من أهم المشكلات وهـو فى نفس الوقت من أعسرها فى سيكولوجيـة الأعصبة • وفى اعتقادى أننى مازلت بعيدا عن بلوغ هذه الغـاية ، وأضيف بأننى ، ضمن الحدود الضيقة لهذا المقال ، لن يكون بوسعى الا أن أقدم جانبا من معارفى التى ماتزال قاصرة •

ولتخصيص حـالة دورا لا يكفى أن نقتصر على مجـرد ابراز انقلاب الوجـدان فينبغى أن نضـيف أنه يوجد أيضـا « نقـل » للاحساس • فبدلا من الاحساس الانسانى الذى كان من المؤكـد أن تستشعره فى هذه الظروف (١) فتاة سوية ، اجتاح دورا ذلك الشعور الكدر الخاص بالغشاء المخاطى عند مدخل القنـاة الهضمية : ونعنى الاشمئزاز • وليس من شك فى أن اثارة شفتيها بقفل القبلة كانت لها أهميتها فى تحـديد موضع الشـعور فى هذا المـكان بالذات ، ولكنى أستطيع فيما اعتقد أن أتبين أيضا عاملا آخر يعد عمله (٢) •

فالاشمئزاز الذى استشعرته دورا فى هذه المناسبة ، لم يتحـول الى عرض دائم ، وحتى فى وقت العـلاج لم يكن له من وجـود الا بالقوة ، ان جاز القول • كانت مقلة فى طعامها ، واعترفت بأن لديها بعض النفور من الطعام • ولكن ذلك المشهد ، من ناحية أخرى ، قـد خلف وراءه أثرا ثانيا فى صورة هلوسة حسية تعاود الظهور بين حين وحين ، بل لقد ظهرت وهى تسرد على حكايتها • فقد صرحت بأنهـا تستشعر « الآن » أيضا على الجـزء العلوى من بدنها ضـغط ذلك العنـاق • وبمراعاتى بعض ما سبق لى كشـفه من قوانين تـكوين

(١) سوف يتضح حكمنا على هذه الظروف عندما نلقى عليها مزيدا من الضوء •

(٢) لم يكن اشمئزاز دورا بفعل القبلة بالتأكيد راجعا الى أسباب عارضة ، والا لما عجزت عن ان تذكرها وتسردها • فقد تصادف لى أن تعرفت على السيد ك — اذ كان هو الشخص الذى حضر مع أبيها لزيارتى ، وكا رجلا مايزال فى شبابه خلاب المظهر •

لأعراض ، وفى نفس الوقت بعقدى الصلة مع بعض الغرائب الأخرى للمريضه ، والتى كان يستحيل بغير ذلك تفسيرها — من قبيل عــدم رغبتها فى أن تمر بجوار رجل نراه منهمكا مع سيدة فى حديث فيــه لهفة أو عاطفية — ، تمكنت من أن أعيد فى ذهنى بناء المشــهد على النحو التالى • أعتقد أنها ، وهى بين أحضان الرجل المتلهفة ، قــد أحست ، ليس فقط على شفتيها بقبلته ، بل أيضا على بدنهــا بضغط عضوه المنتصب • كان هذا الاحساس صادما لها ، فانطرد من ذاكرتها وانكبت ، وحل محله هذا الاحساس البرىء بضغط على صدرها ، وهو احساس يدين بشدته المسرفة الى كبت الحفزة الأصلية • ومرة أخرى من جديد نجد « نقلا » من الجزء السفلى للبدن الى جزئه العلوى (١)• ومن ناحية أخرى فان ما سبق أن ذكرت من قدر من السلوك القهرى لديها يبدو وكأنه يصدر عن ذكرى المشهد فى غير تحريف • فهى لم تكن ترغب فى أن تمر بجوار أى رجل تعتقد أنه فى حالة هياج جنسى ، لأنها لم تكن ترغب فى أن تشـ د مرة ثانية العلامة البدنية لهذا الهياج •

ومما تجدر ملاحظته أننا هنا أمام ثلاثة أعراض — الاشمئزاز ، والاحساس بالضغط على الجزء العلوى من البدن ، وتجنب الرجــال المنهمكين فى حديث عاطفى — وكلها ترجع الى تجربة واحدة بعينها ، وأننا ان لم نضع فى اعتبارنا العلاقة المتبادلة بين هذه الظواهر الثلاث فلن نســتطيع أن نفهم الكيفيــة التى بهــا يتم تــكون الأعراض • فالاشمئزاز هو العرض المناظر لكبت المنطقة الشبقية الفمية ، هــذه المص من أجل اللذة وضغط التقضيب المنتصب يحتمل أن يكون قد أدى الى تغير مماثل فى العضو الأنثوى المناظر ، البظر ، واثارة هذه المنطقة

(١) ان النقل من هذا القبيل ليس فرضا أقمناه خصيصا لتفسير هذه الواقعة وحدها ، فهذا الفرض قد تأكد لى لاغنى عنه لتفسير فئة فسيحة من الاعراض . فمنذ علاجى لدورا التقيت بمثال آخر لعناق (بغير قبلة في هذه المرة) تسبب عنه رعب . كانت حالة سيدة شابة ولهة بخطيبها ، ولكنها فجأة بدأت تشعر تجاهه ببرود مصحوب باكتئاب شديد ، وعندئذ حضرت الى للعلاج . ولم تكن هناك صعوبة في ارجاع هذا الرعب الى انتصاب من جانب الخطيب احست به ولكنها طردته من شعورها .

الشبقية الثانية ، قد احيلت — عن طريق عملية نقل — الى الضغط المصاحب على الصدر ، حيث تثبتت هناك • وتجنبها للرجال الذين يحتمل أن يكونوا فى حالة هياج جنسى يتبع ميكانيزم رهاب (فوبيا) ، فهدفه حمايتها ضد أى بعث جديد للادراك المكبوت •

وكيما أتأكد من صحة هذه الاستنتاجات ، سألت المريضة فى حيطة شديدة ما ان كانت لديها فكرة عن العلامات البدنية للهياج فى جسم الرجل • كان جوابها : عن الوقت الحاضر « نعم » ، وعن وقت الحادث « لا أعتقد » • وقد اتخذت مع هذه المريضة منذ البداية أقصى الحيطة حتى لا أقدم لها أية معلومات جديدة فى مجال الحياة الجنسية ، وقد فعلت ذلك ، لا بدافع من تزمت الضمير ، بل لأننى كنت شديد الرغبة فى هذه الحالة فى أن أخضع فروضى للضبط الصارم • ومن هنا ، فأنى لم أقم بتسمية شىء باسمه ، الا بعد أن تصبح اشارتها اليه من الوضوح بحيث لم تكن هناك مخاطرة تذكر فى ترجمتها الى الاسم الصريح • كانت دائما تجيب فى التو ، وفى صراحة ، أنها تعرف ذلك من قبل • ولكن من أين جاءتها هذه المعرفة ؟ ذلك لغز لم تستطع ذكرياتها حله • فقد نسيت مصادر كل معلوماتها عن هذا الموضوع (١) •

واذا كان لى أن أفترض أن مشهد القبلة قد جرى على هذا النحو، فبوسعى أن أبلغ الى التفسير التالى لنشأة مشاعر الاشمئزاز (٢) • هذه المشاعر يبدو أنها فى الأصل استجابة لرائحة البراز (وفيما بعد أيضا لمشهد البراز) • ولكن أعضاء التناسل يمكن أن تذكر بالوظائف الاخراجية ، وهذا يصدق بصفة خاصة على عضو التناسل الذكرى ، لأن هذا العضو يضطلع بوظيفة التبول ، كما يضطلع أيضا بالوظيفة الجنسية • والواقع هو أن وظيفة التبول هى أبكر الوظيفتين الى

---

(١) قارن الحلم الثانى •

(٢) هنا ، كما هو الشأن فى الحالات المشابهة ، ينبغى أن يكون القارىء مهيأ لان يلتقى لابسبب واحد ، بل بعدة أسباب — بالتحتيم باكثر من سبب .

معارفنا ، بل هى الوحيدة فى معرفتنا طوال الفترة قبل الجنسية [1] . بهذه الطريقة تصبح مشاعر الاشمئزاز وسيلة من وسائل التعبير الوجدانى فى مجال الحياة الجنسية . وعبارة أحد آباء الكنيسة inter urinas et faeces nascimur (مابين البول والبراز نولد) تنصب على الحياة الجنسية ولايمكن فصلها عنها ، على الرغم من كل المحاولات لاسباغ المثالية . ومع ذلك فانى أود أن أؤكد فى صراحة اعتقادى بأن المشكلة لاتنحل بمجرد العثور على هذا الممر للتداعى . فكون هذا التداعى يمكن ابتعاثه لايدل على أنه بالفعل سوف يتم ابتعاثه . والواقع أنه فى الظروف السوية لن يتم ابتعاثه . ومعرفة ممرات التداعى لاتقلل من ضرورة معرفة القوى التى تجتازها [2] .

ومهما يكن من أمر ، فلم يكن يسيرا على أن أوجه أنتباه مريضتى الى علاقاتها بالسيدك — فقد صرحت بأنها قد انتهت منه . فالطبقة العليا لكل تداعياتها أثناء الجلسات ، وكل ما كان يصبح عندها فى يسر شعوريا ، وما تتذكر أنها كانت تعيشه فى اليوم السابق ، كله كان يرتبط دائما بأبيها . لقد كان من الصحيح تماما أنها لم تكن تستطيع أن تغفر لأبيها استمرار علاقاته بالسيد ك — ، وعلى الأخص بمدام ك — . كانت تنظر الى هذه العلاقات فى ضوء يباين تماما هذا الذى كان الأب يرغب فى أن تبدو فيه . فلم يكن ثمة شك فى تصورها فى أن الذى يربط أباها بهذه السيدة الشابة والجميلة هو علاقة غرامية مبتذلة . وما من شىء يمكن أن يؤيد هذه النظرة استطاع أن يفلت من ادراكها ، هذا

---

(١) (المقصود هنا قبل التناسلية Pregenita ، اذ تبدأ الجنسية بمعناها التام مع بداية حياة الطفل — المترجمون) .

(٢) كل هذه المناقشات تشتمل على كثير مما هو نمطى ويصدق على الهستيريا بعامة . فموضوع الانتصاب يقدم الحل لبعض من أكثر الاعراض الهستيرية طرافة . . والانتباه الذى توليه النساء لمعالم الاعضاء التناسلية للرجال ، على نحو ماترتسم من وراء ملابسهم ، يصبح متى انكبت أصلا للحالات جد الشائعة من تجنب الصحبة والارتعاب من الاجتماعات . والرباط النسيجى الذى يضم الجنسى والاخراجى يكاد يكون من المستحيل أن نغالى فيما له من أهمية في توليد المرض ، فهو رباط يوجد في أساسه عدد هائل من الفوبيات الهستيرية .

الذى كان فى هذا الصدد ثاقب لايرحم ، فها هنا لم تكن ثمة فجوات فى ذاكرتها . كانت عائلتهـا قد تعرفت على عائلة ك — قبـل المرض الخطير لابيها ، ولكن العلاقة لم تصبح حميمه الا بعد أن اضطلعت السيدة الشابة رسميا أثناء ذلك المرض بوظيفة الممرضة ، بينما بقيت أم دورا بعيدة عن حجرة المريض . وفى أول اجازة صيف بعد شفائه حدثت أشياء من شأنها أن تفتح عين كل انسان على الطابع الحقيقى لهذه « الصداقة » . فقد استأجرت العائلتان جناحا مشتركا فى فندق . وذات يوم أعلنت مدام ك — أنها لا تستطيع الاستمرار فى غرفة النوم التى كان أحد طفليها حتى ذلك الوقت يشاركها اياها . وبعد أيام قليلة تخلى أبو دورا عن غرفة نومه ، وانتقل الاثنـــان الى غرفتين آخريين تقعان فى أقصى الداخل ولا يفصلهما غير ممر ، بينما لم يكن يتـوفر للغرفتين اللتين تخليا عنهما مثل هذا الضمان ضد الازعاج . وفيما بعد عندما كانت دورا تنتقد أباها بخصوص مدام ك — كان من عادته أن يردد أن ليس فى وسعه أن يفهم عدائيتها ، وأنها وأخاها على العكس لديهما كل سبب للاحساس بمشاعر الامتنان لمدام ك — . وعنـــدما طلبت من أمها ايضاحا لما تعنيه هذه الاشـــارة الغامضة من أبيهـا ، أجابتها بأن أباها كان من التعاسة فى ذلك الوقت الى حد أنه صمم على أن يمضى الى الغابة ويقتل نفسه ، ولكن مدام ك ، وقد ساورها القلق، لحقت به ، فيما يقال ، وأقنعته بتوسلاتها بأن يبقى على حياته من أجل أسرته . وبطبيعة الحال لم تصدق دورا هذه القصة ، فلم يكن لديها شك فى أن البعض قد رآهما معا فى الغابة ، وعندئذ ابتدع أبوها من خياله قصة الانتحار هذه ليبرر لقاءهما (١) .

وعندما عادت الأسرة الى بلدة ب — كان الأب يزور مدام ك — كل يوم فى ساعة معينة أثناء وجود زوجهـــا فى عمله . كان الجميـــع يتحدثون عن ذلك ، وكانوا يسألون دورا عن الأمر بطريقة لها مغزاها .

---

(١) ترتبط هذه النقطة بتمثيليتها الخاصة بالانتحار ، والتى يمكن اعتبارها تعبيرا عن صبابة الى حب من نفس هذا النوع .

والسيد ك — نفسه كثيرا ما شكا بمرارة الى أمها ، وان حرص على أن يجنب دورا أية أشارة الى هذا الأمر — وذلك فى رأيها بدافع من رقة مشاعره • وعندما كانوا يخرجون جميعا فى نزهة ، كان أبوها ومدام ك — يعرفان دائما كيف يرتبان الأمر بحيث ينفردان معا • لم يكن هناك أى شك فى أنها كانت تتلقى منه نقودا ، لأنها كانت تنفق أكثر مما كان يمكن أن تتيحه امكانياتها أو امكانيات زوجها • وأضافت دورا أن أباها بدأ فى تقديم هدايا ثمينة الى مدام ك — ، وأنه تغطية لهذا الأمر بدأ فى الوقت نفسه يصبح شديد الكرم مع زوجته ومع دورا نفسها • وبينما كانت مدام ك — فيما مضى عليلة الى حد أنها اضطرت الى أن تقضى شهورا فى احدى المصحات بسبب اضطرابات عصبية أعجزتها عن المشى ، فقد غدت الآن موفورة الصحة تفيض بالحيوية •

وحتى بعد أن رحلت الأسرة عن بلدة ب — الى بلدة المصنع ، فان هذه العلاقة ، التى كان لها من العمر سنوات ، قد استمرت • كان من عادة أبيها ، بين حين وحين ، أن يعلن عجزه عن تحمل قسوة الجو ، وأن عليه أن يهتم بنفسه ، ثم يبدأ فى السعال والشكوى ، حتى يرحل فجأة الى بلدة ب — ، ومن هنـــا كان يبعث اليهم بخطـــابات تفيض بالبهجة الى أقصى حد • لم تكن كل هذه التوجعات الا تعللات ليلتقى بصديقته من جديد • وذات يوم تقرر أن تنتقل الأسرة الى فينـــا ، وبدأت دورا تشك فى وجود سبب خفى لهذا القرار • والواقع أنه لم تكد تمضى عليهم ثلاثة أسابيع فى فينا حتى سمعت دورا بأن عائلة ك — قد انتقلت هى الأخرى الى فينا • كانوا جميعا فى فينا فى نفس الوقت الذى كانت دورا تحدثنى فيه بذلك وكثيرا ما كانت تلتقى فى الطريق بأبيها مع مدام ك — • وكانت هى أيضا كثيرا ما تلقى السيد ك — ، وكان من عادته دائما أن يتابعها بنظراته ، وحين رآها بمفردها تبعها مسافة طويلة ، حتى يتبين الى أين تذهب ، ويطمئن الى أنها ليســـت ذاهبة الى موعد •

وخلال فترة علاجها ، حدث أن ساءت من جديد صحة أبيها ، فسافر الى بلدة ب — لقضاء بضعة أسابيع ، وما لبثت دورا بثاقب بصيرتها أن استخلصت أن مدام ك — قد رحلت الى نفس البلدة في زيارة لأقاربها هناك . كانت انتقادات دورا لأبيها في ذلك الوقت قد بلغت أقصاها : انه ليس صادقا ، شخصيته تتسم بالخداع ، لا يفكر الا فى متعته ، وهو فذ فى ترتيب الأمور بحيث تكون في صالحه على أحسن نحو .

لم أستطع أن أعترض بشيء على اللوحة العامة التى قدمتها لى دورا عن أبيها . فمن زاوية بعينها كان من اليسير أن نتبين أن انتقادات الفتاة كان لها ما يبررها . فحين كانت تفيض مراره كان يغلبها الاعتقاد بأن أباها قد سلمها للسيد ك ثمنا لتغاضنية عن العلاقة بين أبيها وزوجته ، وكان حنقها من استغلال أبيها لها على هذا النحو يتبدى من وراء حبها له بينما كانت فى لحظات أخرى تشعر تماما بأنها قد أذنبت بمغالاتها فى التحدث على هذا النحو . فالرجلان بالطبع لم يعقدا قط اتفاقا سميا يجعلها موضوع مقايضة ، وان أباها بصفة خاصة ليرتاع من مثل هذا الافتراض . ولكنه كان واحدا من هؤلاء الذين يقتدرون على الافلات من مأزق بتزييف حكمهم الخاص على أحد النقيضين . فلو نبهه أحد مايمكنأنيكون من خطر على فتاة شابة من صحبتها الدائمة ، ودون رقابة ، لرجل لايحصل على أى أشباع من زوجته ، لكان من المؤكد أن يجيب على ذلك بأنه واثق من ابنته ، أو بأن رجلا كالسيد ك — لايمكن بحال أن يكون من خطر على فتاة شابة من صحبتها الدائمة ، ودون رقابة ، لرجل لقصد ، أو بأن دورا ماتزال طفلة وأن السيد ك — يعاملها كطفلة . ولكن الأمور كانت فى الواقع على نحو بحيث يتجنب كل من الرجلين أن يستخلص من سلوك الآخر أية نتائج من شأنها أن تفسد عليه خططه . ومن هنا كان من الممكن للسيد ك — مادام بالبلدة أن يبعث الى دورا بالزهور كل يوم طوال سنة كاملة ، وأن ينتهز كل فرصة ليقدم اليها هدايا ثمينة ، وأن يقضى كل أوقات فراغه فى صحبتها ، دون أن يلاحظ أبواها أى شيء فى سلوكه ينتسب الى تودد المغازلة .

وحين يقدم المريض ، أثناء العلاج التحليلي ، سلسلة من الحجج الرصينة الدامغة ، فقد تستولي على الطبيب لحظة ارتباك ، وقد يسارع المريض إلى استغلالها فيسأله : « كل ذلك صحيح وصادق تماما ، أليس كذلك ؟ فماذا تريد الآن تغييره في ذلك بعد أن ذكرته لك ؟ » ولكن لانلبث حتى نتبين أن المريض يستخدم أفكارا من هذا النوع الذي يستحيل مهاجمته بالتحليل ، ليحجب أفكارا أخرى تتوق للافلات من النقد ومن الشعور • ان سلسلة من الانتقادات ضد الآخرين تحمل على افتراض وجود سلسلة انتقادات من نفس النوع ضد الذات • كل مايلزم هو أن تدير كل نقد من الانتقادات ضد المتحدث ذاته • ثمة شيء آلي ولاشك في هذا الأسلوب من الدفاع عن الذات ضد نقد ذاتي بتوجيه نفس النقد الى شخص آخر • وثمة نموذج لذلك في حجج الأطفال « أنت أيضا ! » tu quoque : فاذا ماتعرض طفل للاتهام بأنه كذاب فسوف يجيب دون لحظة تردد : « أنت أيضا ! » أما الراشد فهو اذ يجاهد في رد اساءة ، لايجعل همه ترديد نفس مضمون الاساءة ، بل يفتش في خصمه عن موطن ضعف حقيقي • وفي البرانويا يكون اسقاط النقد على آخر ، دون أي تغيير في مضمون هذا النقد ، ومن ثم دون أي اعتبار للواقع ، هو التعبير الصريح عن عملية تكوين الهذيانات •

كذلك انتقادات دورا ضد ابيها كان لها دائما بطانتها ومنهلها من من الانتقادات الذاتيه التي لهـا نفس المضمون ، كما سأوضح بالتفصيل • كانت على حق في اعتقادها بأن أباها لم يكن راغبا في أن يدقق النظر في سلوك السيد ك ـ تجاه ابنته خشية أن يعكر ذلك علاقته العشقية مع مدام ك ـ • ولكن دورا نفسها فعلت على التحديد نفس الشيء • فقد جعلت من نفسها شريكه متآمرة في هـذه العلاقـة ، واستبعدت من وعيها كل شيء من شأنه أن يكشف عن الطبيعة الحقيقة لهذه العلاقة • ولم يبدأ وعيها بالأمر ، وحسابها العسير لأبيها ، ألا أثر المغامرة التي تعرضت لها عند شاطيء البحيرة • فطوال السنوات السابقة كلها كانت تقدم كل تأييد ممكن للعلاقة بين أبيها ومدام ك ـ

لم تكن تذهب قط الى مدام ك — متى اعتقدت أن أباها هناك ، ولكنها اذ كانت تعرف بأن الطفلين فى هذه الحالة لابد وأن يكونا خارج المنزل ، فانها كانت تتجه بخطواتها الى حيث تلتقي بهما ، فتمضى معهم فى نزهة • وكانت بالمنزل شخصية شديدة ارغبة منذ وقت باكر فى أن تفتح أعين دورا على طبيعة العلاقة بين أبيها ومـدام ك — وفى أن تستحثها على أن تتخذ موقفا ضد هـذه السيدة • تلك كانت مربيتهـا الأخيرة ، آنسة تقدمت بها السن ، واسعة الاطلاع متحررة التفكير (١) ولقد ظلت المعلمة والتلميذة على علاقة ممتازة خلال فترة من الوقت ، الى أن شعرت دورا فجأة بالكراهية لها وأصرت على طردها • وطوال الفترة التي كان فيها للمربية شيء من النقود ، لم تدخر وسعا فى تحريك المشاعر ضد مدام ك — كانت توضح لأم دورا أنه مما لايليق بكرامتها أن تسمح بمثل هذه العلاقة الحميمة بين زوجها وامـرأة أخرى ، وكانت توجه انتباه دورا الى كل المظاهر المريبة لهذه العلاقة • ولكن جهودها ذهبت سدى • فقد ظلت دورا على اخلاصها لمدام ك —، لاترغب فى الاستماع الى شيء من شأنه أن يعكر نظرتها الى العلاقة بين مدام ك — وأبيها • وكانت دورا من ناحية أخرى تتبين فى يسر طبيعة الدوافع التى تحرك المربية • كانت عمياء فى اتجاه ، ولكنها كانت حادة البصر بدرجة كافيه فى الاتجاه الآخر • كانت تتبين أن المربية تعشق أباها • ففى حضوره كانت المربية تبدو شخصا آخر تماما، كانت تعرف فى هذه الحالة كيف تكون مرحة ومتفانية • وعندما كانت الأسرة تعيش فى بلدة المصنع ولم تكن مدام ك — فى الأفق ، كانت كراهية المربية تتجه الى أم دورا ، التى كانت عندئذ غريمتها الماثلة • والى هنا لم تحمل لها دورا حقدا • فهى لم تحقد عليها الا حين تبينت أنها لم تكن بالنسبة للمربية شيئا على الاطلاق ، وأن ما أدعته

(١) كان من عادة هذه المربية أن تقرأ أى نوع من الكتب عن الحياة الجنسية والموضوعات المشابهة ، وكانت تتحدث عنها الى الفتاة ، طالبة اليها في نفس الوقت وفي صراحة أن لاتنقل شيئا من أحاديثهما الى ابويها ، لاستحالة معرفة مايمكن أن يكون عليه موقفهما من هذه الامور . وقد ظللت بعض الوقت أعتبر هذه المرأة مصدر كل مالدى دورا من معارف سرية ، وربما لم أكن مخطئا تماما في ذلك .

من حب لها كان فى الواقع الأمر لأبيها فعندما كان أبوها بعيدا عن بلدة المصنع لم تكن المربية تمنح شيئا من وقتها لدورا ، فلم تكن ترغب فى أن تخرج معها للنزهة ، ولم تكن تحفل بدراستها • ولا يكاد أبوها يعود من بلدة ب — حتى تعود المربيـة من جديد متأهبـة لتلبية أى مطلب وتقديم أية مسـاعدة لها • عندئذ أسـقطتها دورا من حسابها •

لقد ألقت المربية المسكينة ضـوءا كريها على جانب من سـلوك دورا • فما كانته المربية بين حين وحين بالنسبة الى دورا ، كانته دورا بالنسـبة الى طفلى السـيدك — كانت أما لهما ، قامت على تعليمهما ، خـرجت معهما فى نزهات ، وقدمت لهـــا تعويضـا كاملا عن ضـآلة الاهتمـام الذى كانا يلقيـنه من أمهـا • وكثيرا ماتحـدث السـيدك — وزوجته فى أمر الطلاق ، ولكنـه لم يتحقق قط ، لان السيدك — ، وهو أب حنون ، لم يكن ليقبـل التنازل عن أحد طفلية • كان الاهتمام المشترك بالطفلين منـذ البداية رباطـا يربط بين السـيد ك ودورا • وكـان من الواضح أن اهتمـام دورا بطفليه هو مجرد قناع يحجب شيئا آخر تحرص دورا على أن تخفيه عن نفسـها وعن الآخرين •

وسواء من سلوك دورا تجـاه الطفلين — عند النظر اليه فى ضوء سلوك المربية تجاهها — أو من موافقتها الصامتة على علاقة أبيها بمدام ك — ، نستخلص النتيجة نفسـها ، ألا وهى أنهـا كانت طوال تلك السنوات فى عشـق للسـيد ك — • وعندما أخبرتها بهذه النتيجـة لم تتقبلها • صحيح أنها أضـافت فى التـو بأن آخرين (على سـبيل المثال احـدى بنات عمومتها ، وكانت قد مكثت عندهم فترة فى بلدة ب —) قالوا لها : « ما هذا ؟ انك مجنونة بهذا الرجل ! » ، ولكن لم تستطع هى نفسـها أن تتذكر أية مشـاعر من هذا النوع • وفيما بعد ، حين توفرت من المعطيات المبتعثة كمية جعلت من الصعب عليها أن تستمر فى الانكـار ، سلمت

بأنها ربما كانت عاشــقة للسيدك ــ فى بلدة ب ــ ، ولكنها أعلنت بأن كل شيء قد انتهى منذ مشــهد البحيرة (١) • وعلى ايــه حــال ، كان من المؤكد أن الأنتقاد الذى وجهته الى أبيها ، من أنه كان يصم اذنيه عن أكثر بداءات الواجب الزاما ، ومن أنه كان يرى الامــور من أكثر الزوايا ملاءمــة لهواه ، هذا الانتقــاد كان ينصب على شخصها هى (٢) • أما انتقادها الآخر ضــد أبيهــا فكان مؤداه أن اعتلال صحته لم يكن غير تعلة ، وأنه كان يستغله لاغراضــــه الخاصة • وهذا الانتقاد هو الآخر يخفى قطاعا بأسره من تاريخ أسرارها • فذات يوم شكت بشــكل ظاهر من عرض جديد ينحصر فى آلام قعدية حادة • ســألتها : « ترى من الذى تحاكينه الآن ؟ » وتبينت أنى قد أصبت الهدف • ففى اليوم الســابق كانت قد زارت ابنتى عمتها ، تلك التى ماتت • كانت الصغرى قد خطبت ، وبهذه المناســبة وقعت الكبرى مريضــة بآلام معدية ، وكانت على وشك ترحيلها الى سمرنج Semmering (٣) • وقد اعتقــدت دورا أن الآن هو أن تكون بعيدة عن البيت ، حتى لا يكون عليها أن تشهد سعادة أختها (٤) • ولكن آلام دورا المعــدية كانت دليــلا يشــــهد بتواجدها مع أبنة عمتها ، هذه التى كانت ــ بحسب قولها ــ كثير التمارض • وكان أســاس هذا التوحد اما أنها كانت هى الاخرى تحســد الفتاة الاسعد حظا على حبها ، واما أنها رأت قصتها تتكرر فى قصــة الاخت الكبرى ، هذه التى كانت منذ قليل فى قصـــة

---

(١) قارن الحلم الثانى •

(٢) هنا يبرز الســؤال : اذا كانت دورا عاشقة للسيد ك ــ فما العلة في رفضها له في مشهد البحيرة ؟ أو على الاقل ، لماذا اتخذ رفضها هذا الشكل الوحشى ، وكأنها كانت تغيض حنقا عليه ؟ وكيف لفتاة عاشقة أن تستشــعر الاهانة من دعوة جاءت في أسلوب بعيد عن عدم الكياســة أو جرح الاحســاس ؟

(٣) (ملجأ صحى عصرى الطراز في الجبال ، على مسافة خمسين ميلا تقريبا الى الجنوب من فينا ــ هامش الترجمة الانجليزية) •

(٤) تلك ظاهرة تتكرر يوميا بين الشــقيقات •

الامر كله لم يكن الا مجرد غيره من جانب الاخت الكبرى ، فقد كانت دائما تقع مريضه كلما رغبت في شيء ما ، وما كانت ترغب فيه

حب أنتهت نهاية تعســـــة (١) • ولكنها كانت أيضا قـــد تعلمت من ملاحظتهـــا لمـــدام ك ــ كيف ان تكون الامراض أشـــــياء نافعة ، فقد كان السيدك ــ يقضى جانبا من العام فى السفر • وكان من المألوف لديه كلما عاد من السفر أن يجـــد زوجته مريضة ، على الرغم من أنها ــ ودورا تعلم ذلك ــ كانت فى أتم صـــحة فى اليـــوم السابق مباشرة • لقد تبينت دورا أن حضـــور الزوج يتسبب فى جعل زوجته مريضــــة ، بل وكان يسرها أن تكون مريضـــة لتتمكن من الافلات من واجباتها الزوجية التى كانت شـــديدة المقت لهـــا • وعند هذه النقطة من الحديث اقحمت دورا فجأة اشارة الى مـــا كان يتناوبها فى بلدة ب ــ من صحة واعتلال خـــلال الســـــنوات الاولى من شبابها ، وقد جرنى ذلك الى الظن بأن أحوالها الصحية ينبغى النظر اليها على أنها تتوقف على شىء آخر ، بنفس الطريقة التى عليها فى حالة مدام ك ــ (ثمة قاعدة فى فنيات التحليل تقتضى بأن الرابطة الداخلية التى ما تزال خبيئة تفصح عن وجودها عن طريق تجاور ــ تقارب زمنى ــ للتداعيات ، وكما هو الحال فى الكتابة ، فعندما نضع أ بجانب ب فمعنى ذلك أن المقطع « أ ب » ينبغى أن ينتج عنهمـــا) فدورا انتابها عدد هائل من نوبات الســـعال المصحوبة بفقدان الصـــوت • أكـــــان من الممكن أن يكون لحضـــور أو لغياب الرجل الذى كانت تحبـــه أثر فى ظهور واختفـــاء أعراض مرضها ؟ لو كان الامر كذلك ، فينبغى أن يكون من الممكن الكشف عن تلازم أو آخر ينطق بذلك • ســـألتها عن متوسط طـــول تلك النوبات • أجابت : « من ثلاثة الى ســـــتة أسابيع تقريبـــا » • وما طول الفترة الواحدة من غيابات السيدك ؟ ــ اضطرت الى أن تسلم : « من ثلاثة الى ســـتة أسابيع أيضـــا » • وعليه فقـــد كان مرضهـــا تعبيرا عن حبها للســـيدك ــ تماما كما كان مرض زوجته تعبيرا عن كرهها له • وكل ما كان يلزمنا هو أن نفترض بأنوا تحرفت على النحو المضـــاد لتصرف مدام ك ــ ، فكانت تمرض أثنـــاء

(١) وسوف أبين فيما بعد اية نتيجة اخرى استخلصها من هذه الالام المعذبة .

غيابه ، وتعود اليها صحتها عندما يعود ، ذلك ما بدأ أنه تحقق فى الواقع ، على الاقل فى الفترة الاولى للنوبات • وفيما بعد ، كان من الضرورى ولاشك ازالة التلازم بين نوبات مرضـها وغيابات الرجل الذى كانت تحبه سرا ، حتى لا يؤدى التواتر المنتظم لهذا التلازم الى فضح سرها • وعندئذ يكون طول فترة النوبة قد بقى أثرا متخلفا لدلالته الاصلية •

أذكر أننى منـذ وقت طويل ، عنـدما كنت أعمل فى عيـادة شاركو ، رأيت وسمعت كيف أن الكتابة فى حالات الخرس الهستيرى تعمل بشـكل تعويضى فى مكان الـكلام • كان بوسـع المرضى من أصحاب هذه الحالات أن يكتبوا بصـورة أيسر واسرع وافضـل من الآخرين ، بل وأفضـل مما كانوا هم أنفسـهم يكتبون قبلا • وقد حدث نفس الشىء مع دورا • ففى الايام الاولى من نوبات فقدان الصـوت عندها « كانت الكتابة تواتيها دائما ميسرة بشـكل خاص » • ولم تكن هنـاك حاجة فى الواقع لتفسـير سيكولوجى لهـذه الظـاهرة الغريبة ، التى كانت مجـرد تعبير عن وظيفـة فسيولوجية بديلة حتمتها الضرورة ، ومع ذلك فجـدير بالملاحظـة أنه كان من اليسير العثـور على هذا التفسـير • كان من عادة السيدك — أن يكتب اليها فى افاضـة أثنـاء غيابه وأن يبعث اليها ببطاقات بريدية مصورة • وكان من المألوف أن تكون هى الوحيدة التى تعرف موعد عودته ، وأن يكون وصـوله مفاجأة لزوجتـه • ولأن يتراسـل المرء بالكتابة مع صـديق غائب لا يستطيع التكلم معه فذلك ما يسـاوى فى معقوليته رغبـة السوء فى أن يعبر عن نفسه بالكتابة عندما يفقد صـوته • وعليه فان فقدان الصـوت عند دورا قد أتاح التأويل الرمزى التالى : عندما كان الشخص الذى تحبه غائبا كانت تتخلى عن الكلام لقد فقد الكلام قيمته ما دامت لا تستطيع أن تتكلم « معه » • ومن ناحيـة أخرى فان الكتابة قد ازدادت أهميـة ، اذ غدت الوسـيلة الوحيدة للتخـاطب مع الحبيب الغائب •

أتراني الآن أمضي فأقرر بأن كل حالة تنتابها نوبات دورية من فقدان الصــوت يكون تشخيصها أن شخصا حبيبا يغيب عن المريض بين حين وحين ؟ ما أبعد ذلك عن قصــدي ! ان الاســباب المحددة للعرض في حالة دورا هي من الامعان في النوعية بحيث لا يمكن أن نتوقع التكــرار المتواتر لنفس هذه الاســـــباب العارضة المولدة للمرض . ولكن اذا كان الامر كذلك ، فما قيمة تفســيرنا لفقدان الصوت في الحالة التي أمامنا ؟ ألم نسلم أنفســنا ببساطة لخديعة اللعب بالالفاظ ؟ لا أعتقد ذلك . ها هنــا يتحتم علينا أن نثير من جــديد الســؤال ، الذي كثيرا ما أثير ، عمــا أن كانت أعــراض الهستيريا نفســية الاصل أم عضــوية الاصــل ، وعما اذا كانت الاعراض — اذا ما سلمنا بصحة الاصــل النفسي — ترجع كلهــا بالضرورة الى أصل نفسي . هذا السؤال — كما هو شــأن الكثير من الاسئلة التي يعود البحاث الى تنــاولها المرة بعد المرة دون جدوى — سيء الصــياغة . فطرفا الخيار في هذا الســؤال لا يجيب أيهما على جوهر المشــكلة . فكل عرض هستيري ، بقــدر ما أعلم ينطوي على اسهام من كليهما . فالعرض الهســتيري لا يمكن أن يحــدث دون أن يتوفر قدر معين من « المهاودة البدنية » نتيجــة عملية ســوية أو مرضــية في عضــو من أعضــاء البدن أو في ارتباط معه . وهو لا لا يمكن أن يحـــدث أكثر من مرة — فقـــدرة العرض على أن يكرر نفسه هي احدى الخصــائص المميزة للعرض الهستيري — الا اذا انطوى على دلالة نفســـية ، على معنى والعرض الهستيري لا ينطوي بذاته على هذا المعنى ، بل انه يعار له ، ويلصق به ان جاز القول . وفي كل حالة من الحالات يمكن أن يختلف المعنى تبعا لطبيعة الافكار المكبوحة التي تجــاهد للتعبير عن نفســها . ومع ذلك فهناك عدد من العوامل الفعالة من شأنها أن تجعل العلاقات بين الافكار اللاشــعورية والعمليات البدنيــة — التي تجــدها تحت تصرفها كوســائل تعبر بها عن نفســها — أقل تعسفية وأقرب ما تكون الى عدد قليل من الائتلافات النمطية . ومن زاوية العلاج النفسي تكون أكثر العوامل أهميــة في تحــديد

الاعراض هى تلك التى تزودنا بها المعطيـــات النفســـية الطارئة ، فتفسير الاعراض يتم بالبحث عن دلالتها النفســية • وعندما يتم التخلص من كل ما يمكن التخلص منـــه بالتحليل النفسى ، نكون فى وضع يمكننا من اقامة أية فروض — يمكن أن تجيب على الوقائع — عن الاســـاس البدنى للأعراض ، والذى هو كقــاعدة عامة جبلى وعضــوى • وهكذا فاننا فى حالة دورا لن نقنع بتأويل من التحليل النفسى لنوبات السعال وفقدان الصــوت عندها ، بل ســوف نبين أيضا العامل العضــوى الذى كان سبب « المهاودة البدنية » التى مكنتها من التعبير عن حبها لرجل يغيب بين الحين والحين • واذا كان العلاقة بين الاعراض التعبيرية والمضمون النفسى اللاشـــعورى أن تدهشنا بما تنطوى عليه فى هذه الحــالة من براعة الاحتيال ، فسوف يكــون من دواعى سرورنا أن نتبين أن هـــذه العـــلاقة تولــــد دينا نفس الانطبــاع فى كل حالة أخــرى ، وفى كل مثال من الامثلة الممكنة •

وانى أتوقع هنا اعتراضا يوجه الى بأن ليس هناك من نفع كبــير فيما تمخض عنه التحليل النفسى من أن لغـز الهستيريا ينبغى البحث عن حله ، لا فى « شكل خاص من عدم استقرار الجزيئات العصبية » ، ولا فى قابلية الفرد « لحـــالات شـــبه النوم المغناطيسى » ، بل فى « مهاودة بدنية » • وفى اجابتى على هذا الاعتراض أود أن أبين بأن هذه النظرة الجديدة ، ليس فقط ، قد دفعت باللغز الى الوراء بعض الشىء ، بــل انها أيضــا قد اضطلعت الى حــد ما بتبسيطه • فلن يكون علينا بعد أن نتناول اللغز كله ، بل فقط هذا الجزء منه الذى ينطوى على الخاصية المميــزة للهستيريا ، التى **تجعلهــا متمايزة عن** جميع الاعصبة النفســية الاخرى • فالعمليــات النفســية فى كل الاعصبة النفسية تمضى مسافة طويلة فى نفس الطريق ، قبل أن يبــرز أى تســاؤل عن « مهاودة بدنية » يمكن أن تتيح للعمليات النفسية اللاشعورية منفذا بدنيا • وعندما لا يبرز هذا العــامل على المسرح فأن شـــيئا آخر غير العرض الهســتيرى ســوف يتولد من الموقف

المكان ، ولكنه ســـوف يكون شيئا من طبيعة متجانسة ــ ربما كان ذهابا (فوبيا) أو حصارا ــ باختصار ، عرضا نفسيا .

أعود الآن الى تهمة التمارض التى وجهتها دورا الى أبيها . سرعان ما اتضح أن هذا الانتقاد كان راجعا الى انتقادات ذاتية لاتنصب فحسب على حالاتها المرضـــية الباكرة ، بـــل أيضـــا على الحالية . فى مثل هذه الظروف تقع على عاتق الطبيب عادة مهمـــة الحدس والكمال ما يقدمه اليه التحليل فى صورة اشـــارات وتلميحات . كان على أن ابنـــه المريضة الى أن مرضها الحـــالى كانت تحركة من الدوافع وكان يخفى من الاغراض ، مثلما كان مرض مدام ك ــ تماما ، وهو المرض الذى استطاعت أن تتفهمه جيدا . قلت لها أن ليس من شك فى أنها كانت تستهدف شـــيئا تأمل فى تحقيقه عن طريق مرضها . وهذا الشيء لم يكن من الممكن أن يكون غير صرف أبيهـــا عن مـــدام ك ــ لقد فشلت فى البلوغ الى ذلك بالتوســـلات والمناقشات ، فربما كانت تأمل فى البلوغ اليه بارهاب أبيها (يؤيد ذلك خطاب الوداع) أو باستثارة شفقته (تؤيد ذلك نوبات الاغماء) ، أو ان فشلت فى كل ذلك ، فهى على الاقل تنتقم منه . واستطردت قائلا بأنها كانت تعرف جيـــدا مـــدى تعلق أبيها بها ، وأن الدموع كانت تترقرق فى عينيه كلما سأله أحد عن صحة ابنته . كنت أشعر باقتناع تـــام بأن شفاءها كان يمكن أن يتحقق فى التو لو أن أباها قال لها فقط بأنه قد ضحى بمدام ك ــ من أجل صحتها . ولكننى أضفت بأننى آمل بأن لا ينتهى به الامر الى الاقتناع بضرورة هذا العمل ، اذ سوف تتبين هى عندئذ أى ســـلاح خطير تملكه فى يدها ، وسوف لا تتردد بالتأكيد ، فى كل فرصة مقبلة فى أن تستغل من جديد قابليتها للمرض . ومع ذلك فاذا رفض أبوها أن يسلم لها بما تطلبه ، فانى كنت على ثقة من أنها لن تسمح لنفسها بأن تتخلى عن مرضها بسهولة .

ســـوف أغفل التفصـــيلات التى أثبتت لى كيف كان ذلك كله صحيحا تماما ، وسأضيف بدلا من ذلك بضعة ملاحظـــات عامة عن

الدور الذى تلعبه فى الهستيريا **دوافع** المرض . ان الدافع الى المرض ينبغى تمييزه بشــكل قاطع ، بما هو تصــور ، عن القابلية للمرض ، أى عن المادة التى تتكون منها الاعراض . فالدوافع ليس لهــا أى اسهام فى تكوين الاعراض ، وهى فى الواقع لا تكون موجــودة فى بداية المرض . فهى لا تظهر الا بعــد المرض بشــكل ثانوى ، ولكن المرض لا يكتمل صرحه الا بعد ظهور هذه الدوافع (١) . فالدوافع يمكن التأكد من وجودها فى كل حالة يطول أمدها ، وتنطوى على معاناه حقيقية . فالمرض فى البداية يقحم نفســـه على الحيـــاة النفســية للمريض كضيف غير مرغوب فيه ، فكل شىء يناهضه ، وذلك هو السبب فى أنه يحتمل أن يختفى بسهولة — من تلقاء نفسه فى الظاهر — بمرور الوقت . فهو فى البداية لا يجد لنفســه وظيفة يؤديها فى الاقتصاديات العادية للنفس ، ولكنه غالبا جدا ما ينجح فى العثور بصفة ثانوية على وظيفة له . فان اتجــاها نفسيا أو آخر

---

(١) (ملاحظة اضافية عام ١٩٢٣) ليس هذا صحيحا تماما . فالقول بأن دوافع المرض لاتكون موجودة فى بداية المرض وانما تظهر بعده بشكل ثانوى ، هذا القول لايمكن أن نستمر فى الاخذبه . ففى الفقرة التالية مباشرة يدور الحديث عن دوافع الى المرض كانت موجــودة قبــل تفجــر المرض ، واسهمت جزئيا فى تفجره . لقد اهتديت فيما بعد الى طريقة تجيب على الوقائع بشكل أفضل ، وذلك بالتمييز بين الكسب الاولى Pranosic والكسب الثانوى epinosic المستمد من المرض . فالدافع الى المرض هو دائما بلا شك تحقيق كسب ما . وما سيلى من عبارات فى الفقرة الحالية يصدق على الكسب الثانوى . ولكن فى كل مرض عصابى ينبغى أن نتبين أيضا الكسب الاولى ، أن الواقع ينطوى فى المقام الاول على توفير فى الجهد النفسى ، فالمرض يبرز كافضل حل ممكن من الزاوية الاقتصادية متى كان هناك صراع نفسى (فنحن نتحدث عن « هروب فى المرض ») حتى وان تكشف فيما بعد عدم فاعلية مثل هــذا الهــروب فى الغالبية العظمى من الحالات . هــذا الجانب فى جانب الكســب الاولى يمكن نعتــه بالكسب الداخلى أو النفسى ، وهو كسب دائم أن جاز القول . ولكن بالاضافة الى ذلك ، فان العوامل الخارجية (من قبل المثال الذى قدمناه عن موقف امرأة مضطهدة من جانب زوجها) يمكن ان تهيىء دوافع الوقوع فى المرض ، وهذه الدوافع هى الجانب الخارجى فى الكسب الاولى .

يمكن أن يجـد المرض ملائما للافادة منه ، وبهـذه الطريقـة يبلغ المرض الى الحصـول على وظيفة ثانوية له ، ويظل وكأنه ، ان جاز القول ، يضرب بجذوره فى الحياة النفسـية للمريض • وهكذا نجـد أن أى شخص يحاول أن يشفيه من مرضـه يصطـدم ، ندهشته ، بمقاومة عاتية ، نعلمه أن رغبة المريض فى التخلص من علتـه ليست من الصدق والجديه على النحو الذى تبدو عليه (١) • فلنتصـور عاملا من عمال البناء مثلا ، وقع من أعلى منزل وأصبح مقعـدا ، ويكسب عيشـه الآن من التسـول عند ناصيـة طريق • ولنتصـور أن رجلا من صناع المعجزات يحضر اليه ، ويعده بتقويم سـاقه المعوجة بحيث يعيـد اليه قدرته على المشى • من غير المعـقول فى تصورى أن نتوقع رؤية السعادة المفرطة ترتسم على ملامح الرجـل • ليس من شك فى أنه قـد شعر وقت الحـادث بأقصى التعاسة ، عندما تبين أنه لم يعد قادرا على أداء أى عمل ، وأن عليه اما أن يموت جوعا أو أن يعيش على الصـدقة • ولكن منذ ذلك الحين تحـول نفس هذا الشىء الذى كان قد أبعـده عن امكانية العمـل فأصبـح المصدر لدخله ، فهو يتعيش من عاهته • فلو سلبناه اياها فقـد يصبح ولا حول له على الاطلاق • فهو فى الفترة الفاصلة قد نسى مهنته ، وفقد عادة الكدح وألف بالتـدريج حياة الكسـل وربما الشراب أيضـا •

ان الدوافع الى المرض غالبا ما تبدأ فاعليتها حتى منذ الطفولة • فالطفل فى شرهه للحب لا يسعده أن يكون عليه أن يقتسم مع اخوته وأخواته حب أبويه • وهو يلاحظ أن حبهما كله ينهال من جديد عليه كلما أثار فيهما القلق بوقوعه فى المرض • انه يكون بذلك قد اكتشف وسـيلة لاستدرار حب أبويه ، ولسوف يستخدم هذه الوسيلة بمجرد أن يجـد تحت تصرفه المـادة النفسية الضرورية لاستحداث مرض • ومتى كبرت طفـلة من هذا القبيل وصارت امرأة فقد تجد كل المتطلبات التى كانت

---

(١) هناك كاتب اديب هو الى ذلك أيضا طبيب ، ويدعى أرثر شنتزلر A Schnitzler عبر أصدق تعبير عن هذه الفكرة فى كتابة Paracelsus

تألفها فى طفولتها معوقة عن الاشباع بسبب زواجها من رجل لا يحفل بها ، يلغى ارادتها ، ويستغل فى غير رحمه قدرتها على العمل ، ولا يبذل لها من حبه أو من ماله • فى هذه الحالة يصبح المرض سلاحها الوحيد لتوكيد ذاتها فى الحياة • فسوف يتيح لها الرعاية التى تصبو اليها ، وسوف يرغم زوجها على أن يضحى بالمال من أجلها ، وعلى أن يبذل لها الاهتمام ، مما كان يستحيل أن يفعله عندما كانت تنعم بصحتها، ولسوف يرغمه المرض ، اذا ما برئت ، على أن يكون حذرا فى معاملته لها، والا فان السقوط فى المرض من جديد يتربص له • وسوف تبدو حالتها المرضية موضوعية ولا ارادية ، وسوف يكون الطبيب نفسه الذى يقوم على علاجها الشاهد على ذلك ، وبفضل ذلك لن تعانى أحاسيس الندم الشعورية بسبب استخدامها الناجح لوسيلة تبينت فاعليتها فى سنوات طفولتها •

ومع ذلك فالامراض من هذا القبيل هى نتيجة قصد • فهى كقاعدة عامة تستهدف شخصا بعينه ، وهى بالتالى تختفى باختفاء هذا الشخص• ان أكثر الآراء فجاجة وشيوعا عن طبيعة الاضطرابات الهستيرية — من قبيل مانسمعه من أقارب المرضى وممرضيهم من محدودى الثقافة — لهى من وجه ما صادقة • فمن الصحيح أن المرأة المشلولة طريحة الفراش تثب منتصبة على قدميها لو أن طفلها وقع فريسة مرض خطير أو لو أن كارثة تهددت ظروفها الاسرية • فالناس الذين يتحدثون عن المرضى بهذا الأسلوب هم على حق اللهم الا فى نقطة واحدة : فهم يغفلون التفرقة السيكلوجية بين ما هو شعورى وما هو لا شعورى • وهذا الاغفال يمكن أن يكون جائزا فى حالة الأطفال ، ولكنه غير جائز فى حالة الراشدين • ذلك هو السبب فى أن كل التوكيدات بأن « المسألة هى مجرد ارادة » ، وكل عبارات التشجيع ، وكل كلمات الاتهام بسوء الاستغلال التى توجه الى المريضة ليس لها من جدوى • فلا مناص من أن نضطلع أولا بمحاولة — بالطرق الالتفافية للتحليل — لاقناع المريضه نفسها بأن لديها فى أعماقها قصدا لأن تكون مريضه •

ان النضال ضد الدوافع الى المرض لهو مكمن الضعف بالنسبة الى كل الطرائق العلاجية فى حالة الهستيريا • يصدق ذلك تماما بصفة عامة، كما يصدق أيضا على التحليل النفسى ومن هذه الزاوية فان مهمة القدر أيسر بكثير فهــو ليس بحاجة الى أن يشغل نفسه ، لابجبلة المريض ولا بالأحداث المولدة لمرضة ، فكل ماعليه أن يزيل دافعا الى المرض • فيبرأ المريض من مرضه بصفة مؤقته ، وأحيانا بصفة دائمة • ماأكثر ماكانت تقل الشفاءات الاعجازية ، والاختفاءات التلقائية للأعراض ، التى كان علينا نحن الأطباء أن نسجلها فى حالات الهستيريا ، لو أنه قد أتيحت لنا فى الغالب نظرة الى الاهتمامات البشرية التى يحتفظ بها المرضى خبيئة عنا ؛ ففى حالة ، فترة بعينها من الوقت قد انقضت، وفى حالة ثانية ، اهتمام بشخص ماقد توقف ، وفى حالة ثالثة ، الموقف — بفعل حدث خارجى — قد تغير بصورة أســاسية — وعندئذ فان الاضطراب برمته ، الذى كان حتى الآن مستعصيا الى أقصى حــد ، يختفى دفعة واحدة ، وذلك فى الظاهر من تلقاء نفسه ، ولكن فى الواقع لأنه فقد أقوى دافع له ، ونعنى احدى الوظائف التى كان يضطلع بها فى حياة المريض •

ان الدوافع التى تدفع المريض الى أن يمرض قد يمكن العثور عليها فى جميع الحالات التى اكتمل تطورها • ولكن ثمة حالات تكون فيها الدوافع داخلية صرفه — من قبيل الرغبة فى معاقبة الذات ، أى الرغبة فى الندم والتكفير • وسوف نجد أن المشكلة العلاجية تكــــون أيسر بكثير على الحل فى مثل هذه الحالات عنها فى الحالات التى يكون فيها المرض مرتبطا بتحقيق هدف خارجى • ففى حالة دورا كان ذلك الهدف ، بشكل واضح ، هو أن تحرك قلب أبيها وان تبعده عن مدام ك

لامن شىء من أبيها أثار شعور المرارة عندها كما أثاره فيما يبدو تشبثه باعتبار مشـــهد البحيرة من صنع خيالها • كانت تكـــاد تفقــد صوابها كلما خطر لها ظن أبيها بأنها أتت من محض خيالها بشىء فى هذه المناسبة • ولقد ظللت مدة طويلة متحيرا فى تبين ماعساه أن يكون هذا اللوم الذاتى الذى يختفى وراء دحضها الحــار لهذا التأويل للحادث

كان من حقنا أن نشك فى وجود شىء خبىء ، اذ ان التهمة التى لايكون هناك مايسندها لاتحدث اهانة يطول استمرارها • ومن ناحية أخرى فانى خلصت الى أن رواية دورا لابد وأنها تطابق الواقع فى كل تفصيلاتها • فلم تكد تدرك مقصد السيد ك — حتى سارعت ، دون ان تتيح له أن يكمل كلامه ، فصفعته على وجهه وهرولت مبتعدة • ولابد وأن سلوكها قد بدأ للرجل بعد أن تركته ، مستغلقا على فهمه استغلاقه على فهمنا ، اذ لابد وأنه كانت قد اجتمعت له منذ وقت طويل من الدلائل الصغيرة التى لاحصر لها ماجعله على ثقة من حب الفتاة له • وعندما نتناول الحلم الثانى لدورا فسوف نعثر على حل هذا اللغز ، كما سنعثر أيضا على اللوم الذاتى الذى فشلنا حتى الآن فى الكشف عنه •

وحيث أنها ظلت تكرر اتهاماتها ضد أبيها فى رتابة تبعث على التعب ، وحيث أن سعالها ظل مستمرا فى نفس الوقت ، فقد تأديت الى الاعتقاد بأن هذا العرض يمكن أن ينطوى على دلالة ترتبط بأبيها • وفيما عدا ذلك فان الشروط التى درجت على اعتبارها ضرورية لتفسير عرض ما ، كانت ماتزال بعيدة عن أن تتوفر بشكل يبعث على الرضا • وبحسب قاعدة أكدتها لى الخبرة ، المرة تلو المرة وأن لم اجترىء بعد على تنصيبها مبدأ عاما ، فان العرض يعنى تمثيل — تحقيق — أخيولة مضمونها جنسى ، أى أنه يعنى موقفا جنسيا • وبتعبير أدق فان دلالة واحدة على الأقل من بين دلالات العرض هى تمثيل أخيولة جنسية ، ولكن تحديدا كهذا لا يفرض نفسه على مضمون الدلالات الأخرى • وكل من يمارس التحليل النفسى سرعان مايكتشف أن للعرض أكثر من دلالة ، وأنه يضطلع فى نفس الوقت بتمثيل عدة عمليات نفسية لاشعورية • وأود أن أضيف بأنه فى تقديرى يندر أن عملية نفسية لاشعورية أو اخيولة لاشعورية تكفى بمفردها لتوليد عرض •

وسرعان ماسنحت فرصة لتفسير سعال دورا العصبى بهذه الطريقة ، أى بالرجوع الى موقف جنسى أخيولى • فلقد عادت تلح

من جديد على أن مدام ك — لم تكن تحب أباها الا لأنه كان ein vermogender Mann رجل قدرة) . ولقد تأدت بى بعض دقائق طريقتها فى الكلام (مما أغفله هنا ، اغفالى لمعظم العناصر الأخرى من الفنيات الصرفة للتحليل) الى أن أتبين من وراء هذه العبارة أن نقيضها يكمن مختبئا ، وهو على وجه التحديد أن أباها كان (رجلا بلا قدرة) (١) . لم يكن من الممكن فهم ذلك الا بالمعنى الجنسى — أى أن أباها كرجل كان بلا قدرة ، كان عاجزا جنسيا . ولقد أيدت دورا هذا التفسير استنادا الى معارفها الشعورية ، وعندئذ أبرزت لها ما كانت فيه من تناقض ، اذ أنها من ناحية استمرت تصر على أن علاقة أبيها بمدام ك — هى علاقة عشق مبتذلة ، واذ أنها من ناحية أخرى قررت أن أباها كان عاجزا جنسيا ، أو بعبارة أخرى كان عاجزا عن الاضطلاع بعلاقة من هذا النوع . ولقد كشفت اجابتها عن أنها لم تكن بحاجة الى التسليم بهذا التناقض . فقد قالت أنها تعرف تماما أنه توجد أكثر من طريقة للحصول على الاشباع الجنسى . (ومع ذلك فان مصدر هذه المعلومات قد عجزنا مرة أخرى عن تبينه) سألتها ما أن كانت تقصد استخدام أعضاء غير الأعضاء التناسلية فى الاتصال الجنسى ، فأجابت بالايجاب . وعندئذ كان بوسعى أن أضيف بأنه لابد وأنها تفكر — فى هذه الحالة — على وجه التحديد فى هذه الأجزاء من البدن التى كانت عندها فى حالة استثارة : الحلق والتجويف الفمى . وبكل تأكيد لم تكن لترغب فى المضى الى هذا الحد فى التعرف على أفكارها ، والواقع أنه اذا كان للعرض أن يتحقق على الاطلاق فقد كان من الضرورى أن لاتكون على بينة تماما من هذا الأمر . ولكن النتيجة اللازمة لم يعد منها مناص ، فقد كانت بسعالها

---

(١) (كلمة Unvermogend تعنى حرفيا « عدم القدرة » ويشيع استخدامها فى المعنيين كليهما : « عديم القدرة ماليا » و « عديم القدرة جنسيا » — هامش الترجمة الانجليزية .)

(فى الالمانية كلمة Vermogen تعنى حرفيا « عدم القدرة » ويشيع و « قدرة جنسية » هامش الترجمة الفرنسية .)

التشنجي ــ الذى كان كما هو مألوف راجعا من حيث سببه المثير الى تهيج فى حلقها ــ تمثل لنفسها مشهد اشباع جنسى عن طريق الفم Per os بين الشخصين اللذين كان عشقهما يشغل ذهنها بلا انقطاع • وبعد وقت جد قصير من تقلبها الصامت لهذا التفسير اختفى سعالها الأمر الذى يتفق تماما مع وجهة نظرى ، ولكنى لاأرغب فى أن أعطى أهمية زائدة لهذا التطور ، اذ أن سعالها كثيرا ما كان يختفى من قبل بصورة تلقائية •

هذا الجانب الصغير من التحليل ربما أثار فى القارىء الطبيب ــ بالاضافة الى عدم التصديق الذى هو حق له ــ مشاعر الدهشة والاستشناع • وانى على استعداد الآن لتفحص هاتين الاستجابتين، كيما نتبين ما أن كان هناك مايبررهما • فالدهشة ترجع الى اجترائى على التحدث فى مثل هذه الموضوعات الحساسة والكريهة مع فتاة يافعة ــ أو حتى أية أمرأة تمارس الحياة الجنسية • أما الاستشناع فيرجع بالتأكيد الى أن فتاة عديمة الخبرة يمكن أن تكون على علم بمثل هاتيك الممارسات ويمكن أن ينشغل خيالها بذلك • وبالنسبة الى هاتين النقطتين فانى أوصى بالحرى بالاعتدال والتأمل • فليس فى الواحدة أو الأخرى مايبعث على الحنق • فبوسع الرجل أن يتحدث الى الفتيات والنساء فى المسائل الجنسية من كل نوع ، دون أن يسبب لهن أذى، ودون أن تلحق به أية شبهة ، طالما انتهج فى المقام الأول أسلوبا معينا فى الاضطلاع بذلك ، واستطاع فى المقام الثانى أن يبلغ بهن الى الاقتناع بأن الأمر لا مناص منه • ان طبيب أمراض النساء لايتردد فى مثل هذه الظروف فى أن يفرض عليهن كل مايمكن من ضروب التعرية ، وخير أسلوب للتحدث فى مثل هذه المسائل هو الجاف المباشر ، وهو فى نفس الوقت أبعد مايكون عن الأسلوب الداعر الذى يتم به تناول هذه المسائل فى « المجتمع » ، والذى تألف تماما الفتيات والنساء على السواء سماعه فى العادة • انى أسمى أعضاء البدن والعمليات البدنية بمصطلحاتها الفنية ، وأقدم للمريضة هذه المصطلحات اذا

ماكانت غير معروفة لديها : J'appelle un chat un chat (١) (أنى أسمى القطة قطة — أى أسمى الشىء باسمه) • لقــد سمعت بالتاكيد عن البعض — من الأطباء وغير الأطباء — الذين يستشعرون العار ازاء طريقة علاجيه تجرى فيها مثل هذه الأحاديث ، والذين على مايبــدو يحسدوننى ومرضاى على التلذذ الشهوى الذى لابد وأن تنتجه مثل هذه الطريقة • ولكن « وقار » هؤلاء السادة أعرفه الى الحــد الذى لايحرك فى ساكنا • ولسوف اتجنب مااستشــعره من غواية الكتــابة للسخرية منهم • وحسبى أن اذكر شيئا واحدا • بعــدما أقضى فترة من الوقت فى علاج مريضة لم يكن من اليسير عليها فى البداية أن تتقبل التحدث فى المسائل الجنسية ، فغالبا ما كان يتاح لى الاستماع اليهــا وهى تتعجب : « ولم لا ؟ أن طريقتك هى فى نهاية الامــر أكثر وقارا من حديث السيد س ! »

مامن أحــد يستطيع أن يضطلع بعلاج حالة هستيريا مالم يكــن مقتنعا باستحالة تجنب الحديث فى المسائل الجنسية ، أو مــالــم يكن على الأقل منفتحا لأن يقتنع بالخبرة • فى الاتجاة الصحيح هــو :
Pour faire une omlette, il faut casser des oeufs

(٢) (لصنع عجة لابد من كسر بيض) • والمرضى أنفسهم يقتنعون فى يسر • وليست الفرص لتحقيق ذلك أثناء العــلاج الا أكثر مما يلزم • ليس هنالك من داع لاستشعار أى حرج من مناقشة وقائع الحياة الجنسية السوية أو غير السوية معهــم • وباتباع قليل من الحرص ، يكون كل مايحدث هو أننا نترجم الى أفكــار شعورية ماكان بالفعل معروفا فى اللاشعور ، هذا الى أن كل فاعلية العلاج تتوقف فى نهاية الأمر ، على معرفتنا بأن الوجدان المرتبط بفكرة لاشعورية يعمل بصورة أكثرة قوة ، وبالنظر الى استمالة كفة — بصورة أكثر ضررا ، من الوجدان المرتبط بفكرة شعورية • فليس هناك على الاطلاق خطر

---

(١) (العبارة بالفرنسية فى الاصل الالمانى — المترجمون)
(٢) (العبارة بالفرنسية فى الاصل الالمانى — المترجمون)

افساد فتاه عديمة الخبرة • فحيث لاتوجد معرفة بالعمليات الجنسية ، حتى فى اللاشعور ، فلن ينشأ أى عرض هستيرى ، وحيث توجد الهستيريا فلن يكون هناك عندئذ أى « طهر فى المشاعر » بالمعنى الذى يقصده الآباء والمربون : فمع أطفال العاشرة أو الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، من الصبية ومن البنات على السواء ، اقتنعت بأن صدق هذه القاعدة يمكن التعويل عليه بلا استثناء •

وفيما يتصل بالاستجابة الانفعالية الثانية ، استجابة الاستشناع وهى غير موجهة ضدى هذه المرة ، بل ضد مريضتى — على غرض أن نظريتى صحيحة وهى الاستجابة التى تعتبر الطبيعة المنحرفة لاخاييلها امرا شنيعا ، فانى أود أن أؤكد القول بأن ليس لرجل الطب أن يزج بنفسه فى مثل هذه الأدانة الحماسية • وأود أن أضيف بهذه المناسبة بأن ليس هناك من داع حين يكتب طبيب فى انحرافات الغرائز الجنسية لأن ينتهز كل فرصة ليزح فى النص بعبارات تنطق بتقززه الشخصى من مثل هذه الأمور المحنقة • اننا أمام واقعة ، د ، المأمول مع الوقت أن نألفها متى طرحنا جانبا مذاقاتنا الشخصية • يتحتم علينا أن نتعلم كيف نتحدث فى غير تحرج عن مانسميه بالانحرافات الجنسية — وهى الحالات التى تنتهك فيها الوظيفة الجنسية حدودها ، سواء فيما يتصل بالعضو البدنى المعنى أو بالموضوع الجنسى المنتقى • أن ميوعة الحدود التى تحدد ماينبغى تسميته بالحياة الجنسية السوية ، عندما نضع فى اعتبارنا مختلف الشعوب ومختلف العصور ، ينبغى أن تكون بذاتها كافية لتهدئة المغالين فى الحماسة • وليس لنا بالتأكيد أن ننسى أن أكثر الأنحرافات اثارة لاشمئزازنا ، وهو الحب الشهوى بين رجل ورجل ، لم يكن فحسب يلقى التسامح من شعب تعلو ثقافته على ثقافتنا بكثير ، وهو الشعب الأغريقى ، بل كان يضطلع عندهم بوظائف اجتماعية هامة • وكل واحد منا فى حياته الجنسية الخاصة ينتهك بدرجة طفيفة — حينا فى هذا الاتجاه وحينا فى ذاك — هذه الحدود الضيقة المفروضة عليه بوصفها معيار السوية • ان الانحرافات لا هى بالحيوانية ، ولاهى بالانحلالية ، بالمعنى الانفعالى الكلمة •فهى

صور متطورة لبذور ينطوى عليها الاستعداد الجنسى اللامتمايز عند الطفل وهى البذور التى ينتهى بها الأمر ، متى قمعت أو حرفت الى أهداف أعلى لاجنسية أى متى أعليت — الى توفير الطاقة اللازمـــــة لعدد كبير من انجازاتنا الحضارية • وعليه ، فعندما يصبح شـــــخص ما بشكل صريح وخشن منحرفا ، فمن الأصح أن نقول انه قـــد ظل منحرفا ، لأنه يكشف عن توقف النمو عند مرحلة بعينها ، وكل العصابيين هم أشخاص لديهم ، بشكل جـــد بـــارز ، نزعات انحرافية تعرضت للكبت أثنـــاء نموهم فغدت لاشعورية • ومن هنا فـــان اخاييلهـــم اللاشعورية تكشف على وجه التحديد عن نفس المضمون الذى تكشف عنه الأفعال الواقعية التى سجلتها الدراسات عند المنحرفين ، حتى وأن لم يكن قد أتيح لهم أن يقرأوا كتاب كرافت ابنج
Psychopathia Sexualis
(السيكوبانية الجنسية) هذا الذى يعزو اليه السذج من الناس مثـل هذا القدر الهائل من المسئولية فى احداث النزعات المنحرفة • فالأعصبة هى أن جاز القول ، الوجه السلبى للانحرافات • فعند العصابيين تعمل جبلتهم الجنسية ، بما فيها من تأثيرات الوراثه فى أئتـــلاف مع أيـــة تأثيرات عارضة فى حياتهم قد يكون من شأنها أن تنال بالاضطراب نمو الجنسية السوية • فالمياه عندما يعترضها عائق فى مجرى النهـر تنســـد وتفيض مرتده الى الوراء فى مجـــار قديمة ، كان من المفروض فيما مضى أن الأمر سينتهى بها الى جفاف • ان القوى الدافعة التى تؤدى الى تكوين الاعراض الهستيرية تستمد طاقتها ليس فحسب من الجنسية السوية المكبتة بل أيضا من نزعات الانحراف اللاشعورية (١)

---

(١) كتبت هذه الملاحظات عن الانحرافات الجنسية قبل ظهور المؤلف الممتاز لبلوغ بسنوات •

Bloch, J .. Beirsage Zur Atiologie der Psychopathia Seualis, 1902 - 3 (بلـــوغ • أسهام فى الاسباب المولدة للسيكوباتية الجنسية) • انظر أيضا كتابى ثلاث مقالات فى نظرية الجنس ، الذى نشر هذا العام (١٩٠٥) • (وانظر الترجمة العربية بقلم د• سامى محمـــود على ، دار المعارف ، ١٩٠٥ — المترجمون)

ان أقل الأشكال اثارة للاشمئزاز من بين مايسمى بالانحرافات الجنسية هي ظواهر واسعة الانتشار جدا بين جميع السكان ، كما نعلم نحن جميعا باستثناء الاطباء الذين يكتبون فى الموضوع • أو ، هم جميعا على علم بها أيضا ، ولكنهم فقط يحرصون على نسيانها فى اللحظة التى يتناولون فيها اقلامهم للكتابة عنها • ومن هنا فليس هناك مايبعث على العجب فى أن فتاتنا الهستيرية ذات التسعة عشر عاما ، وقد سبق لها أن سمعت عن استخدام مثل هذا الأسلوب فى الاتصال الجنسى (مص القضيب) ، قد استحدثت أخيولة لاشعورية من هذا القبيل ، وترجمت عنها بتهيج حلقها بسعالها • قل وليس هناك أيضا ما كان ممكن أن يبعث على العجب الشديد ، لو أنها قد تأدت الى مثل هذه الأخيولة ، حتى دون أن تحصل على أية استثارة من مصادر خارجية — وهو أمر تبينته بكل تأكيد عند مريضات أخريات • ذلك أنه فى حالة دورا كانت هناك واقعة جديرة بالملاحظة ، هيأت الشرط البدنى الضرورى السابق للظهور التلقائى الأخيولة تتطابق مع ممارسات المنحرفين • كانت تذكر جيدا أنها كانت فى طفولتها « مصاصة ابهام » • وقد تذكرها أبوها ، هو الآخر ، أنه قد خلصها من هذه العادة بعد ماتشبثت بها حتى عامها الرابع أو الخامس • وكانت دورا نفسها تحتفظ بصورة حية لمشهد من طفولتها الباكرة حيث كانت تجلس على الارض فى زاوية تمص ابهامها الأيسر ، بينما كانت فى نفس الوقت تجذب بيدها اليمنى بشكل ايقاعى حلمة اذن أخيها الذى يجلس فى هدوء الى جوارها وهذا مثال على شكل مكتمل للاشباع الذاتى عن طريق المص ، على نحو ماوصفته لى أيضا مريضات أخريات ممن أصبحن كذلك فاقدات للحساسية الجنسية وهستيريات وقد قدمت لى واحدة من أولئك المريضات معلومات تلقى ضوءا واضحا على أصل هذه العادة العجيبة • لم تكن هذه المرأة الشابة قد توقفت قط عن عادة المص • كانت تحتفظ بذكرى من طفولتها ، ترجع بحسب رأيها الى النصف الاول من عامها الثانى، حيث رأت نفسها تمص ثدى مرضعتها ، وفى نفس الوقت تشد بشكل ايقاعى حلمة أذن مرضعتها • وما من أحد فيما أعتقد يميل الى أن يجادل فى أن الغشاء المخاطى للشفتين

والفم ينبغى اعتباره منطقة شبقية أولية ، بالنظر الى أنها تظل تحتفظ بهذه الدلالة الباكرة فى فعل التقبيل ، هذا الذى يعتبر سويا • وهكذا فان النشاط الغريزى لهذه المنطقة الشبقية فى سن باكر يحتم الظهور اللاحق لمهاودة بدنية فى مجرى الغشاء المخاطى الذى يبدأ من الشفتين • ومن هنا ، ففى الوقت الذى يصبح فيه الموضوع الجنسى الحق — أى القضيب — معروفا بالفعل ، يمكن أن تنشأ ظروف تعمل مرة أخرى على الزيادة من استثارة المنطقة الفمية ، التى احتفظت — كما رأينا — بطابعها الشبقى • عندئذ لا يحتاج الامر الا لاقل القليل من قوة الابداع لاحلال الموضوع الجنسى الحالى (القضيب) محل الموضوع الاصلى (الحلمة) ، أو محل الاصبع الذى كان قد حل محل الحلمة بعد ذلك ، ولوضع الموضوع الجنسى الحالى فى ذلك الموقف الاصلى الذى تحقق فيه الاشباع فى البداية • ومن ثم نرى أن هذه الاخيولة المنحرفة والمنفرة الى ابعد حد ، أخيولة مص القضيب ، ترجع الى أصل أشد مايكون طهرا • فهى طبعة جديدة لما يمكن وصفه بالانطباع قبل التاريخى لمص ثدى الام أو المرضعة — وهو انطباع يتم فى العادة انبعاثه برؤية الاطفال يرضعون • وكثيرا ما يلعب ضرع البقرة بشكل فعال دور الصورة الوسيطة بين الحلمة والقضيب •

أن التفسير الذى عرضنا له الان لاعراض الحلق عند دورا ، يمكن أيضا أن يثير ملاحظة أخرى • فمن الممكن أن نتساءل كيف لهذا الموقف الجنسى الاخيولى عندها أن يتناغم مع تفسيرنا الآخر للاعراض • والتفسير الآخر — كما نذكر — مؤداه أن ظهور واختفاء الاعراض كانا ترجمة عن غياب وحضور الرجل الذى كانت تحبه ، وكان ذلك ، بالمقارنة مع سلوك زوجته ، يعبر عن الفكرة التالية : « لو أننى كنت زوجته ، لاحببته بشكل مختلف تماما ، لكنت أقع مريضة (من الصبابة) عند غيابه ، ولكنت أعود الى العافيه (من الفرحة) عندما يعود الى من جديد • » على مثل هذا الاعتراض يتحتم على أن أجيب بأن خبرتى فى تفهم الاعراض الهستيرية قد كشفت لى عن أنه ليس من الضرورى أن تلتئم كلها فى كل مترابط •

فيكفي أن تكون الوحدة هي وحدة الموضـــوع الذى تولدت عنه كل الاخاييل المبانية • ومع ذلك ، فحتى التناغم من النوع الاول ليـــس بمنعدم فى الحالة التى نحن بصـــــددها • فاحدى الدلالتين تنتسب بدرجة أكبر الى السعال بينما تتنسب الاخرى بالحرى الى فقــدان الصوت والطابع الدورى للاضطراب • وربما كان بوسع تحليل أمعن أن يكشف عن عدد أكبر بكثير من العوامل النفسية المحددة لدقائق المرض • ولقد تبينا من قبل أن عرضا واحدا وبعينه يترجم فى نفس الوقت ، وبصورة منتظمة تماما ، عن دلالات عديدة • ويمكننا الآن أن نضيف أن العرض يمكن أن يترجم على التعاقب عن دلالات عديدة فعلى مر السنين يمكن للعرض أن يغير دلالته ، أو يغير ، دلالته الاساسية أو يمكـــــــن للـــــدور القيـــادى أن ينتقـــــل من دلالـــة الى أخرى • ويبدو الامر وكأن هناك نزعـــة الى المحافظة فى طبيعة العصاب من شأنها أن تضمن لعرض ، متى تكون ، أن يستمر ــ ماأمكن ــ فى البقاء ، حتى وان كانت الفكرة اللاشعورية التى كان العرض يترجم عنها قد فقدت أهميتها • ولكن ليـــس ثمــة صعوبة فى تقديم تفسير لمثل هذه النزعة الى استبقاء العرض على أساس ميكانيكى • ان استحداث عرض من هذا القبيل لهو من الصعوبة ، اذ أن ترجمـــة استثاره نفسية صرفه الى اللغة البدنية ــ وهى العملية التى اسميتهـــا التبدين ــ تتوقف على توفر عدد عديد من الشروط المواتية ، واذ أن المهاودة البدنية اللازمة لهذا التبدين هى من صعوبة المنال ، بحيث أن الحفزة الى أفراغ استثاره لاشعورية تحاول ما أمكن الافـــادة من أى مسرب للافراغ يكون قائما بالفعل • فيبدو أن استحداث عرض تبدينى جديد هو أصعب بكثير من أقامة ممرات من التـــــداعى بـــين فكرة جـــديدة تتطلب الافراغ والفكرة القديمة التـــى لـــم تعـــد بحاجة للافـــــراغ • وتنســـــاب الاستثـــــارة من مصــــــدرهـــــا الجديد عبر هذه الممرات التى تكونت ألى المنطلق ألقديم للافـــراغ فتصب فى العرض ، وكأنها بلغة الانجيل نبيذ جديد فى زقاق عتيقة • وقد توحى هذه الملاحظات بأن الجانب البدنى من العرض الهستيرى هو أكثر جانبيه استقرارا وأستعصاء على الابـــــدال ، بينما جانبه

النفسى هو الأكثر تغيرا وسهولة فى العثور له على بديل • ومع ذلك فلا ينبغى لنا أن نحاول استخلاص شىء من هذه المقارنة ، عن الأهمية النسبية لكل من الجانبين • فمن زاوية العلاج النفسى يتحتم أن يكون الجانب النفسى هو الأكثر أهمية •

ان التكرار الذى لم ينقطع من جانب دورا لنفس الأفكار عن علاقة أبيها بمدام ك — قد أتاح للتحليل أن يبلغ الى كشف آخر جديد وهام •

مثل هذه السلسلة من الأفكار يمكن أن نصفها بأنها قهارة ، أو على نحو أفضل ، بأنها تتسم بالتعزيز ، أو بأنها « متسلطة » بحسب تعبير فرنيكه Wernicke • فهى تكشف عن طابعها المرضى ، على الرغم من مضمونها المعقول فى الظاهر ، بهذه الخاصية الفريدة ، وهى أنه مامن جهد شعورى وأرادى كائنا ماكان قدره من جانب المريضة يستطيع أن ينال منها أو يزيلها • أن سلسلة سوية من الأفكار ، مهما كانت شدتها ، يمكن فى نهاية الأمر التحكم فيها • كانت دورا تشعر تماما بأن أفكارها عن أبيها تحتاج الى طريقة خاصة فى الحكم عليها • ولطالما تردد أنينها : « ليس بوسعى أن أفكر فى شىء آخر • انى أعرف مايردده أخى من أننا نحن الاطفال ليس من حقنا أن ننتقد هذا السلوك من أبينا • فهو يعلن بأن ليس لنا أن نشغل أنفسنا بذلك ، بل وربما كان لنا أن نسعد بأنه قد عثر على أمرأة يستطيع أن يحبها ، مادامت ماما تسىء فهمه الى هذا الحد • بوسعى تماما أن أفهم ذلك ، وكان بودى أن أفكر بنفس الطريقة كأخى ، ولكننى لاأستطيع • لايمكننى أن أغفر له ذلك • » (١)

والآن ، ما الذى يمكن فعله فى مواجهة فكرة متسلطة كهذه ، بعد ماعرفنا الأسس الشعورية التى تستند اليها ، وعدم جدوى الاحتجاجات الموجهة ضدها ؟ ان التأمل يتأدى بنا الى أن هذه السلسلة من الأفكار

---

(١) أن فكرة متسلطة من هذا النوع غالبا ما تكون ، بالاضافة الى اكتئاب عميق ، العرض الوحيد للحالة المرضية التى عادة ما تسمى « السوداوية » والتى يمكن مع ذلك استبحلاؤها بالتحليل النفسى كالهستيريا •

القهارة لابد وأن يكون تعزيزها راجعا الى اللاشعور • فلا يمكن لأى جهد فكري أن ينال منها ، أما لأنها هى نفسها ترجع بأصلها عميقا فى اللاشعور الى أفكار مكبوتة ، وأما لان فكرة لاشعورية أخرى تكمن خبيئة وراءها ، وفى الحالة الأخيرة تكون الفكرة الخبيئة فى العادة مضادة بشكل مباشر للفكرة المتسلطة • والفكرتان المتضادتان تكونان دائما فى صلة وثيقه الواحدة بالأخرى ، وغالبا مايتزاوجان على نحو بحيث تكون احداهما شعورية بشكل مسرف ، بينما تظل قرينتها المضادة مكبوتة ولاشعورية • وهذه العلاقة بين الفكرتين هى نتاج عملية الكبت ذلك أن الكبت غالبا مايتحقق عن طرق تعزيز مسرف للفكرة المضادة لتلك التى يتحتم كبتها • وانى اسمى هذه العملية تعزيزا مضادا ، كما اسمى الفكرة التى تلقى التوكيد بشكل مسرف فى الشعور ، والتى (كما هو الحال فى الأحكام القبلية) يستحيل زحزحتها ، فكرة مضادة وعندئذ فان الفكرتين المتضادتين يكون عمل أحداهما من الأخرى أشبه مايكون بأبرتى جلفانومتر عديم التأثر بالجاذبيه الارضية من جراء تناظرهما • فالفكرة المضادة تبقى على الفكرة المستهجنة تحت الكبت عن طريق زيادة معينة فى الشدة ، ولكنها هى نفسها بسبب ذلك « تتوطد » وتتحصن ضد الجهود الشعورية للفكر • ومن ثم تكون الوسيلة لتجريد الفكرة المتسلطة من شدتها هى أن نجلب الى الشعور الفكرة اللاشعورية التى تضادها •

وينبغى أيضا أن نكون على استعداد لأن نلتقى بحالات ترجع فيها الشدة المسرفة للفكرة ، لا الى واحد فقط من هذين السببين ، بل الى تآزرهما معا • ويمكن أيضا لتعقيدات أخرى أن تحدث ، ولكن يظل ممكنا ادخالها بسهولة ضمن هذا المخطط العام ••

لنطبق الآن نظريتنا على المثال الذى تقدمه لنا حالة دورا • ولنبدأ بالفرض الأول ، وهو ، على التحديد ، أن أنشغالها بعلاقة أبيها بمدام ك — يدين بطابعه الحضارى الى أن أصل هذا الانشغال غير معروف

لربيها ، اذ يكمن فى اللاشعور • وليس من العسير أن نحدس طبيعة هذا الاصل ابتداء من ظروفها وسلوكها فسلوكها قد أسرف بشكل واضح فى تجاوزه لا يمكن أن تكون عليه اهتمامات ابنة •• كانت فى شعورها فى تجاوزه يمكن أن تكون عليه اهتمامات ابنة •• كانت فى شعورهـا مفهوما من جانب أمها • فبانذارها النهائى لأبيها (« أمـا هى وأمـا أنا ») ، وبالمشاجرات التى كان من عادتها أن تثيرها ، وبعزمها على الانتحار وهو الذى أتاحت له أن ينكشف — بكل ذلك كانت بشـكل واضح تضع نفسها موضع أمها • واذا كنا قد أصبنا الحقيقة فى حدسنا طبيعه الموقف الجنسى الاخيولى الذى يكمن وراء سعالها ، فانها كانت ولابد فى هذه الأخيولة تضع نفسها موضع مدام ك — • وعليه فقـد كانت تتوحد فى نفس الوقت مع المرأة التى أحبها أبوها يوما ، ومع المرأة التى يحبها الآن • من ذلك تخلص لنا نتيجة واضحة ، هى أن حبها لأبيها كان أقوى بكثير مما كانت تعـى ، أو ممـا كانت على استعداد للتسليم به باختصار ، كانت تعشق أباها •

لقد تعلمت أن أنظر الى علاقات الحب اللاشعورى من هـذا القبيل (وهى التى يمكن التعرف عليها من عواقبها اللاسوية) — بين أب وابنته ، أو بين أم وابنها — على أنها ابتعاث لمشاعر برعمية فى الطفولة • لقد أبنت باستفاضة فى موضع آخر (١) ، فى أى سن باكرة يبزغ الشعور بالجاذبية الجنسية بين الآباء والأطفال ، وأوضحت أن أسطورة أوديب ربما ينبغى اعتبارها ترجمة شعرية لما هو نمطى فى هذه العلاقات • وربما نعثر عنـد الغالبية العظمى من الناس على متخلفات قاطعه لهذا الانحياز الباكر — من جانب الابنة لأبيهـا ، ومن جانب الابن لأمه • ولكن ينبغى أن نفترض أن هذا الانحياز يكون أكثر شدة منذ البداية الأولى عند أولئك الاطفـال الذين تهيئوهـم

---

(١) فى كتابى Traumdeutung (١٩٠٠) (تفسير الاحلام دار المعارف بمصر) الطبعة السابعة ، ص ١٨١ ، وفى المقال الثالث من كتابى Drei Abhandlungen Zur Sexualtheorie (١٩٠٥) (ثلاثة مقالات فى نظرية الجنس دار المعارف بمصر)

جبلتهم للعصاب ، والذين يتميز نمـوهم بنضج سابق لأوانه الشره للحب • عند هذه النقطه تدخل الى المسرح تاثيرات اخرى معينة ، لامحل هنا للحديث عنها ، من شأنها ان تؤدى الى تثبيت الحب البرمى هذا أو الى تعزيزه ، ومن ثم يتحول هذا الحب (اما والطفل مايزال صغيرا ، واما فقط ابتداء من سن البلوغ) الى شىء ينبغى اعتباره معادلا لانجذاب جنسى ، من حيث أنه ــ كهذا الانجذاب ــ يملك تحت امرته كل قوى الليبيدو (١) • ولم تكن الظروف الخارجية لمريضتنا بحال غير مسايره لمثل هذا الافتراض • فاستعدادها بطبيعته قد جعلها دائما منجذبة الى ابيها ، كما كان ولابد لامراضه العديدة من أن تزيد من حبها له • وفى كثير من هذه الأمراض لم يكن يسمح لأحد سواها بأن يؤدى له الواجبات الهينة للتمريض • وكان هو من الاعتزاز بذكائها الباكر التفتح الى حد أنه اتخذ منها ، وهى ماتزال طفله ، كاتمة سره • كانت فى الواقع هى ، وليس أمها هى التى أدى ظهور مدام ك ــ الى اجلائها عن أكثر من موقع •

وعندما أخبرت دورا بأنه لايسعنى الا أن افترض بأن حبها لأبيها لابد وأن يكون قد تصاعد فى وقت جد باكر الى حد أنها أصبحت فى عشق كامل له ، اجابتنى بالطبع اجابتها المألوفة « لاأتذكر ذلك » • ولكنها أردفت مباشره تحكى لى شيئا ممـاثلا عن صبية فى السـابعة تقريبا ، هى ابنة خالتها ، كانت دورا غالبا ماتعتقد أنها ترى فيها نوعا من المرآة لطفولتها • كانت هذه الصبية الصغيرة (ولم يكن ذلك للمرة الأولى) قد شهدت مشاجرة عاصفة بين أبويها ، وعندما حدث بعد ذلك بقليل أن حضرت دورا فى زيادة ، همست الصبية فى أذنهــا « لايمكنك أن تتصورى كم أمقت هذه المرأة ! » (مشيرة الى أمها) ، « وعندما تموت سوف أتزوج بابا » • ومن عادتى أن أنظر الى مثل هذه التداعيات ، التى تقدم شيئا يتفق مع مضمون ماذكرته ، على

(١) ان العامل الحاسم فى هذا السبب هو بلاشك الظهور الباكر لاحاسيس انساليه حقه ، اما بصورة تلقائية ، واما نتيجة غواية أو استمناء •

أنها تأييد من اللاشعور لما قلته . فما من « نعم » من شكل آخر يمكن للاشعور أن يقدمها ، ومامن شيء على الاطلاق يوجد بوصفه « لا » لاشعوريه (١) .

وطوال سنوات بلا انقطاع لم تعبر عن هذه العاطفة المشبوبة نحو أبيها . وعلى العكس من ذلك ظلت دورا زمنا طويلا على أوثق علاقة مع المرأة التى حلت محلها فى علاقتها مع أبيها . وعليه فان حبها لأبيها قد ابتعث حديثا من جديد ، فان كان الأمر كذلك يبرز السؤال عن الهدف الذى من أجله حدث هذا الابتعاث . من الواضح أنه حدث كعرض مضاد ، حتى يكبح شيئا آخر — شيئا كان مايزال يمارس فعالية فى اللاشعور . وبالنظر الى واقع الأحداث لم يسعنى الا أن أفترض ، للوهلة الأولى ، أن ماانكبح كان هو حبها للسيد ك — . ولم يكن بوسعى أن أتجنب الافتراض بأنها كانت ماتزال تحبه ، وبأن حبها ، لأسباب غير معروفة ، منذ مشهد البحيرة ، قد أثار فيها مشاعر عاتية من المعارضة ، وبأنها قد ابتعثت وعززت حبها القديم لأبيها حتى لاتحتفظ بأية فكرة شعورية عن هذا الحب الذى استشعرته فى السنوات الأولى من شبابها ، والذى غدا الآن أليما بالنسبة لها . وبهذه الطريقة تحقق الى استبصار بهذا الصراع الذى كان من شأنه أن يدخل تغييرا جذريا على نفسية الفتاة . فهى من ناحية قد غمرها الأسف لرفضها مطارحة الرجل ، وغمرها الحنين الى صحبته والى الشواهد الصغيرة الناطقة بحبه ، ولكن من ناحية أخرى ، كانت هذه المشاعر من الحب والحنين تناهضها قوى عاتية ، كان كبرياؤها من أبرزها وضوحا . وهكذا نجحت فى أن تقنع نفسها بأن الأمر قد انتهى مع السيد ك — وتلك كانت الميزة التى حصلت هى عليها من هذه العملية النمطية من الكبت . ولكنها مع ذلك كانت مضطرة الى ابتعاث حبها الطفلى لأبيها ، والى

(١) ملاحظة اضافية عام ١٩٢٣ — ثمة شكل آخر من التأييد اللاشعورى جد جدير بالاعتبار وبالثقة التامة ، لم أكن قد تبينته وقتما كتبت ذلك : هو على التحديد تعجب من جانب المريض « لم يخطر لى ذلك » أو « لم أفكر فى ذلك » مما يعنى صراحة نعم كان ذلك «لاشعوريا بالنسبة لى» .

أن تبالغ فيه ، حتى تحمي نفسها ضد مشاعر الحب التى كانت بشكل متصل تتدافع قدما الى شعورها • أما الواقعة الأخرى التى مؤداها أنها كانت دائما تقريبا فريسة لأشد مشاعر الغيرة مرارة ، فيبـــدو وأنها ترجع الى سبب آخر أيضا (١) •

لم يخطىء توقعي بأى حال عندما قابلت دورا هذا التفسير من جانبى بأقصى نفى قاطع • ان كلمة « لا » التى ينطق بها مريض بعد ماتقدم له لأول مرة مكبوتة الى ادراكه الشعورى ، ليست غير دليل على وجود كبت ، وعلى شدته ، فهذه الـــ « لا » هى ، أن جاز القول • مقياس لشدة الكبت • وهذه الـــ « لا » ـــ بدلا من اعتبارها تعبيرا عن حكم موضوعي ، وهو أمر لايقتدر عليه المريض فى واقـــع الأمر ـــ لو أننا تجاهلناها ، ومضينا فى العمل التحليلى ، فســــرعان مايبدأ فى الظهور الدليل الأول على أن « لا » فى مثل هذه الحالة تعنى « نعم » التى نتوقعها • فلقد اعترفت دورا بأنه لم يكن فى وسعها أن تغضب من السيد ك الغضب الذى كان يستحقه • قالت لى انهـــا التقت ذات يوم بالسيد ك ـــ فى الطريق أثناء سيرها مع ابنة عم لها لم تكن تعرف الرجل • ولقد تعجبت ابنة العم هذه على حين فجأة : « ماهذا يادورا ؟ ماذا أصابك ؟ لقد غدوت شاحبة كقماش أبيض ! » أما هى نفسها فلم تستشعر شيئا من هذا الشحوب • ولكنى أوضحت لها أن التعبير عن الانفعال وتغييرات الملامح تخضع للاشعور بأكثر مما تخضع للشعور ، وأن هذه الظواهر هى وسيلة تفضح اللاشعور (٢) • وفى مرة أخرى حضرت الى دورا ، وكان مزاجها أسوأ مايمكن ، بعدما كانت مرحة بصورة منتظمة لبضعة أيام • لم تستطع أن تقدم أى تفسير لذلك • قالت : « كل شىء اليوم يثير سخطى » • كان ذلك يوم

---

(١) سوف نعرض لذلك فيما بعد •

(٢) قارن هذين السطرين من شيلر

"Ruhig meg ich euch erscheiuen"

Ruhig gehen sebn. " Schiller, "Riter Toggenburg."

(بهدوء استطيع ان ارقب مجيئك وبهدوء ارقبك تنصرف)

عيد ميلاد عمها ، ولم يكن بوسعها أن تعقد العزم على تهنئته ، ولم تكن تعرف سببا لذلك . جف معين تفسيراتى فى ذلك اليوم ، فتركتها تمضى فى الحديث ، وفجأة تذكرت أن ذلك اليوم كان أيضا عيد ميلاد السيد ك — وهو أمر لم يفتنى أن استخدمه ضدها . وعندئذ لم يعد من العسير تفسير العلة فى أن الهدايا الأنيقة التى تلقتها فى عيد ميلادها قبل ذلك بأيام قليلة لم تحدث عندها أى سرور . كانت هناك هدية تنقصها ، هى هدية السيد ك — ، وهى الهدية التى كانت بالطبع ذات يوم أعز الهدايا عندها .

ومع ذلك فقد ظلت دورا متشبثة فترة أخرى من الوقت بأنكارها لما أوعية ، حتى خرج الى النور ، قرب نهاية التحليل ، الدليل القاطع على صحته .

ويتحتم على الآن أن اتجه الى تناول تعقيد آخر ، ماكنت بالتأكيد لافسح له أى مكان لو أننى كنت أديبا يصور حالة نفسية من هذا النوع فى قصة قصيرة ، بدلا من كونى طبيبا يعكف على تشريحها . فالعنصر الذى يتحتم أن أشير اليه الآن ليس بوسعه الا أن يلقى بظل من العتامة ، ويأتى على تلك المعالم الشاعرية للصراع الذى استطعنا أن نتبينه عند دورا . هذا العنصر كان ولابد من التضحية به ، وعن حق ، من جانب الرقابة عند الأديب ، لان الأديب فى نهاية الامر يعمل التبسيط والتجريد عندما يقوم بدور النفسانى . ولكن فى عالم الواقع ، وهو الذى أحاول تصويره هنا ، يكون تعقد الدوافع ، وتراكم وتداخل النزعات النفسية ، وباختصار يكون التحتيم بأكثر من سبب هو القاعدة . ذلك أنه وراء سلسلة الأفكار المتسلطة عند دورا عن علاقة أبيها بمدام ك — كانت تكمن حبيسه مشاعر غيرة تتخذ من تلك السيدة موضوع حب — بمعنى أنها مشاعر لم يكن من الممكن أن يكون لها من أساس ألا الحب من جانب دورا لواحدة من بنات جنسها . فمن المعروف منذ زمن بعيد ، ومما حظى كثيرا بالابراز ، أن الصبيان والبنات فى سن البلوغ يبدون ، حتى فى الحالات السوية ، علامات واضحة على وجود حب عندهم

لأناس من جنسهم . فالصداقة العاطفية الرومانتيكية مع زميلة فى الدراسة ، بما فيها من قطع العهود ، والقبلات ، والوعود بالتراسل مدى الحياة ، وكل حساسيات الغيرة ، هى الطليعة التى تسبق عادة عند البنت حبها الأول المشبوب لرجل . وبعد ذلك فان مجرى مشاعر الجنسية المثلية غالبا ماينضب تماما فى الحالات المواتيه . ولكن الفتاة حين لايكتب لها التوفيق فى حبها للرجل ، فان ذلك المجرى غالبا مايعود اليه الليبيدو من جديد ، حتى فى السنوات المتأخرة من العمر . وتزداد شدته بدرجات متفاوته . فاذا كان ذلك هو ماننتبينه بسهولة عند الأسوياء ، واذا وضعنا فى اعتبارنا ماسبق أن قلناه عن التطور الأمعن عند العصابيين للبذور العادية للانحراف ، فاننا نتوقع أن تنطوى جبلتهم على استعداد من الجنسية المثلية أكثر شدة . ذلك مايتحتم أن يكون فى الواقع ، فاننى حتى الآن ماتناولت حالة واحدة من التحليل النفسى ، لرجل أو أمرأة ، دون أن يكون على أن احسب حساب نزعة جد قوية من الجنسية المثلية . فعند المرأة أو الفتاة الهستيرية ، متى تعرض الليبيدو المتجه الى الرجال للقمع الشديد ، فان الليبيدو المتجه الى النساء يتدعم ، بصورة منتظمة وبشكل تعويضى ، بل والى حدما على نحو شعورى .

لن أمضى هنا الى أكثر من ذلك فى هذا الموضوع الهام ، وهو بصفة خاصة موضوع لاغنى عنه فى فهم الهستيريا عند الانسان ، ذلك أن تحليل دورا قد توقف قبل أن يتاح له أن يلقى أى ضوء على هذا الجانب من حياتها النفسية ولكننى أحب أن أعود بالذاكرة الى المربية التى أشرنا اليها من قبل ، والتى استمتعت معها دورا فى البداية بأقصى تفاهم فكرى ، حتى اكتشفت أن اعجاب المربية وتعلقها بها لم يكن من أجلها هى ، بل من أجل أبيها ، وعندما ارغمت المربية على أن ترحل . وكان من عادة دورا أيضا أن تسهب بتواتر ملحوظ ، وبالحاح خاص ، فى حديثها عن حكاية نفور أخرى بدت بغير تفسير حتى بالنسبة لها . كانت دائما على علاقة طيبة بشكل خاص مع الصغرى من ابنتى عمتها وهى الفتاة التى تمت خطبتها بعد ذلك — وكانت تشاركها كل مايمكن

من الأسرار ، وعندما عاد الاب الى بلدة ب — لاول مرة بعد قطع الاقامة على شاطىء البحيرة ، رفضت دورا أن تصاحبه ، وعندئذ دعيت ابنة عمتها الى أن تصحبه بدلا منها فقبلت الدعوة • ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، شعرت دورا بفتور نحوها ، وكانت هى نفسها تعجب من اللامبالاة التى أصبحت عليها تجاه ابنة عمتها ، ولو أنه ، كما أعترفت ، لم يكن هناك شىء كثير يمكن أن تأخذه عليها • هذان المثالان من سرعة التأثر دفعانى الى تقصى ماكانت عليه علاقتها مع مدام ك — الى أن انقطعت العلاقة • وعندئذ تبينت أن السيدة الصغيرة والفتاة التى كانت بالكاد شابة قد عاشتا سنوات فى أوثق علاقة حميمة • وعندما أقامت دورا مع أسرة ك — كانت تشارك مدام ك — غرفة نومها ، بينما كان الزوج يقصى الى غرفة أخرى • وكانت موضع سـر الزوجة لطفليها ، ولم تفعل مدام ك — شيئا بالتأكيد لتعكر علاقة الفتاة بوالد لم يتحدثا فيه • كانت ميديا (١) راضية كل الرضا من مصادقة كريوز لطفليها ، ولم تفعل مدام ك — شيئا بالتأكيد لتعكر علاقة الفتاة بوالد طفليها أما كيف أن دورا استطاعت أن تقع فى حب الرجل الذى كان لدى صديقتها الحبيبة عنه مثل هذه الكثرة من المآخذ ، فتلك مشكلة سيكولوجية طريفة • لن نكون بعيدين عن حل هذه المشكلة اذا ماتبينا أن الأفكار فى اللاشعور تتعايش فى ارتياح تام جنبا الى جنب ، وحتى المتناقضات تمضى معا بلا صدام — وتلك حالة غالبا ماتستمر بدرجة كافية حتى فى الشعور •

عندما كانت دورا تتحدث عن مدام ك — كان من عادتها أن تمتدح « بشرة بدنها ذات البياض الساحر » ، وذلك على نحو أجدر بعاشق منه بغريمة مهزومة • وفى مناسبة أخرى قالت لى ، وهى آسفة أكثر منها غاضبة ، أنها كانت على ثقة من أن الهدايا التى كان أبوها قـد قدمها لها كانت من اختيار مدام ك — لأنها تعرفت فيها على ذوقها •

---

(١) ميديا امرأة فى الاساطير اليونانية أحبت بطـلا يونانيـا يـدعى جاسون وانجبت منه طفلين • وعندما انصرف عنها جاسون ليتزوج كريوزا دفعها اليأس الى قتل طفليها منه ، المترجمون) •

وفى مناسبة أخرى أيضا ذكرت لى أنها تلقت — وكان ذلك بشكل واضح يتدخل من مدام ك — هدية من الحلى تشبه تمام الشبه قطعة من الحلى سبق أن رأتها بين حلى مدام ك — فعبرت عندئذ صراحة عن رغبتها فى مثلها . وأستطيع فى الواقع أن اقرر بصفة عامة اننى ماسمعت منها قط كلمة قاسية أو غاضبة فى حق هذه السيدة ، وأن كان من المفروض ، من زاوية فكرتها المتسلطة،أن تعتبرها المسئولة الاولى عن تعاستها .كان سلوكها يبدو غير منطقى ، ولكن هذه اللامنطقية الظاهرة كانت على وجه الدقة تعبيرا عن تيار من المشاعر بالغ التعقيد . فهذه السيدة ، ألتى كانت دورا متفانية فى اخلاصها لها ، كيف كان سلوكها نحوها ؟ فبعدما القت دورا باتهامها ضد السيد ك — وكتب أبوها اليه يطلب منه ايضاحا ، بادر السيد ك — بالرد عليه معترضا باسمى مشاعر التقدير لها ، ومقترحا مايراه من ضرورة حضوره الى بلدة المصنع لازالة كل سوء فهم . ولكن بعد ذلك بأسابيع قليلة عندما تحدث أبوها اليه فى بلدة ب لم يعد الامر على الاطلاق أمر تقدير . بل على العكس تحدث عنها السيد ك — حديث تحقير ، متخذا ورقته الرابحة من أن فتاة تقرأ مثل هذه الكتب وتهتم بمثل هذه الاشياء ليس لها بحال أن تكون جديرة بالاحترام من رجل . وعليه فان مدام ك — قد فضحت سرها وشوهت سمعتها ، فهى لم تقرأ مانتيجازا Mantegazza الا معها،ولم تتناقش فى الموضوعات المشينة الا معها . كان ذلك تكرارا لما سبق حدوثه مع المربية : فلم تكن مدام ك — تحبها لذاتها بل لحساب أبيها . لقد ضحت بها مدام ك — دون لحظة تردد ، حتى لاتتعكر علاقتها مع أبيها . أن هذه الجرح لمشاعرها قد نال منها ربما بدرجة أعمق ، وربما كان أكثر فاعلية فى توليد المرض بالقياس الى الجرح الآخر — وهو تضحية الاب بها — وهو الجرح الذى حاولت أن تتخذ منه شعارا حاجبا لانجراحها من مدام ك — الم يكن تشبثها العنيد بنسيان مصدر معلوماتها المشينة يرجع مباشرا الى ما توليه من أهمية أنفعالية بالغة للاتهام الموجه ضدها فى هذه المسألة ، وبالتالى لخيانة مدام ك — لسرها ؟ .

ومن هنا ، فلست أرانى مخطئا أذ افترض أن سلسلة الافكـــار المتسلطة عند دررا ، وهى الخاصة بعلاقة ابيها مع مدام ك — لم يكن الهدف منها هو فقط كبح حبها للسيد ك — وهو الحب الذى كان يوما ماشعوريا بل أيضا حجب حبها لمدام ك وهو الحب الذى كان لاشعوريا وعلى مســـتوى أعمـــق • كانت تلك السلســلة من الأفـــكار المتسلطة هى المعكوس تماما لمجرى المشاعر الأخيرة • كانت تحدث نفسها بلا انقطاع بأن أباها قد ضحى بها من أجل هذه السيدة ، وتبدى من المظاهر الصاخبة ماينم عن حسدها لها على امتلاكها الأبيها ، وبهذه الطريقة كانت تحجب عن نفسها الواقعة التى هى عكس ذلك ، وهى أنها كانت تحسد أباها على امتلاكه لحب مدام ك — ، وأنها لم تغتفر للمرأة التى أحبتها الى هذا الحد خيبة الامل ألتى سببتها بخيانتهـــا لسرها • أن غيرتها من هذه المرأة كانت ترتبط فى اللاشعور بغيرة من قبيل مايمكن أن يستشعره رجل • هذه المشاعر المذكرة ، أو بتعبير أصبح مشاعر « الولع بالنساء » من جانب المرأة ، ينبغى اعتبارها خاصية نمطية للحياة الشبقية اللاشعورية عند الفتيات الهستيريات •

٢

الحـــلم الأول



٢

الحــلم الأول

وعند هذه اللحظة بعينها التى لاح فيها أن المعطيات التى تتوارد للتحليل توشك ان تلقى الضوء على نقطه غامضة من طفوله دورا ، ذكرت لى أنها منذ بضعه ليال رأت من جديد حلما سبق أن رأته بنفس الصورة تماما فى مناسبات سابقة عديدة • ان حلما يتكرر بين الحين والحين لهــو بنفس خاصيته هذه جــدير بأن يثــير بشــكل خاص استطلاعيتى ، ومهما كانت الحالة ، فقد كان من حقنا لصالح العــــلاج أن نتفحص الكيفية التى اضطلع بها هذا الحلم بدوره فى السياق الكلى للتحليل • ومن ثم عقدت العزم على أن أقوم ببحث هذا الحلم بعناية خاصة •

وها هو الحلم كما روته دورا : « منزل كان يحترق [١] • وكان أبى واقفا بجوار سريري وأيقظنى • أرتديت ملابسى على عجل • ارادت أمى أن تتوقف لتنقذ علبة حليها ، ولكن أبى قال : (أنى أرفض أن أدع نفسى وطفلى نحترق من أجل علبة حليك) • وهرولنا نازلين على السلم ، وما أن صرت فى الخارج حتى استيقظت » •

وبالنظر الى أن الحلم كان حلما متكررا ، فقد كان من الطبيعى أن أسالها متى راته أول مرة • أجابتنى أنها لاتدرى • ولكنها تذكرت أنها رأت هذا الحلم ثلاث ليال على التعاقب فى بلدة ل — (عند شاطىء البحيرة ، حيث وقع المشهد مع السيد ك) — وقد عاد اليها الحلم الآن من جديد منذ بضعة ليال هنا فى فينا [٢] •وقد زادت بطبيعة الحال توقعاتى

---

(١) فى اجابتها على نقص منى ، قالت لى دورا انه لم ينشب قط فى الواقع حريق فى منزلهم •

(٢) ان مضمون الحلم يجعل من الممكن أنه حدث لأول مرة فى بلدة ل •

انتى كنت أرجوها من استجلاء الحلـــم عندما سمعت عن ارتباطــه بأحداث بلدة ل ــ ولكنى أرغب أولا فى أن أتبين السبب المباشر فى تكرره أخيرا ، ومن ثم سألت دورا أن تتناول الحلم قطعة قطعة ، وأن تخبرنى عما حدث لها مرتبطا بكل قطعة • كانت دورا قد حصلت من قبل على شىء من التدريب فى تفسير الاحلام ، فقد سبق أن حللنــــا بعضا من الأمثلة البسيطة •

ــ قالت : شىء يخطر ببالى ، ولكنه لايمكن أن ينتسب الى الحلم، لأنه حديث جدا بينما رأيت الحلم قبله بكل تأكيد •

ــ أجبت : هذا لايهم • استمرى ؛ سوف يتضـــح ببساطة أن أحدث شىء هو الذى يلتئم مع الحلم •

ــ قالت : حسنا • فقد تشاجر أبى مع أمـــى فى الأيام القليلة الماضية ، لأنها تغلق باب غرفة الطعام أثناء الليل • وغرفة أخى كمــــا تعلم ليس لها مدخل مستقل ، بل لايمكن الدخول اليها الا عن طريق غرفة الطعام • وأبى لايحب أن ينحبس أخى على هذا النحو اثناء الليل ، قائلا « هذا لايجوز أبدا : فقد يحدث شىء أثناء الليل يحتم الخروج من الغرفة » •

ــ قلت : وهذا جعلك تفكرين فى خطر الحريق •

ــ قالت : نعم •

ــ قلت : والآن ، أريدك أن تنتبهى تماما الى كلماتك بالتحديد • فقد نحتاج للرجوع اليها • فقد قلت : « فقد يحدث شىء أثناء الليل يحتم الخروج من الغرفة » (١) •

---

(١) الحت بالاهمية على هذه الكلمات لانها ادهشتنى : كانت توحى =

ولكن دورا قد اكتشفت الآن نقطة الوصل بين السبب الحديث الذى أطلق الحلم والسبب الأصلى ، فقد مضت تقول :

— عندما وصلنا ، أبى وأنا ، الى بلدة ل — فى ذلك الوقت ، قال أبى بصراحة أنه كان يخشى من حريق • فقد وصلنا أثناء عاصفة رعدية عاتية ، ووجدنا البيت الخشبى الصغير خاليا من أى مانع للصواعق • ومن ثم كان قلقه طبيعيا تماما •

عندئذ كان على أن أقيم الصلة بين الاحداث التى وقعت فى بلدة ل — وبين الحلم الذى كانت قد تكررت رؤيتها له هناك •

— فمضيت أسأل : هل رأيت الحلم فى لياليك الأولى ببلدة ل — أم فى لياليك الاخيرة ؟ وبعبارة أخرى : قبل أو بعد مشهد الغابة عند شاطىء البحيرة ، وهو المشهد الذى كثر الحديث عنه ؟ (وينبغى أن أوضح باننى كنت أعرف أن المشهد لم يحدث فى اليوم الأول مباشرة • وأنها قد مكثت فى بلدة ل — لبضعة أيام بعد هذا المشهد دون أن تبدى أية أشارة الى هذا الحادث) •

كانت اجابتها الأولى : « لاأدرى » ، ولكنهـــا أضافت بعد برهة : « نعم • أعتقد أن ذلك كان بعد المشهد » •

وهكذا عرفت الآن أن الحلم كان استجابة لتلك التجربة • ولكن لماذا تكرر الحلم هنالك ثلاث مرات ؟ وتابعت أسئلتى :

— كم من الوقت بقيت فى بلدة ل — بعد ذلك المشهد ؟ •

= بالقياس أليست هناك مطالب بدنية معينة تشير اليها نفس هــذه الكلمات ؟ ففى سلسلة من التداعيات تعمل الكلمات الملتبسة (أو كما يمكن أن نسميها « كلمات مفاتيح التحويل ») كنقط للوصل • فاذا ما «تحولت» هذه النقط فى اتجاه آخر غير هذا الذى بدت عليه فى الحلم ، اننا نجد أنفسنا عندئذ على « سكة » جديدة • وعلى طول هذا الخط الجديد تجرى الافكــار التى نبحث عنها ، والتى ما تزال بعد خبيئة وراء الحلم •

ــ أجابت : أربعة أيام (١) أخرى • وفى اليوم الخامس رحلت مع أبى •

ــ قلت : أننى على ثقة الآن من أن الحلم كان نتيجة مباشـــرة لتجربتك مع السيد ك ــ وأنك قد رأيت هذا الحلم اول مارأيته فى بلدة ل ــ وليس قبل ذلك • ولكنك فقط أضفيت عليه عدم التأكد فى ذاكرتك حتى تطمس فى ذهنك علاقته بالمشهد (٢) • ولكن الارقام ليست بعـــد منسجمة بالقدر الذى يرضينى مادمت قد بقيت فى بلدة ل ــ أربعـــة أيام أخرى ، فقد كان من الممكن للحلم أن يتكرر أربع مرات • ربما كان الأمر كذلك ؟ •

ثم تعد دورا تعترض على ماأقوله ، ولكنها بدلا من أن تجيب على سؤالى مضت تقول (٣) :

ــ فى عصر ذلك اليوم ، بعد نزهتنا على البحيرة ، وكنا قد عـــدنا (السيد ك ــ وأنا) فى الظهيرة ، ذهبت كعادتى لاغفاءة قصيرة ، استلقى على الأريكة فى غرفة النوم • وفجأة صحوت لأجد السيد ك ــ يقف بجوارى •

سألتها : تماما كما رأيت أباك يقف الى جوار سريرك فى الحلم ؟

ــ قالت : نعم • وسألته فى احتداد ماذا جاء يفعل هنا • قال من قبيل الرد أن ما من شىء يمنعه حين يشاء من أن يدخل غرفة نومه ، وفضلا عن ذلك فقد كان هناك ــ على حد قوله ــ شىء يفتش عنه • وهذه الحادثة جعلتنى احترز ، فسألت مدام ك ــ ما أن كان هناك مفتاح لباب غرفة النوم • وفى صباح اليوم التالى (اليـــوم الثانى للمشهد) أغلقت الباب على نفسى بينما كنت أرتدى ملابسى • ولكن

---

(١) (المقصود أربع ليال • ويوم المشهد هو الليلة الاولى ، واليوم الثانى للمشهد ــ حيث ضاع المفتاح فى العصر هو الليلة حيث ظهر الحلم الاول وتكرر فى الليلتين الثالثة والرابعة ليكمل مراته الثلاث ــ المترجمون)•

(٢) قارن ما قلناه على ص ١٨ فى موضوع الشك المصاحب لذكرى •

(٣) حدث ذلك بسبب قطعة جديدة من المعطيات كان يتحتم أن تبزغ من الذكرة قبل ان يكون من الممكن الاجابة على سؤالى •

عندما أردت فى العصر أن أغلق الباب على نفسى لأستلقى على الأريكة مرة أخرى ، كان المفتاح قد اختفى • وأنى على ثقه من أن السيد ك — هو الذى أخفاه •

ــ قلت : واذن فها نحن هنا أمام مشكلة أغلاق أو عدم اغلاق غرفة • وهى المشكلة التى ظهرت من التداعيات الاولى للحلم ، والتى تصادف أن وقعت بأسهمت كسبب مباشر فى تكـرار الحلم حديثاً (١) • وأنى لأتساءل ماأن كانت العبارة « أرتدى ملابسى على عجل » لاتنتمى أيضا الى نفس هذا السياق ؟ •

ــ قالت : وعندئذ كان أن صممت على أن لاأقيم مع السيد ك — بغير أبى • وفى صباح الأيام التالية لم أكن أستطيع أن أغالب خــوفى من أن يفاجئنى السيد ك ــ وأنا أرتدى ملابسى : فقــــد كنت دائمــا أرتدى ملابسى على عجل جدا • فقد كان أبى كما تعلم ينزل بالفندق، وكان من عادة مدام ك ــ أن تبكر فى الخروج صباحا لتذهب فى نزهة معه • ولكن السيد ك لم يعد الى مضايقتى مرة أخرى •

ــ قلت : انى أفهم ذلك • ففى عصر اليوم الثانى للمشهد صممت على أن تفلتى من مضايقاته ، وكانت الفرصة امامك خلال الليلة الثانية والثالثة والرابعة لتكررى هذا التصميم أثناء نومك • (وفى عصر اليوم الثانى للمشهد كنت تعلمين بالفعل ، أى قبل الحلم اذن ، أن المفتاح لن يكون فى حوزتك فى صباح اليوم التالى ــ الثالث للمشهد ــ حتى تغلقيه على نفسك أثناء ارتدائك لملابسك ، ومن هنا كان تصميمك أن ترتدى ملابسك بأقصى عجلة) • ولكن الحلم تكرر فى كل ليلة ، وذلك على

---

(١) انى افترض ، وأن لم أخبر دورا حتى الان بذلك ، أنها قفزت على هذا العنصر بالنظر الى ماله من دلالة رمزية • فالغرفة Zimmer كثيرا جدا ماتكون فى الاحلام رمز « المرأة » Frauenzimmer وهى كلمة ازدراء هينة تعبر عن « المرأة » وتعنى حرفيا « غرف النساء ») • ومسألة ما أن كانت المرأة « مفتوحة » أو « مغلقة » لايمكن بالطبع أن تكون مسألة عديمة الاهمية • وجد معروف أيضا نوع « المفتاح » الذى يحقق الفتح فى مثل هذه الحالة •

وجه الدته لأنه كان يعبر عن تصميم . فالتصميم يستمر فى البقاء حتى يتم تنفيذه . . وكأنى بك قلت لنفسك : « لن أعرف الراحة ، ولن أذوق النوم الهادىء الا بعد أن أصير خارج هـذا البيت » . وفى حكايتك للحلم قلبت الامر فقلت : « وما أن صرت فى الخـــارج حتى استيقظت » .

* * *

عند هذه النقطة أقطع حديثى عن التحليل كيما أقارن هذا الجزء الصغير من تفسير الحلم بالقواعد العامة التى وضعتها عند ميكانزم تكوين الاحلام . ففى كتابى (1) نافحت عن أن كل حلم هو رغبه متحققه ، وأن هذا التمثل الذى تظهر عليه يحقق التموية اذا ماكانت الرغبـــة مكبوتة ، تنتمى الى اللاشعور ، وأنه باستثناء حالات أحلام الأطفال، فان الرغبة اللاشعورية ، أو الرغبة التى غاصت عميقا فى اللاشعور ، هى وحدها التى تملك القوة اللازمة لتكوين حلم . وكانت نظريتى فيما أتصور ستلقى بالتأكيد تقبلا عاما لو أننى قنعت بالقول بأن كل حلم له معنى ، ويمكن الكشف عنه باستخدام عملية تفسير معينة ، وأن التفسير متى أكتمل ، يكون من الممكن أن نضع فى مكان الحلم أفكـــاراً لها مكانها عند نقطة يسهل التعرف عليها من الحياة النفسية اليقظة للحالم . وكان بوسعى عندئذ أن أمضى الى القول بأن معنى الحلم قد تكشف متباينا فى أنواعه تباين العمليات الفكرية فى اليقظة ، ففى حالة يتكشف رغبة متحققة ، وفى حالة أخرى خوفا متحققا ، وفى حالة أخرى أيضا تفكيرا يثابر مستمرا فى النوم ، أو تصميما (كما فى حالة حلم دورا) ، أو قطعة من الفكر الخلاق أثناء النوم ، وهكذا . أن نظرية كهذه كانت ولاشك ، بسبب بساطتها المسرفة ، تكون جذابة ، وكان من الممكن تدعيمها بكثرة من الأمثلة من الأحلام التى أحسن تفسيرها ، من قبيل هذا المثال الذى قمنا بتحليله فى هذه الصفحات .

(1) (تفسير الاحلام دار المعارف بمصر . الفصل السادس)
Die Traumdeutung 1900

ولكنى بدلا من ذلك قمت بصياغة تعميم يجعل معنى الأحلام قاصرا على شكل واحد ، هو تمثيل الرغبات ، فاستثرت بذلك ميلا عاما الى معارضتى . ولكن يتحتم على أن أضيف أننى لم أعتبر من حقى ولا من واجبى أن ألجأ الى تبسيط عملية سيكولوجية كيما أجعلهـــا بذلك أكثر تقبلا عند قرائى ، بينما كشفت فى أبحاثى عن أن هذه العملية تنطوى على تعقيد يستحيل خفضه الى الشكل الواحد قبل أن ينتقل البحث الى حقل آخر . ومن هنا فانه لما ينطـــوى على أهميـــة خاصة بالنسبة لى أن أكتشف عن أن الاستثناءات الظاهرة ـــ من قبيل حلم دورا هذا ، الذى بدأ لأول وهلة استمرارا خلال النوم لتصميم أثناء النهار ـــ يقدم مع ذلك تأييدا جديدا للقاعدة موضوع النزاع .

* * *

وعلى أية حال ، فأغلب الحلم ما يزال باقيا بغير تفسير ، فمضيت أسأل :

ـــ قلت : وماذا لديك عن علبة الحلى التى أرادت أمك أن تنقذها ؟

ـــ قالت : أمى شديدة الولع بالحلى ، وكان لديها الكثير مما قدمه أبى لهـــا .

ـــ قلت : وأنت ؟

ـــ قالت : كنت فى وقت ما شديدة الولع بالحلى أنا الاخرى ، ولكنى منذ مرضى لم أعد أضـــع أى حلى . ـــ وذات مـــرة منذ أربع سنوات (قبل الحلم بعام) ، وقعت مشاجرة كبيرة بين بابا وماما حول قطعة حلى وكانت ماما تريد منه قطعة بعينها قـــرط دلاية من « نقـــط » (١)

---

(١) (فضلنا كلمة « نقط » على كلمة « حبات » لان الكلمة الافرنجيـــة تصلح فى نفس الوقت لاستخدامات أخرى : نقط بول ، نقط افرازات بيضاء ... ومن هنا كان استخدامها فى حلم ككلمة وصل ـ المترجمون) .

اللؤلؤ تضعه فى أذنيها • ولكن بابا لايحب هـذا النـوع من الحلى ، فأحضر لها سوارا بدلا من دلاية الأذن : أستشاطت غضبا وقالت له و أما وأنه قد أنفق كل هذا المال فى هدية لاتريدها ، فالأجدربه أن يقوم هذه الهدية الى أخرى •

قلت : يخيل لى أنك قلت لنفسك عندئذ أنك ستقبلينها بسرور •

ــ قالت : لا أدرى (١) • بل ولا أدرى سبب دخول ماما فى هذا الحلم ، فهى لم تكن معنا فى بلدة ل ــ فى ذلك الوقت (٢) •

قلت : سوف أفسر لك ذلك فيما بعد • ألا يخطر ببالك شىء آخر يرتبط بعلبة الحلى ؟ فحتى الآن تكلمت عن الحلى فقط : ولكنك لم تذكرى شيئا عن العلبة •

ــ قالت : نعم • فقبل ذلك بوقت قصير أهدى الى السيد ك ــ علبة حلى غالية الثمن •

ــ قلت : وعندئذ والرد على الهدية بهدية يمكن أن يكـون جد ملائم • ربما لاتعلمين أن علبة الحلى Schmuckkastchen هى تعبير شائع عن نفس هذا الشىء الذى أشرت اليه أنت منذ وقت غير بعيـد بكيس النقود الذى كنت تحملينه (٣) ــ أى تعبير شائع عن الاعضـاء التناسلية الأنثوية •

قالت : كنت أعرف أنك ستقول ذلك (٤) •

---

(١) تلك كانت فى ذلك الوقت صيغتها المألوفة للاعتراف بفكرة مكبوتة؟

(٢) هذه الملاحظة تشهد بانعدام تام لفهم قواعد تفسير الاحلام ، مع أن دورا كانت فى مناسبات أخرى على دراية تامة بهـا • هـذه الواقعة ، بالاضافة الى التردد وضآلة التداعيات عن علبة الحلى ، كشفت لى عن أننا كنا ازاء عادة سبق أن أصابها كبت شديد جدا •

(٣) هذه الاشارة الى كيس النقود سوف يأتى أيضاحها فيما بعـد (ص ٩٢) •

(٤) تلك طريقة جد شائعة لابعاد بعض المعطيات التى تنبثق مـن المكبوتات •

— قلت : أى أنك كنت تعرفين ذلك • — بل أن معنى الحلم يغدو الآن أكثر وضوحا • قلت لنفسك : « ان هذا الرجل يضايقنى ، أنه يريد أن يدخل عنوة فى غرفتى • فعلبة حليى فى خطر ، واذا حدث اى شىء فالغلطة غلطة ابى » • ومن اجل هذا السبب قمت فى الحلم باختيار موقف يعبر عن الضد — خطر منه ينقذك أبوك • ففى هذا الجزء من الحلم كل شىء مقلوب الى الضد ، وسوف نتبين حالا سبب ذلك • وكما قلت فان الغموض ينصب على أمك • اذ تتساءلين : ماسبب دخول ماما فى هذا الحلم ؟ ان ماما كما تعرفين هى غريمتك السابقة فى حبك لأبيك • ففى واقعة السوار كنت تكونين مسرورة بقبول هذا الذى رفضته أمك • والان دعينا فقط بدلا من كلمة « قبول » هذه نضع كلمة « اعطاء » : وبدلا من كلمة « ترفضه » نضع كلمة « تمنعه » •. وعندئذ يكون المعنى أنك كنت على أستعداد لاعطاء أبيك هذا الذى كانت أمك تمنعه عنه ، وهذا الشىء المعنى يرتبط بالحلى (١) • والآن ، عودى بالذاكرة الى علبة الحلى التى أهداها اليك السيد ك — ، فهى منطلق لسلسلة موازية من الافكار ، التى فيها ينبغى وضع السيد ك — بدلا من أبيك ، تماما على نحو ماكان عليه الوقوف بجوار سريرك • لقد قدم اليك السيد ك علبة حلى ، ومن ثم يكون عليك أن تقدمى اليه علبة حليك • هذا هو السبب فى أننى تحدثت ، منذ برهة عن « الرد على الهدية بهدية » • وفى هذه السلسلة من الأفكار ينبغى وضع مدام ك — بدلا من أمك • (فلن يكون بوسعك على أى حال أن تنكرى وجودها فى ذلك الوقت •) وهكذا فأنت على أستعداد لاعطاء السيد ك ماتمنعه عنه زوجته • هذه هى الفكرة التى كان يتحتم كبتها بكل هذه الشدة ، والتى جعلت من المحتم على كل عنصر من عناصرها أن ينقلب الى ضده • فالحلم يؤكد من جديد ماسبق أن قلته لك قبل رؤيتك لهذا الحلم — وهو أنك تبتعثين حبك القديم لأبيك كيما تدافعين به عن نفسك ضد حبك للسيد ك — • ولكن ماالذى تكشف عنه كل هذه

---

(١) بل سيكون بوسعنا فيما بعد تفسير « نقط » اللؤلؤ على نحو ينسجم مع السياق الكلى •

الجهود ؟ ليس فقط أنك تخافين من السيد ك — ، ولكن أيضا وبدرجة أعظم تخافين من نفسك ، ومما تستشعرينه من غواية الاستسلام له . وباختصار فان هذه الجهود تكشف مرة أخرى عن عمق حبك له (١).

لم ترغب دورا بطبيعة الحال فى تقبل هذا الجزء من التفسير . ومع ذلك ، فقد تمكنت أنا نفسى من أن أمضى بالتفسير خطوة أبعد ، وهى خطوة بدت ، وهى خطوة بدت لى ولا غنـى عنها ، سواء بالنسبة الى تاريخ الحالة أو بالنسبة الى نظرية الأحـلام . فوعدت دورا بـأن أخبرها بذلك فى الجلسة التاليه .

لم يكن بوسعى فى الواقع أن أتغاضى عن التلميح الذى تراءى لى من هذه الكلمات الملتبسة التى سبقت الاشارة اليها — فقد يكون من الضرورى الخروج من الغرفه ، فقد يحدث حادث أثناء الليل . أضف الى ذلك أن تفسير الحلم كان يبدو لى غير مكتمل ، طالما أن شرطا ، بعينه لم يتم الوفاء به ، فانى وأن لم أشأ أن أؤكد التعميم العادى المطلق لهذا الشرط الا أننى أستشعر ميلا قويا للعثور على وسيلة للوفاء به فالحلم العادى التكوين يقف أن جاز القول على ساقين،أحداهما ترتبط بالسبب المباشر الأساسى الحديث ، والاخرى ترتبط بحدث عظيم الاهمية فى سنوات الطفولة ويقيم الحلم ارتباطا بين هذين العاملين — بين الحدث الذى وقـع فى الطفولة ، والحدث الذى وقع فى الوقت الحاضر — ويحاول الحلم أن يعيد تشكيل الحاضر وفق أنموذج الماضى البعيد . فالرغبة التى تولد الحلم تنبعث دائما من فترة الطفولة ، تحـاول بلا انقطاع أن تبتعث الطفولة من جديد فى الواقع ، وأن تصحيح الحاضر

(١) وأضيف أيضا مايلى : « هذا الى أن عودة الحلم الى الظهور منذ أيام قليلة يرغمنى على أن استنتج أنك تعتبرين الموقف نفسه قد أنبعث من جديد ، وانك قد صممت على التخلى عن العلاج — هذا الذى لايحملك عليه ، فى نهاية الامر ، غير أبيك . وما أتى بعد ذلك قد كشف عن صدق حدسى . فى هذه النقطة يمس تفسيرى على عجل موضوع « التحويل » — وهو من أعظم الموضوعات أهمية من الناحيتين العملية والنظرية ، ولكنى لن تتاح فى هذا المقال فرص أخرى أفسح للتعمق فيه .

وفق معايير الطفولة وانى لاعتقـد اننى استطعت بالفعل أن استكشف بشكل واضح هذه العناصر من حلم دورا التى يمكن أن تأتلف معـا مؤشرا الى حدث فى طفولتها .

شرعت فى مناقشة الموضوع بتجربة صغيرة نجحت كالمادة . حدث أن كانت على المنضده علبة ثقاب كبيرة . وسألت دورا أن تنظر لترى ما أن كان على المنضده شىء غير عادى لم يكن فى العادة موجودا ولكنها لم تتبين شيئا . عندئذ سألتها ما أن كانت تعرف السبب فى أن الأطفال يحرم عليهم اللعب بالثقاب .

ـ قالت : نعم ، خوفا من خطر الحريق . فأبناء عمى شديد والولع باللعب بالثقاب .

ـ قلت : خطر الحريق ليس وحده السبب فى تحذيرهم من «اللعب بالنار » فهناك أعتقاد معين يرتبط بهذا التحذير لم تكن تعرف شيئا عن ذلك .

ـ قلت : حسنا اذن ، انه الخوف من تبليلهم لفراشهم أن هم لعبوا بالنار » فهناك اعتقاد معين يرتبط بهذا التحذير .

لم تكن تعرف شيئا عن ذلك ؟

ـ قلت : حسنا اذن ، انه الخوف من تبليلهم لفراشهم أن هم لعبوا بالنار والتضاد ما بين « المـــــاء » و « النار » لابد وأن يكون الاساس لهذا الاعتقاد . فربما يكون الاعتقاد أنهم سوف يحلمون بالنار وعندئذ يحاولون اطفاءها بالمــاء . ولاأستطيع أن أجزم أن كان الامر فى واقعة كذلك . ولكننى ألاحظ أن التضاد بين المـاء والنار قد استغله حلمك الى أقصى حـــد . فأمك أرادت انقاذ علبة الحلى حتى لا تحترق ، بينما على العكس فى الأفكار الكامنة للحـــلم يتعلق الأمر بانقاذ علبة الحلى حتى لاتبتل . ولكن النار لايقتصر استخدامها على كونها المضاد للماء ، فهى تستخدم أيضا رمزا مباشرا للحب (كما فى التعبير « يحترق حبا ») . وهكذا ابتدأ من « النار » تمضى سلسلة من التداعيات عن طريق هذا المعنى الرمزى الى أفكـار الحب ، بينما تمضى سلسلة أخـرى مـن

التداعيات عن طريق الضاد « الـــاء » فى أتجاه آخر ، وذلك بعدما يخرج منها خط فرعى يمضى ليرتبط من ناحية أخرى مع الحب (لأن الحب هو الآخر يجعل الأشياء تبتل) ــ نقول تمضى هذه السلسلة الأخـــرى فى اتجاه آخر • ولكن ماذا يمكن أن يكون هذا الاتجاه ؟ تأملى العبارات التى نطقت بها : فقد يحدث حادث أثناء الليـــل ، فقـــد يكون من الضرورى الخـــروج من الغـــرفة • ألا يعنى ذلك بالضرورة حاجة بدنية ؟ فاذا ما انتقلت بالحادث الى الطفولة فماذا يمكن أن يكون غير تبليل الفراش ؟ ولكن ما الذى يتبع فى العادة لمنع الأطفال من تبليل فراشـــهم ؟ ألا يتم ايقاظهم من نومهم أثناء الليل ، تماما كما أيقظك أبوك فى الحلم ؟ ذلك اذن هو الحادث الواقعى فى الطفولة الذى خول لك أن تضعى أباك بدلا من السيد ك ــ الذى أيقظك فى الواقع من نومك • وبذلك أرانى مضـــطرا الى أن أستنتج أنك كنت تدمنين تبليل فراشك الى سن متأخرة بالقياس الى المألوف عند الاطفال • ولابد أن ذلك كان صحيحا أيضا بالنسبة الى أخيك ، اذ قال أبوك : « أننى ارفض أن يتعرض طفلى للهلاك •• » فليس لأخيك أى نوع آخر من الارتباط يربطه بالموقف الحقيقى مع أسرة ك ، فهو يذهب معك الى بلدة ل ــ والآن فبماذا تجيب ذكرياتك عـــلى ذلك ؟

ــ أجابت : لست أيكر شيئا فيما يتعلق بى • ولكن أخى اعتاد أن يبلل فراشه حتى عامه السادس أو السابع ، وكان أحيانا مايحـــدث له ذلك أثناء النهار أيضـــا •

وكنت على وشك أن أبين لها كيف أن المرء يتذكر مثل هذه الأشيـــاء عن أخيه بأيسر كثيرا من أن يتذكرها عن نفســـه ولكنهـــا استطردت فى سلسلة ذكرياتها التى انبعثت :

ــ قالت : نعم ، فقد اعتدت أن أفعل ذلك أيضـــا ، ولكن ذلك لم يحدث الا فى السابعة أو الثامنة ، ولبعض الوقت • ولا شك أن الامر كان خطيرا ، فانى أتذكر الآن أنه تطلب استدعاء الطبيب • وقد استمرت الحالة الى ماقبل ظهور الربو العصبى عندى بوقت قصير •

ــ قلت : وماذا قال الطبيب عن هذه الحالة ؟

قالت : شخصها على أنها ضعف عصبى وسوف تزول سريعا فى رأيه • وقد وصف لى مقويات (١) •

والآن بدا لى أن تفسير الحلم قد أكتمل (٢) • ولكن دورا فى اليوم التالى مباشرة أتت لى بملحق للحلم • قالت لى بأنها نسيت أن تخبرنى بأنها كانت فى كل مرة بعد استيقاظها مباشرة تشم رائحة دخان ، والدخان بطبيعة الحال يلتئم تماما مع النار ، ولكنه يكشف أيضا عن أن الحلم كانت له صلة خاصة بى • فعندما كانت تؤكد كعادتها أن ما من شىء يختبىء وراء هذا أو ذاك ، كنت غالبا ما أقول من قبيل الرد : « ما من دخـــان بغير نار ! » ولكن دورا احتجت على مثل هذا التفسير الشخصى الخالص ، قائلة بأن السيد ك ــ وأباها هما من المولعين بالتدخين ــ كما أنا أيضا فى هذا الامر • وهى نفسها قد دخنت أثناء اقامتها على شاطىء البحيرة وكان السيد ك ــ قد لف لها سيجارة قبـــل أن يقـــدم على محاولتـــه المشئومة • وكانت تعتقد أيضا بأنها تتذكر بوضوح أنها لاحظت رائحة الدخان هذه المرات الثلاث التى رأت فيها الحلم فى بلدة لْ ــ ، فهى لم تظهر اذن لأول مرة مع التكرار الأخير الحلم بحيث لم تكن ترغـــب فى أن تزودنى بأية معلومات أخـــرى ، فقد وقع على عاتقى أن أحـــدد الكيفية التى يلتئم بها هذا الملحق ضمن النسيج الكلى لأفكـــار الحلم الكامنة • ثمة واقعة يمكننى أن أتخذ منها نقطة ارتكاز ، وهى أن رائحة الدخان لم تنبثق الا كملحق للحلم ، ومن ثم فلابد وأنه كان عليها أن تتغلب على مقاومة شديدة بنوع خاص من جانب الكبت • ومن ثم فقـــد كان من المحتمل أن تكون رائحة الدخان هذه مرتبطة بأفكار الحلم الأكثر غموضا فى عرضها ، والاكثر اكتمالا فى انكباتها ، أى بتلك الافكار التى

---

(١) كان هذا الطبيب هو الوحيد الذى حظى بشىء من ثقتها ، اذا كشفت لها هذه الواقعة عن أنه لم ينفذ الى سرها • كانت تخشى أى طبيب آخر لم يتح لها أن تكون فكرة عنه ، وبوسعنا الان ان نتبين أن الدافع الى خوفها انما كان احتمال أن ينفذ الطبيب الأخر الى سرها •

(٢) أن لب الحلم ربما يمكن ترجمته فى كلمات كهذه : « أن الغواية بالغـــة الشدة ، أبتاه العزيز ، احمنى من جديد كمـــا اعتدت أن تفعـــل فى طفولتى ، حتى تحمى فراشى من أن يبتل » •

تدور حول الغواية التى تكشف فيها عن نفسها رغبــة فى الاستســلام للرجل • فاذا كان الأمــر كذلك ، فان ملحق الحلم لا يكاد يعنى شــيئا آخر غير صبابتها الى قبلة من مدخن ، تفــوح منها بالضرورة رائحــة الدخان وهناك قبلة حدثت بين السيد ك ودورا قبــل ذلك بنحو عامين ، وكان من المؤكد أن تتكرر أكثر من مرة لو أنها استسلمت له • ومن هنا فان أفكار الغواية تبدو بهذه الطريقة ترديدا للمشهد الابكــر ، واحياء لذكرى القبلة ، تلك التى دافعت ضــد غوايتها فى ذلك الوقت « ماصــة الابهام » الصغيرة عن نفسها بمشاعر الاشمئزاز • وأخيرا ، وقد وضعت فى الاعتبار الدلائل التى تشير فيما يبدو الى وجود تحويل على — حيث أنى مدخن أيضا — فقد حصلت الى أنه من المحتمل أن تكون قد خطرت لها يوما أثناء الجلسة رغبة فى أن تحصل منى على قبله • وعندئذ يمكن أن يكون ذلك هو السبب المباشر الذى أدى بها الى تكرار حلم التحذير، والى أن تعقد العزم على وقف العلاج • هذه النظرة تتيح لكل العناصر أن تلتئم معا على نحو يبعث غاية الرضا ، ولكن بالنظر الى الخصائص المميزة « للتحويل » فان هذه النظرة لا يمكن تقديم الدليل الحاســم على صــدقها •

عند هذه النقطــة كان من الممكن أن أتردد بين طريقــين : هل أبدأ بتناول مايلقيه هذا الحلم من ضوء على تاريخ الحالة ، أم أبدأ بالحرى بتنــاول الاعتراض الموجــه الى نظريتى فى الاحــلام ، والتى يمكن استخلاصها من هذا الحلم ؛ لقد اخترت الطريق الأول •

أن دلالة تبليل الفراش فى التاريخ الباكر للعصــابيين لأمر جدير بالدراسة العميقة • ومن أجل الوضوح اقتصر على الاشارة الى أن حالة تبليل الفراش عند دورا لم تكن الحالة المألوفة • فالاضطراب لم يكن ينحصر ببساطة فى أن العادة قد استمرت الى مابعد الفترة التى تعتبر عادة ، بل أن تلك العادة ، بحسب أقوالها الصريحة ، قد بدأت بالاختفاء، ثم عادت الى الظهور بعد ذلك من جديد فى وقت متأخر نسبيا ، أى بعد عامها السادس • أن تبليل الفراش من هذا النوع ليس له — بحسب أقصى علمى — من سبب أكثر معقولية من الاستمناء ، وهو الذى لم تحظ

أهميته حتى الآن مما تستحقه من تقدير كسبب مولد لحالات تبليل الفراش بصورة عامة • وبحسب خبرتي ، فان هذا الارتباط كان الأطفال أنفسهم في وقت ما على وعي تام به ، وكل النتائج النفسية التي تترتب على هذا الارتباط تميل الى تثبيت انهم لم ينسوه قط • وفي الوقت الذي روت فيه دورا حلمها ، كان البحث يمضي بنا في طريق يوشك أن يؤدي مباشرة الى تسليم من جانبها بأنها مارست الاستمناء في طفولتها • فقبل ذلك بفترة قصيرة كانت قد سألتني لماذا هي بالذات التي أصابها المرض ، وقبل أن أتمكن من الاجابة ، ألقت بلائمة ذلك على أبيها • وكانت مبرراتها في ذلك تصدر لا عن أفكارها اللاشعورية ، وانما عن معارفها الشعورية • وقد أدهشني ما اتضح لي من أن الفتاة كانت تعرف طبيعة مرض أبيها فبعد ما عاد من استشارته لي ترامى الى سمعها حديث جاء فيه اسم المرض • وفي وقت أبكر — وقت الانفصال الشبكي — لا بد وأن يكون طبيب العيون الذي استدعى وقتئذ قد أشار الى الزهري كسبب للمرض ، اذ أن الفتاة ، في تقصيها وقلقها ، سمعت في ذلك الوقت عمة عجوزا لها تقول لأمها : « لقد كان مريضا قبل ز جه ، أنت تعرفين» ، ثم أضافت شيئا لم تستطع الفتاة فهمه ، ولكنها ربطته في ذهنها فيما بعد بأمور غير لائقة •

وأذن فقد وقع أبوها في المرض صريع حياة ماجنة ، وكانت دورا تعتقد أنه نقل اليها اعتلال صحته بالوراثة • وقد حرصت على أن لا أخبرها أنني كنت أنا أيضا أعتقد كما سبق أن ذكرت (انظر ص ٢٣) أن مرضى الزهري يكون لدى نسلهم استعداد قوي بصفة خاصة للاصابة بالاذهنة العصبية الخطيرة • وكان هذا الخط الفكري ، الذي جاء فيه اتهامها هذا لأبيها ، يجد ما يكمله في معطياتها اللاشعورية • فخلال عدة أيام دون انقطاع ، توحدت دورا مع أمها عن طريق أعراض خفيفة وخصال غريبة ، مما أتاح لها فرصة لانجازات لافتة حقا في مجال السلوك الذي لا يطاق ، ثم كشفت عن أنها تفكر في فترة كانت قد قضتها في فرانتزنزباد Frauzensbad التي قصدت اليها مع أمها — لا أدري في أي عام • كانت أمها تشكو من آلام في أسفل البطن ومن افرازات بيضاء ،

مما استلزم علاجا فى فرانتزنزباد كانت دورا تعتقد — وربما كانت على حق هنا أيضا — أن هذا المرض كان راجعا الى أبيها ، الذى نقل الى أمها مرضه التناسلى • وكان من الطبيعى جـدا فى استنتاجها هذا — شأنها شأن الغالبية من غير الاخصائيين — أنها خلطت بين السـيلان والزهرى — بين ما يرجع الى العدوى وما يرجع الى الوراثة • وكـان تشبثها بهذا التوحيد مع أمها الى الحد الذى أرغمنى على أن أسألهـا ما أن كانت تشكو هى أيضـا من مرض تناسلى ، وعندئذ علمت أنها مصابة بافرازات بيضاء (لوكوريا)[1] لا تذكر متى بدأت •

وعندئذ تبينت أن هذه السلسلة من الافكار التى أوردت فيهـا هذه الاتهامات الصريحة ضد أبيها وكان يكمن وراءها خبيئا ، كما هـو العادة ، اتهام ضد الذات •

واستبقتها بأن أكدت لها أنى أعتقد أن الافرازات البيضـاء عند الفتيات الصغيرات ترجع فى المقام الاول الى الاستمناء ، وأنى أعتقـد أن الأسباب الاخرى التى تعد فى العادة مسئولة عن هذه العـلة تجىء فى الاهمية بعـد الاستمناء[2] • وأضفت أنها الآن فى طريقهـا الى الاجابة عن سؤالها — لماذا هى بالذات وقعت صريعة لمرض — وذلك باعترافها بأنها مارست الاستمناء ، ربما فى الطفولة • أنكـرت دورا بحرارة أنها تذكر أى شىء من ذلك • ولكن بعد أيام قليلة صدر منها شىء لم يكن بوسعى الا أن أعتبره خطوة أخرى الى الاعتراف • ففى ذلك اليوم كانت تضع فى خصرها — وهو أمر لم تفعله فى أية مناسبة

---

(١) (اللوكوريا افراز مخاطى من المهبل نتيجة التهاب غشائه المطاطى، ومن هنا استخدمت كلمة catarrh للدلالة على المعنى ، وكلمة catarrh تفيد أيضا افراز نتيجة التهاب الغشاء المخاطى للجهاز التنفسى • وفيما بعد سنلتقى بكلمة catarrh هذه ككلمة وصل اتاحت النقل الى أعلى فى صورة السعال (أنظر هامش ص ٩٨ ، المترجمون)•

(٢) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) — ذلك رأى مندرف لم يعد لى أن نتمسك به اليوم •

من قبل أو من بعد ــ كيس نقود صغيرة من شــكل ظهرت موضــته حديثا ، وبينما كانت ممددة على الاريكة تتحدث مضت تعبث به ، تفتحه ، وتدس أصبعها فيه ، وتغلقه من جديد ، وهكذا راقبت ذلك بعض الوقت ، ثم شرحت لها طبيعة الافعــال الاعراضية(١) • فانى اطلق مصطلح الافعــال الاعراضية على تلك الافعــال التى يأتيها الناس، فما يقال ، اليا لاشعوريا ، دون أن يتنبهوا لها ، وكأنهم فى لحظــة شرود • أنها أفعال يميل الناس الى اعتبارها خالية من كل دلالــة • فاذا ما سألناهم عنها أوضحوا بأنها عشوائية ونتيجة صدفة • ومــع ذلك فان الملاحظة المتفحصة تكشف عن أن هذه الافعال ، التى لايعــرف الشعور عنها شيئا أو لايريد أن يعرف شيئا ، هى فى الواقع تعبيرات عن أفكار لاشعورية وحفزات لاشعورية ، وعلى ذلك فهى على أعظم جانب من الاهمية والدلالــة ، بوصفها افصــــاحات عن اللاشـــعور استطاعت أن تبرز الى السطح • وثمة نوعان ممكنان من الاتجــاهات الشعورية ازاء هذه الافعال الاعراضية • فاذا أستطعنا أن نرجعهــا الى دوافع غير جارحة تنبهنا الى وجودها ، أما اذا لــم يتوفر مثــل هذا السند تحت تصرف الشعور فاننا عادة ما نعجز تماما عن التنبيه الى أدائنا لها • ولم تجد دورا صعوبة فى العثور على دافع • « لــم لا أضع كيسا كهذا ، مادام ذلك هو الموضـــة الآن ؟ » ولكن تبريرا من هذا النوع لا يلغى امكانية وجود أصل لا شعورى لهذا الفعل • وان كان من ناحية أخرى يصعب التدليل بشكل قاطع على وجود هذا الأصل أو مثل هذه الدلالة التى تنسبها الى الفعل • وينبغى أن نقنع بتبيننا أن مثل هذه الدلالة تلتئم تماما بشكل عجيب ضمن الســياق الكلى للموقف ، وضمن الاهتمامات الحالية التى يفرضها اللاشـــعور •

وسوف أنشر فى مناســبة أخرى مجموعــة من هــذه الأفعــال

---

(١) أنظر مقالى عن « سيكوباتولوجيا الحياةاليومية » المنشــور فى Monatsschrift fur Psychiatrie und Nourologie, 1901 وقد نشر فى كتاب عام ١٩٠٤ (كما أعيد نشره فى Ges. Werke IV الاعمال المجموعة ، مجلد ٤ • وفى (Standerd Edition, vol. VI)

الأغراضية على نحو ما نشاهدها عند الاسوياء وعند العصابيين • وأحيانا ما يكون تفسيرها غاية فى السهولة •

فكيس دورا المشقوق من أعلى على النحو المألوف لم يكن غير تمثيل لعضوها التناسلى • وعبثها به ، اذ تفتحه وتدس أصبعها فيه ، كان تعبيرا ايمائيا مكتملا خاليا من الحرج وان يكن واضحا ، عما تريد أن تفعله بهذا العضو ، وهو على التحديد أن تستمنى • وثمة حادث جد طريف من نوع مشابه وقع لى منذ وقت قصير • وسط الجلسة أخرجت المريضة — وهى سيدة تخطت الشباب — علبة صغيرة من العاج ، وكان من الواضح أنها تريد أن تنعش نفسها بقطعة حلوى • جاهدت لتفتح العلبة ، ثم قدمتها الى كيما اقتنع بمدى صعوبة فتحها • فعبرت عن ظنى بأن هذه العلبة ، لابد وأن تعنى شيئا خاصا فتلك كانت المرة الاولى على التحديد التى رأيت فيها هذه العلبة وأن كانت صاحبتها تتردد على منذ أكثر من عام • أجابتنى السيدة فى لهفة « أننى أحمل معى دائما هذه العلبة ، فهى تلازمنى أينما ذهبت » • ولم تهدأ الا بعد أن أبرزت لها فى ضحكة كيف أن كلماتنا تتلاءم تماما مع معنى آخر • فالعلبة شأنها شأن كيس النقود ، وعلبة الحلى ، لم تكن مرة أخرى غير بديل لصدفة فينوس ، (أى) للعضو الأنثوى •

وثمة كثرة من هذه الرمزية فى الحياة ، نمر بها دون أن ننتبه لها فى العادة وحينما أخذت على عاتقى أن أخرج الى النور مايبقيه الناس خبيئا داخل أنفسهم ، مستعينا لا بالقوة القهارة للتنويم المغناطيسى ، بل بملاحظة ما يقولونه وما يظهر منهم كنت أعتقد أن مهمتى هى أعسر بكثير مما وجدتها عليه فى الواقع • فمن له عينان للبصر وأذنان للسمع فبوسعه أن يقتنع بأن ما من انسان يستطيع أن يكتم سرا • فاذا صمتت شفتاه ثرثرت أطراف أصابعه ، فالافشاء ينضح من كل مسامه • ومن ثم فان اخراج أشد الثنايا اختفاء فى النفس الى حيز الشعور له مهمة قابلة تماما للتحقيق •

لم يكن فعل دورا الأعراضى الخاص بكيس النقود سابقا على

الحلم مباشرة • وقد استهلت الجلسة التي أدلت فيهـا بالحلم بفعل أعراض آخر • فعندما دخلت الى الغرفه التي كانت تنتظرنى فيها سارعت الى اخفـاء خطاب كانت تقرؤه •• سـألتها بالطبع من أى شخص هذا الخطـاب ، ورفضت فى البداية أن تجيبنى • واخـيرا أخبرتني بشيء لم تكن له أهمية على الاطلاق ولا صـلة له بالعلاج • لقد كان خطابا من جدتها تطلب فيه الى دورا تكثر من الكتابة لهـا • أن دورا لم تكن تقصـد الا الى أن تلعب معى لعبة « الأسرار » ؛ موحية لى بأنها كانت توشك أن تسمح لسرها بأن ينتزعـه الطبيب • وبذلك أصبحـت فى وضع يسمح لى بتفسير نفورهـا من كل طبيب جديد • كانت تخشى من أن يكتشف عن أصل مرضها ، أما بفحصها طبيا وأكتشافه لافرازاتها البيضاء ، وأما بتوجيه الاسئلة اليهـا وازاحة الستار عن ادمانها لتبليل الفراش — حتى لايكتشف باختصـار أنها مارست الاستمناء • ومنذ ذلك الوقت كانت تتكلم دائما باختصـــار شديد عن الاطباء ، وهـم الذين كانت من قبل ولاشـك تسرف فى تقـديرهم •

أن أتهاماتها ضد أبيها بأنه السبب فى مرضها ، بالاضافة الى مـا يكمن وراء تلك الاتهامات من اتهامها لنفسها ، والافرازات البيضـاء ، وعبثها بكيس النقود ، وتبليلها لفراشها بعد عامها السادس ، وسرها الذى لم تكن ترغب فى أن ينتزعه منها طبيب — هى علامات بدت لى دليلا مكتملا وقاطعا على أنها مارست الاستمناء فى الطفولة • وفى حالة دورا هذه ، كنت قد بدأت أستشعر وجـود الاستمناء عندما أخبرتنى بالآلام المعدية عند بنت عمها (انظر ص ٤٣) وكانت قد توحدت معها وقتئذ بشكايتها خـلال عـدة أيـام متصلة من نفـس الاحاسيس الاليمة • ومن المعروف جيدا ان الالام المعدية يغلب حدوثها بصفة خاصة عند من يستمنون ، وبحسب ماأخبرنى به شخصيا ف فليس W. Fliess فان الالام المعدية من هذا النوع هى على التحديد التى يمكن أيقافها باستعمال الكوكايين فى « النقطة المعدية » التى أكتشفها بنفسـه فى الأنف ، والتى يمكن شـفاؤها بكى نفس هذه النقطة • وتأكيـدا لمـا أستشعرته قدمت لى دورا واقعتين من معارفها الشعورية : فكثيرا ما

عانت هى نفسها من آلام معدية ، وكان لديها من الاسباب الوجيهة مايحملها على الاعتقاد بأن ابنة عمتها كانت تمارس الاستمناء • ومن الامور جد الشائعة بين المرضى أنهم يتعرفون عند الاخرين على علاقات يستحيل عليهم ، بسبب مقاوماتهم الانفعالية ، أن يتبينوها فى أنفسهم • والواقع أن دورا لم تعد تتذكر ما استشعرته ، وأن كانت قد ظلت لا تذكر شيئا • وحتى التاريخ الذى حددته بخصوص تبليل الفراش ، عندما قالت أنه استمر «الى ماقبل ظهور الربو العصبى بوقت قصير» فانه ينطوى فيما يبدو لى على دلالة كلينيكية • ان الاعراض الهستيرية نادرا ماتظهر على الاطلاق طالما كان الاطفال يمارسون الاستمناء ، ولكنها تظهر فقط بعد ذلك عندما تأتى فترة من الامتناع[1] • فالأعراض الهستيرية تشكل بديلا عن الاشباع الاستمنائى ، هذا الذى تستمر الرغبة فيه باقية على حالها فى اللاشعور ، حتى يظهر نوع آخر من الاشباع أكثر سوية — متى كان ذلك مايزال ممكنا • وذلك لأنه ، تبعا لما كان هذا النوع الجديد من الاشباع ممكنا أو غير ممكن ، تتوقف امكانية البرء من الهستيريا بالزواج والاتصال الجنسى السوى • ولكن اذا ما اختفى من جديد هذا الاشباع الذى يتيحه الزواج — وهو ما يمكن أن يحدث نتيجة للجماع المقطوع ، أو نتيجة التنافر النفسى ، أو غير ذلك من الاسباب — فعندئذ يفيض الليبيدو مرتدا الى مجراه القديم ، فيعبر عن نفسه من جديد فى أعراض هستيرية •

كنت أود لو استطعت ان أضيف بعض المعطيات القاطعة ، عن متى وتحت أى تأثير خاص توقفت دورا عن الاستمناء ، ولكن بالنظر الى عدم اكتمال التحليل ، ليس لدى من شىء أقدمه غير معطيات جزئية • فقد رأينا أن تبليلها لفراشها قد استمر الى ماقبل اصابتها لأول مرة بعسر التنفس بوقت قصير • وكل ما أستطاعت أن تلقيه من ضوء على هذه

---

(١) ويصدق ذلك أيضا من حيث المبدأ على الراشدين ، ولكن فى حالتهم يكون الامتناع النسبى ، أو الاقلال من مرات الاستمناء ، سببا كافيا ، بحيث اذا ماكان الليبيدو بالغ الشدة فمن الممكن أن تجتمع الهستيريا والاستمناء جنبا الى جنب •

النوبة الاولى لم يزد عن أن أباها كان وقت حدوث هذه النوبة متغيباعن ابيلت لأول مرة بعد تحسن صحته • وفى هذه الذكرى الجزئية لابـد وأن يوجـد تلميح الى السـبب المـولد لعسر التنفس • آن الانفـعال الاعراضية لدورا ، وعلامات آخرى معينة ، قد أمدتنى بأسباب وجيهـه لان افترض أن الطفلة ، وهى التى كانت غرفة نومها لايفصلها غير باب عن غرفة نوم أبويها ، قد ترامت الى آذانها زيارة ليل من أبيها لأمها ، وسمعت أباها (وهو الذى كان دائما ضيق التنفس) يلهث أثناء الجماع والاطفـال فى مثل هذه الظروف يستشعرون طابعا جنسيا لهذه الأصوات المحيرة التى تبلغ أسماعهم • فالحـركات المعـبرة عن الهياج الجنسى تكون عندهم فى الواقع فى متناولهم كامنة كميكانيزمات فطرية • وقـد قررت منذ سـنوات مضـت أن عسر التنفس وخفقـان القلب اللذين يحدثان فى الهستيريا وعصاب القلق ليسا غير جزئين منسلخين من عملية الجماع • وفى حالات كثـيرة ، كما فى حالة دورا ، استطعت ان أرجع عرض عسر التنفس أو الربو العصبى الى نفس السبب المولد — الى أن المريض كان قد ترامى الى سمعـه جماع بين راشدين • فالهيـاج المتعاطف الذى يمكن افتراض حدوثه عند دورا فى مثل هـذه الظروف ربما يكون ، وبمنتهى السهولة ، قد جعل جنسية الطفلة تغير من مسارها وعندئذ أخلى ميلها الى الاستمناء مكانه للقلق المرضى • وبعد ذلك بوقت قصير ، عندما كان أبوها متغيبا ، وكانت الطفلة ، وقـد كرست نفسها لحبه ، على عودته ، فانها لا بد وان تكون قد ابتعثت من جـديد الانطباع الذى سبق أن عاشته ، ولذلك فى صورة نوبة ربو • لقداحتفظت فى ذاكرتها بالحدث الذى تسبب فى أول ظهور للعرض ، ونستطيع أن نحدس من ذلك طبيعة هذه السلسلة من الأفكار ، المشحونة بالقلق ، والتى صاحبت النوبة • فهذه النوبة الأولى قد حدثت لها على أثر ما أصابها من انهاك فى نزهة فى الجبال ، بحيث يحتمل أنها كانت فى الواقع لاهثة الانفاس بعض الشىء • الى هذا انضافت ألفكرة بأن أباها كان ممنوعا من تسلق الجبال • ولم يكن من المسموح له أن ينهك نفسه ، اذ كان يعانى من ضيق التنفس ، عندئذ ذكرت الى أى حد أنهك نفسه

مع أمها فى تلك الليلة ، وتساءلت ما ان كان هذا لم يصبه بضرر ، بعدئذ كان انشغالها بأنها ربما تكون هى الاخرى قد أنهكت نفسها بالاستمناء — وهو فعل كالآخر يؤدى الى نشوة جنسية مصحوبة بعسر هين فى التنفس — ، وأخيرا كانت عودة عسر التنفس فى صورة شديدة كعرض. أن جانبا من هذه المعطيات استطعت أن أحصل عليه مباشرة من التحليل، ولكن الباقى كان على أن أكمله . والواقع أن الطريقة التى بها نثبتنا من حدوث الاستمناء فى حالة دورا ترينا كيف أن المعطيات الخاصة بموضوع واحد انما يمكن جمعها فحسب جزءا جزءا فى أوقات متباينة وضمن سياقات مختلفة (١) .

والآن تبرز سلسلة بأسرها من الأسئلة البالغة الأهمية عن

---

(١) أن الدليل على الاستمناء الطفلى فى حالات أخرى تتم اقامته بطريقه مماثلة تماما فالمعطيات هى بصورة عامة من طبيعة مماثلة : اشارت الى وجود افرازت بيضاء ، تبليل الفراش ، طقوس خاصة بالايدى (الاغتسال الحضارى) ونحو ذلك . ومن الممكن دائما أن نتبين بشكل أكيد، إستنادا الى طبيعة الاعراض عند المريضة ، ما أن كانت تلك العادة قد اكتشفها أو لم يكتشفها الشخص القائم على الطفلة ، أو ما أن كان هذا النشاط الجنسى قد أنتهى بجهود طويلة من جانب الطفلة للتخلص من العادة ، أو فى صورة تعبير مفاجىء . فى حالة دورا بقى الاستمناء دون أن يكشفه أحد وانتهى دفعة واحدة (قارن : سرها ، وخوفها من الاطباء واحلالها عسر التنفس محل الاستمناء) صحيح أن المريضات ينكرن دائما شرعية الاستنتاج من مثل هذه الشواهد ، وهن يفعلن ذلك حتى حين تكون لديهن ذكرى شعورية عن الافرازات البيضاء ، أو عن تحذيرات أمهاتهن) من قبيل : « هذا بسبب الخبل ، أنه خطر ») . ولكن بعد ذلك ، تبرز بشكل أكيد هذه الذكرى التى طال كبتها ، عن هذا الجزء من الحياة الجنسية للطفلة ، ويحدث ذلك فى كل حالة . ويذكرنى ذلك بحالة أحدى مريضاتى ، وكانت تعانى من أحصرة هى مشتقات مباشرة من استمنائها الطفلى كانت غرائبها من قبيل التحريمات الذاتية والعقوبات الذاتية ، وشعورها بأنها أن فعلت هذا فينبغى أن لاتفعل ذاك ، وفكرتها بأنه لاينبغى أن يقطع أحد عليها ماتفعلة، وذحلمها فترات فاصلة بين اداء (بيديها) والذى يليه . وغسلها ليديها ، الخ — كلها قد تكشفت تكرارات حرفية لاجزاء من جهود مربيتها كيما تبطل هذه العادة . والشىء الوحيد الذى ظل بصورة دائمة فى ذاكرتها كان كلمات التحذير : « كخ ! هذا خطر ! » . قارن أيضا فى هذا الصدد كتابى « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » ، ١٩٠٥ .

الأسباب المولدة للهستيريا : هل ينبغي اعتبار حالة دورا ، من زاوية الأسباب المولدة للمرض ، حالة نمطية • وهل هي تمثل النمط الوحيد الممكن لتلك الاسباب ؟ وهكذا • ومع ذلك فاني على ثقة من أنني أسلك الطريق الصحيح اذ أؤجل اجابتي عن مثل هذه الاسئلة ، حتي يتاح لي بنفس الطريقة تحليل ونشر عدد كبير من الحالات • هذا الى أنه يتحتم على أن أبدأ بنقد الصياغة التي تتخذها هذه الاسئلة فبدلا من أن أجيب بـ « نعم » أو « لا » على ما ان كانت الاسباب المولدة للمرض في هذه الحالة ينبغي البحث عنها في الاستمناء أثناء الطفولة ، يتحتم على أولا أن أناقش مفهوم « الأسباب المولدة للمرض » عند استخدامه في الأعصبة النفسية • عندئذ سوف يتضح أن وجهه النظر التي تمكنني من الاجابة على السؤال هي جد مباينة لوجهة النظر التي يقوم عليها السؤال • حسبنا أن نبلغ الى الاقتناع بأنه في هـذه الحـالة كان الاستمناء في الطفولة قائما ، وبأن حدوثه لا يمكن أن يكون مسألة صدفة أو لا أهمية له في تشكيل اللوحه الكلينيكية (١) •

وتفحص دلالة الافرازات البيضـاء التي اعترفت بها دورا يبشر باتاحة فهم أفضل لاعراضها فقد تعلمت أن تسمى علتها هذه « افراز التهابي » catarrh وذلك وقت أن كان على أمها أن تزور فرنتزنباد بسبب علة مماثلة ، ومرة أخرى هنا تلعب كلمة « افراز ألتهـابي » دور « كلمة الوصل » ، مما أتاح لكل سلسلة أفكارها حول مسـئولية

---

(١) ان شقيق دورا لابد وأنه كان مسئولا بشكل ما عن اكتسابهـا عادة الاستمناء ، لانها قالت لي في هذا الصدد بكل التوكيد الذي يفضح وجود « ذكرى حاجبة » ان أخاها كان دائما ينقل اليها جميع أمراضه المعدية ، وبينما كان هو يعانيها بصورة هينة ، كانت هي على العكس تعانيها بصورة خطيرة • وفي الحلم تحقق انقاذ أخيها كما تحقق انقاذها من «الهلاك»• وكان اخوها هو الاخر مصابا بتبلبل فراشه ، ولكنه تخلص من هـذه العادة قبل أخته • وتصريحها بأنها استطاعت في دراستها أن تظل مسايرة لاخيها حتى وقت مرضها الاول ، ولكنها تخلفت عنه بعد ذلك ، انما كان هو الآخر بمعنى ما « ذكرى حاجبة » • كانت وكأنها صبي حتى تلك اللحظة ، ثم غدت بعد ذلك صبية لاول مرة • كانت في الواقع كائنا متوحشا ، ولكنها غدت بعد الربو هادئة ومهذبة ـ فهذا المرض يقيم حدودا فاصلة بين مرحلتين من حياتها الجنسية ، كانت الاولى مذكرة في طابعها ، والثانية انثوية •

أبيها عن مرضها أن تعبر عن نفسها فى عرض السعال • والسعال الذى نتج فى الأصل ولا شك من التهاب واقعى هين ، كان أيضا محاكاة منها لأبيها (الذى كان مصابا فى رئتيه) ، ومن ثم كان بوسع السعال أن يعبر عن تعاطفها معه وقلقها عليه • ولكن للسعال ، بالاضافة الى ذلك ، كان وكأنه يصرخ عاليا بشىء ما ربما كان مايزال لا شعوريا عندها : « اننى ابنة أبى • عندى افراز التهابى تماما كما عنده • لقد جعلنى مريضة ، تماما كما جعل أمى مريضة • فمنه أخذت نزواتى الشريرة التى يعاقبها المرض(١) » •

ولنحاول الآن أن نحصى المحددات المختلفة التى كشفنا عنها كأسباب لنوبات السعال وبحة الصوت عند دورا فى أعمق المستويات يتحتم أن نفترض وجود التهاب فى الحلق واقعى وعضوى فى أصله — اضطلع بدور حبة الرمل التى يبنى حولها حيوان المحار لؤلؤته • هذا الالتهاب فى الحلق كان قابلا للتثبيت ، لأنه ينصب على جزء من البدن كان قد احتفظ عند دورا بدرجة كبيرة بدلالته كمنطقة شبقية • وبالتالى كان هذا الالتهاب فى الحلق قد تحقق تثبيته بفضل هذا الذى يمكن اعتباره واجهته النفسية الأولى — محاكاتها التعاطفية لأبيها — وبفضل اتهاماتها الذاتية اللاحقة بخصوص «افرازها الالتهابى» (المهبلى) •
وبالاضافة الى ذلك فان نفس هذه الأعراض قد كشفت عن قدرتها

---

(١) لقد لعبت كلمة « افراز التهابى » Catarrh نفس الدور عند فتاة الاربعة عشر عاما التى أوجزت حالتها فى اسطرة قليلة (ص ٢٨) • كنت قد وضعت الفتاة فى بنسيون مع سيدة ذكية كانت مكلفة من قبلى بالعناية بها • فاخبرتني هذه السيدة بأن الفتاة لم تكن تطيق وجودها فى الغرفة عندما كانت تهيىء نفسها للنوم ، وبانه كان ينتابها وهى فى فراشها سعال غريب ، لم يكن له اى اثر أثناء النهار • وعند سؤال الفتاة عن هذه الاعراض كان الشىء الوحيد الذى ورد الى ذهنها هو أن جدتها كانت تسعل بنفس الطريقة ، وكان يقال أن جدتها مصابه بالتهاب catarrh •
واستنادا الى ذلك كان من الواضح أن الفتاة نفسها مصابة بالتهاب (فى المهبل) وانها لم تكن ترغب فى أن يراها احد أثناء قيامها باغتسالات المساء • بل ان هذا الالتهاب (الافرازات البيضاء) ، الذى — بفضل اسمه — ينقل من أسفل الى اعلى ، قد كشف عن درجة غير مالوفة من الشدة •

على التعبير عن علاقة دورا مع السيد ك ، فقد كان بوسع هذه الأعراض أن تعبر عن أساها لغيابه ، وعن رغبتها فى ان تكون له زوجة أفضـــل من زوجته • وبعدما تحول جانب من الليبيدو عندها ، عائدا من جـــديد الى أبيها ، أكتسب العرض ما يمكن اعتباره دلالته الأخيرة فقد أصبح يمثل جماعا جنسيا مع أبيها ، وذلك بتوحد دورا مع مدام ك وبوسعى أن أؤكد أن هـــذه السلسلة ليست مكتملة بحال • فالتحليل الجـــزئى ، للأسف ، لا يمكننا من أن نقتفى التعاقب التاريخى للتغيرات فى دلالـــة العرض ، ولا من أن نبين بشكل واضح تعاقب أو تساوى هذه الدلالات المختلفة • وهذه المتطلبات يحق لنا ، فى حالة التحليل المكتمل ، أن نتوقع الاجابة عليها •

ويتحتم على الآن أن أشرع فى تنـــاول علاقات أخرى أمعن بين الالتهاب المهبلى عند دورا وأعراضها الهستيرية • لقد اعقدت — فى وقت كان فيه الفهم السيكولوجى للهستيريا ما يزال بعد أمرا جد بعيد — اعتدت أن أسمع زملائى الأطباء من المتمرســـين لسنين يؤكدون فى حالات الهستيريات المصابات بالافرازات البيضاء ، أن أية زيادة فى هذه الافرازات تستتبع دائما وبصورة منتظمة اســـتفحالا فى الأعراض الهستيرية ، وخاصة الأنوركسيا (فقدان شهية الطعام) والقىء • ولكن أحدا منهم لم يكن يفهم فى وضوح طبيعة هذه العلاقة ، ولكنى أعتقد أن الاتجاه العام كان ينزع الى الرأى الذى يتبناه أطباء النساء • فحسب رأيهم ، كما هو معـــروف ، تؤثر اضطرابات العضو التناسلى تأثيرا مباشرا وبعيد المدى فى الوظائف العصبية فى صورة اضطراب عضوى — وان كان اختبار هذه النظرية من الناحية العلاجية يترك المرء على حيرته• وفى ضوء معارفنا الحالية ، لا نستطيع اســـتبعاد امكانية وجود تأثير عضوى مباشر من هذا القبيل ، ولكنه من الأيسر فى جميع الحالات أن نتبين محددات الواجهة النفسية التى يتخذها هذا التأثير • فاعتـــداد النساء بمظهر أعضائهن التناسلية يمثل جانبـــا خاصا من اعتـــدادهن بأنفسهن ، ومن ثم فان الاضطرابات التى تنال أعضـــاءهن التناسلية ،

ويعتقدن أن من شأنها أن تثير مشاعر النفور بل الاسمئزاز ، تملك قوة هائلة على اذلالهن ، وعلى الهبوط باعتدادهن بأنفسهن ، وعلى جعلهن سريعات التهيج ، مسرفات الحساسية ، شديدات الريبة • فافرازات غير عادية من الغشاء المخاطى للمهبل تعتبر باعثة على الاشمئزاز •

ولنتذكر أن دورا انتابها شعور اشمئزاز عارم أثر تقبيل السيد ك لها ، وأننا وجدنا مانستند اليه لاكمال القصة التى روتها عن مشهد القبلة، اذ افترضنا أنها استشعرت ، أثناء عناقة لها ، ضغط قضيبه المنتصب على بدنها • وبالاضافة الى ذلك ، نعلم الآن أن نفس المربية التى طردتها ، دورا بسبب عدم اخلاصها لها ، كانت بالاستناد الى خبراتها الخاصة فى الحياة ، قد أوحت الى دورا بأن جميــع الرجــال عابثون ولا ينبغى الثقة فيهم • وهذا يعنى بالضرورة عند دورا أن كل الرجال كأبيها ولكنها كانت تعتقد أن أباها مصاب بمرض تناسلى — أفلم ينقلــه اليها والى أمها ؟ وعلى ذلك فربما تخيلت ان كل الرجال مصابون بمرض تناسلى ، وكان تصورها لهذا المرض يقتصــر بطبيعة الحال على حــدود تجربتها الشخصية وحدها • ومن هنا فالاصابة بمرض تناسلى كانت تعنى عندها الاصابة بافرازات تبعث على الاشمئزاز أفلا يكون لدينا هنا سبب آخر للاشمئزاز الذى استشعرته لحظة العناق وهكذا يكون الاشمئزاز الذى انزاح الى عناق الرجل مجرد شعور تم استنقاطه — تبعا لذلك الميكانيزم الأولى الذى سبق أن ذكرته (أنظر ص ٣٣) — وهو شعور يرجع فى نهاية الأمر الى افرازاتها البيضاء •

ويغلبنى الظن بأننا الآن ازاء سلسلة من الأفكار اللاشعورية مجدولة حول صرح من العلاقات العضوية (البدنية) القائمة من قبل ، على نحو ماتكون أكاليل الزهور مجدولة حول هيكل من الأسلاك ، بحيث نستطيع فى حالات أخرى أن نعثر على سلاسل أخرى من الأفكار مجدولة مابين نفس نقط الابتداء ونفس نقط الانتهاء • ومع ذلك فمعرفتنا بتسلسل الأفكار الذى تحقق فى حالة فردية بعينها الأمر لايمكن المبالغة فى مدى قيمته لفهم الأعراض • لقد انقطع تحليل دورا قبل أن يتم • ولهذا

السبب وحده كنا مضطرين فى حالتها الى أن نلجأ الى صياغة الفروض، وتعويض النقص • وما أضفته سدا للثغرات انما تدعمه دائما أبدا حالات أخرى أكتمل تحليلها •

* * *

أن الحلم الذى استخلصنا منه هذه المعلومات يعبر ، كما رأينا ، عن تصميم لازمها حتى فى نومها • ومن هنا تكرر كل ليلة حتى أتيح له التنفيذ • ثم ظهر الحلم من جديد بعد سنوات عندما برزت مناسبة تقتضى تصميما مماثلا • ومن الممكن صياغة هذا التصميم شعوريا فى كلمات كهذه : « يتحتم على أهرب من هذا البيت ، اذ أرى بكارتى هنا فى خطر ، سأرحل بعيدا مع أبى ، وسأتخذ احتياطات بحيث لا أفاجأ فى الصباح أثناء ارتدائى لملابسى » • هذه الأفكار يعبر عنها الحلم بوضوح، فهى تشكل جانبا من تيار نفسى بلغ الى الشعور وهيمن على حياة اليقظة• ولكن وراء هذه الأفكار يمكننا أن نتبين آثارا غائمة لسلسلة تشكيل جانبا من تيار نفسى مضاد ، ومن ثم عانت الكبح وه ، السلسلة الأخيرة من الأفكار ذروتها غواية الاستسلام للرجل ، امتنانا لما كشف عنه من حب وحنان لها طوال السنوات الأخيرة ، وربما تكون هذه السلسلة قد انبعثت ذكرى القبلة الوحيدة التى تلقتها منه حتى ذلك الوقت ، ولكن بحسب نظريتى التى قدمتها فى « تفسير الأحلام » لاتكفى مثل هذه العناصر لعمل حلم • فالحلم بحسب هذه النظرية ليس تعبيرا عن تصميم يبدو وقد تحقق ، بل عن رغبة تبدو وقد تحققت ، وهى أيضا رغبة غالبا جدا ماتنتسب الى الطفولة وعلينا الآن أن نتبين ما أن كانت هذه القاعدة لاتجد مايدحضها فى هذا الحلم •

ان الحلم يشتمل فى الواقع على مادة طفلية ، وان كان يستحيل علينا من النظرة الأولى أن نتبين أية علاقة بين هذه المادة الطفلية وبين تصميم دورا على أن نهرب من بيت السيد ك — ، ومن الغواية التى تستشعرها فى حضوره فلماذا كان ينبغى أن تنبعث ذكرى تبليلها لفراشها أثناء الطفولة والطاقات التى كان قد بذلها أبوها لتعويدها على النظافة

يمكننا أن نجيب على ذلك بأنه لم يكن ممكننا الا بهذه السلسلة من الأفكار أن نبلغ دورا الى كبح الأفكار الاخرى التى تعج بالغواية الشديدة للاستسلام ، أو أن تبلغ الى ضمان الغلبة للتصميم الذى اتخذته نضالا ضد تلك الأفكار الأخرى • صممت دورا الطفلة على أن تهرب مع أبيها ، ولكنها فى الواقع هربت الى أبيها ، لأنها كانت خائفة من الرجل الذى يطاردها ، لقد استدعت حبها الطفلى لأبيها ، ليحميها ضد حبها الحالى لرجل غريب • كان أبوها نفسه مسئولا الى حد ما عن الخطر الذى تجد نفسها فيه الآن ، لانه أسلمها الى هذا الرجل الغريب حفاظا على علاقته الغرامية • وكم كان يكون أفضل لو أن أباها هـذا نفسه لم يحب أحدا غيرها ، وكرس كل طاقته لينقذها من الأخطار التى كانت تهددها آنذاك • فالرغبة الطفلية ، وهى الآن لاشعورية ، فى أن يكون أبوها فى مكان الرجل الغريب ، هى التى تنطوى على الطاقة اللازمة لعمل حلم • فاذا كان هناك موقف من المواقف الماضية شبيها بموقف حالى ، لايختلف عنه الا من حيث أنه ينصب على شخص لا الاخر من الشخصين موضوع الرغبة ، فان ذلك الموقف الماضى يصبح عندئذ الموقف الرئيسى فى الحلم • مثل ذلك الموقف يوجد فى حالة دورا : فأبوها وقف مرة بجوار سريرها ، تماما كما فعل السيد ك فى اليوم السابق الحلم ، وأيقظها أبوها بقبلة ، كما كان السيد ك — ربما ينتوى أن يفعل • وهكذا فان تصميمها على الهروب من البيت لم يكن بذاته كافيا لعمل حلم ، ولكنه غدا كافيا بفضل ارتباطه بتصميم آخر يستند فى أساسه الى رغبات طفلية • أن رغبة دورا فى احلال أبيها بدلا من السيد ك — هى التى أتاحت القوة المحركة لانشاء الحلم • وانى أذكر الآن بالتفسير الذى وجدتنى مضطرا الى الأخذ به فيما يتصل بسلسلة الأفكار المتسلطة عند دورا عن علاقة أبيها بمدام ك — • فقد كـان تفسيرى ينحصر فى أنها قـد استدعت فى ذلك الوقت حبهـا الطفلى لأبيها ، حتى تتمكن من أن تبقى على حبها المكبوت للسيد ك — تحت الكبت • هذا الانقلاب المفاجىء فى الحياة النفسية للمريضة هـو نفسه الذى يصوره الحلم •

لقد سبق أن قدمت فى كتابى « تفسير الأحلام (١) » بضع ملاحظات عن العلاقات بين أفكار اليقظة (متخلفات النهار) التى تتواصل فى النوم وبين الرغبة اللاشعورية التى تعمل الحلم • وسأسرد هنا هذه الملاحظات كما هى ، فليس لدى ماأضيفه اليها ، وتحليل حلم دورا هذا يثبت من جديد صحة ماذهبت اليه :

« انى أسلم طواعية بأن هناك طائفة كاملة من الأحلام ينشأ فيها الحافز الى الحلم بصفة غالبة ، ان لم تكن مانعة من البقايا المتخلفة من حياة النهار ، وأعتقد أنه حتى رغبتى فى أن أصير فى النهاية أستاذا (٢) كان يمكن ، فيما أعتقد ، أن تتركنى أنام نوما ليليا هادئا ، لو لم يكن قلقى على صحة صديقى قد بقى مستمرا بعد أن انقضى النهار • ولكن القلق وحده ماكان يستطيع أن يصنع حلما ، بل كان من اللازم أن تقوم رغبة بتوفير القوة الدافعة التى يقتضيها الحلم ، كما كان على القلق أن يتصيد رغبة لتكون منها هذه القوة الدافعة • ولكى نوضح الموقف بتشبيه نقول : أن الفكرة النهارية تقوم بعمل صاحب المشروع بالنسبة الى الحلم ، ولكن صاحب المشروع — وهو الذى كما نقول ، يملك الفكرة ويملك الحافز الى تنفيذها — لايستطيع شيئا بغير رأس المال ، فهو محتاج الى ممول قادر على أن يزوده بالمخرج ، والممول الذى يوفر المخرج النفسى بالنسبة الى الحلم هو من غير استثناء ولاجدل وأيا كانت أفكار اليوم السابق — رغبة من اللاشعور (٣) » •

وكل من أتيح له أن يتبين مدى ماتتسم به صناعة الحلم من دقة البنيان ، لن يدهشه أن رغبة دورا فى احلال أبيها بدلا من الرجل الذى كان يمثل غواية لها ، لم تبتعث كيفما اتفق أية مادة من طفولتها ، بل

---

(١) Traumdeutung, 7th Ed. P 416.

(٢) تلك اشارة الى حلم ورد فى الكتاب كمثال •

(٣) قارن ، فرويد : تفسير الاحلام ، الترجمة العربية ، دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ص ٥٥٠ — المترجمون •

ابتعثت على وجه التحديد تلك المادة التى كانت أشد ماتكون ارتباطا بجبح هذه الغواية • ذلك أنه اذا كانت دورا قد شعرت بعدم قدرتها على ان تستسلم لحبها للرجل • وأذا كانت قد كبتت فى النهاية هذا الحب بدلا من أن تستسلم له ، فليس هناك من سبب مباشر يرجع اليه تصميمها أكثر من ملذاتها الجنسية الباكرة وماترتب عليها من تبليلها لفراشها وافرازاتها البيضاء ، واشمئزازها • وتاريخ باكر من هذا القبيل يمكن تبعا لجملة المحددات الجبلية عند الفرد — ان يشكل أساسا لواحد من اتجاهين ، فى مواجهة المتطلبات التى يقتضيها الحب عند الراشد • مثل هذا الفرد سوف يكشف أما عن استسلام للجنسية يخلو تماما من أى دفاع ويقف به عند حافة الانحراف واما عن رفض — فسوف يرفض الجنسية ويقع فى نفس الوقت مريضا بعصب • وفى حالة مريضتنا دورا ، حتمت عليها جبلتها وتربيتها الرفيعة ، فكريا وأخلاقيا ، أن تسلك الطريق الثانى •

وأحب أيضا أن أوجه انتباها خاصا الى تحليل هذا الحلم قد أتاح لنا الامساك بتفصيلات معينة من الوقائع التى ولدت المرض ، والتى فذكرى تبليل الفراش فى الطفولة كانت كما رأينا مكبوتة • كما أن دورا لم تكن قد أشارت قط الى تفصيلات ملاحقة السيد ك — لها ، اذ لم تخطر ابدا ببالها •

❋ ❋ ❋

وثمة أيضا ملاحظات قليلة يمكن أن تعين على الامساك بالوحدة الكلية لهذا الحلم • فعمل الحلم قد بدأ فى عصر اليوم الثانى للمشهد فى الغابة ، بعد أن تبينت دورا أنه لم يعد بوسعها أن تغلق الباب على نفسها • عندئذ قالت لنفسها : « هنا يهددنى خطر شديد » ، وانتهت الى تصميمها على أن لاتبقى بمفردها فى هذا البيت ، بل على أن ترحل مع أبيها • هذا التصميم غدا كفيلا بعمل حلم ، اذ استطاع أن يجد فى اللاشعور ما يعد استمرارا له • وأن مايعد مناظرا له فى اللاشعور أنما كان استدعاء دورا حبها الطفلى لأبيها حماية لها ضد الغواية الحالية •

والانقلاب الذى تحقق بذلك فى داخلها غدا وطيدا ، وتادى بها الى الاتجاه الذى تكشف عنه سلسلة أفكارها المتسلطة — الغيرة من مدام ك — على أبيها ، وكأنها كانت هى نفسها عاشقة له • كان فى داخلها صراع بين غواية الاستسلام لمطارحة الرجل وبين قوة معقدة تتمرد على هذه الرغبة • وهذه القوة الأخيرة كان قوامها دوافع من مقتضيات الأدب والعقل ، ومن نزعات عدوانية نجمت عن نصائح المربيه (غيرة وكبرياء مجروح — كما سنرى فيما بعد) ، ومن نزعه عصابية ، هى على التحديد نزعة تعود من الجنسية كانت قائمة عندها من قبل ، استنادا الى تاريخها الطفلى • وفى نفس هذا التاريخ الطفلى يكمن اصل حبها لأبيها ، وهو الحب الذى استدعته حماية لها ضد الغواية •

وتصميم دورا على الهرب الى أبيها ، وهو كما رأينا يجد استمرارا له فى اللاشعور ، قد تحول فى الحلم الى موقف يصور رغبتها — وكأنها تحققت — فى أن ينقذها أبوها من الخطر • هنا كان من الضرورى لدورا أن تنحى جانبا فكرة معينة كانت تقف حائلا : اذ أن أباها نفسه هو الذى أوقعها فى هذا الخطر • وشعورها العدوانى ضد أبيها (رغبتها فى الانتقام منه) الذى انكبح هنا ، كان — كما سنرى — واحدا من الدوافع المحركة للحلم الثانى •

وكما تقضى شروط عمل الحلم يتحتم اختيار موقف الحلم بحيث يكون تكرارا لموقف طفلى • ويتحقق نصر من نوع خاص اذا ماأمكن تحويل موقف حديث العهد ، بل ، ربما نفس الموقف الذى كان السبب المباشر للحلم ، الى موقف طفلى • وهذا هو ماحدث بالفعل فى الحالة الراهنة ، وبفضل صدفة مواتية • فتماما كما وقف السيد ك — الى جوار أريكتها وأيقظها ، فكذلك غالبا مافعل أبوها فى طفولتها • وكل سلسلة أفكارها يمكن أن يعبر عنها بشكل رائع ، تعبيرا رمزيا ، احلالها أباها مكان السيد ك — فى الموقف •

ولكن السبب الذى كان أبوها قد اعتاد أن يوقظها من أجله وهو أن يمنعها من تبليل فراشها • وهذا « التبليل » كان له تأثير حاسم على

تجديد مضمون بقية الحلم ، وأن كان التبليل لايتمثل فى الحلم الا بتاميح بعيد وبالضد .

فضد « التبليل » و « الماء » يمكن بسهولة أن يكون « النار » و « الاحتراق » وكون أبيها ، عند وصولهم الى المكان ، قد عبر عن تخوفه من خطر الحريق ، كان صدفة من شأنها أن تحدد أن يكون الخطر الذى ينقذها أبوها منه هو خطر الحريق . والموقف الذى تم اختياره ليكون صورة الحلم أنما استند الى هذه الصدفة والى تمثيل بالضد « للتبليل»: « كان هناك حريق . وكان أبوها واقفا الى جوار فراشها ليوقظها . » والقول الذى تصادف أن قاله أبوها ماكان له بالطبع أن يحتل مثل هذه المكانه الهامة فى الحلم لو لم يكن ينسجم بشكل رائع مع نزعتها السائدة عندئذ الى أن تعتبر أباها ، مهما كان الثمن ، حاميها ومنقذها . « لقد استشعر الخطر منذ اللحظة الاولى لوصولنا ! وكان على حق ! » (فى واقع الأمر ، كان الأب الذى عرض الفتاة للخطر) .

وبالاستعانة ببعض الارتباطات التى فى يسر الاستدلال عليها ، نتبين أن فكرة « البلل » هى التى تضطلع ، فى أفكار الحلم ، بدور نقطة الوصل بين مجموعات متعددة من الأفكار . « فالبلل » يرتبط ليس فقط بتبليل الفراش ، بل أيضا مجموعة الافكار الخاصة بالغواية والجنسية ، والتى تكمن مكبوحة وراء مضمون الحلم . كانت دورا تعرف أن الجماع الجنسى ينطوى على نوع من معاناة البلل ، وكانت تعرف أن الرجل أثناء عملية الجماع يعطى المرأة شيئا سائلا فى صورة نقط . وكانت تعرف أيضا أن الخطر يكمن على وجه التحديد فى ذلك ، أن مهمتها هى أن تحمى عضوها الجنسى من أن يبتل .

و « البلل » و « النقط » تفتح الطريق فى نفس الوقت لتلك المجموعة الأخرى من التداعيات — ونعنى المجموعة الخاصة بالافرازات البيضاء الباعثة على الاشمئزاز ، والتى كان لها بالتأكيد فى سنوات شبابها نفس دلالة الاذلال التى كانت لتبلل الفراش فى طفولتها . « فمعاناه البلل »

فى هذا المجال لها نفس دلالة « معناة الوساخة » . فعضوها ، الذى كان ينبغى الابقاء عليه نظيفا ، قد توسخ بالفعل بالافرازات البيضاء — وكان هذا يصدق على أمها صدقه عليها (أنظر ص ٩٠) . وكان يبدو أنها تفهم أن هوس أمها بالنظافة كان رد فعل . ضد هذا الاتساخ .

فالمجموعتان من الأفكار كانتا تلتقيان عند هذه الفكرة الواحدة : أمى أخذت الامرين كليهما من أبى : البلل الجنسى والافرازات الوسخة» وغيرة دورا من أمها لم تكن منفصلة عن مجموعة الأفكار التى تدور حول حبها الطفلى لابيها ، وهو الحب الذى استدعته لحمايتها . ولكن هذه المادة لم تكن مع ذلك بعد قابلة للتمثيل . فلو أمكن العثور على ذكرى تكون بنفس القدر مرتبطة بشكل وثيق بكلتى المجموعتين المتعلقتين بكلمة « بلل » ، وتكون بمنأى عن أى ايذاء للمشاعر ، عندئذ فان مثل هذه الذكرى تكون قابلة لأن تضطلع فى الحلم بتمثيل تلك المادة المعينة .

مثل هذه الذكرى أتاحتها قصة ذلك القرط من « نقط » اللؤلؤ — وهى قطعة الحلى Schmuck التى رغبت أم دورا فى الحصول عليها . والارتباط بين هذه الذكرى وبين مجموعتى الافكار اللتين تدوران حول البلل الجنسى والاتساخ يبدو فى ظاهره مجرد ارتباط خارجى وسطحى، ومن طبيعة لفظية . ذلك أن كلمة « نقط » قد جرى استخدامها بشكل ملتبس كـ « كلمة وصل » : بينما قطعة الحلى Schmuck جرى فهمها كمرادف لكلمة « نظيف (١) » ، وبالتالى كضد لكلمة « متسخ (٢) » .

---

(١) ان كلمة Schmuck بالالمانية (قطعة حلى) تعنى أحيانا نظيف ، هامش الترجمة الفرنسية .

(٢) ان الكلمة الالمانية Schmuck تنطوى على معنى اوسع بكثير من كلمة — jewellery بالانجليزية (حلى) ، وان كان ذلك هو المعنى المقصود فى الكلمة المركبة Schmuckkastchen (علبة الحلى) . فكلمة Schmuck كمصدر تعنى « الزينة » من كل نوع ليس فقط الزينات الشخصية بل أيضا تزينات الاشياء والتجميلات بصفة عامة أما الكلمة كصفة فقد تعنى أنيق أو مهندم أو نظيف ، هامش الترجمة الانجليزية .

وان يكن ذلك على نحو من التعسف • ولكن أوثق الارتباطات يمكن فى الواقع الكشف عن وجودها بين الأشياء المعنية ذاتها ، فالذكرى ترجع بأصلها الى المادة التى تدور حول غيرة دورا من أمها ، وهى الغيرة التى، وأن تكن طفلية الأصل قد استمر بقاؤها الى مابعد تلك المرحلة بكثير • وعن طريق هاتين الكلمتين المعبرتين غدا من الممكن أن تنزاح الى ذكرى واحدة هى « نقط اللؤلؤ » كل دلالة أفكارها عن جماع أبويها وعن السيلان عند أمها وعن ولع أمها المضنى بالنظافة •

ولكن كان ولابد من نقل آخر قبل أن يكون لهذه المادة أن تظهر فى الحلم • فعلى الرغم من ان كلمة « نقط » هى أدنى الى الكلمة الأصلية « بلل » ، الا أن الكلمة الأ بعد « الحلى » هى التى وجدت لها مكانا فى الحلم • وعندما تم ادراج هذا العنصر ضمن موقف الحلم ، وهـو الموقف الذى كان بالفعل قد سبق تحديده كان من الممكن أن يكون معناه « أرادت أمى أن تتوقف وتنفذ حليها » • ولكن تأثيرا لاحقـا نتبينه الآن ، كان من شأنه أن يؤدى الى التغير الذى انضاف ، وهـو تغيير « الحلى » الى « علبة الحلى » • وهذا التأثير قد صدر عن عناصر من مجموعة الأفكار الكامنة التى تدور حول الغواية التى قدمها السيد ك• فالسيد ك ــ لم يقدم لها قط حليا ولكنه قدم لها « علبة » للحلى ، جسدت لدورا كل أمارات التفضيل ، وكل الحنان ، مما جعلها تشعر الآن بأن عليها أن تكون ممتنة والكلمة المركبة التى تكونت من ذلك : « علبة حلى » ، كان لها بالاضافة الى ذلك مايستدعى استخدامها كعنصر ممثل فى الحلم • أليست علبة الحلى Schmuckkasfchen لفظة تستخدم بشكل مألوف للدلالة على الأعضاء التناسلية الأنثوية التى تكون طاهرة ، ولم يمسها بشر ؟ ثم أو ليست هى من ناحية أخرى لفظة بريئة ؟ أليست

باختصار ، وقد أحسن اختيارها بشكل رائع ، تفضح وتستر معا الافكار الجنسية التى تكمن وراء الحلم ؟

وهكذا فان « علبة حلى الأم » جاء ذكرها فى موضعين فى الحلم وهكذا العنصر قد حل محل أى ذكر لغيرة دورا الطفلية ، وأى ذكر للنقط « بمعنى البلل الجنسى » ، وأى ذكر للاتساخ بالافرازات ، كما حل من ناحية أخرى محل أى ذكر لأفكارها الحالية المتصلة بالغواية — ونعنى الأفكار التى كانت تستحثها على أن تبادل الرجل حبه ، والتى كانت تصور الموقف الجنسى (المرغوب والمرهوب معا) الماثل أمامها . فعنصر « علبة الحلى » ، كان بأكثر من أى عنصر آخر نتاج تكثيف ونقل، فهو ائتلاف بين اتجاهات متضادة . وتعدد أصول هذا العنصر — من مصادر طفلية وحالية معا — يشير اليه ولاشك ظهوره مرتين فى مضمون الحلم .

كان الحلم استجابة لتجربه حديثه العهد من طبيعة مثيرة ، وهذه التجربة لابد وأن تكون بالضرورة قد ابتعثت ذكرى التجربة الوحيدة السابقة ، والتى كانت تمثلها من كل وجه . كانت التجربة الحديثة هى مشهد القبلة فى محل عمل السيد ك — حين استولى عليها الاشمئزاز . ولكن نفس هذا المشهد كان يؤدى اليه التداعى من نواح أخرى أيضا ، هى على التحديد مجموعة الأفكار الخاصة بالافرازات البيضاء (ص ٩٧) ومجموعة الأفكار الخاصة بغوايتها الحالية . ومن هنا فان المشهد قد أمد الحلم بملابس خاصة به ، كان عليها أن تلتئم مع موقف الحلم ، وهو الموقف الذى كان بالفعل قد سبق تحديده : « كان هناك حريق » ... وليس من شك فى أن القبلة كانت تفوح برائحة الدخان ، ومن هنا قد شمت رائحة الدخان فى الحلم ، واستمرت الرائحة الى مابعد استيقاظها .

لقد تركت سهوا لسوء الحظ ثغرة فى تحليل هذا الحلم . فقد قال ابو دورا فى حلمها : « أنى أرفض أن أدع طفلى يتعرضان للدمار .. » (من جراء الاستمناء فهذا ماينبغى ولاشك أضافته استنادا الى أفكار

الحلم) مثل هذه الأقوال فى الاحلام تتألف عادة من قطع الاقوال الفعلية التى أما أن تكون قد قيلت أو سمعت كان ينبغى على أن أقوم بتقصى المصدر الواقعى لهذا القول • وكانت نتائج مثل هذا التقصى من جانبى سوف تكشف عن أن بناء الحلم هو أكثر تعقيدا ، ولكنه كان سيجعل هذا البناء يبدو فى نفس الوقت أكثر شفافية •

أفينبغى أن نفترض أنه عندما حدث هذا الحلم فى بلده ل — كا نله على وجه الدقة نفس المضمون الذى كان له حين تكرر أثناء العلاج ؟ لا يبدو من الضرورى أن يكون الأمر كذلك • فالخبرة تكشف عن أن الناس غالبا مايؤكدون أنهم قد رأوا نفس الحلم • بينما نتبين فى واقع الأمر أن الأشكال التى يظهر عليها الحلم فى تكراراته تتباين بعضها عن بعض فى تفصيلات عديدة ، وفى نواح أخرى لم تكن قليلة الاهمية • من ذلك أن احدى مريضاتى أخبرتنى أنها رأت من جديد حلمها المفضل فى الليلة السابقة ، وأنه قد تكرر بنفس الشكل : حلمت أنها كانت تسبح فى بحر أزرق ، وأنها كانت تشق الموج فى سعادة ، وغير ذلك • وقد أتضح من التقصى الدقيق أنه على أرضية مشتركة كانت تبرز حينا واقعة جزيئه، وحينا واقعة جزئية أخرى ، بل فى احدى المرات كانت تسبح فى بحر متجمد وكانت تحيط بها جبال الجليد • وكان عند هذه المريضة أحــلام أخرى اتضح أنها وثيقة الصلة بالحلم المتكرر ، وأن لم تحاول المريضة — ولو مجرد محاولة — الادعاء بمطابقتها للحلم المتكرر • حلمت مرة مثلا أنها كانت تتطلع الى منظر (على صورة فوتوغرافية بالحجم الطبيعى) يمثل فى نفس الوقت الهضبة والسهل فى هيليجولاند ، وعلى البحــر سفينة على ظهرها شخصان عرفتهما فى شبابها ، وغير ذلك •

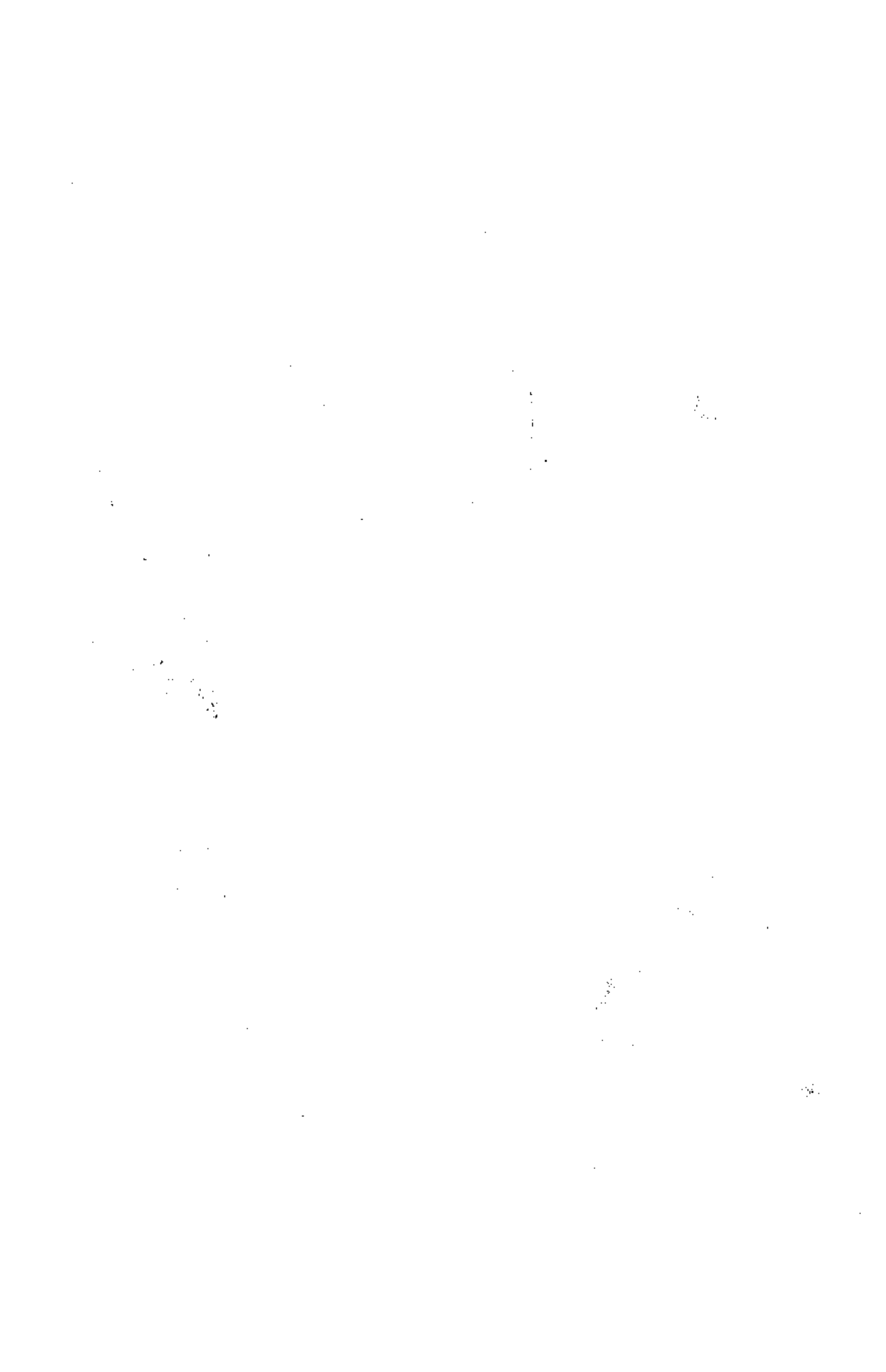
والأكيد فى حالة دورا هو أن الحلم الذى حدث أثناء العلاج قد اكتسب دلالة جديدة ترتبط بالفترة الراهنة ، وان كان المضمون الظاهرى ربما لم يتغير • فالأفكار الكامنه وراء الحلم تنطوى على اشارة لعلاجى، والحلم هو بمثابة تجديد للتصميم القديم على الانسحاب من خطر :

فلو أن ذاكرتها لم تخدعها عندما ذكرت أنها حتى بلدة ل — كانت تشم رائحة الدخان عقب استيقاظها ، فلابد وأن نعترف بأنها دست ببراعة فائقة عبارتى : « ما من دخان بغير نار » ضمن الصورة المكتملة للحلم ، حيث بدت هذه العبارة تضطلع بدور التحتيم بأكثر من سبب للعنصر الأخير (١) • كان الأمر بالتأكيد مجرد صدفة أن أحدث سبب مباشر للحلم(٢) — بالنظر الى اغلاق أمها باب غرفة الطعام بحيث انحبس أخوها فى غرفة نومه — قد اتاح الارتباط مع مطاردة السيد ك — لها فى بلدة ل — • حيث اتخذت هناك تصميمها بعد ماتبينت أنها لاتستطيع أن تغلق الباب على نفسها • ومن الجائز أن أخاها لم يظهر فى الحلم فى تكراراته الأولى بحيث أن كلمة « طفلى » (بالمثنى) لم تكن ضمن مضمون الحلم الا بعد وقوع السبب المباشر الأخير له •

---

(١) المقصود بهذا العنصر : رائحة الدخان — المترجمون •

(٢) المقصود هنا هو الموقف العلاجى بما انطوى عليه من رغبة دورا تجـاه المحلل — المترجمون •



٣

الحلم الثانى



٢

الحلم الثاني

وبعد بضعة أسابيع من الحلم الأول وقع الحلم الثانى ، وعندما انتهينا من تناوله توقف التحليل . وهذا الحلم لايمكن جعله مكتمل المعقولية كالحلم الاول ، ولكنه أتاح توكيدا مرغوبا فيه لغرض غدا ضروريا عن الحالة النفسية للمريضه ، فقد اضطلع بسد ثغرة فى ذاكرتها وجعل من الممكن البلوغ الى استبصار عميق بأصل عرض آخر من أعراضها .

روت دورا الحلم على النحو التالى « كنت أتجول فى مدينة لاأعرفها . رأيت شوارع وميادين غريبة على (١) . ثم دخلت فى بيت كنت أسكن فيه وذهبت الى غرفتى . فوجدت خطابا من أمى ينتظرنى هناك كتبت تقول حيث أننى تركت البيت بغير علم أبوى، فانها لم ترغب فى أن تكتب الى لتخبرنى بأن أبى كان مريضا . « الآن قد مات ، فلوشئت (٢) بوسعك أن تحضرى . » عندئذ ذهبت الى المحطة (Bahnhof) وسألت نحو مائة مرة « أين المحطة ؟ » . وكنت أتلقى دائما الاجابة : « خمس دقائق » . ثم رأيت أمامى غابة كثيفة ، دخلت فيها ، وهناك سألت رجلا قابلته . فقال لى « ساعتان ونصف أيضا (٣) » . عرض على أن يصحبنى . ولكنى رفضت ومضيت بمفردى . رأيت المحطة أمامى ، ولم استطع الوصول اليها وفى هذه اللحظة اعترانى

---

(١) الحقت بهذا فيما بعد اضافة : «رأيت نصبا فى أحد الميادين» .

(٢) الحقت بهذا اضافة : « كانت توجد علامة استفهام بعد هذه الكلمة هكذا : شئت ؟ »

(٣) فى تكرارها سرد الحلم قالت : « ساعتان » .

شعور القلق المألوف الذى يعترى المرء فى الاحلام حين لايستطيع أن يخطو الى الأمام • ثم وجدتنى فى البيت • ولابد أنى كنت فيما بين ذلك فى حالة سفر ، ولكنى لاأعرف شيئا عن ذلك • خطوت داخل مسكن البواب ، وسألت عن شقتنا • فتحت لى الخادمة الباب ، وأجابتنى أن أمى والآخرين حاليا هم فى المدافن (Friedhof) (١) •

لم يمض تفسير هذا الحلم بغير صعوبة • فبالنظر الى الظروف الخاصة التى توقف فيها التحليل — وهى ظروف ترتبط بمضمون هذا الحلم — لم يكن من الممكن استيضاح كل شىء • ولهذا السبب أيضا فانى لست متأكدا بنفس الدرجة — فيما يتصل بكل نقطة — من الترتيب الذى تتابعت عليه النتائج التى بلغت اليها • وسابدأ بذكر المادة التى كان يجرى تحليلها فى الوقت الذى طرأ فيه هذا الحلم • كانت دورا نفسها — ولبعض الوقت — تثير عددا من الأسئلة عن العلاقة بين بعض تصرفاتها وبين الدوافع التى تكمن أغلب الظن وراء هذه التصرفات • كان أحد هذه الأسئلة : « لماذا لم اقل شيئا عن مشهد البحيرة لعدة أيام بعد وقوعه؟» • وكان سؤالها الثانى : « ولماذا بعد ذلك فجأة أخبرت أبوى بالأمر ؟ » • هذا الى أن أحساسها بالانجراح العميق من مطارحة السيد ك — لها بدا لى بصفه عامه أمرا يتطلب التفسير ، خاصة وأنى بدأت أتبين أن السيد ك — نفسه لم يكن ينظر الى مطارحته لدورا على أنها مجرد محاولة عابثة للتغرير بها • واعتبرت اخبارها لأبويها بالحادث تصرفا أتته عندما كانت واقعة بالفعل تحت تأثير تحرق مرضى للانتقام • فانى أميل الى الاعتقاد بأن الفتاة السوية أنما تتولى بنفسها معالجة موقف من هذا القبيل • وسأشرع الآن فى تقديم المعطيات التى أنتجها التحليل فى الترتيب شبه العشوائى الذى ترد به الى ذهنى •

---

(١) فى الجلسة التالية الحقت دورا بهذا أضافتين : « رأيت نفسى بوضوح تام أصعد السلم » ، و « وبعد أن اجابتنى ذهبت الى غرفتى ، ولكن دون أدنى حزن ، وبدأت فى قراءة كتاب كبير كان موضوعا على مكتبى » •

كانت تتجول بمفردها فى مدينة لاتعرفها ، ورأت شوراع وميادين .
أكدت لى دورا أن المدينة لم تكن بالتأكيد بلدة ب — التى اتجه اليها ظنى أول الأمر ، ولكنها كانت مدينة لم يسبق لها قط أن ذهبت اليها • وكان من الطبيعى أن ألفت انتباهها الى أنها ربما رأت بعض الرسوم أو الصور الفوتوغرافية واستمدت منها صور الحلم • وبعد هذه الملاحظة من جانبى جاءت اضافتها الخاصة بالنصب التذكارى فى أحد الميادين ، وجاء بعد ذلك مباشرة تعرفها على مصدر هذا النصب • كانت فى عيد الميلاد (١) قد تلقت كتاب صور عن منتجع صحى ألمانى ، يشتمل على مناظر للمدينة ، وفى نفس اليوم السابق على الحلم أخرجت كتاب الصور هذا لتعرضه على بعض أقاربها الذين كانوا فى زيارة الأسرة • كان ذلك الكتاب موضوعا فى علبة لحفظ الصور ، ولم تستطيع العثور على هذه العلبة من أول محاولة • وعندئذ قالت لأمها : « أين العلبة ؟ » (٢) • كانت احدى الصور تمثل ميدانا فيه نصب تذكارى • كان كتاب الصور هذا قد بعث به هدية اليها مهندس شاب ، كانت قد تعرفت عليه يوما بصورة عابرة فى بلدة المصنع • ولقد قبل هذا الشاب وظيفة فى ألمانيا حتى يستطيع الاعتماد على نفسه بأسرع مايمكن ، وكان ينتهز كل فرصة تسنح ليذكر دورا بشخصه • وكان من اليسير أن يدرك المرء أنه كان ينتوى أن يتقدم يوما لطلب يدها ، عندما يتحسن مركزه • ولكن ذلك كان يتطلب وقتا ، وكان معناه الانتظار •

ان التجول فى مدينة غريبة كان « يحتمه أكثر من سبب » • فهو يرجع الى واحد من الأسباب المباشرة فى اليوم السابق على الحلم • كان لدورا ابن عم شاب جاء يقضى الاجازة معهم ، وكان على دورا أن تطوف به لتريه معالم فينا • صحيح أن هذا السبب كان بالنسبة اليها أمرا عديم الأهمية تماما • ولكن زيارة ابن عمها هذا قد ذكرتها بزيارتها

---

(١) حدث الحلم بعد بضعة أيام من عيد الميلاد • أنظر صفحة ١١٥ •

(٢) وفى الحلم قالت : « أين المحطة ؟ » • وقد حملنى الشبه بين السؤالين على أن أخلص الى استنتاج سوف أعرض له بعد قليل •

هى الأولى والقصيرة الى درسدن • ففى تلك المناسبة كانت غريبة على المدينة ، وتجولت فيها ، ولم يفتها بطبيعة الحال أن تزور معرض الرسوم الشهير • وكان معهم ابن عم آخر لها يعرف درسدن ، رغب فى أن يصحبها كمرشد ويطوف بها معرض الرسوم • ولكنها رفضت ومضت بمفردها ، وكانت تتوقف أمام اللوحات التى تروقها • ولقد ظلت ساعتين أمام لوحة « العذراء » (١) فى نشوة حالمة من الاعجاب الصامت • وعندما سألتها عن هذا الذى أعجبها الى هذا الحد فى اللوحة ، لم تستطع أن تقدم اجابة واضحة • وأخيرا قالت : « العذراء » •

ما من شك فى أن هذه التداعيات كانت تنتمى فى الواقع الى المادة التى كونت الحلم • فهى تشتمل على أجزاء ظهرت من جديد فى الحلم بغير تغيير (« رفضت ومضت بمفردها » و « ساعتان ») • ويمكننى أن ألاحظ على الفور أن « الرسوم » كانت نقطة وصل فى شبكة أفكار الحلم عندها (الرسوم فى كتاب الصور ، والرسوم فى درسدن) • وأحب أيضا أن أبرز على حدة ، بهدف بحث لاحق ، موضوع « المادونا » ،السيدة العذراء • ولكن أوضح شىء فى هذا الجزء الأول من الحلم هو أنها كانت تتوحد مع شاب • هذا الشاب كان يتجول فى مكان غريب عليه ، وكان يجاهد للوصول الى هدف ، ولكن الصعوبات كانت تعترضه وكان فى حاجة الى الصبر ، وكان عليه أن ينتظر • فلو أنها كانت فى هذا كله تفكر فى المهندس الشاب ، لكان من الملائم أن يكون الهدف امتلاك امرأه ، امتلاكها هى • ولكن بدلا من ذلك كان الهدف هو محطة • ومع ذلك فان العلاقة بين السؤال فى الحلم وبين سؤال دورا فى واقع الحياة يخولنا الحق فى أن نضع « علبه » مكان « محطة » (٢) • علبة وامرأة : مفهومان يتوا كبان فعلا بشكل أفضل •

(١) بالانجليزية Sistine Madonna بالفرنسية Madone Sixtine
ـ المترجمون •

(٢) ان الكلمة الالمانية Schachtel التى استخدمتها دورا فى سؤالها للدلالة على « العلبة » هى لفظ تحقير « للمراة » ـ هامش الترجمة الانجليزية •

سألت نحو مائة مرة .... يؤدى هذا بنا الى سبب مباشر آخر للحلم ، وهو فى هذه المرة سبب اكثر أهمية نسبيا من سابقه . ففى المساء السابق على الحلم ، كان لديهم بعض الاصدقاء ، وبعد انصرافهم طلب اليها أبوها أن تحضر له الكونياك : فلم يكن يستطيع النوم قبل أن يتناول شيئا من الكونياك . طلبت دورا من أمها مفتاح البوفية ، ولكن أمها كانت مستغرقة فى الحديث ، فلم تجبها ، حتى أن دورا صاحت فى مغالاة من نفاد الصبر : « لقد سألتك مائة مرة أين المفتاح ! » ولكنها فى واقع الأمر كانت قد كررت السؤال نحو خمس مرات فقط (١) .

« أين المفتاح ؟ » هو فيما يبدو لى المقابل المذكر للسؤال : « أين العلبة ؟ » (٢) فهما سؤلان يشيران الى الأعضاء التناسليه .

ومضت دورا تقول أنه أثناء هذا الاجتماع العائلى شرب أحد الحاضرين نخب أبيها ، متمنيا له أن يستمتع بأحسن صحة لسنوات كثيرة قادمة . الخ . وعندئذ سرت انتفاضه غريبة فى الوجه المتعب لابيها ، وقد فهمت دورا أية أفكار كان عليه أن يكبحها . ياللرجل المريض المسكين! من يدرى كم من سنوات العمر ماتزال باقية له ؟

وذلك يضعنا أمام مضمون الخطاب فى الحلم . مات أبوها ، وهى قد تركت البيت من تلقاء نفسها . لقد سارعت ، بخصوص هذا الخطاب، الى تذكير دورا بخطاب الوداع الذى كتبته لابويها ، أو كتبته على الاقل ليطلعا عليه . فهذا الخطاب كان يستهدف أثارة الرعب عند أبيها ، بحيث يتخلى عن مدام ك ـــ ، أو على أية حال الانتقام منه اذا لم يبلغ به الى حد

---

(١) فى الحلم يردد العدد «خمسة» ، فى ذكر فترة الـ «خمسة دقائق» . وفى كتابى عن تفسير الاحلام قدمت أمثلة عديدة ترينا الطريقة التى بهـــا يتناول الحلم الاعداد التى ترد فى افكار الحلم . فكثيرا ما نجد هذه الاعداد مسلوخة من سياقها الواقعى وهى مقحمة فى سياق جديد .

(٢) أنظر الحلم الاول ص ٧٥ (الهامش) .

التخلى عنها • اننا هنا امام موضوع موتها وموت أبيها • (قارن : « المدافن » فى موضع لاحق من الحلم •) أترانا نخطىء ان نحن افترضنا أن الموقف الذى شكل واجهة الحلم كان أخيولة أنتقام موجهة ضد أبيها ؟ أن مشاعر الاشفاق عليه ، التى أستشعرتها فى اليوم السابق على الحلم ، من شأنها أن تساير ذلك تماما • واليك الدلالة التى يمكن أن تكون لهذه الاخيلة : تركت البيت ، ومضت بين غرباء ، وانفطر قلب ابيها من الحزن عليها ، ومن الشوق اليها ، وعندئذ يكون قد تحقق لها الانتقام • كانت تفهم بكل وضوح هذا الذى يحتاجه أبوها ، الذى غدا الآن لا يستطيع النوم بغير كأس من الكونياك (١) • ولنتنبه الى ما عند دورا من رغبه ملحة فى الانتقام كعنصر جديد ينبغى أن يحسب حسابه فى محاولتنا اللاحقة لبناء الأفكار الكامنة للحلم عندها •

ولكن محتويات الخطاب لابد وأن تكشف أيضا عن محددات أخرى• فما عساه أن يكون مصدر الكلمتين « فلو شئت » ؟ كان عند هذه النقطة أن خطر ببال دورا الاضافة الخاصة بوجود علامة استفهام بعد كلمة « شئت » ، ولم تلبث أن تعرفت على هاتين الكلمتين كنص من خطاب مدام ك — الذى تدعوها فيه الى بلدة ل — عند شاطىء البحيرة • ففى ذلك الخطاب كانت توجد علامة استفهام جاءت بطريقة غير مألوفة تماما فى منتصف الجملة بعد العبارة الاعتراضية : « لو شئت أن تحضرى » •

فها نحن من جديد هنا بصدد المشهد عند البحيرة والمشكلات المتعلقة به • طلبت الى دورا أن تصف لى المشهد بكل تفصيلاته • فى البداية لم تقدم لى قليلا مما يمكن اعتباره جديدا • كان استهلال السيد ك — يتسم بشىء من الوقار ، ولكنها لم تدعه يكمل ما كان يريد أن يقوله •

---

(١) ليس من شك فى أن الاشباع الجنسى هو أفضل مفهوم ، تماما كما أن الارق هو دائما تقريبا نتيجة نقص الاشباع • لم يكن أبوها يستطيع النوم لانه كان محروما من الاتصال الجنسى مع المرأة التى يحبها • (قارن فى هذا الصدد العبارة التى سنعرض لها فيما بعد : « أن زوجتى لا تمثل شيئا بالنسبة لى») •

فهى لم تكد تستشف مرمى كلماته حتى صفعته على وجهه وهرولت مبتعدة، سألتها ماذا كانت كلماته على وجه الدقه • ثم تستطع دورا أن تتذكر شيئا غير هذه الذريعه : « أنت تعلمين أن زوجتى لاتمثل شيئا بالنسبة لى » (١) • وكيما تتجنب الالتقاء به من جديد اعتزمت أن تعود الى بلدة ل ـــ سيرا على الأقدام ، بالدوران حول البحيرة ، والتقت برجل فسألته عن الوقت الذى يلزمها للوصول الى بلدة ل ـــ وعندما أجابها « ساعتان ونصف » ، تخلت عن عزمها وقفلت راجعه فى النهاية الى السفينة ، التى لم تلبث أن تحركت • كان السيد ك ـــ فى السفينة هو الاخر ، فاقترب منها وتوسل اليها أن تصفح عنه ، وأن لاتتحدث بشيء ، عما حدث • ولكنها لم تجب بشيء • قالت : نعم • ان الغابة فى الحلم كانت تشبه تماما تلك الغابة عند شاطيء البحيرة •

وتلك الغابة هى التى جرى فيها المشهد الذى فرغت لتوها من وصفه من جديد • ولكنها كانت قد رات فى اليوم السابق نفس الغابة الكثيفة على وجه التحديد ، فى أحد الرسوم بمعرض النزعة الانفصالية (٢) فى الفن • وكان فى خلفية الصورة حوريات (٣) •

عند هذه النقطة تحول أحد شكوكى الى يقين • فاستخدام الكلمة الألمانية Bahnhof (محطة ، وحرفيا : ساحة محطة) (٤) ، والكلمة الألمانية Friedhof (مدافن ، وحرفيا : ساحة طمأنينة) للدلالة على

---

(١) هذه الكلمات سوف تمكننا من فهم أحدى مشكلاتنا •

(٢) بالانجليزية وبالفرنسية Secessionist Exhibition Exposition de le Secession

(٣) هنا للمرة الثالثة نلتقى بكلمة « رسوم » (مناظر مدن ، معرض درسدن) ، ولكنها هنا فى سياق أكثر دلالة بكثير فبسبب ما يظهر فى اللوحة (الغابات ، والحوريات) تتحول الكلمة الالمانية Bild (صورة) الى Weibsbild (وتعنى حرفيا صورة امرأة ـــ وهى كلمة تحقير للمرأة) •

(٤) هذا الى أن كلمة « محطة » تستخدم لاغراض Verkehr (بمعنى ممارسات غير مشروعة ، واتصال جنسى) • مما يهييء البطانة النفسية للكثير من فوبيات السكك الحديدية

الأعضاء الجنسية الأنثوية كان بذاته لافتا بدرجة كافية ، ولكن هذا الاستخدام كان من شأنه أيضا أن يتجه باستطلاعي المتحفز الى الكلمة المشابهة ببنائها Vestibilum Verhof دهليز،وحرفيا:ساحة أمامية — وهو مصطلح تشريحي لجزء بعينه من العضو التناسلي الأنثوى • كان يمكن أن لايكون ذلك أكثر من تلاعب بالألفاظ يؤدى الى التضليل • ولكن الآن ، اذ تنضاف « الحوريات » اللاتي يظهرن فى خلفية « الغابة الكثيفة » ، لم يعد هناك مجال لأى شك • فأمامنا هنا جغرافية رمزية للجنس ; فالكلمة اللاتنية Nymphae (١) ، وهى معروفة عند الأطباء وان لم تكن معروفة عند غير الاخصائيين (بل هى عند الأطباء غير شائعة الاستعمال) ، هى المصطلح الذى يطلق على الشفرين الصغيرين » اللذين يقعان فى خلفية « الغابة الكثيفة » لشعر العانه • ولكن غير الاخصائي حين يستخدم مصطلحات فنية من قبيل Nymphae الشفرين الصغيرين » « الدهليز » Vetibilum فلابد وأن يكون قد استمد هذه المعرفة من الكتب ، لا من هذه الكتب التى « للجميع » ، بل من الكتب العلمية للتشريح أو من دوائر المعارف — وهذه وتلك هى معين عام للشباب يلجأون اليه حين يكونون نهبا للاستطلاع الجنسى • فلو صح تفسيرى هذا ، فلا بد عندئذ وأنه تكمن خبيئة وراء الموقف الأول فى الحلم أخيولة فض بكارة أخيولة رجل يجاهد ليخترق العضو التناسلى الأنثوى (٢) •

---

(١) كلمة Nymphae فى الألمانية تعنى فى نفس الوقت « حوريات » و « الشفرين الصغيرين » • — (هامش الترجمة الانجليزية) •

(٢) أن أخيولة فض البكارة هى العنصر الثانى من نفس هذا الموقف • فالالحاح بالاهمية على صعوبة التقدم ، والقلق الذى استشعرته فى الحلم، يشيران الى مكان الصداره الذى توليه الحالمة لبكارتها — وتلت نقطة جرت أيضا الاشارة اليها فى موضع آخر عن طريق « السيدة العذراء » هذه الافكار الجنسية تشكل نوعا من الخلفيـة اللاشعورية للرغبـات (التى ربما كانت ماتزال بعد خبيئة تماما) المتصلة بخطيبها الذى كان ينتظر فى المانيا • وقد سبق أن تبينا أخيولة الانتقام من حيث هى العنصر الاول لنفس هـذا الموقف فى الحلم وهذان العنصران لايتراكبان بشكل تام ، بشكل جزئى فقط • وسوف نلتقى فيما بعد بآثار سلسلة ثالثة من الافكار هى أكثر أهمية

أفضيت الى دورا بهذه النتائج التى توصلت اليها . ولابد وأن الانطباع الذى أحدثه ذلك عندها كان ملزما اذا انبثقت فى ألتوقطعة من الحلم كانت منسية : « ذهبت فى هدوء الى غرفتها ، وبدأت تقرأ فى كتاب كبير كان موضوعا على مكتبها » (١) . كان الالحاح بالأهمية هنا ينصب على العنصرين « فى هدوء » و « كبير » ، فى ارتباطهما بـ « كتاب » . سألتها ما أن كان الكتاب فى حجم وشكل دائرة المعارف ، فقالت انــه كذلك . والمعروف أن الصغار لايكونون قط « فى هدوء » حين يقرأون الموضوعات المحرمة فى دوائر المعارف . فهم يقرأونها فى خوف وهـم يرتعدون ، ونظراتهم زائغة تتطلع من فوق أكتافهم ليستوثقوا من أن أحدا لن يفجأهم . فالآباء يشكلون صعوبة كبيرة أثناء ممارسة الصغار لمثل هذه القراءات . ولكن الحلم ، بفضل ماله من قدرة على تحقيق الرغبات ، قد بدل بصورة جذرية ـــ عن طريق التعبير المجازى ـــ هذا الموقف الأليم فأبوا دورا قد مـات ، والآخرون أيضـا ذهبـوا الى المدافن . فبوسعها أن تقرأ « فى هدوء » ماشاءت لها رغبتها . أفلا يعنى هذا أن أحد دوافعها الى الانتقام انما كان تمردها ضد القيود التى يمثلها الأبوان ؟ فلو كان أبوها ميتا فسيكون بوسعها أن تقرأ أو أن تحب كما تشاء .

لم يكن بوسع دورا فى البداية أن تتذكر أن قد سبق لها قط أن قرأت شيئا فى دائرة معارف ، ولكنها تذكرت بعد ذلك أن شيئا من هذا القبيل قد وقع لها ، ولو أنه كان من طبيعة برئية الى حد بعيد . ففى الوقت

---

(١) فى مناسبة أخرى ، بدلا من أن تقـول دورا «فى هدوء» ، قـالـت « دون أدنى حزن » . (أنظر هامش ص ١١٦) ـ بوسعى أن أستخدم هذا الحلم كدليل جديد على صحة الرأى الذى قدمته فى كتـابى «تفسير الاحـلام» (الطبعة السابعة الالمانية ص ٢٨٧ فى الترجمة العربية صفحة ٥١٢) . والذى ذهبت فيه الى أن هذه الاجزاء من الحلم التى تكون فى البداية منسية فلا يذكرها الحالم الا بعد ذلك ، هى دائما بالنسبة الى فهم الحلم أكثر أجزائه أهمية . وفى نفس المـوضع من كتـابى خلصت الى النتيجة التـى مؤداها أن نسيان الاحلام لابد وأن نفهمه على أنه نتيجة للمقاومة النفسية الداخلية .

الذي كانت فيه عمتها ، التي كانت دورا شديدة التعلق بها ، مريضة بشكل خطير ، وكان قد تقرر أن تسافر دورا اليها فى فينا ، جاء خطاب من عم آخر لدورا ينبؤها أن ليس فى استطاعتهم الذهاب الى فينا ، اذ أن أحد ابنائه ، أى أبن عمها ، قد وقع مريضا بشكل خطير بالتهاب الزائدة الدودية . عندئذ نظرت دورا فى دائرة المعارف حتى تتبين أعراض التهاب الزائدة ألدورية . وما تزال تذكر مما قرأته الموضع المميز لهذا الألم فى أسفل البطن .

وعندئذ تذكرت أن دورا ، بعد موت عمتها هذه بقليل ، أصابتها فى فينا نوبة ، قيل أنها التهاب زائدة دودية . وحتى ذلك الحين لم أجترىء على أن اعتبر هذا المرض نتاجا من بين نتاجاتها الهستيرية . قالت لى أنها فى الأيام القليلة الاولى للنوبة عانت من حمى شديدة ، واستشعرت الألم فى أسفل البطن ، على نحو ماقرأت فى دائرة المعارف . وقد عملت لها كمادات باردة ، ولكنها لم تقو على احتمالها . وفى ثانى يوم جاءتها العادة الشهرية مصحوبة بآلام شديدة . (فمنذ اضطراب صحتها اضطربت مواعيد العادة عندها اضطرابا شديدا) وفى تلك الفترة كانت تعانى بصفة مستمرة من الامساك .

لم يكن من الممكن فى الواقع اعتبار هذه الحالة حالة هستيرية صرفه . فانه وان كانت الحمى الهستيرية أمر يحدث بالتأكيد ، ألا أنه بدا لى أسرافا فى التعسف ارجاع هذه الحمى المصاحبة لهذا المرض المشكوك فى أمره الى الهستيريا ، بدلا من ارجاعه الى عوامل عضوية كانت تعمل عملها فى ذلك الوقت . وكنت أوشك أن أتخلى عن هذا الدرب، عندما أعانتنى هى نفسها على أن أمضى فيه ، بتقديمها واضافتها الأخيرة للحلم : « رأت نفسها بوضوح تام تصعد السلم » .

وطبيعى أننى اقتضيت عاملا محددا خاصا لهذه الواقعة . واعترضت دورا بأنه كان عليها على أى نحو أن تصعد السلم أن كان لها أن تصل الى شقتها التى كانت فى دور مرتفع . وكان من اليسير دحض هـــذا الاعتراض (الذى ربما لم تكن دورا تعنيه بشكل جاد تماما) بأن أبين لها أنها أذا كانت قد استطاعت فى حملها أن تسافر من البلدة المجهولة

الى فينا دون ما سفر فى القطار ، فلابد وأنه كان بوسعها أيضا أن تعفى نفسها من صعود السلم • ومضت دورا تقول أنها بعد التهاب الزائدة الدودية لم تكن تستطيع المشى بشكل عادى ، فكانت تجر قدمها اليمنى واستمرت معها هذه الحالة وقتا طويلا ، ولهذا السبب كان يسعدها بشكل خاص أن تتجنب صعود السلالم • وحتى الآن أحيانا ماتجر قدمها • ولقد غلبت الدهشة الأطباء ، الذين استشارتهم بناء على رغبة أبيها ، ولهذه الظاهرة جد العجيبة التى تخلفت عن التهاب الزائدة الدودية ، خاصة وأن آلامها فى أسفل البطن لم تعاودها ، ولم تصاحب بأى شكل جرها لقدمها (١) •

وعليه فنحن أمام عرض هستيرى بمعنى الكلمة • ربما كانت الحمى ترجع الى عامل بدنى — وربما كان هو احدى هذه النوبات جد الشائعة للانفلونزا التى لاتنصب على أى عضو محدد من البدن • ومع ذلك فقد ثبت الآن أن العصاب قد اقتنص هذه الفرصة السانحة واستغلها للتعبير عن نفسه • وهكذا فان دورا قد صنعت لنفسها مرضا كانت قد قرأت عنه فى دائرة المعارف ، وعاقبت نفسها على أنها غاصت فى صفحاتها • ولكنها كانت مكرهة على أن تعترف أن العقوبة لايمكن بحال أن تكون على قراءتها للموضوع البرى المذكور آنفا • فلابد وأن تكون العقوبة قد وقعت نتيجة عملية نقل ، وذلك بعد ماارتبطت بهذه القراءة البريئة مناسبة أخرى كانت القراءة فيها أمعن فى الاثم ، ولابد وأن كانت هذه القراءة الآثمة تكمن خبيئة فى ذاكرتها وراء القراءة البريئة المساوقة لها (٢) • بل وربما يكون بوسعنا أن نكشف عن طبيعة الموضوعات التى

---

(١) ينبغى أن نفترض وجود ارتباط بدنى بين الاحاسيس الاليمة فى أسفل البطن ، والمعروفة « بالآلام العصبية للمبيض » وبين اضطرابات الحركة فى الساق التى فى نفس الجانب ، وينبغى أن نفترض أن هذا الارتباط البدنى فى حالة دورا قد اكتسب دلالة من نوع جد خاص ، بمعنى انه قد تعبا بدلالة نفسية خاصة وغدا يعمل فى خدمتها • وليرجع القارىء الى ملاحظاتى المماثلة عن تحليل عرض السعال عند دورا ، وعن الارتباط بين الافرازات البيضاء وفقدان الشهية (الانوركسيا) •

(٢) ذلك مثل نمطى للكيفية التى تنتابها الامراض ابتداء من أسباب مباشرة تبدو فى الظاهر وكأنها لا ترتبط على الاطلاق بالجنسية •

قرأت عنها فى تلك المناسبة الأخرى .

فما عساها اذن أن تكون دلالة هذه الحالة ، التى تحاكى — على طريقة القرود — الالتهاب البريتونى حول الأعور ؟ أما بقية الأضطراب، وهو جر الساق ، فلم يكن ليساير على الاطلاق الالتهاب البريتونى حول الأعور . فلا بد بكل تأكيد وأنه يساير بشكل أفضل الدلالة الخبيئة — والتى يحتمل أن تكون جنسية — للوحة الكلينكية . وهذه الدلالة الخبيئة لو أمكن الكشف عن مصدرها ، فربما يلقى ذلك بدوره الضوء على الدلالة التى تفتش عنها . أخذت أنقب عن وسيلة أدخل بها الى هذا اللغز . فثمه فترات من الوقت وردت فى الحلم ، والوقت بالتأكيد لايمكن بحال أن يكون عديم الأهمية فى أى حدث بيولوجى . ومن هنا سألت دورا متى حدثت نوبة التهاب الزائدة الدورية ، وهل كانت قبل أو بعد مشهد البحيرة . وتبددت كل الصعوبات دفعة واحدة ، حين أجابت على الفور : « بعد المشهد بتسعة شهور » . هذه الفترة من الوقت هى بالتأكيد جد متميزة . فنوبة التهاب الزائدة الدودية المزعومة عند دورا قد مكنتها فى حدود الوسائل المتواضعة التى تحت تصرفها) الآلام والنزف الطمثى) ، من تحقيق أخيولة ولادة طفل (١) . وعت دورا بالطبع دلالة هذه الفترة من الوقت ، ولم تستطع أن تجادل فى احتمال أن تكون — فى المناسبة التى نحن بصددها — قد قرأت فى دائرها المعارف عن الحمل والولاده . ولكن ماعلاقة هذا كله بجرها لساقها ؟ بوسعى الآن أن أجترىء على حدسه . تلك هى الطريقة التى يمشى بها الناس حين تلتوى قدمهم . واذن فقد زلت قدمها . الامر الذى يغدو صحيحا حقا لو أنها أنجبت طفلا بعد مشهد البحيرة بتسعة شهور . ولكن كان لابد من توفر شرط آخر أصر على تحققه فانى مقتنع بأن عرضا من هذا القبيل لايمكن أن ينشأ الا اذا توفر له نموذج أصلى فى الطفولة . فكل خبرتى حتى الآن تحملنى على أن أتشبث برأيى فى أن الذكريات الخاصة

(١) سبق أن ذكرت أن معظم الاعراض الهستيرية ، حين تبلغ ذروة تطورها ، تمثل موقفا متخيلا من الحياة الجنسية — من قبيل مشهد اتصال جنسى ، أو حمل ، أو ولادة طفل أو فترة نفاس الخ .

بخبرات السنوات الاكثر حداثة ليس لها من القوة الكافية مايمكنها من أن تتحول الى أعراض . لم أكن أكاد اجترىء على أن امل أن تزودنى دورا بالمعطيات التى أنشدها من طفولتها ، وذلك لأننى لست بعد فى وضع يمكننى من أن اؤكد — وبالدرجة التى اتمناها — الصحة المطلقة لهذه القاعدة . ولكن فى حالة دورا جاء على الفور مايؤكد هذه القاعدة . قالت دورا : نعم ، فقد حدث لها ذات مرة وهى طفلة أن التوت منها نفس القدم ، فقد انزلقت قدمها على احدى الدرجات وهى تهبط السلم . وتلك القدم — وهى نفس القدم فى الواقع التى كانت تجرها فيما بعد — قد ورمت ، ولزم ربطها بالأربطة ، واقتضى الأمر أن ترقد فى السرير لبضعة أسابيع . حدث ذلك قبيل نوبة الربو العصبى فى عامها الثامن .

وعلينا الآن أن نستخلص النتائج التى تلزم عن هذه الأخيولة التى اثبتنا وجودها : « اذا صح أنك اتجبت طفلا بعد مشهد البحيرة بتسعة أشهر ، وأنك مضيت حتى ذلك اليوم تحملين النتائج التى ترتبت على ذلة قدمك ، فالنتيجة التى تلزم عن ذلك هو أنك ولابد أن تكونى قد أسفت فى اللاشعور للنتيجة التى انتهى اليها هذا المشهد . ومعنى ذلك أنك قد عدلت من هذه النتيجة فى أفكارك اللاشعورية . فأخيولتك الخاصة بانجاب طفل تستند الى فرض مؤداه أن شيئا قد حدث فى تلك المناسبة (١) وأنك قد عشت فى تلك المناسبة ومارست كل شىء مما وجدت نفسك منساقة فى الواقع الى انتهاله فيما بعد من دائرة المعارف . وهكذا فأنت ترين أن حبك للسيد ك — لم ينته بالمشهد ، بل انه (كما قلت لك) مايزال مستمرا حتى اليوم — وان كان صحيحا أنك لاتشعرين به » . — بعد ذلك لم تعد دورا تجادل فى الأمر (٢) .

---

(١) وهكذا تتكشف أخيولة فض البكارة مرتبطة بالسيد ك — ومن ثم يتضح لنا الآن علة اشتمال هذا الجزء من الحلم على مادة مأخوذة من مشهد البحيرة — الرفض ، ساعتان ونصف ، الغابة ، الدعوة الى بلدة ل —

(٢) قد يحسن هنا ان أقدم بضعة تفسيرات اضافية فضلا عن التفسيرات التى سبق تقديمها : من الواضح أن «المادونا» (السيدة العذراء) =

= كانت هي دورا نفسها ، أولا بسبب « العاشق » الذى بعث اليها بالصور ، وثانيا لانها حصلت على حب السيد ك ـ أساسا بفضل الامومة التى ابدتها لطفليه ، وأخيرا لانهـا أنجبت طفلا بينما كـانت ماتزال عذراء (وفى ذلك اشارة مباشرة الى أخيولة انجاب طفل) • هذا الى أن تصور « المادونا » يمثل فكرة مضادة حبيبة الى نفوس العذارى اللائى تعذبهن مشاعر الاثـم الجنسى ، مما كان متحققا فى حالة دورا • وقد اتجه ظنى الى هذا الارتباط لاول مرة عندما كنت أعمل كطبيب فى عيادة الطب العقلى بالجامعة • وقعت هناك على حالة حادة من جنون الخلط مع هلوسات تكشفت فيه النوبة عن انها رد فعل لتأنيب عانته المريضة من خطيبها ـ ولو كان تحليل دورا قـد استمر لكان من المحتمل أن ينكشف حنينها الامومى الى طفل كدافع غامض، وأن يكن عاتيا ، فى تحديد سلوكها ـ فالاسئلة الكثيرة التى كانت تثيرها أخيرا بدت وكأنها مشتقات أجلة للاسئلة المستمدة من فهم استطلاعها الجنسى، هذا الذى حاولت اشباعه فى دائرة المعـارف • ومن المحتمـل أن تكـون الموضوعات التى قرأتها فى دائرة المعارف هى الحمل ، والولادة ، والبكارة وما الى ذلك • وفى تكرار سردها للحلم نسيت دورا واحدا من الاسئلة كـان ينبغى تضمينة فى سياق الموقف الثانى من الحلم • وهذا السؤال كــان يمكن فقط أن يكون : «هل يسكن السيـد ـ هنـا ؟ » أو «أو أين يسكـن السيد ؟ » (أبوها ـ فى الترجمة الفرنسية) ولابد وأن يكون هناك سبب ما لنسيانها هذا السؤال البرىء فى ظاهره ، بعد ماكانت قد ضمنته فى الحلم • يكمن السبب فيما يبدو لى ، فى اسم عائلتها ذاته ، الذى كـان يعنى فى نفس الوقت شيئا بل أكثر من نوع الاشياء ، ومن ثم يمكن اعتباره كلمة « ملتبسة » • ولاأستطيع لسوء الحظ أن أذكر هذا الاسم لابين مدى صلاحيته للدلالة على « اللبس » و « عدم اللياقة » • وهذا التفسير وجد ما يدعمه فى عثورنا على تلاعب بالالفاظ فى جزء آخر من الحلم ، حيث المـادة مأخوذة من ذكريات دورا عن موت عمتها « لقد ذهبوا الى المدافن » وحيث حدث تلاعب مماثل حول اسم عمتها • هذه الكلمات غير لائقة تشير فيما يبدو الى مصدر ثان وشفوى للمعلومات ، اذا ما كـان لدائرة المعـارف أن تشتمل عليها • وما كنت لادهش لو سمعت أن هـذا المصدر كـان هو مدام ك ـ نفسها ، الواشية بدورا • فى هذه الحالة تكون مدام ك ـ هى الشخص الوحيد الذى أعفته دورا بسخاء ، بينما تعقبت الاخرين بانتقامها الماكر • ووراء سلسلة عملية النقل التى لايحصيها العـد ، والتى كشف عنهـا التحليل كان من اليسير أن نتبين فاعلية عامل واحد بسيط وبعينه هو : حب دورا المثلى الجنسية والعميق الجذور لمدام ك •

أن الجهود لاستيضاح الحلم الثاني قد استغرقت حتى الآن ساعتين وفى نهاية الجلسة الثانية ، عندما عبرت لها عن سرورى بالنتيجة التى توصلنا اليها ، أجابت دورا فى لهجة استهانة « علام ؟ هل تمخض الأمر عن شيء رائع جدا الى هذا الحد ؟ » وقد هيأتنى هذه الكلمات لمقدم أفصاحات جديدة .

واستهلت الجلسة الثالثة بهذه الكلمات : « هل تعرف أننى هنا اليوم للمرة الأخيرة ؟ »

— قلت : من أين لى أن أعرف مادمت لم تذكرى لى شيئا عن ذلك ؟

— قالت : نعم . كنت قد عقدت عزمى على أن انتظر حتى رأس السنة (١) . ولكنى لن أنتظر أكثر من ذلك حتى أشفى .

— قلت : أنت تعرفين أنه من حقك فى أى وقت أن توقفى العلاج . ولكن بالنسبة الى اليوم فسوف نمضى فى عملنا . متى اتخذت قرارك هذا ؟

— قالت : منذ أسبوعين ، فيما أظن .

— قلت : ذلك يشبه تماما أسبوعى الانذار من جانب خادمة أو مربية .

— قالت : كانت هناك مربية عند أسرة ك — أعطتهم انذارها عندما كنت فى زيارتى لهم فى ذلك الوقت فى بلدة ل — عند شاطىء البحيرة .

— قلت : أحقا ؟ لم تحدثينى قط عنها . فحدثينى .

---

(١) كان ذلك يوم ٣١ ديسمبر .

ــ قالت ٠ حسنا ٠ كانت هناك شابة فى البيت تعمل مربية للطفلين، وكان سلوكها ازاء السيد ك ــ فى غاية الغرابه ٠ لم تكن قط توجه أليه تحية الصباح أو تجيب على تسؤلاته ، أو تناوله شيئا على المائدة عندما يطلبه ، وباختصار كانت تعامله كأنه لا وجود له ٠ ومن ناحيته لم يكن هو بالكاد أكثر أدبا فى معاملته لها وقبل مشهد البحيرة بيوم أو يومين انتحت بى الفتاة جانبا ، وأخبرتنى بأن لديها ماتقوله لى ٠ وعندئذ أخبرتنى بأن السيد ك ــ قد قام بمغازلتها ، عندما كانت زوجته متغيبة عن البيت لبضعة أسابيع ، أظهر لها حبا عنيفا ، ورجاها أن تستسلم لتوسلاته ، قائلا ان زوجته لاتمثل شيئا بالنسبة اليه ، وما لى ذلك ٠

ــ قلت : ولكن هذه هى نفس الكلمات التى استخدمها بعد ذلك حين طارحك حبه ، فصفعته على وجهه ٠

ــ قالت : نعم ٠ لقد استسلمت له ، ولكنه بعد فتره قصيرة توقف عن أن يهتم بها ، ومنذ ذلك الحين كرهته ٠

ــ قلت : وهذه المربية هل أعطت انذار ؟

ــ قالت : لا ٠ كانت تريد أن تعطى انذارا ٠ قالت لى أنها بمجرد أن استشعرت انصراغه عنها أخبرت أبويها بكل ماحدث ٠ كان أبواها أناسا طيبين يقيمون فى مكان مامن ألمانيا ٠ قال أبواها أن عليها أن تترك ذلك البيت على الفور ، وحين لم تفعل ذلك كتبا اليها يقولان أن ليس لهما بعد ذلك شأن بها ، وأن ليس لها أن تعود اليهما على الاطلاق ٠

قلت : ولماذا لم تترك البيت ؟

---

(١) كان ذلك يوم ٣١ ديسمبر ٠

ــ قالت : قالت انها كانت تريد أن تنتظر بعض الوقت لترى ما أن كان سيطرا شيء من التغير على السيد ك ــ وقالت أنها لم تكن تستطيع أن تحتمل الحياة على هذا النحو أكثر من ذلك ، وأنها لو رأت أن مامن تغير قد طرأ فستعطى انذارها وترحل .

ــ قلت : وماذا انتهى اليه أمر الفتاة ؟

ــ قالت : كل ماأعرفه أنها رحلت .

ــ قلت : أو لم تنجب طفلا نتيجة لهذه المغامرة ؟

قالت : لا .

وعليه ، فهنا (وفى مسايرة تماما للقواعد) تبرز الى الضوء وسط التحليل بعض المعطيات ، فتعيننا على حل مشكلات سبقت اثارتها .

ــ عندئذ استطعت أن أقول لدورا : الآن أعرف الدافع الذى حدا بك الى صفح السيد ك ــ على وجهه ، كاجابة على مطارحته لك بالحب . لم يكن أنك تأذيت مما دعاك اليه ، بل كانت تحركك الغيرة والانتقام . وعندما كانت المربية تقص عليك حكايتها ، كنت ماتزالين قادرة على استخدام موهبتك فى أن تنحى جانبا كل ماهو غير سار لمشاعرك .ولكن فى اللحظة التى استخدم فيها السيد ك ــ هذه الكلمات : « أن زوجتى لاتمثل شيئا بالنسبة لى » ــ وهى نفس الكلمات التى استخدمها مع المربية ــ انطلقت فيك انفعالات جديدة فأمالت كفة الميزان . قلت فى نفسك : « أيجترىء على أن يعاملنى كمربية ، كخادمة ؟ » واذا أضاف الكبرياء الجريح الى الغيره والى الدوافع الشعورية المنطقية فاض الكيل (١) . وكيما أدلل لك على ما كان من تأثرك العميق بقصة المربية ،

---

(١) انه ليس بالامر العديم الاهمية أن تكون دورا ــ فيما يحتمل ــ قد سمعت اباها يردد نفس الشكوى من زوجته ، تماما كما سمعتها أنا من شفتيه . فقد كانت على وعى تماما بمغزى هذه الشكوى .

دعينى ألفت انتباهك الى المناسبات المتكررة التى تطابقت فيها معها، سواء فى حملك أو فى سلوكك • فقد أخبرت أبويك ؟ بماحدث — وتلك واقعة كنا حتى الآن غير قادرين على تفسيرها — تماما كما كتبت المربية فأخبرت أبويها • وقد أعطيتنى انذار اسبوعين ، تماما كالمربية • والخطاب فى حلمك الذى سمح لك بالعــودة الى البيت ، هــو العنصر المقابل لذلك الخطاب الذى وصل الى المربية من أبويها يحرم عليها العودة الى البيت •

— قالت : ولكن لماذا لم أخبر أبوى على الفور •

— قلت : كم من الوقت سمحت له أن يمر ؟

— قالت : وقع المشهد فى اليوم الأخير من يونيه ، وأخبرت أمى به فى الرابع عشر من يوليه •

— قلت : أسبوعان اذن مرة أخرى — وهى الفترة المميزة للانذار الذى ينبغى أن تعطيه المربية قبل رحيلها ؛ والآن بوسعى أن أجيب على سؤالك ، لقد كنت تفهمين الفتاة المسكينه تماما • لم تكن ترغب فى الرحيل على الفور ، لأنها كانت ماتزال تأمل ، كانت تتوقع أن يعود اليها حب السيد ك — من جديد • ذلك لابد أيضا هو دافعك الى التأجيل • فقد انتظرت تلك الفترة من الوقت لترى ماأن كان سيكرر مطارحته لك • ولو أنه فعل ، لخلصت الى أنه يأخذك مأخذ الجد ، ولايقصد الى أن يعبث بك كما فعل مع المربية •

— قالت : بعد رحيلى ببضعة أيام بعث الى ببطاقة مصورة (١) •

— قلت : نعم ، ولكن عندما لم يصل اليك شىء بعد ذلك ،

---

(١) هنا نقطة الوصل مع المهندس الشاب ، الذى كان يختبىء وراء شخص دورا نفسها فى الموقف الاول من الحلم •

أطلقت العنان لمشاعر الانتقام • بـل بوسعى أن أتصور أنك كنت مانزالين قادرة فى ذلك الوقت على أن تضمرى قصدا آخر ، اذ تصورت أن اتهامك له يمكن أن يكون وسيلة تحمله على أن يسافر الى حيث تقيمين •

— تقفزت دورا قائلة : كما عرض ذلك بالفعل فى البداية •

— قلت : بهذه الطريقة كنت ستطفئين من تلهفك على رؤيتـــه (وهنا أومأت برأسها موافقة ، الامر الذى لم أتوقعه) ، وكان سيقدم اليك ماترغبين فيه من ترضيات •

— قالت : أية ترضيات ؟

— قلت : الواقع أننى بدأت أعتقد أنك كنت تنظرين الى علاقتك بالسيد ك — بجدية أكثر بكثير مما كنت على استعداد للتسليم به حتى الآن • ألم يكن السيد ك — وزوجته يتحدثان كثيرا فى أمــر طلاقهما ؟

— قالت : نعم بالتأكيد • كانت مدام ك — فى البداية لاترغب فى الطلاق بسبب الطفلين • أما الآن فهى التى تريد الطلاق ، ولكنه هو لم يعد يرغب فيه •

— قلت : ألم يدر بخاطرك أنه يريد الطلاق من زوجته ليتزوج منك ؟ وأنه الآن لم يعد يريد الطلاق ، اذ ليس لديه من تأخذ مكانها ؟ صحيح أنك منذ عامين كنت جد صغيرة ، ولكنك أخبرتنى أنت نفسك أن أمك تمت خطبتها وهى فى السابعة عشرة ، ثم انتظرت عامين لتتزوج • والابنة عادة ماتتخذ قصة حب أمها أنموذجا لها • وكذلك أنت أيضا أردت أن تنتظريه ، وفهمت الامر على أنه أنما كان ينتظر

فحسب حتى تكبرى بحيث تصلحين لان تكونى زوجه له (١) • وأنى أتصور أن تلك كانت خطة جادة تماما للمستقبل كما ترينه • وليس لديك حتى الحق فى أن تستبعدى وجود مثل هذا القصد عند السيد ك — ، لقد حدثتنى عنه بدرجة تكفى لأن تنفصح مباشرة عن وجود مثل هذا القصد عنده (٢) • بل ولم يكن سلوكه فى بلدة ل — ليتعارض مع هذا الرأى • وفى نهاية الأمر ، فانك لم تدعى له مجالا ليكمل حديثه ، ولست تعلمين ماكان يريد أن يقوله لك • وبالصدفة فان تلك الخطة لم تكن مستحيلة على التنفيذ الى هذا الحد • فعلاقة أبيك مع مدام ك — وربما لهذا السبب وحده أنك ساندت علاقتهما كل ذلك الوقت — كانت تجعل موافقتها على الطلاق أمرا مؤكدا ، أما عن أبيك ، فبوسعك أن تحصلى منه على أى شىء تريدين • والواقع ، لو أن غوايتك فى بلدة ل — انتهت نهاية مختلفة ، لكان فى ذلك الحل الوحيد الممكن لجميع الأطراف المعنيه • وأعتقد أن هذا هو السبب الذى جعلك تأسفين آسفا عميقا على ماوقع ، وحملك على تصحيحه بالأخيولة التى تجسدت فى صورة التهاب الزائدة الدودية • ومن هنا فلابد وأنها كانت خيبة أمل مريرة بالنسبة لك عندما تتمخض اتهاماتك للسيد ك — عن تحديد مطارحاته لك ، بل تمخضت بدلا من ذلك عن انكارات وافتراءات من جانبه • وأنت توافقيننى على أن ما من شىء يثير غضبك قدر الاعتقاد بأن مشهد البحيرة كان من محض خيالك • وانى أتبين الآن — وهذا هو ما لاتحبين أن يذكرك به أحد — أنك تصورت أن مطارحات السيد ك — كانت جادة ، وأنه لن يمل سعيا اليك حتى تتزوجيه •

كانت دورا تنصت لى دون أن تلجأ الى أعتراضاتها المألوفة

---

(١) ان موضوع الانتظار حتى يتم الوصول الى الهدف يقع فى مضمون الموقف الاول من الحلم • وانى اتبين فى هذه الاخيولة ، أخيولة انتظار الرجل لخطيبته ، جزءا من العنصر الثالث المكون لذلك الموقف وقد سبق أن أشرت بالفعل الى وجود هذا العنصر الثالث •

(٢) وعلى وجه الخصوص ، بعض كلماته الى دورا وهو يهدى اليها علبة للخطابات فى عيد الميلاد ، وذلك فى العام الاخير من اقامتهما فى بلدة ب

كان يبدو عليها التأثر ، وقالت لي وداعا ، بحرارة شديدة ، مع أطيب تمنياتها القلبيه للسنة الجديدة ، و .. لم تعد مرة آخـــرى • ولكن أباها ، الذى حضر لزيارتى مرتين أو ثلاثة بعد ذلك ، أكد لى أنها ستعود ، قائلا أنه من السهل أن يتبين المـــرء تلهفها على استمرار العلاج • بيد أنه ينبغى الأعتراف بأن أباها لم يكن يوما بحال سليم الطوية تماما • فقد كان يساند العلاج طالما كان يستطيع أن يأمـــل أننى سأثنى دورا عن اعتقادها بأن هناك شيئا يزيد على الصداقـــــة بينه وبين مدام ك ــ • وقد خبت حماسته عندما تبين أننى لم أكن أقصد الى بلوغ هذه النتيجة • كنت أعرف أن دورا لن تعــود • فايقافها العلاج بهذه الفجائية ، فى هذه اللحظة بالذات التى بلغت فيها آمالى فى نهاية ناجحة للعـــلاج أقصـــى مايمكن ، واحالتها بذلك لتلك الآمال الى لاشىء ــ أنما كان من جانبها ، وبشكل لايخطـــؤه أحد ، عملا انتقاميا • كما أن دافعها الى ايذاء ذاتها قـــد وجد فى ذلك مايرضيه • ان الشخص الذى يبتعث من أعماق النفس البشرية كمـــا أفعل ، أسوا الشياطين نصف المروضة ، سعيا الى مصارعتها ، ليس له أن يتوقع ان يخرج سليما دائما من هذا الصراع •

أتراني كنت احتفظ بالفتاة تحت العلاج لو أننى أنا نفسى لعبت دورا ، لو اننى غاليت فى أهمية استمرارها فى العـــلاج بالنسبة لى ، وكشفت عن اهتمام شخصى حار بها ــ وهو دور كان من شأنه ، حتى على الرغم من انخفاض أثره الذى يمكن أن ينجم عن وضعى كطبيب ، أن يكفل امدادها ببديل عن الحب الذى كانت تتوق اليه ؟ لست أدرى ، وحيث أن جانبا من العوامل التى تعترضنا فى صورة مقاومة يظل ، فى جميع الحالات ، مجهولا بالنسبة الينا ، فانى قد تحاشيت دائما أن ألعب دورا ، قانعا بدور السيكولوجى الأكثر تواضعا • وعلى الرغم من كل اهتماماتى النظرية ، وكل حرص من جانبى كطبيب على تقديم المعونة ، فانى أضع نصب عينى تلك الحقيقة التى مؤادها أنه لابد وأن تكون هناك حدود تحدد نطاق استخدام التأثير السيكولوجى ،

والتي احترم — كواحد من هذه الحدود — ارادة المريض وعقله .

بل ولست أدرى أيضا ما أن كان السيد ك — كان يمكن أن يبلغ الى شيء ، لو كشفنا له عن أن الصفعة التى تلقاها من دورا لم تكن تعنى بحال « لا » بصورة نهائية من جانبها ، وانما كانت تعبر عن الغيرة التى انبعثت فيها أخيرا ، بينما كانت أقوى مشاعرها ماتزال فى جانبه . فلو أنه تغاضى عن « لا » الاولى هذه ، واستمر يلاحقها بعاطفة متأججة لاتدع لها مجالا لأى شك ، فقد كان من الجائز جدا أن تكون النتيجة انتصارا لحب الفتاة لهعلى كل صعوباتها الداخلية ولكنى أعتقد أنه كان من الجائز أيضا وبنفس الدرجة أن يثير ذلك فيها الرغبة فى أرضاء شهوتها للانتقام منه ، وان يستمر ذلك بنفس الدرجة من العنف . فليس من المستطاع قط أن نحسب فى أى اتجاه يتجه القرار فى صراع للدوافع : أفى اتجاه ازالة الكبت أم فى أتجاه تعزيزه . أن العجز عن أرضاء المتطلبات الواقعية للحب هو واحد من أهم الخصائص الرئيسية للعصاب . فالعصابيون يحكمهم التعارض بين الواقع وبين أخاييلهم اللاشعورية . فما يتوقون اليه بأقصى شدة فى أخاييلهم يهربون منه مع ذلك متى توفر لهم فى الواقع ، وهم يستسلمون لأخاييلهم بأقصى طواعية عندما يثقون من استحالة تحققها فى الواقع . ومع ذلك فان الحاجز الذى يقيمه الكبت يمكن أن ينهار أمام اجتياح أثارة انفعالية عنيفة ناجمة عن سبب واقعى ، فالعصاب يمكن أن ينهزم أمام الواقع . ولكننا لانستطيع بصفة عامة أن نتنبأ : عن طريق أى شخص ، أو عن طريق أى حدث يمكن البلوغ الى مثل هذا الشفاء (١) .

---

(١) سوف أضيف بضع ملاحظات عن بناء هذا الحلم ، الذى لم يكتمل استيضاحه بدرجة تكفى لمحاولة اقامة وحدته الكلية . ثمة جزء بارز فى الحلم هو منه بمثابة الواجهة الامامية ، هو أخيولة الانتقام من الاب : « تركت البيت من تلقاء نفسها ، كان أبوها مريضا ، ثم مات ... ثم عادت الى البيت ، وكان الآخرون جميعا بالفعل فى المدافن . دخلت غرفتها . دون =

= ادنى حزن ، وبدأت فى هدوء تقراء دائرة المعارف) • وهذا الجزء من مـــادة الحلم يشتمل أيضا على اشارتين الى فعلها الانتقامى الاخر ، الذى كانت قد نفذته فى الواقع ، حين رتبت الامر بحيث يقع أبواها على خطاب وداع منها : (الخطاب ـ وهو من أمها فى الحلم ـ ، وذكر جنازة العمة التى كانت دائما أنموذجا لها) • ووراء هذه الاخيولة تكمن خبيئة أفكارها الانتقامية ضـد السيد ك ـ وهى الافكار التى وجدت لها دورا منصرفا فى سلوكها معى : (الخادمة ، الدعوة ، الغابة ، الساعتان ونصف ـ كل هذه العناصر مستمدة من المادة المرتبطة بالاحداث فى بلدة ل ـ) • وذكرياتها عن المربية ، وعـن الخطابات التى تبادلتها هذه المربيه مع أبويها ترتبط بما لايقل عن ارتباط خطاب وداعها بالخطاب فى الحلم وهو الذى يسمح لها بالعودة الى المنزل ، ورفضها أن تدع الرجل يصاحبها وتصميمها على أن تمضى بمفـــردهـا ربمـا يمكن ترجمتها الى هذه الكلمـات : «حيث أنـك عاملتنى كخادمة فلن أحفل بك بعد الان ، سوف أمضى فى طريقى بمفردى ولا أتزوج • » ووراء هذه الافكار الانتقامية تتراءى عناصر من أخاييل الحنان المستمدة من حب دورا للسيد ك ـ وهو الحب الذى استمر لاشعوريا عندها ••• : (كنت سأنتظرك حتى يكون من الممكن أن أصبح زوجة لك ـ فض البكارة ـ أنجاب طفل) • ـوأخيرا يمكننا أن نتبين أثر المجموعة الرابعة من الافكـار ، وهـى الأعمـق انطمارا ، الخاصة بحبها لمدام ك ـ • وذلك فى تصوير أخيولة فض البكارة من وجهة نظر رجل (توحدها مع عاشقها المهنـدس الشـباب) الذى يعيـش فى الخارج من الحلم الى أقوال ملتبسة («هل السيد ـ يسكن هنا ؟») والى موضعين من الحلم أقوال ملتبسة (« هل السيد ـ يسكن هنا ؟ ») والى ذلك المصدر غير الشفوى لمعارفها الجنسية (دائرة المعارف) • وثمة نزعات من القسوة والسادية نجد فى هذا الحلم أشباعا •



تذييـــل



تذييـــــل

صحيح أننى قدمت هذا المقـال على أنه تحليل جزئى ، ولكن ربما يكون القارىء قد تبين أنه من عدم الاكتمال بدرجة أكبر بكثير مما أوحى به اليه هذا العنوان • وعليه يكون من واجبى أن أوضح أسباب هـذه الاغفالات ، التى ليست بحال مسألة صدفة •

فبعض نتائج التحليل أغفلت ، اذ كانت فى الوقت الذى توقف فيه التحليل أما أنها لم تتم اقامتها بدرجة كافية من اليقين ، أو أنها كانت تتطلب مزيدا من الدراسة قبل أن يكون من الممكن الوصول منها الى أية نتائج عامة • وفى مواضع أخرى ، حيث بدا لى ذلك ممكنا، نبهت الى الاتجاه الذى يمكن لو سلكناه أن نعثر فيه على حل معين • وقد أغفلت تماما فى هذا المقال فنيات التحليل ، وهـى التى لا يمكن فهمها بداهة ، والتى يمكن بفضلها فحسب مع ذلك استخلاص المعـدن الصافى للافكار اللاشعورية القيمة ، ابتداء من المـادة الخام لتداعيات المريض • وينطوى هذا على حرمان القارىء — وهو يتابع عرضى لهذه الحالة — من أية فرصة للتحقق من صحة الاجراء الذى اتبعته • ومهما يكن من أمر ، فقد كان من غير العملى تماما أن أعرض فى نفس الوقت لفنيات التحليل وللبناء الداخلى لحالة هستيريا : فما كنت أستطيع بالكاد انجاز مثل هذا العمل ، ولـو استطعته لكان النتاج شيئا تكـاد تستحيل قراءته • ففنيات التحليل تتطلب عرضا مستقلا تماما ، حيث يتحتـم أيضاحها بعديد من الأمثلة ، تنتقى من بين تشكيلة هائلة من الحالات ، وحيث تغفل النتائج التى تم الوصول اليها فى كل حالة على حدة • كما أغفلت أيضا فى هذا المقـال التدليل على صحـة المسلمات السيكولوجية التى تبرز قائمة وراء وصفى للظواهر النفسية • فالمحاولة السطحية فى هـذا الصـدد ما كانت لتنتهى الى شىء ، أما المحاولة المستفيضة فستكون بذاتهـا مجلـدا • وبوسعى فحسـب أن

أوكد للقارىء أننى ، دون أن أكون مواليا لأى مذهب سيكولوجى معين ، قد قمت بدراسة الظواهر التى أمدتنى بها ملاحظة الأعصبة النفسية وأننى أخذت بعد ذلك فى تعديل وجهات نظرى حتى بدت لى قادرة على أن تتيح فهما لجملة الوقائع التى تمت ملاحظتها • وانى اذ تجنبت كل تأمل نظرى لم اتخذ من ذلك موضع فخر، فمعطيات فروضى قد تم الحصول عليها بسلسلة من الملاحظات أقصى ماتكون اتساعا واقتضاء للجهد • وربما يكون من شأن اتجاهى الصارم من مسألة اللاشعور أن يثير الامتعاض بصفة خاصة ، اذ أنى أتناول الأفكار اللاشعورية ، وسلاسل الأفكار اللاشعورية ، والنزعات الانفعالية اللاشعورية ، على أنها وقائع سيكلوجية لاتقل صدقا ويقينا عن الوقائع الشعورية • ولكن فيما يتصل بذلك ، فانى على يقين من أن أى شخص يشرع فى دراسة نفس هذا المجال من الظواهر ، مستخدما نفس المنهج ، فسوف يجد نفسه مضطرا الى أن يتخذ نفس موقفى ، مهما كثرت اعتراضات الفلاسفة

ان بعض زملائى الأطباء قد اعتبروا نظريتى فى الهستيريا نظرية سيكولوجية خالصة ، واستنادا الى ذلك أصدروا حكمهم عليها بعجزها عن أن تحل مشكلة باثولوجية ، وسوف يتضح لهم ولا شك من هذا المقال أن أعتراضهم يرجع الى أنهم قد حولوا دون حق الى النظرية ذاتها مايخص الفنيات • ففنيات العلاج هى وحدها سيكولوجية خالصة ، أما النظرية فهى لاتغفل بحال التنبه الى أن للأعصبة دعامة عضوية ــ وأن كان من الصحيح أنها لاتتقصى هذه الدعامة ضمن نطاق التغيرات التشريحية الباثولوجية ، وأنها تضع بشكل مؤقت تصور الوظائف العضوية بدلا من التغيرات الكيمائيه التى ينبغى أن نتوقع يوما الكشف عنها ، وأن كناما زلنا حتى الآن عاجزين عن الامساك بها • ما من أحد ، فيما أظن ، يميل الى أن ينكر على الوظيفة الجنسية خاصيتها كعامل عضوى ، وهذه الوظيفة الجنسية هى نفسها التى أعتبرها دعامة الهستيريا والأعصبة النفسية عامة • وما من نظرية عن الحياة الجنسية تستطيع فيما أعتقد ، أن تتجنب افتراض

وجود مواد جنسية محددة ذات أثر تهيجى • ومن بين جميع اللوحات الكلينيكية التى نلتقى بها فى الطب الكلينيكى فان ظواهر التسمم والامتناع فيما يتصل بالاستخدام الادمانى لبعض السموم هى التى تشبه أوثق الشبه فى الواقع ، الأعصبة النفسية بمعنى الكلمة •

ومرة أخرى ، فاننى لم أعرض فى هذا المقال لكل مايمكن أن يقال اليوم عن « المهاودة البدنية » ، وعن البذور الطفلية للانحراف الجنسى ، وعن المناطق الشبقية ، وعن استعدادنا السابق للجنسية الثنائية ، فقد اقتصرت على أن ألفت الانتباه الى المواضع التى يلتقى فيها التحليل بهذه الدعامات العضوية للأعراض • ولم يكن من الممكن أن أفعل أكثر من ذلك فى عرضى لحالة فردية • هذا الى أن نفس الأسباب التى سبقت الاشارة اليها قد دفعتنى الى أن أتجنب العرض السطحى لهذه العوامل • وثمة فى هذا الصدد فرصة ثرية لأبحاث أخرى تستند الى دراسة عدد كبير من التحليلات •

ومع ذلك فانى اذ نشرت هذا المقال ، على ماهو عليه ، من عدم اكتمال ، استهدفت أمرين : اولا ، كنت أرغب فى أن أكمل كتابى « تفسير الأحلام » ، وذلك بأن أبين كيف يمكن استخدام هذا الفن (تفسير الأحلام) ، والالكان عديم الجدوى ، للكشف عن الأجزاء الخبيئة والمكبوتة من النفس البشرية • (وبالصدفة ، فانى أثناء تحليلى لحلمى دورا ، اللذين يتناولهما هذا المقال ، قد عرضت لفنيات تحليل الأحلام ، وهى شبيهة بفنيات التحليل النفسى) • وثانيا ، كنت أرغب فى أن أثير الاهتمام بطائفة بأسرها من الظواهر ، مايزال العلم حتى اليوم يجهلها جهلا تاما ، وذلك لأنها لايمكن أن تتكشف الا باستخدام هذا المنهج الخاص • فما من أحد ، فيما أعتقد ، كان يستطيع ، قبل هذا المنهج ، أن يبلغ الى تصور صحيح عن مدى تعقد الظواهر النفسية فى الهستيريا : تجاور لأكثر النزعات احتلافا، وتبعية متبادلة بين الأفكار المتضادة ، وعمليات الكبت والنقل ، الى

غير ذلك . فتأكيد جانيه Janet لأهمية « الفكرة الثابتة » Idée fixe التى تتحول فى رأيه الى عرض ، أمر لايزيد عن أن يكون محاولة جد هزيلة من جانبه لعمل مخطط أولى . وفضلا عن ذلك ، فانه لايمكننا أن نتجنب الاعتقاد بأنه عندما تكون الأفكار — المرتبطة باثارات معينة — عاجزة عن أن تصبح شعورية ، فان تلك الاثارات لابد وأن يؤثر بعضها على بعض بطريقة مباينة ، ولابد وأن تتبع مسارا مباينا ، وتترجم عن نفسها على نحو مباين ، بالقياس الى تلك الاثارات الأخرى التى نصفها بأنها « سوية » والتى ترتبط بها أفكار تصبح شعورية عندنا . ومتى غدت الأمور واضحة بهذه الدرجة ، فليس من عقبة تعترض سبيل فهمنا لطريقة فى العلاج تزيل الأعراض العصابية بتحويل أفكار من النوع الأول الى أفكار سوية .

وكنت أيضا تواقا الى أن أبين أن الجنسية لاتتدخل ببساطة ، كعصا سحرية ، فى مناسبة واحدة ، وفى نقطة ما من اعتمال العمليات التى تميز الهستيريا ، بل أنها مصدر القوة الدافعة لكل عرض من الأعراض ، ولكل مظهر من مظاهر العرض الواحد . فأعراض المرض ليست شيئا آخر غير النشاط الجنسى للمريض ، ويستحيل على حالة فردية واحدة أن تقتدر على اثبات نظرية فى عمومية مثل هذه النظرية ، ولكنى لايسعنى الا أن أعيد وأعيد القول — لأننى أبدا ماوجدت الأمر على غير ذلك — بأن الجنسية هى المفتاح لمشكلة الاعصبة النفسية والأعصبة بعامة . وما من أحد يرفض المفتاح بمستطيع قط أن يفتح الباب . وما زلت انتظر أنباء عن أبحاث يكون بوسعها أن تدحض هذه النظرية ، أو أن تحد من مجالها . فما سمعته حتى الآن ضدها انما كان تعبيرا عن نفور شخصى أو ارتياب شخصى . على هؤلاء يكفى أن أجيب بكلمات شاركو : « هذا لايمنع من وجودها ».

وكذلك فان الحالة التى انشر هنا جانبا من تاريخها المرضى وعلاجها ، ليست من هذه الحالات التى تتيح لنا أن نتبين الأبعاد

الحقيقية لقيمة العلاج بالتحليل النفسى . فليس فقط قصـر فتـرة العلاج (الذى استمر بالكاد ثلاثة أشهر) ، بل أيضا عامل آخـر ينتسب الى طبيعة الحالة ، قد حـال دون تحقيق تحسن كهذا الذى نبلغ الى تحقيقه فى حالات أخرى ، حيث يعترف المريض بالتحسن ويعترف به أقاربه ، وحيث يكون التحسن شديد القرب بدرجة أو أخرى من الشفاء الكامل . ولكن النتائج الباعثة على الرضا من هذا القبيل يكون البلوغ اليها عندما تكون الأعراض فى تكوينها وبقائها ، راجعة فحسب الى الصراع الداخلى بين النزاعات المتعلقة بالجنسية . فى مثل هذه الحالات تتحسن حالة المريض بقدر مانعينه على حـل مشكلاته النفسية ، وذلك بتحول المادة المولدة للمرض الى مادة سوية ويكون مسار الأحداث مختلفا تماما اذا ماأصبحت الأعراض تعمل فى خدمة دوافع خارجية خاصة بحياة المريض ، على نحو ماحدث مع دورا خلال العامين الاخيرين . ومما يبعث على الدهش ، وهو مايمكن بسهولة أن يضللنا ، أن نجد أن حالة المريض لاتكشف عن أى تغير ملحوظ ، حتى وان كان قد تحقق تقدم كبير فى العمل التحليلى . ولكن الأشياء لاتكون فى واقع الأمر بالسوء الذى تبدو عليه . صحيح أن الأعراض لاتختفى أثناء سير العمل التحليلى ، ولكنها تختفى بعد ذلك بفترة وجيزة ، عندما تتلاشى العلاقات بين المريض والطبيب . فتأخر الشفاء أو التحسن يرجع فى الواقع فقط الى شخص الطبيـب ذاته .

ويتحتم على أن أرجع قليلا الى الوراء ، حتى أجعل هذا الأمر مفهوما . يمكن القول بصفة عامة أن تكوين أعراض جديدة دائمـا مايتوقف أثناء العلاج التحليلى ولكن القدرة الانتاجية للعصاب لاتكون بحال منطفئة ، بل تنصرف الى استحداث حالات نفسية جد خاصة ، غالبا ماتكون لاشعورية ، وبوسعنا أن نسميها « تحويلات » .

فما عساها أن تكون التحويلات ؟ هى طبعات متكررة ، أو نسخ طبق

الأصل ، للنزعات والاخاييل التى يتحتم أن تبتعث وتصبح شعورية أثناء تقدم التحليل ، ولكن التحويلات لها هذه الخاصية العجيبة التى تميز نوعيتها ، ونعنى وضعها شخص الطبيب مكان شخص أبكر وبتعبير آخر : فان سلسلة بأسرها من الخبرات النفسية تماش من جديد ، لا على أنها تنتمى الى الماضى ، بل على أنها تنصب على شخص الطبيب فى اللحظة الراهنة . وبعض هذه التحويلات لايختلف مضمونها فى شىء عن النموذج الأصلى الا من حيث ابدال الشخص فهذه التحويلات هى اذن — مستخدمين نفس الاستعارة — مجرد طبعات متكررة أو نسخ طبق الأصل . بينما هناك تحويلات أخرى أكثر براعة فى بنائها ، فالمضمون فيها قد تعرض لتأثير ملطف — لتأثير الاعلاء كما أسميه — بل أنها قد تغدو شعورية استنادا الى استغلال بارع منها لخاصية واقعية فى شخص الطبيب أو فى ظروفه ، فتربط نفسها بها . هذه التحويلات لن تكون طبعات متكررة ، بل هى طبعات منقحة .

ولو مضينا ممعنين فى فنيات التحليل فسوف يغدو واضحا أن التحويل ضرورة يستحيل تجنبها . فالخبرة العملية على الاقل تثبت بطريقة ملزمة أنه مامن وسيلة لتجنبه ، وأن هذا النتاج الأخير للمرض تتحتم محاربته تماما ككل نتاجاته الباكرة . ولكن هذا الجانب من العمل التحليلى هو بما لايقاس أكثرها مشقة . فمن اليسير أن يتعلم المرء تفسير الأحلام ، وأن يستخلص من مستدعيات المريض أفكاره اللاشعورية ، وذكرياته اللاشعورية ، وأن يمارس مثل هذه الفنون التأويلية . فالمادة اللازمة لذلك سوف يقدمها المريض بنفسه دائما . أما التحويل فهو الشىء الوحيد الذى يتحتم على المحلل أن يستكشف وجوده دون مامعونة فى الغالب من المريض ، وليس لديه الا أبهت الآثار ليقتفيها ، بينما يتحتم عليه فى الوقت أن يتجنب خطر الانزلاق الى استنتاجات تعسفية . ومع ذلك ، فالتحويل لايمكن تجنبه ، اذ يجرى استغلاله من جانب المريض لاقامة كل العقبات التى تجعل المادة

غير متاحة للعلاج ، واذ لايبلغ المريض الى شعور بالاقتناع بصحة الارتباطات التى أعيد بناؤها أثناء التحليل الا بعد أن يكون التحويل قد تم تحليله .

وقد يستشعر البعض ميلا الى اعتبار التحويل عقبة خطيرة تنضاف الى طريقة هى على أية حال مضنية بدرجة كافية ، بحيث يكون من شأن هذا التحويل أن يزيد من عناء الطبيب باستحداثه أنواعا جديدة من النتاجات النفسية الباثولوجية . بل وقد يجد هذا البعض اغراء فى أن يتأدى من وجود التحويل الى أن المريض سوف يصيبه الضر من طريقة التحليل . وهذان الزعمان كلاهما خاطىء فجهود الطبيب لاتزيد بسبب التحويل . فلا يختلف الأمر بالنسبة اليه سيان كان عليه أن يتغلب على أية نزعة معينة يستشعرها المريض تجاهه هو (الطبيب) أو تجاه أى شخص آخر . وكذلك فان العلاج التحليلى لايفرض على المريض ، فى صورة التحويل ، أية مهام جديدة ما كان بغير ذلك أن يضطلع بها . واذا كان صحيحا أن الأعصبة يمكن شفاؤها فى مصحات تستبعد طريقة العلاج بالتحليل النفسى ، وكان صحيحا أن الهستيريا يكون شفاؤها لابالطريقة ولكن بالطبيب ، وكان صحيحا أن نوعا من التبعية العمياء ومن التعلق الدائم يكشف عنه المريض تجاه طبيبه الذى أزال له الأعراض بايحاء التنويم الغناطيسى، فان التفسير العلمى لكل هذه الوقائع يكمن فى « التحويلات » التى يعيشها دائما المرضى تجاه أطبائهم . ان علاج التحليل النفسى لايخلق التحويلات ، ولكنه فحسب يكشف عن وجودها ، كما يكشف عن عن وجود كثرة كثيرة من العوامل الأخرى الخبيئة . والاختلاف الوحيد بين العلاجات الأخرى والتحليل النفسى هو كما يلى : أن المريض خلال العلاجات الأخرى لايستدعى — وذلك بشكل تلقائى — الا التحويلات الودودة والصدوقة خدمة لشفائه ، ولكن حين لاتأتى هذه التحويلات فان المريض يستشعر الطبيب ثقيل الظل بالنسبة اليه ، وينفصل عنه دون أن يتأثر به . والأمر على العكس فى التحليل

النفسى ، فبالنظــر الى أن عمل الدوافــع مختلف ، فان كل نزعات المريض ، بما فى ذلك النزعات العدائية ، تبتعث • وعندئذ يجــرى استخدامها لأغراض التحليل بجعلها شعورية ، وبهذه الطريقة يتتابع أولا بأول تحطيم التحويل • فالتحويل الذى وكأنه قد كتب له أن يكون أعتى العقاب فى وجــه التحليل النفســى لا يصبح أقوى حليف له ، اذا ماأمكننا أن نستشف وجوده فى كل مرة ، وأن نكشف للمريض عن دلالته (١) •

لقد وجدتنى مضطرا الى أن أتحدث عن التحويل ، اذ بهذا العامل وحده أستطيع أن أوضح الخصائص الخاصة بتحليل دورا - أن أكبر ميزة فى هذه الحالة من التحليل ، وهى على التحديد وضوحها غير العادى الذى يجعل منها حالة جد ملائمة لأن تكون أول عمل ينشر كمدخــل للتحليل النفسى ، لهى جد وثيقة الأرتباط بأكبر عيب لها ، والذى تأدى الى توقفه التحليل قبل أوانه • لم أنجح فى السيطرة على التحويل فى الوقت الملائم • فبالنظر الى ما كان من تلهف دورا على أن تزودنى أثناء العلاج بجانب من المادة المولدة لمرضها ، فقد فاتنى أن أحرص على التفتيش عن البوادر الأولى للتحويل ، الذى كان يتولد عند دورا بفضل جانب آخر من نفس هذه المادة ــ وهو جانب ظللت أجهــله • كان من الواضح فى البداية أننى كنت آخذ مكان أبيها فى خيالها ، وهو أمر يسهل تصوره بالنظر الى فارق العمر بينى وبينها • بل أنها كانت شعوريا لاتنقطع عن مقارنتى بأبيها ، وظلت فى لهفة تحاول أن تستوثق مما أن كنت صريحا تماما معها ، اذ أن أباها ــ على حد قولها ــ كان « يفضل دائما عدم الصراحة والطرق الملتفه » • ولكن عندما جاء الحلم الأول ، وهو الذى أعطت فيه لنفسها انذارا بأنه من ألافضل لها أن تترك العلاج على يدى ، تماما كما سبق لها أن تركت بيت السيد ك ــ ، كان يتحتم على أن أصغى أنا نفسى لهذا الانذار • كان ينبغى أن أقول

---

(١) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) ــ ان استرسالا فى هذه الملاحظات عن التحويل يوجد فى مقالى الفنى عن «عشق التحويل» • ١٩١٥ (المقــالات المجموعة، المجلد الثانى) •

لها حينذاك : « ان مشاعرك تجاه السيد ك ــ قد طرحتها الآن على • فهل لاحظت شيئا يجعلك تعتقدين فى وجود مقاصد سيئة عندى شبيهة بمقاصد السيد ك ــ (سيان فى صورة مكشوفة أو فى صورة من صور الاعلاء) ؟ أو ترى هل راعك شىء من جانبى أو سمعت شيئا عنى استولى على خيالك ، كما حدث لك من قبل مع السيد ك ؟ » عندئذ كان انتباهها سيتجه الى واقعة جزئية ماتتصل بعلاقتنا أو تتصل بشخصى أو بظروفى ، واقعة جزئية يكمن وراءها شىء مماثل ــ وان يكن أكثر أهمية بما لايقاس ــ يتعلق بالسيد ك ــ ومتى تمت تصفية هذا التحويل ،يكون التحليل بذلك قد وجد طريقه الى ذكريات جديدة تتعلق أغلب الظن بأحداث واقعية • ولكنى أغفلت هذا الانذار الأول ، ظنا منى أنه مايزال أمامى متسع من الوقت ، اذ لم تظهر أطوار أخرى جديدة من التحويل ، ولم تكن مادة التحليل قد نضبت • وهكذا أخذنى التحويل على غرة ، وبسبب هذا القدر المجهول فى شخصى الذى يذكر دورا بالسيد ك ، انتقمت منى اذ أرادت أن تنتقم منه ، وتركتنى ، اذ كانت تعتقد أنها أنخدعت وانتركت من السيد ك ــ • وهكذا « فعلت » جانبا أساسيا من ذكرياتها وأخاييلها بدلا من أن تتكلم به فى جلسات علاجها • فما عساه كان هذا « المجهول » ؟ أنى بالطبع لاأعرف • انى افترض أنه كان شيئا يتصل بالمال ، أو بالغيرة من مريضة أخرى ظلت على صلة بأسرتى بعد شفائها وعندما يكون من الممكن ادماج التحويل ضمن التحليل فى مرحلة باكرة ، فان التحليل يتتابع أكثر بطءا وأقل وضوحا ، ولكنه بذلك يصبح أكثر حصانة ضد المقاومات الفجائية والعاتية •

وفى الحلم الثانى لدورا توجد اشارات واضحة عديدة للتحويل • ففى الوقت الذى كانت تقص على هذا الحلم لم أكن أعرف بعد (ولم أعرف ذلك الا بعد يومين) أن ليس أمامنا غير ساعتين من العمل • كانت هذه هى نفس الفترة من الوقت التى قضتها أمام صورة « المادونا » (العذراء) ، وكانت أيضا هى نفس الفترة (باجرائها تصحيحا ، ووضعها « ساعتين » بدلا من « ساعتين ونصف ») التى

اعتبرتها لازمة للدوران ألذى لم تقم بــه حــول الحــيرة • ونضالها للوصول ، وانتظارها فى الحلم ، اللذان يرتبطان بالمهندس الشاب فى ألمانيا ، واللذان يرجع أصلهما الى انتظارها حتى يتمكن السيد ك ـ من أن يتزوجها ، قد تترجما كلاهما فى التحويل قبل ذلك بأيام قليلة • والعلاج ، فيما تصورت ، كان مسرف الطول بالنسبة لها ، ولم يكن فى وسعها بحال أن تنتظر كل هذا الوقت • ومع ذلك فانها فى الأسابيع القليلة الأولى كانت منطقية بحيث أنصتت دون أى اعتراض عندمــا أخبرتها أن شفاءها الكامل ربما يتطلب عاما • ورفضها فى الحلم أن يصحبها الرجل ، وتفضيلها أن تمضى بمفردها ، أنما يرجعان أيضا بأصلهما الى زيارتها لمعرض الرسوم فى درسدن ، وكان على أنا نفسى أن أعانيهما فى اليوم المحدد • ان مايعنيانه كان ولاشك : « ان الرجال كلهم من الشناعة بحيث أفضل أن لاأتزوج ، ذلك هو انتقامى » (١) •

أن حفزات القسوة ودوافع ألانتقام ، آلتى سبق أستخدأمهــــا بالفعل فى تكوين الأعراض عند المريضة : اذا ماحولت على الطبيب أثناء

---

(١) (ملحوظة عام ١٩٢٣) : كلما طال الوقت الذى يفصلنى عن نهاية التحليل، ازداد إعتقادى فى أن خطئى فى الفنيات انما كان ينحصر فى هذا الاغفال : لقد فشلت فى أن اكتشف فى الوقت المناسب، وفى أن أخبر المريضة أن حبها المثلى الجنسية (المولع بالنساء) لمدام ك ـ كان أقوى النزعــات اللاشعورية فى حياتها النفسية • كان ينبــغى على أن استنتشف أن المــصدر الــرئيسى لمعــارفهــا فى المسائــل الجنسيــة لايمكــن أن يكون أحدا غــير مدام ك ـ وهى نفس السيدة التى اتهمت دورا فيما بعد بالولع بهذه المسائل نفسها • كانت معرفتها بكل شيء عن هذه المسائل، وفى نفس الوقت ادعاؤها دائما بانها لاتعرف من أين أتت بمعارفها هذه ، من الامور جد اللافتة حقــا • كان يتحتم على أن أبادر الى تناول هذا اللغز، فانتش عن الدافع الى هذا الكبت الفريد• ولو أنى فعلت ذلك لكان الحلم الثانى قد أعطانى الجواب• فشهوة الانتقام الجارفة التى عبر عنها هذا الحلم كانت ـ أكثر من أى شيء آخر ـ ملائمة لاخفاء النزعة المضادة : السخاء الذى به غفرت خيانة الصديقة التى تحظى بحبها (أى بحب دورا) ، والذى به أخفت عن كل شخص حقيقة أن هذه الصديقة هى نفسها التى أطلعتها على المعارف التى غدت فيما بعد أساسا للاتهامات التى انصبت عليها (أى على دورا) • وقبل أن أتبين اهمية النزعة المثلية الجنسية عند العصابيين النفسيين، كثيرا ما كانت اجدنى عاجزا عن التقدم فى علاج مرضاى ، أو أجدنى فى حيرة تامة •

العلاج ، قبل أن يكون لديه الوقت الكافى ليبعدها عن نفسه بارجاعها الى أصولها ، فعندئذ ليس لنا أن ندهش اذا مابقيت حالة الريضة على ماهى عليه ، دون أن تتأثر بالجهود العلاجية للطبيب • فاية طريقة تتيح للمريضة أن تنتقم من طبيبها أفضل من أن تجعله يتبين فى شخصها مدى عجزه وانعدام حيلته ؟ ومع ذلك فلست أميل الى أن أغالى فى التقليل من قيمة النتائج العلاجية حتى فى حالة من التحليل الجـزئى كحالة دورا هذه •

* * *

لم تصلنى أية أخبار عن حالة مريضتى وعن نتائج علاجى لهـا الا بعد مرور خمسة عشر شهرا من توقف العلاج وكتابتى لهذا المقال • ففى يوم لايمكن أن يكون تاريخه عديم الأهمية تماما ، وهو الأول من أبريل (فالاوقات والتواريخ ، كما نعلم ، لم تكن بحال عديمة الدلالة بالنسبة لها) ، حضرت دورا الى من جديد : لتكمل قصتها وتطلب منى أن أساعدها من جديد • ومع ذلك فنظرة واحدة الى وجهها كانت كافية لتبين لى أنها لم تكن جادة فى طلبها • لقد ظلت — على حد قولها — طيلة أربعة أو خمسة أسابيع بعد توقف العلاج « مقلوبة الحال رأسا على عقب » • ثم بدأ بعد ذلك تحسن كبير ، تباعدت نوباتها وارتفعت معنوياتها • وفى مايو من ذلك العلم توفى أحد طفلى السيد ك (وقد كان دائما معتلا) • وانتهزت فرصة مصابهم هذا لتذهب اليهم فى زيارة عزاء ، وقد استقبلاها وكأن شيئا لم يحدث فى السنوات الثـلاث السابقة • تصالحت معهما ، وانتقمت منهمـا ، وانتهت الى نتيجـة تبعثها على الرضا • قالت للزوجة: « أنى أعرف أنك على علاقة بأبى »، فلم تنكر الزوجة ذلك • أما عن الزوج فقد حصلت منه على أعتراف بمشهد البحيرة ، الذى كان قد جادل فى أمره • ثم حملت أنباء أنتقامها الى أبيها فى البيت • ومنذ ذلك الحين لم تستأنف علاقتها مع تلك الأسرة•

واستمرت دورا بعد ذلك فى صحة جيدة حتى منتصف أكتوبر ، حين انتابتها نوبة جديدة من فقدان الصوت ، أستمرت معهمـا سـتة

أســابيع • دهشت لهذا النبأ ، وعندما سألتها ما أن كان هناك أى سبب مثير ، أجابتنى بأن النوبة جاءت فى أعقاب رعب عنيف • فقد رأت شخصا تدوسه عربة • وأخيرا خرجت بالحقيقــة ، وهى أن الحادث لم يقع لشخص آخر غير السيد ك ــ نفسه • فذات يوم التقت بــه فى الطريق ، وكان ذلك فى مكان يزدحم بالمرور ، توقف أمامها فى حالة من الارتباك ، وفى هذه اللحظة من شرود البال دهمته عربة (١) • وكان بوسعها مع ذلك أن تقنع نفسها بأنه قد خرج من الحادثة دون اصابة خطيرة • وكانت ماتزال تستشعر انفعالا هينا اذا سمعت أحدا يتحدث عن علاقة أبيها بمدام ك ــ ، ولكنها فيما عدا ذلك لم تكن تحفل بالأمر • كانت مستغرقة فى دراستها ، ولم تكن تفكر فى الزواج •

ومضت تخبرنى بأنها جاءت تطلب منى أن أساعدها بخصوص ألم عصبى فى النصف الأيمن من وجهها ، كانت تقاسى منه ليل نهار •

ــ سألتها : منذ متى بدأ هذا الألم ؟

ــ أجابت : منذ أسبوعين تماما (٢) •

لم أتمالك نفسى من الابتسام ، اذ استطعت أن أبين لها أنها لابــد وأن تكون منذ أسبوعين تماما قد قرأت نبأ خاصا بى فى الصحف • (كان ذلك عام ١٩٠٢) • وقد أكدت لى ذلك (٣) •

وهكذا فان ألمها الوجهى الكاذب كان عقوبة ذاتية ــ تانيبا لانهــا لكمت مرة السيد ك ــ على أذنه ، ولأنها طرحت مشاعرها الانتقامية

---

(١) نقدم تلك الحالة اسهاما طريفا فى مشكلة المحــاولات غير المباشــرة للانتحار ، وهى التى ناقشتها فى كتابى : «سيكوباثولوجيا الحياة اليومية» •

(٢) فيما يتصل بدلالــة هذه الفتــرة من الوقت ، وعلاقتهــا بموضوع الانتقام ، انظر تحليل الحلم الثانى •

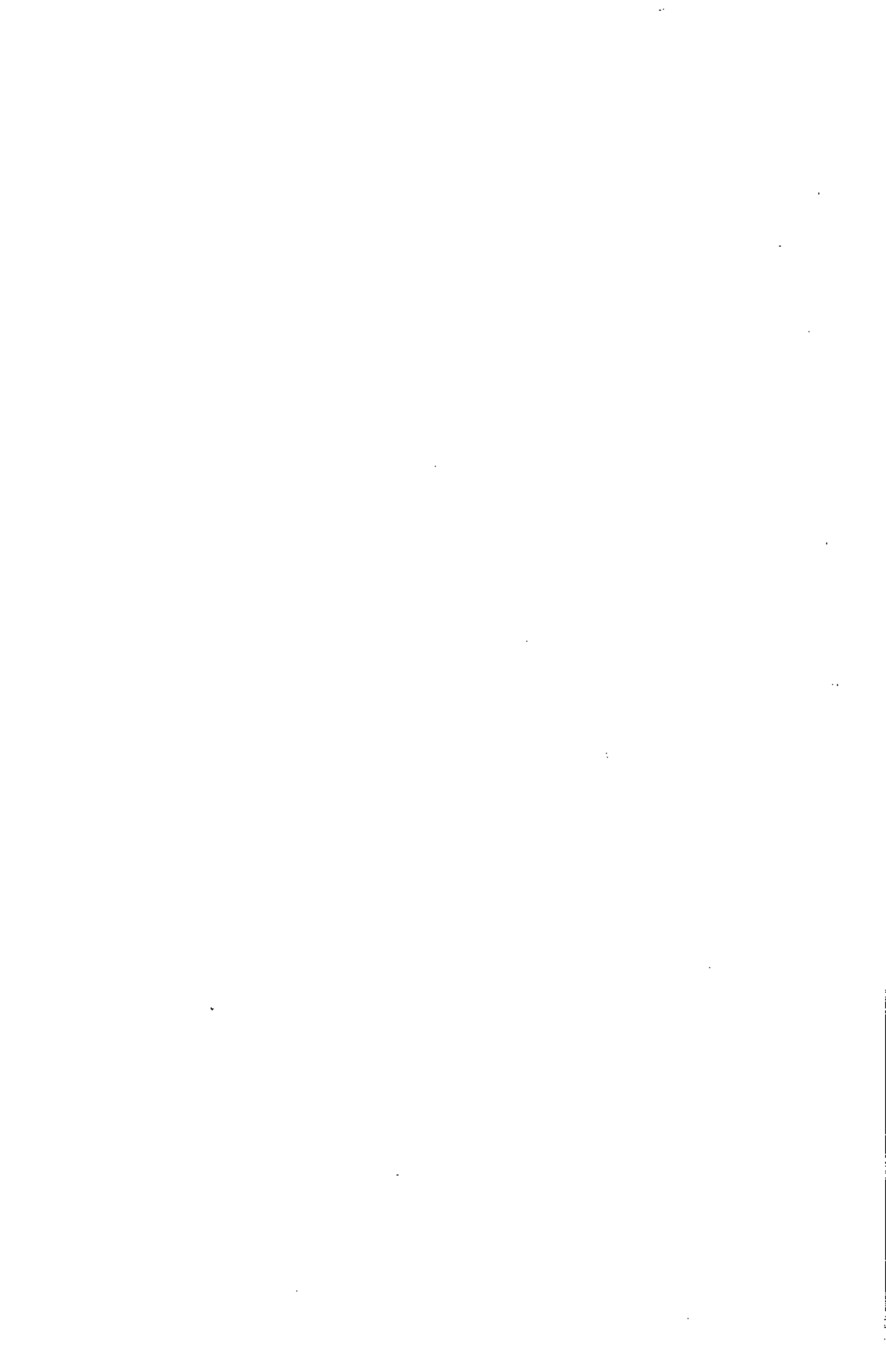
(٣) لاشك أن هذا النبأ هو تعيين فرويد أستاذا بالجامعة • عن الترجمة الانجليزية فى • Stand. Ed.

على شخصى ، لم أكن أدرى أى نوع من المساعدة تريده منى ، ولكنى وعدتها أن أغفر لها أنها حرمتنى من متعة تخليصها من مرضها بشكل أكثر أكتمالا •

ومضت السنون بعد زيارتها تلك • وأثناء ذلك تزوجت الفتاة ، وتزوجت فى الواقع — اللهم الا أن تكون كل الأمارات قد خدعتنى — من ذلك المهندس الشاب الذى ورد فى تداعياتها فى بداية تحليل الحلم الثانى • وكما ان الحلم الأول كان يمثل تحولها عن الرجل الذى تحبه الى أبيها — أى هروبها من الحياة الى المرض — فكذلك كان الحلم الثانى يعلن أنها توشك أن تنتزع نفسها متحررة من أبيها لتستردها الحياة من جديدة •



ثبت مصطلحـات



ثبت مصطلحـات

نقـل
displacement
déplacement

اضطراب الشخصية
character disorder (s)
trouble (s) du caracétre

افرازات بيضاء ، لوكوريا
leucorrhoea
leucorrhée

اكتئاب
depression
dépression

التهاب بريتونى حول الأعور
perityphlitis
pérityphlite

التهاب الزائدة الدودية
appendicitis
appendicite

التهاب (الغشاء المخاطى)
catarrh
(كلمة وصل تشير الى الزكام كما تشير الى الافرازات البيضاء المهبلية)
catarrhe

ألم المبيض (العصبى)
ovarian nevtalgia
ovarite

ألم المعدة (العصبى)
gastralgia
gastralgie

أمنيزيا (انظر : نسيان)

انقلاب الوجدان (ميكانيزم)
reversal of affect
interversion de l'affect

بارامنيزيا ، ذكرى كاذبة
paramnesia
paramnésie

امتثال يظهر خطأ على أنه ذكرى ، مما نلتقى به فى « وهم رأيته من قبل » الخ (بييرون)

تاريخ المرض وماضى المريض
anamnesia
anamnése

جملة المعلومات التى تحصل عليها باستخبار الشخص عن ماضيه وتاريخ مرضه (بييرون)

تبدين • هستيريا التبدين
conversion

مرض نفسى يخصصه التعبير العضوى عن الصراعات اللاشعورية أنظر : هستيريا •

التحتيم بأكثر من سبب
ovner - determination
surdéterminisme

تعزيز مضاد
reactive reinforcement
reinforcement de réaction

الجماع المقطوع
coitus interruptus
coit interrompu

جنسية مثلية
homosexuality
homosexualité

خراع • تهزع المشية • اتاكسيا حركية (شرف) tabes

ذكـــرى حاجبة
screen - memoyr
souvenir écran

ذهان الزوجة الخدمة
housewife's psychosis
psychose de la menagére

ذهان عصبى
neuro - psychosis
neuropsychose

سعال عصبى
tussis nervosa
nervous coughing
toux nerveuse

شبه نوم مغناطيس (حالة)
hypnoid state
état hvpnoide

حالة تشبه الحالات الهنية من النوم المغناطيسى ، ولكن يتم احداثها بوسائل غير المستخدمة فى التنويم المغناطيسى (وارين)

شلل الخراع
tabo - paralysis

الشلل العام
peneral paralysis
paralysie génèrale

مرض عقلى يرتبط باصابات المخ الراجعة الى ألزهرى ، ويتميـــز بتضاؤل عقلى عام ، وباضطرابات هذيانية ، مع أوهام عظمة فى الغالب، وارتعاش واضح فى اللسان والأصابع وملامح مختلفة عصبية ومزاجية مميزة • كان مستحيلا على الشفاء فى الماضى ، ولكن يشيع الآن شفاؤه بالعلاج الملائم فى مرحلة باكرة • (بييرون) •

الصبغ بالمثالية ، إسباغ المثالية	idealisation idéalisation
صداع نصفى	hemicranis, hemicranial headache migraine
تحـــــويل	transference transfer
عسر التنفس	dyspnea, dyspnoea dyspnée, gène respiratoire
فعل أعراضى	symptomatic act acte symptomatic
فقدان الصوت	aphonea aphonie
الكتمان الطبى	medical discretion discretion médicale
الكسب الأولى (من المرض)	paranosic gain, primary advantage profit primaire
الكسب الثانوى (من المرض)	epinosic gain, secondary advantage bénèfice secondaire
لوم ذاتى ، ندم	self-reproach reproche à soi - même
مضاد للزهرى	antiluetie, antisyphilitic

المعالجة بالمياه

hydrotherapy
hydrothérapie

ممر للتداعى

path of association
voie associative

المهاوده البدنية

somatic compliance
complaisance somatique

نسيان ، فجوة ذاكرة

amnesia
amnésie

نشوء المرض

pathogenesis
pathogenie

نوبة خلط عقلى

confusional attack
acaés de confusion mentale

اصابة عامة ، وغالبا وقتية ، للوظائف النفسية ، تتميز بحالة من العتامة الذهنية ، وبتضاؤل الوعى ، واضطراب الادراك ألخ • ويترتب على ذلك عجز عن التوجه فى الزمان والمكان ، واضطرابات غائرة فى الذاكرة ، وغالبا مايصحبها قلق وهلوسات بصرية شبيهة بالحلم • وتتميز عن الجنون بوعى المريض النسبى باضطرابه وبالجهد الذى يبذله للتكيف مع العالم الخارجى • ولارتباط الخلط العقلى غالبا بعدوى أو بتسمم فانه يقبل الشفاء بازالة السبب أو بالعلاج بالصدمات ، كمايمكن أن يصبح مزمنا (صورة من الجنون الباكر) • (بييرون) •

هذيان (حالة)

delirious state
étàt dèlirant

هزال (شرف)

cachexia marasmus
cachexie

هستيريا (هستيريا التبدين) hysteria
hystèrie

مرض نفسى يتميز خاصة بالقابلية الشديدة للايحاء ، هذه التى تتجلى فى القابلية المدهشة للتشكيل من جانب الشخصية • ومن هنا تبرز سلسلة بأكملها من الأعراض الوظيفية فى صورة بدنية : الشلل ، والاضطرابات الحسية ، والنوبات العصبية ، والنوم ، والتخشب (الكتالبسيا) الخ • ومن هنا أيضا تبرز كثرة من الاضطرابات النفسية جد المتميزة الوالع بالكذب (الميتومانيا) ، واليقظة الحالمة ، والامنيزيا من نوع جد خاص ، والآلية النفسحركية الخ • وألهستيريا ، من حيث هى التعبير العضوى عن الصراعات اللاشعورية ، تعرف فى التحليل النفسى بعصاب التبدين •

أما هستيريا القلق فهى فى التحليل النفسى ، عصاب نفسى تستخدم الأنا فيه دفاعات لتتجنب المواقف التى تثير بنوعيتها القلق ، اذ تمثل غوايات أو عقوبات أو الامرين معا • ففى الفوبيات يكون الموقف المرهوب مكافئا متحجبا لمصدر القلق الأصلى • (بييرون) •

(راجع الفصلين ١١ و ١٢ من كتاب أوتوفينخل : نظرية التحليل النفسى فى العصاب — مكتبة الأنجلو) •

وسمة (ج • وسمات) stigma (pl. stigmata)
stigmate

الولع بالنساء ، مشاعر (من جانب النساء) gynaecophilic feelings
sentiments gynécophiles

تصـــــدير

بقـــــلم

مصطفى زيـــور

ان « هانز الصغير » هو أول طفل يعالج بالتحليل النفسى من حالة فوبيا (أى خوف مرضى) من الجياد • وظهر هذا العصاب لديه فى أوائل شهر يناير من سنة ١٩٠٨ وكان عمره أربعة سنوات وثمانية أشــهر وشفى منها بعد أربعة أشهر من العلاج • وكان أبوه من مريدى فرويد فى تلك الحقبة الباكرة من تاريخ التحليل النفسى ، وخاصة والـــده الذى كان دءوبا فى الاستماع الى محاضرات فرويد • وقراءة مؤلفاته وكان فرويد ينهى الى تلامذته ومريديه أن كشوفه عن الحياة النفسية الجنسية لدى الأطفال التى استخلصها من خلال تحليل مرضاه العصابيين الراشدين ، ينبغى أن توضع موضع الامتحان من خلال المشاهدات المباشرة للأطفال الأصحاء منهم والمرضى •

ومن أجل ذلك فان الصفحات الأولى من حالة هانز الصغير تسجل مشاهدات والده على سلوكه وما كان يفضى به الى والديه ابتداء من السنة الثالثة من عمره حتى ناهز الرابعة وثمانية أشهر من عمره وهو بعـد سليم ، يتمتع بصحة جسمية ونفسية ، فضلا عن ذكاء ملحوظ ، وحرية فى التعبير نتيجة لسماحة والديه ازاءه ، وامتناعهم عن التضييق على تلقائيته فى الأمور التى جرى العرف على نهى الاطفال عن الافصـــاح عنها •

وبالرغم من أن والد هانز هو الذى قام بعلاجه فضلا عن أنه لم يكن محللا نفسيا مدربا وهو أمر يتنافى مع فنيات التحليل النفسى الا

أن الظروف أنذاك اقتضت ذلك ، كما أن العلاج سار بأسلوب الحوار وهو ماتبين بعد ذلك أنه أسلوب لايناسب علاج الأطفال ، بحيث أسفر البحث فى علاج الأطفال عن ابتكار أسلوب اللعب فى العشرينات بفضل جهود السيدات ده هج هلموت (١) وميلانى كيلاين (٢) وأنا فرويد(٣) — أقول بالرغم من افتقار علاج هانز الصغير الى مكان يجعله أقرب الى الكمال ، الا أن معطيات هذا العلاج بالتحليل النفسى أقامت الدليل على صفة القضايا التى استخلصها فرويد من تحليل الراشدين وضمنها كتابه المعروف : « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » (٤) وخاصة ديناميات الفوبيا ، وعقدة أوديب ، وثنائية الوجدان ، وحصر الخصاء ، «نظريات» الأطفال عن الجنس ومايتصل به من أسرار الحمل والميلاد ، فضلا عن اتساع مفهوم الجنس بحيث يشمل مناطق غير منطقة أعضاء التناسل .

وقد كانت الهنات فى هذا العلاج نتيجة الأسباب التى سبق ذكرها والتى جعلت حالة هانز الصغير ، تتسم « بالبدائية » اذا قورنت بحالة الرجل الذئب وهى الحالة الخامسة فى هذا الكتاب — كان من شأن ذلك أن جعلها هدفا سهلا للنقد . وقد ترددت فى التصدى لهذا النقد من حيث أن قضايا التحليل النفسى الأساسية لم تعد موضع مناقشة من أطباء النفس وعلمائه الذين أتيح لهم أن يختبروها اختبارا مباشرا ، ثم لأن هذا النقد جرت به أقلام بعض المشتغلين بعلم النفس أو ممن يزاولون مايقال له العلاج السلوكى ، دون أن يتزودوا بتدريب وخبرة بفنيات التحليل النفسى . ولما كان الحق فى أبداء الرأى فى قضايا علمية ليس حقا طبيعيا . وانما هو حق يكتسب بالتوفر على تلقى التدريب

(١) Hug - Hellmuth. H. R., "Zur Technik der Kinderanalyse Internationale Zeitschrift fur Psychanalyse, Bd. vii., 1921.

(٢) Kleine, Melanie. The Psychoanalysis of Children, The Hogarth Press. 1932.

(٣) Freud, Anna. Einfohruny in die Technik der Kinderanalyse. Viems, 1927.

(٤) أنظر الترجمة العربية : ثلاث مقالات فى نظرية الجنس . دار المعارف بمصر .

فى ميدان هذه القضايا خلال سنوات طويلة ، فقد جرى العرف بين المحلين النفسيين على الا يتصدوا لمناقشة النقد الذى يوجهه من لم يؤهل فى التحليل النفسى .

على أن ذيوع نظريات البروفسور أيزنك فى مصر وخاصة بعض ماكتبه من نقد لقضايا التحليل النفسى فى عبارات نابية تتجاوز ماتقتضيه أخلاقيات المناقشة العلمية ، وتقديمه العلاج السلوكى بوصفه بديلا للعلاج بالتحليل النفسى ، دفعنى الى مناقشة هذا النقد فى أيجاز .

* * *

يكتب أيزنك فى فصل بعنوان « الصغير هانز أو الصغير ألبرت » فى كتابه « الحقيقة والوهم » . هناك سبب آخر يدفعنا لفحص الصغير هانز ببعض التفصيل ، وهو أن هناك نظرية بديلة لنظرية فرويد قد أقامها فأحكم بناءها ج . ب . واطسون ووضعها هو أيضا فى شكل قصة تتعلق بصبى صغير اسمه فى هذه المرة الصغير ألبرت . وانه لمن الصعب أن نتبين الاختلافات بين التحليل النفسى وعلم النفس الحديث ، بأفضل من المقارنة بين حالتى هانز الصغير وألبرت الصغير » : (ص ١٠٦)

ويستند أيزنك فيما يقدمه من نقد الى ماكتبه فولبه وراخمان (١) ، وذلك لأنه على حد قوله لا اترك تجربتى الشخصية مع الناس مجـــالا للشك لدى فى أن فولبه والآخرين ممن نتكلم عنهم لديهم مقدرة خاصة فائقة لتهم مصاعب ومشاكل العصابيين .. ولما كنت ممن تنقصهم كلية هذه المقدرة ، فاننى غالبا ماأشعر بأنه على الرغـــم من أن معرفتى بنظرية التعلم ليست أقل كثيرا من معرفتهم فانها لايمكن أن تكفى وحدها لجعلى قادرا على أن أقوم بنفسى بالعمل الرائع الذى يقومون به »

---

(١) Racbman S (Ed) Critical Essays on Psychoanalysis Oxford, 1963.

(ص ١٥٧) • ونحن نحمد لأيزنك اعترافه هذا الذى كان ينبغى — مادام لم يخبر الأمر بنفسه عمليا من حيث أنه « ممن تنقصهم كلية هذه المقدرة» — أن يمتنع عن الادلاء برأية فى قوله : « نجد حين نتأمل الأدلة التى استندت اليها نظريات فرويد أنها ليست بالتى يمكـن أن يقبلها أى عالم » (ص ١٠٥) • ومرة أخرى أن ابداء الرأى فى قضايا العلم ليس حقا طبيعيا وانما هو حق يكتسب •

يقتبس أيزنك من كتاب فولبه ودراخمان قولهما • « سوف نعيد فحص تاريخ هذه الحالة وتقييم الأدلة المقدمة ، مبينين أنه بالرغم من وجود مظاهر للسلوك الجنسى من جانب هانز فليس هناك دليل علمى مقبول يبين أى صلة بين هذا السلوك وبين مخاوف الطفل المرضية من الجياد ، وأن تأكيد مثل هذه الصلة انما هو مجرد ادعاء محض » ثم يذكر قولهما « يكفينا أن رأى فرويد فى هذه الحالة لاتسنده الوقائع لا فى الجزئيات ولا فى الحالة ككل • ولقد كانت النقاط الأساسية التى أعتبرها فرويد واضحة هى :

١ — أن هانز كانت لديه رغبة جنسية نحو أمه •

٢ — انه كره أباه وخاف منه ورغب فى قتله •

٣ — أن هياجه ورغبته الجنسية تجاه أمه قد تحولت الى حصر •

٤ — أن مخاوفه من الجياد كانت رمزا لمخاوفه من أبيه •

٥ — أن الغرض من مرضه كان أن يظل بالقرب من أمه •

٦ — أن مخاوفه المرضية قد اختفت لأن مركب أوديب عنده قد حل، (ص ١١٨) » •

ثم يقولان • « فلنفحص كلا من هذه النقاط •

١ — أن هانز يجـد السعادة مع أمه ويستمتع بوجودها • وذلك ما لم نحاول أن نناقشه • ولكن لايوجـد أى دليـل على رغبته فى أن

يجامعها • ولقد أشير الى « الأيماءات الغريزية » كما لو كانت حقيقة مادية رغم عدم قيام أى دليل على ذلك • والحادثة الوحيدة التى وصفت فيما يتعلق بالمضاجعة المحرمة تبين أنه فى هذه المناسبة على وجه التحديد (التخطيط فى الأصل) انتابت هانز رغبة ذات طابع جنسى فى الاتصال بأمه ، ولو أنه أتصال جنسى من نوع بسيط وبدائى • وليس هذا بالدليل الكافى الذى يمكن أن يقوم عليه الزعم بأن هانز كان يعانى من مركب أوديب مما أدى الى رغبة جنسية فى الأم وفى امتلاكها ، وفى الحلول محل الأب • وكل مايمكن أن يبنى على هذه المحاولة الاغرائية « هو أنها تقدم سندا ضعيفا على الافتراض القائل بأن هانز كانت لديه الرغبة لأن يستثار جنسيا من شخص آخر (ويجب أن نذكر أنه غالبا ماالستمنى » (هكذا فى نص فولبه وراخمان) • وحتى لو فرضنا أن مصدر هذه الاثارة كان الام التى رغب فيها بالذات فان السمتين الأخيرتين لمركب أوديب (وهى الرغبة فى امتلاك الأم والحلول محل الأب) لاتظهرهما حقائق الحالة » (ص ١١٩) •

ولابد أن نلفت نظر القارىء بادىء ذى بدء أن مايسلمونه هؤلاء المؤلفون باليمين لايلبثون أن يسحبوه باليسار ، فهم يسلمون بأنه « انتابت هانز رغبة ذات طابع جنسى فى الاتصال بأمه » ، ثم يعقبون بقولهم : « ولو أنه اتصال جنسى من نوع بسيط وبدائى • » ولسنا فى حاجة الى القول بأن التحليل النفسى لايزعم أن رغبة الطفل فى الاتصال الجنسى بأمه رغبة تتسم بالنضج كما هو الحال لدى الرجل الراشد •

ولابد من تسجيل الفقرة التالية (ص ٢١٠ من النص الكامل لحالة هانز) حتى يراجعها القارىء ونترك له استخلاص معناها • « وفى صباح اليوم الثالث استيقظ (هانز) فى السادسة تقريبا وهو فى حالة ارتعاب ، وعندما سئل ما الأمر ، قال : « وضعت أصبعى ولكن مجرد برهة قصيرة جدا ، عند حمامتى • عندئذ رأيت ماما عارية تماما فى قميصها ، وقد تركتنى أرى حمامتها » •

وقد تعرض فولبه ورلخمان الى تخييل الزرافتين (ص ٢٩ ، ٣٠ من النص الكامل) دون أن يسعهما أن يفندا معناه ، وهو أمر لايدهشنا من حيث أن نشاط التخييل سواء فى أحلام اليقظة أو أحلام الليل . مما يستعصى فهمه على أطباء النفس وعلماء النفس الذين يقصرون فحصهم على نشاط الفكر المنطقى ، ويغفلون عن أن الثورة الكوبرنيقية التى أنجزها التحليل النفسى هى اكتشاف المعنى والدلالة فيما كان قبل ذلك يبدو عاطلا عن المعنى والدلالة ، وأن حجر الزاوية فى نظام التحليل النفسى هو « تفسير الأحلام » و « أن من قصر عن أن يبين منشأ صور الحلم ليجهد عبثا فى أن يفهم المخاوف المرضية والأفكار القهرية والهجاسية أو فى أن يؤثر فيها تأثيرا شافيا . » (١)

وعلى القارىء أن يراجع حلم الزرافتين (أو على الاصح أخيولة الزرافتين) صفحات ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ فسيتبين اذا كان مزودا بأصول تفسير الأحلام . أن هذه الاخيولة تعى امتلاك أمه جنسيا على الرغم من اعتراض أبيه ، ففى ص ٢١٥ يقول وألد هانز . «فالجأنا هانز بخروجه من غراشة والظلام دامس وبقدومه الى فراشنا » . وباستجواب هانز قال : « فى الليل كانت فى الغرفة زرافة كبيرة وزرافة مكموشة (مجعدة) ، وكانت الزرافة الكبيرة تصيح لأننى أخذت منها الزرافة المكموشة . ثم توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح ، وعندئذ جلست على الزرافة المكموشة » .

وقد حيرت هذه الأخيولة أبا هانز فى بادىء الأمر ثم فطن بعد ذلك الى أن : « الامر كله هو استعادة لمشهد كان يجرى كل صباح تقريبا أثناء الأيام القليلة الاخيرة ، هانز يأتى دائما الينا فى الصباح الباكر ، وزوجتى لاتستطيع أن تقاوم أخذه معها لبضعة دقائق فى فراشها وعندئذ أبدا دائما فى أن أحذرها من أخذه معها فى فراشها

---

(١) فرويد : تفسير الاحلام . دار المعارف بمصر ص ٣١ .

(« ان الزرافة الكبيرة كانت تصيح لأننى كنت قد أخذت منها الزرافة المكموشة ») ، وتجيب زوجتى بين حين وآخر ، وهى أدنى الى الاحتداد، بأن هذا سخف ، وأن دقيقة واحدة لاخطر فيها فى نهاية الأمر ، وما الى ذلك وعندئذ يمكث هانز معها برهة قصيرة (« ثم توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح ، وعندئذ جلست فوق الزرافة المكموشة ») .

أما اختيار الزرافة الكبيرة لتمثل الأب والزرافة المكموشة لتمثل الأم ، ثم « الجلوس على » كرمز لامتلاك ، فسيجد القارىء مايفسر ذلك كله من قراءة النص والهوامش ثم من قراءة « تعليق » فرويد هامش ص ٢٨٦ ، ٢٨٧

وجدير بالذكر أن هانز اثناء حواره مع أبيه بصدد اخيوله الزرافتين (ص ٢١٧) قال له : « رجتنى ماما طويلا أن أخبرها عن سبب مجيىء اليكما أثناء الليل ولكنى لم أرغب فى أن أخبرها ، لأننى أولا شعرت بالخزى مع ماما . » وليس من العسير على القارىء أن يتبين معنى هذا الخزى الذى استشعره هانز ، وهو الذى عوده والده على الافصاح دون تهيب عن كل مايدور بخلده .

وما يصدق على أخيولة الزرافتين فى امتناعها عن الفهم لدى فوليه وراخمان ومعهما ابزنك ، يصدق أيضا على أخيولة التسلل من تحت الحبال وأخيولة تحطيم الزجاج (ص ٢٢٠) كما يصدق على أخيولتى السمكرى (ص ٢٤٩ وص ٢٨٦) وغير ذلك من الأخاييل الكثيرة التى كان يفصح عنها هانز .

ان عالم النفس الذى يجهل أو يتجاهل هذه الأخاييل بوصفها « أقوالا كيفما اتفق » . لابد أن تستغلق عليه سيكولوجية الأطفال ، وبالتالى سيكولوجية العصاب بوصفه ارتدادا الى أخيلة الطفولة ، فضلا عن أن هذا التجاهل يتضمن تناقضا خطيرا يهدم علم النفس بوصفه علما . فواحدة من اثنتين : أما أن يكون علم النفس علما وبالتالى

لابد أن يخضع النشاط النفسى لمبدأ الحتمية ، بحيث يكون كل خاطر وكل أخيولة محتوما ، أى أنها تحمل معنى ودلالة ، مهما استغلق المعنى واستخفت الدلالة ، بحيث يدفعنا ذلك الى البحث عن المعنى والكشف عن الدلالة ، واما أن تكون بعض الظواهر النفسية محتومة وبعضها الآخر غير محتوم (أى لايحمل معنى ولا دلالة) وهو تناقض فى الحد يهدم مبدأ الحتمية فى ميدان النفس فيمنع قيام علم النفس بوصفه علما

بقى أن ننظر فى الشق الآخر من عقدة أوديب أعنى موقف الصبى من والده بوصفه منافسا له فى حب أمه مما يدفعه الى كراهيته والرغبة فى استبعاده • وأول ماينبغى ذكره أن غوابه وراخمان ومعهما أيزنك غفلوا أو تغافلوا عن أن عقدة أوديب كما يصوغها التحليل النفسى لايقتصر الأمر فيها على كراهية الصبى لأبيه ، وانما تتصارع هــذه الكراهية مع حبه له واكباره له • وها هو هانز (هامش ص ٢٢٢) كان يبدأ فيضرب أباه على يده ، ثم يقبل بعد ذلك فى حنان نفس هذه اليد • وأثناء الزيارة الوحيدة التى قام بها هانز ووالده لفرويد سأل الاب ولده — فى سياق الحديث — ولكن لماذا تتصور أننى غاضب منك ؟ هل حدث قط أننى وبختك أو ضربتك ؟ » فأجــاب الصبى الصغير : « هــذا الصباح • » وتذكر أبوه أن هانز كان قد نطحه برأسه فى بطنه عــلى حين فجأة تماما الى حد أن الأب — فى صورة رد فعل — ضربه بيده • ولاشك كما يقول فرويد أن هذه الواقعة تعبير عن نزعة الصبى الصغير العدوانية ، وربما بوصفها أيضا تعبيرا عن حاجته الى العقوبة على هذه العدوانية » (ص ٢٢٢) •

أما الدليل الحاسم على موقف هانز المشحون بالثنائية الوجدانية تجاه أبيه فانه يبين فى حواره مع أبيه (ص ٢٢٣) • يقول الوالد :

« وفى صباح اليوم الثالث من ابريل دخل الفراش معى ، بينما كان فى الأيام القليلة الماضية قد توقف عن ذلك ••• وسألته : « لمــاذا جئت اليوم ؟ »

هانز — عندما يذهب عنى الخوف لن أجىء أبدا .

وأنا — واذن فأنت تجىء الى اليوم لأنك خائف ؟

وهانز — عندما لا أكون معك أكون خائفا ، وعندما لا أكون معك فى الفراش فعندئذ أكون خائفا . وعندما يذهب عنى الخوف لن أجىء أبدا .

وأنا — وعلى ذلك فانت مغرم بى وتشعر بالخوف حين تكـون فى فراشك فى الصباح ؟ وهذا هو السبب فى أنك تجىء الى ؟

وهانز — نعم . لماذا اذن قلت : أننى مغرم بماما وأن هذا هـو السبب فى خوفى . بينما أنا .. بك ؟

وفى صفحة ٢٢٤ نقرأ الحوار الآتى :

« أنا : والد هانز : — عندما تكون وحيدا تقلق على وتجىء الى غرفتى ؟

« هانز — عندما تكون غائبا فانى أخاف أن لاتعود الى البيت .

أن القارىء المزود بأوليات التحليل النفسى يدرك فى هـذا الحوار الصراع القائم فى نفس الطفل نحو أبيه ، الصراع القائم ضد كراهيته لأبيه كمنافس مقتدر فيما يتصل بالأم ، وكان يلوم أباه على أنه لـم يتجه بانتباهه بعد الى صراع القوى هذا ، وهو الصراع الذى كـان لابد وأن يتمخض عن حصر . » « هناك خوفه من أبيه ، وخوفه على أبيه . » أن هذا النوع من الصراع كان بين مكتشفات التحليل النفسى الأولى . أن قلق هانز على أبيه فى قوله : « عندما تكون غائبا فانى أخاف أن لاتعود الى البيت » هو « عودة المكبوت » فى صورة قلق ،

وتعويض زائد بالحب فى صراعه ضد الكراهية والزغبة فى ألا يعــود والده الى البيت •

ان عالم النفس الذى لايستطيع أن يدرك هذا النوع من الصراع بين الحب والكراهية ، وانقلاب الكراهية قلقا على الشخص المكروه ليجهد عبثا فى فهم أحوال الانسان ، فى فهم مايعانيه من مأساة الصراع بين الحب والكراهية ، وفى عبارة واحدة : فى فهم سيكولوجية الانسان وما يدور فى أعماقه •

أما الأدلة على أن الجياد كانت رمزا للأب ، أى أن هانز نقل خوفه من أبيه الى الجياد — هذه الأدلة كثيرة نقتصر على ذكر بعضها •

وأول أشارة الى ذلك قوله وهو يبكى (ص ٢٠١) : « سوف يحضر الحصان فى الغرفة » ولا أحسب أن القارىء يذهب به الظن الى أن هذا الطفل الذكى يعتقد حقا أن الحصان « سوف يحضر فى الغرفة » • قد قال هذه العبارة لأمه بعد اعترافه لها عن سبب خوفه الشديد عند خروجه الى الشارع فى قوله « كنت أخاف من أن حصانا يعضنى • » أما فى البيت فمن يكون الحصان الذى « سوف يحضر فى الغرفة • »

والاشارة الثانية على أن الجياد رمز للاب نجدها فى أعقاب حواره مع أبيه سالف الذكر الذى أفصح من خلاله عن خوفه أثناء غياب أبيه من ألا يعود الى البيت •

يقول والده (ص ٢٢٤) : « وعندما نهضت من المائدة بعد الأفطار قال هانز « بابا ، أنتظر ، لاتقمص مبتعدا عنى » • ويعقب والــده « وأدهشنى أن يقول » تقمص ، بدلا من تجرى ، وأجبته « أوه • واذن فأنت تخاف من الحصان عندما يقمص مبتعدا عنك • » فضحك (هانز) على اثر ذلك •»

ويبدو أن فولفه وراخمان ومعهما ابزنك لايعرفون سيكولوجية فلتات اللسان أو أنهم يتجاهلونها •

والدليل الحاسم على أن الجياد رمز للاب نجده فى حوار هانز مع أبيه (ص ٢٧١) • ويقول والد هانز : « بعد الظهر أمام البيت ، جرى هانز فجأة داخل البيت ، عندما أقبلت عربة بحصانين •• فسألته : ماذا حدث ؟ قال : « الحصانان مزهوان جدا بحيث أخاف أن يقعا • » (كان الحوذى يشد اليه بقوة لجام الحصانين ، بحيث كانا يتهاديان ••• ورأسها عاليا الى الوراء ، وكان منظرها فى الحقيقة مزهرا) » سألته : من هو فى الواقع المزهو جدا •

هانز ـــ أنت هو ، عندما آتى وأدخل فى الفراش مع ماما •

أنا ـــ واذن فأنت تريدنى أن أقع ؟

هانز ـــ نعم • كان ينبغى أن تكون عاريا (يقصد عارى القدمين ، كما كان فرينزل (صبى من أصدقاء هانز حدث أن وقع وارتطم قدمه بحجز فسال دمه) وأن ترتطم بحجر ، وأن يسيل الدم • وعندئذ استطيع على الأقل أن أبقى بعض الوقت بمفردى مع ماما • وعندما تعود صاعدا الى مسكننا يكون بوسعى أن أهرب بسرعة ، حتى لاترانى»

ونستطيع أن نفهم افصاح هانز الصريح فى هذا الحوار ، اذا قرأنا الفقرة الآتية (ص ٢٣٣) :

« كان هانز منذ فترة يلعب لعبة الأحصنة فى الغرفة ، فهو يجرى قفزا ويقع ويرفس بقدميه ، ويصهل • وذات مرة علق على رأسه كيسا صغيرا بوصفه مخلاه ، وكان فى مناسبات عديدة يجرى نحـــوى (الأب) ويعضنى » • ويعلق فرويد قائلا : « وبهذه الطريقة كـــان يعبر عن تقبله للتفسيرات الأخيرة بصورة أكثر قطعا مما كان يستطيعه بالكلمات مع قلب للادوار بالطبع ، اذا كانت اللعبة فى خدمة رغبـــة أخيولية •

وهكذا كان هانز هو الحصان ، وكان يعض أباه وبهذه الطريقة كان يتوحد بأبيه » •

وهناك أشارات وأدلة كثيرة أخرى على قضية كون الحصان رمزا للاب سيتبينها القارىء أثناء قراءة النص الكامل فى ضوء ماقدمنا من توضيح •

ولكن ماذا عن خوف هانز من أن يعض الحصان أصبعه ؟ هذا الخوف يشير الى حصر الخصاء اللاشعورى • ويقوم الدليل على ذلك فى أكثر من موضع (ص ٢١٢) : « وحمامتى سوف تكبر عندما أكبر ، لأنها ثابتة فى مكانها بكل تأكيد » • ثم أخيولتى السمكوى (ص ٢٤٩ وص ٢٨٦) •

يتضح من هذه المناقشة أن فوبيا الحصان لدى هانز انما هى الحل العصابى لمشكلته الاوديبية : خوفه من أبيه بناء على عدائيته لــه (متصارعا على حبه له) ممثلا فى حصر الخصاء اللاشعورى • وبتكوين فوبيا الحصان ينقل خوفه من أبيه الى خوف من أن يعضه الحصان • وبهذه الطريقة ينجح فى حصر نطاق خوفه فى حيوان فى الشارع ، وبذلك يعفى نفسه من الحصر اذا ماتفادى الحصان فى الشارع ويهدأ نفسا فى البيت بالرغم من وجوده مع غريمه الحقيقى والده • هذا الضرب من الحل العصابى للصراع أنما هو نموذج لتكوين العصــاب بأنواعه ، مع اختلاف فى الحيل الدفاعية •

* * *

فاذا عدنا الى فولبه وراخمان ومعها ايزنك فى زعمهم « أن نظريات فرويد ليست بالتى يمكن أن يقبلها أى عالم » وأن هناك نظرية بديلة لنظرية فرويد هى نظرية واطسون التى استخلصها من تجربته مــع

الصغير ألبرت طبقا لقانون الفعل المنعكس الشرطى الذى اكتشفه بافلوف، نجدهم يقولون أن نظرية واطسون يتحقق لها من صفات (العلم) مالا يتحقق لنظريات التحليل النفسى ، ومن ثم فانهم يستوحونها فى اجراءات مايطلقون عليه العلاج السلوكى •

أما تجربة واطسون مع الصغير ألبرت فيقدمها أيزنك فى كتابه سالف الذكر فى العبارات الاتية : كان ألبرت الصغير (الذى يبلغ من العمر أحد عشر شهرا) مولعا جدا بالفئران البيضاء ، وقد اعتاد أن يلعب معها كثيرا ، ولم يظهر أى بادرة خوف من هذه الحيوانات ••• وكانت وسيلة واطسون بسيطة ومباشرة وبالغة الامتياز • فلقد وقف خلف ألبرت الصغير وفى أحدى يديه قضيب معدنى ، وفى اليد الأخرى مطرقة ، وكلما مد ألبرت الصغير يده نحو الفئران محاولا أن يلعب بها كان واطسون يحدث بالمطرقة دويا عاليا وقد كانت الفئران فى هذه الحالة بمثابة المنبه الشرطى فى حين كانت الضجة العالية التى يحدثها القضيب المعدنى بمثابة المنبه غير الشرطى الذى يسبب استجابة الخوف ••• فبعد تكرار هذه التجربة عددا من المرات أصبح الصغير ألبرت يخاف من الفئران ، ويرتعد ويحاول أن يزحف بعيدا عنها أى أنه باختصار قد تصرف بالدقة كما لو كان يعانى من مخاوف مرضية شديدة تجاه الفئران •

ويقول أيزنك أن واطسون قلد فى تجربته هذه أسلوب بافلوف الذى استطاع به أن يدرب الكلاب على أن يسيل لعابها عند سماع صوت جرس بمجرد الجمع بين الجرس وتقديم الطعام عددا من المرات •

وبناء على ماتقدم فان تكوين فوبيا الحصان لدى هانز الصغير فى رأى أيزنك لايعدو أن يكون نوعا من « التشريط » كما حدث لدى الصغير ألبرت ، أى أنه أصيب بهذه الفوبيا عندما رأى يوما حصانا يقع فى الشارع ، بحيث كانت هذه الحادثة « تشريطا » للخوف من الجياد ؛ أما

النشاط النفسى الثرى لدى هانز وخاصة ما كان يدور فى مستوى التخيل (أخيولة الزرافتين وأخيولته رؤية والدته أثناء استمنائه وأخيولتى السمكرى وأخيولة التسلل تحت الحبال ثم أخيولة تحطيم الزجاج وغيرها التى سيتبين للقارىء ما تحمل من معان لاشعورية) ثم استغراق هانز حتى قبل مرضه فى الاهتمام « بالحمامة » سواء كانت حمامته أو حمامة والده أو أمه أو أخته ، ثم نظرياته الطفلية عن الحمل والميلاد وعلاقة ذلك بعمليات الاخراج ، كل ذلك لاقيمة له ولا علاقة له بفوبيا هانز ، على حين أن هذه الاخاييل الشعورى منها واللاشعورى ، وبحثه المطرد فى الغاز الحياة الجنسية وما يتصل بها ، كانت — كما هى الحال لدى كل الاطفال فى هذه السن تكاد لاتترك فضلا من الاهتمام بغيرها من الأنشطة النفسية • ومن ثم فان الموقف « العلمى » لدى هؤلاء المؤلفين يقتضى أن نهمل كل هذا الذى يشغل معظم الحياة النفسية لدى الطفل ، ونجتزىء بانتقاد حادثة وقوع الحصان فى الشارع بوصفها مصدر الفوفيا لديه •

وازاء ذلك أجدنى مضطرا أن أقرر البديهى المعروف لكل مشتغل بالعلم • ان عزل ظاهرة متشابكة مع العديد من الظواهر الاخرى وجعلها شيئا مستقلا قائما بذاته انما يتنافى مع أبسط قواعد البحث العلمى •

ويستطرد أيزنك ، رغبة منه فى أن يقيم الدليل للقارىء على امتياز « العلاج السلوكى » الذى يستند الى « التشريط » — امتيازه بصفات التصور « العلمى » الحق ، فيقدم لنا أمثلة على حالات عصابية يفسرها على أساس التشريط فهذه حالة « المرأة القطة » : ص ١٣٥ من كتابه سابق الذكر : وهى « امرأة متزوجة فى السابعة والثلاثين من العمر تعانى من مخاوف مرضية يصحبها توتر ، وقلق ، واكتئاب فى بعض الأحيان • وكان أبوها صارما جدا مع أطفاله ••• وكانت تخافه وهى طفلة وتشعر أنها لاتكن له أى حب على الاطلاق ••

وقد تزوجت فى الثانية والعشرين ••• وكانت تولع بكل الحيوانات الا القطط •

وقد استمر خوف المريضة من القطط فترة طويلة منذ أن بـدأت تعى ، وربما بدأ الخوف — حسب ماتعى ذاكرتها — من سن الرابعة حين أغرق أبوها أمامها قطة صغيرة فى جردل ماء وهى تذكر كيف كانت تجلس الى المائدة وتمد ساقيها أمامها مباشرة خوفا من أن تزحف أحدى القطط على الأرض من حولها ، وكيف كانت تصرخ اذا ما لمحت قطة خارج الباب الأمامى ••• وازداد خوفها سوءا بعد زواجها وظل على هذه الحال حوالى عشر سنوات • ولكنه يزداد سوءا •• حيث كانت المريضة تفزع من مجرد التفكير فى أن القطط يمكن أن تقفز عليهـا وتهاجمها • برغم أنها تعلم أن هذا الاحتمال بعيد جدا •• وقد ويستولى عليها الهلع عند رؤية قطة وأحيانا قد يشلها الرعب تماما » •

ومن سياق وصف هذا الحالة يتبين للقارىء أن مصدر هذا الخوف العصابى الشـديد من القطط فى رأى ايزنك انما يرجـع الى عملية « التشريط » وهى فى سن الرابعة ، حين أغرق أبوها أمامها قطة صغيرة فى جردل ماء • ولا أخفى على القارىء أننى أخشى أن أضيع وقته فى مناقشة هذا التفسير الساذج • ولكن لابد مما ليس منه بد •

ان قانون التشريط فى هذه الحالة كان يلزم عنه أن تخاف الطفلة ، لامن القطة الضحية المسكينة ، بل من والدها فى سلوكه الوحشى • وكان ينبغى — طبقا لقانون التشريط — أن تخاف الآباء • فلم كان خوفهـا اذن من القطط • أتراها وحدت نفسها بالقطة التى أغرقها أبوها • فاذا كان الأمر كذلك فاننا نعلم أن التوحد ، وهو أحد العمليات النفسية التى اكتشفها التحليل النفسى ، لاعلاقة له بالتشريط ، وانما يصدر عن اتجاهات نفسية لاشعورية تحمل معنى ودلالة ويكتنفها صراع يبهظ كاهل المريض ، ويكون التوحيد عندئذ حيلة دفاعية لاشعورية ، شأنها

شأن عملية النقل لدى هانز الصغير عندما نقل خوفه من أبيه الى الحصان •

وفضلا عن ذلك فان قانون التشريط يلزم عنه أن تنطفىء نتائجه بعد بضعة أيام وأسابيع ، مادام التشريط لم يتكرر ، على حين أن « المرأة القطة » ظلت تعانى من فوبيا القطط زهاء ثلاثة وثلاثين عاما •

ان حالات فوبيا القطط تعد من الحالات المألوفة للمحللين النفسيين ولايسعنى لا أن أحيل القارىء الى حالة فوبيا القطط التى قامت بتحليلها د• هيلين دويتش وسجلته فى كتابها المعروف « التحليل النفسى للعصاب (١) فسيرى القارىء أن التحليل النفسى لهذه الحالة لايقتصر على سذاجة التشريط ، وانما يتبين من التحليل العميق أن القطة تمثل من ناحية دفعات المريضة المحظورة والشريرة ومن ناحية أخرى « الصورة الشريرة » لأمها •

ان التفسير « العلمى » للمخاوف المرضية على أساس قانون التشريط ، انما يعنى أن الانسان مثله مثل كلاب بافلوف • أما الانسان بما هو انسان ، الانسان بما هو معنى ودلالة فى صحته ومرضه النفسى بما هو فى فجر حياته مشروع وجود لايتحقق انجازه الا من خلال حوار ديالكتيكى فى مواقف ينفرد فيها الانسان عن غيره من الكائنات بأن طبيعتها التى بغيرها لايكون كذلك هى التواصل الوجدانى بين ذات وذوات أخرى ، تواصل مستقيم باستقامة المستوى المتخيل فيظهر بالسعادة ، أو يضطرب فيضطرب وجدانه فيحصد الشقاء أى المرض النفسى ، كل ذلك ، فى رأى البروفسور أيزنك ، لاقيمة له ، ولاجدوى من بحثه ، ولاعلاقة له بأحوال الانسان ومصيره •

---

(١) Helene Deutsch : Psychoanalysis of the Neuroses London. 1932.

انظر أيضا : أوتو فينخل • نظرية التحليل النفسى فى العصاب • ترجمة دكتور صلاح مخيمر والاستاذ عبده رزق ، ١٩٦٩ • مكتبة الانجلو المصرية الجزء الثانى ، صفحة ٣٠١ وما بعدها •

١

تحليل فوبيا عند صبى فى الخامسة

(هـــانز الصغير)



تحليل فوبيا عند صبى فى الخامسة (١)

(هـــانز الصغير)

١

تمهيـــد

فى الصفحات التالية أقدم وصفا لمسار المرض والشفاء عند مريض جد صغير وتاريخ الحالة ـ اذا توخينا الدقة ـ ليس نتاجا خالصـا لملاحظتى • صحيح أننى وضعت الخطوط العريضة للعلاج وأننى فى مناسبة وحيدة عندما تحدثت مع الصبى أسهمت بشكل مباشر فيه ، الا أن العلاج ذاته قد اضطلع به أبو الصبى ، وأنى لأدين لــــه بأصدق امتنانى اذ سمح لى أن أنشر ملاحظاته عن الحالة • ولكن فضله لايقف عند هذا الحد • فما من أحد غيره فى رأيى كان بوسعه أن يبلغ من التأثير على الصبى بحيث يدلى ما أدلى به من أعترافات • كما أن المعارف

---

(١) ظهرهذا المقال أول مرة فى Jahrbuch fur Psychoanalytische und Psychopathologesche Forschungen Bd. I. عام ١٩٠٩ ثم أعيد طبعه فى مجموعة مقالات قصيرة Sammlung Kehriften Zur Neurosen lehre عن الاعصبة) عام ١٩١٣ ثم ظهر هذا المقـال ضمن Gesammelte werke (الاعمال الكاملة) مجلد ٧ • أما التذييـل الملحق بتذييل هانز الصغير فقد ظهر عام ١٩٢٢ فى Internationale Zeitschrifte fur Psychoanalyse, Bd. viii.

وقد تمت ترجمة هذا المقال الى عديد من اللغات • ترجمه الى الانجليزية اليكس وجيمس ستراشى (المقالات المجموعة ، سيجمون فرويد ، المجلد الثالث ثم نشرت هذه الترجمة بعد تنقيحهـا واضافـة هوامش شارحة فى المجلـد العاشر من Standard Edition of the (Complete Psychologi|al Works of SIGMUN freud. أما الترجمة الفرنسية فقد ظهرت أول مرة فى La Revue Francaise de Psychoanalyse t. II. fasc. 3, 1928 وقد قامت بها مارى بونابارت بمفردها نقلا عن النص الالمـانى Gesame. Sohriften.

الفنية التى أتاحت له تأويل أقوال ابنه الذى فى الخامسة من عمره لم يكن منها بد ، بل كان بغيرها يستحيل التغلب على الصعوبات الفنية التى تعترض التحليل فى حالة صبى من صغر السن الى هذا الحد • وبفضل اجتماع سلطة الأب وسلطة الطبيب فى شخص واحد ، وبفضل ماالجتمع لهذا الشخص الواحد من اهتمام عاطفى وحرص علمى ، بفضل هـذا وحده كان من الممكن فى هذه الحالة البلوغ بطريقة التحليل الى تطبيق واستخدام ماكان يمكن بغير هذه الظروف أن تصلح له •

ولكن القيمة الخاصة لهذه الحالة تنحصر فى الاعتبارات التالية • عندما يعالج الطبيب بالتحليل النفسى راشدا عصابيا ، فإن العملية التى يمضى فيها من كشف عن التكوينات النفسية ، طبقة اثر طبقة ، تمكنه آخر الأمر من صياغة فروض معينة عن الجنسية الطفلية للمريض ، وضمن العناصر المكونة لهذه الجنسية الطفلية يعتقد أنه قد وقع على الدوافع المحركة والحفزات المسئولة عن كـل الأعـراض العصابية فى الحياة اللاحقة • وقد عرضت هذه الفروض فى كتابى « ثلاث مقالات فى نظرية الجنس » الذى ظهر عام ١٩٠٥ (١) • وانى أعرف أن هذه الفروض تبدو غريبة للقارىء غير المختص بقدر ماتبدو لازمة ولا غنى عنها للمحلل النفسى • ولكن حتى المحلل النفسى قد يصرح برغبته فى العثور على دليل أقل التواء ومباشرا بدرجة أمعن لهذه القضايا الأساسية •

وبالتأكيد لابد وأن يكون من الممكن أن نلاحظ عند الطفل ، بشكل مباشرة وفى كل نضارة الحياة ، هذه الحفزات الجنسية والميول النزوعية التى ننقب عنها ونستخرجها بكل هذا العناء من بين المتخلفات عنـد الراشد ، سيما وأننا نعتقد أن هذه الحفزات حظ مشاع عند جميع الناس

---

(١) Drei Abhandlungen Zur Sexualtheorie, 1905.
أنظر الترجمة العربية : ثلاث مقالات فى نظرية الجنس • دار المعارف بمصر • الطبعة الثامنة ، ١٩٠٦ •

وجانب من الجبلة البشرية ، وكل ماهنالك أنها تكون مسرفة أو محرفة عند العصابين •

وسعيا وراء هذا الهدف كنت منذ سنوات عديدة استحث تلاميذى وأصدقائى على تجميع ملاحظات عن الحياة الجنسية للأطفال ، هذه التى كان وجودها — كقاعدة عامة — يلقى التغافل فى حذق أو الانكار عن عمد • وبين المعطيات التى حصلت عليها نتيجة لذلك ، لم تلبث التقارير التى كانت تصلنى على فترات منتظمة عن هانز الصغير أن احتلت مكانة بارزة • كان أبواه كلاهما من أقرب المريدين بالنسبة الى ، وكانا قد أتفقا على أنهما فى تربيتهما لطفلهما الأول لن يستخدما من أساليب الالزام أكثر مما هو ضرورى للغاية ضمانا لسلوك حسن • وبقدر ما كان الطفل يستحيل بالنمو الى صبى صغير مرح لطيف يفيض حيوية ، فان تجربة تركه ينمو ويعبر عن نفسه بعيدا عن كل ارهاب قد مضت على نحو يبعث على الرضا • وسأشرع الآن فى سرد تقريرات الأب عن هانز الصغير تماما كما وصلتنى ، وسوف أحجم بالطبع عن أية محاولة يمكن أن تنال من أصالة وصدق هذه الطفولة باقحام أية تنقيحات يقتضيها العرف •

أن التقارير الأولى عن هانز ترجع بتاريخها الى فترة لم يكن قد اكتمل فيها تماما للطفل عامه الثالث • فى ذلك الوقت كان يكشف بالعديد من ملاحظاته وأسئلته عن اهتمام عارم بشكل خاص بهذا الجزء من بدنه الذى اعتاد أن يسميه « حمامته » (۱) • ومن هنا فقد سأل أمه مرة هذا السؤال :

هانز — « ماما ، هل عندك أنت أيضا حمامة ؟ »

الأم — « بالطبع ، ولكن لماذا ؟ » •

---

(۱) فى الالمانية ، Wiwimsoher, وفى الترجمة الانجليزية Widdler وفى الترجمة الفرنسية fait - pipi — المترجمون •

هنز — « كنت فقط أفكر فى ذلك » •

وفى نفس تلك السن ذهب مرة الى حظيرة الماشية ، ورأى بقرة تحلب قال • : « أوه ، أنظرى ! لبن يخرج من حمامتها ! »

وحتى استنادا الى هذه الملاحظات الأولى ليس غير ، يكون بوسعنا أن نتوقع أن الكثير مما نراه عند هانز الصغير ، أن لم يكن أغلبه ، سوف يتكشف نمطيا بالنسبة للنمو الجنسى عند الأطفال بصورة عامة • ولقد سبق لى فى موضع آخر ان تقدمت برأيى (١) من أنه ليس ثمة مايدعو الى الارتياح الشديد حين نلتقى عند امرأة بفكرة مص القضيب • فهذه الحفزة المنفرة ترجع ، كما أوضحت ، الى أصل أكثر مايكون براءة اذ أنها مشتقة من مص ثدى الأم ، وقد أبنت فى هذا الصدد أن ضرع البقرة يلعب دورا ملائما كصورة وسيطة ، أذ هو بطبيعته ثدى ، وهو بشكله وموضعه قضيب • وكشف هانز الصغير يؤيد الجزء الأخير من وجهة نظرى •

وفى أثناء تلك الفترة لم يكن اهتمامه « بالحمامة » مجرد اهتمام نظرى خالص ، فكما يمكن أن نتوقع أرغمه اهتمامه هذا على أن يلمس عضوه • وفى الثالثة والنصف من عمره وجدته أمه يعبث بيده فى قضيبه، فهددته بهذه الكلمات : « لو فعلت هذا فسوف أبعث فى طلب الدكتور ! ليقطع لك حمامتك • فبأى شىء عندئذ « تطرطر » ؟

هانز — « بمؤخرتى » (٢) •

أجاب بذلك دون أن يكون لديه بعد أى شعور ! ثم • ولكن تلك كانت المناسبة التى أكتسب فيها « عقدة الخصاء » ، هذه التى غالبا مانجدنا فى تحليلنا للعصابيين مضطرين الى أن نستخلص وجودها

---

(١) جزء من تحليل لحالة هستيريا ، (دورا) ، ١٩٠٥ (الفصل الاول من هذا المجلد)

(٢) فى الترجمة الانجليزية bottom ، وفى الترجمة الفرنسية tutu

عندهم ، وان كانوا جميعا يناضلون فى عنف ضد التعرف عليها • وهناك الكثير الهام مما ينبغى قوله عن دلالة هذا العنصر فى حياة الطفل • ان « عقدة الخصاء » قد تركت آثارها البارزة فى الأساطير (وليس فقط فى الأساطير اليونانية) ، ولقد أشرت فى فقرة من كتابى « تفسير الأحلام » (١) ، وفى غير ذلك ، الى الدور الذى تلعبه هذه العقدة (٢) •

وفى نفس تلك السن تقريبا (ثلاثة أعوام ونصف) ، وهانز يقف أمام قفص ، الأسد فى شونبرون ، صاح فى صوت مهتاج : « رأيت حمامة الأسد » •

أن الحيوانات تدين بالكثير من أهميتها فى الأساطير وحكايات الجن للطريقة المكشوفة التى تبدى بها أعضاءها التناسلية ووظائفها الجنسية

---

(١) الترجمة العربية تفسير الاحلام دار المعارف بمصر صفحة ٠٠١
Traumdeutung, 7th Ed. P 456

(٢) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) — منذ أن كتبت ذلك تعرضت النظرية الخاصة بعقدة الخصاء لتطور جديد بفضل اسهامات لوأندرياس و أ• شتاركه وف • الكسندر واخرين • فقد جرت المناقشة عن انه فى كل مرة يتم فيها سحب ثدى الام من رضيعها فانه لابد وأن يستشعر ذلك خصاء بمعنى فقدان مايعتبره جزءا هاما من بدنه) ، وعن أنه ، أكثر من ذلك ، لابد وأن يستشعر نفس الشىء من جراء فقدانه المنتظم لبرازه ، ثم أخيرا عن أن فعل الميلاد ذاته (وهو الذى ينحصر فى الواقع فى انفصال الطفل عن أمه ، هذه التى كان حتى ذلك الحين متحد معها) هو الانموذج الاصلى لكل خصاء• وانى وان اعترفت بكل هذه الاصول لعقدة الخصاء ، فانى مع ذلك قد أوضحت رأيى فى أن مصطلح عقدة الخصاء ، ينبغى قصره على هذه الاستثارات والنتائج المرتبطة بفقدان القضيب • وكل محلل بلغ من تحليله للراشدين الى الاقتناع بوجود عقدة الخصاء دائما وبانتظام سوف يجد من العسير بالطبع أن يرجع أصلها الى نوع من التهديد هو فى نهاية الامر لايتم حدوثه بالعمومية المطلقة ؛ وسوف يجد نفسه مضطرا الى أن يفترض أن الطفل يشير لنفسه هذا الخطر ابتداء من ابسط التلميحات ، هذه التى تعوزه قط ولقد كان أيضاً هو الدافع الذى استحث البحث عن هذه الاصول الاكثر لى عمقاً للعقدة ، والتى يتسم وجودها بالعمومية المطلقة • ويصدق هذا بالاحرى فى حالة هانز الصغير بالنظر الى أن تهديد الخصاء قد أقر به الابوان نفسهما ، وأنه أكثر من ذلك قد وقع فى تاريخ سابق لم يكن فيه للفوبيا وجود بعد •

أمام الطفل البشرى الصغير الذى تستبد به الاستطلاعية • وليس من شك ممكن فى وجود الاستطلاعية الجنسية عند هانز ، ولكنها أثارت فيه روح البحث ومكنته من أن يبلغ الى معارف مجردة حقيقية •

فعندما كان مرة فى المحطة (تسعة أشهر بعد الثالثة) ، رأى بعض الماء ينساب من قاطرة ، فقال : « أوه ، أنظرى ، ان القاطرة تطرطر • أين اذن حمامتها ؟ »

وبعد لحظة استطرد بلهجة المستغرق فى التفكير : « الكلب والحصان لهما حمامة ، المكتب والكرسى ليس لهما • » بذلك يكون قد أمسك بخاصية أساسية للتمييز بين الأحياء والأشياء •

ان التعطش الى المعرفة ، على مايبدو ، يستحيل أن ينفصم عن الاستطلاعية الجنسية • واستطلاعية هانز كانت تتجه بصفة خاصة الى أبويه •

هانز « (تسعة أشهر بعد الثالثة) — بابا ، هل لديك أنت أيضا حمامة ؟ »

الأب — « نعم بالطبع » •

هانز — « ولكنى لم أرها قط وأنت تخلع »

وفى مرة أخرى كان ينظر عن قصد الى أمه وهى تخلع قبل أن تذهب الى الفراش • سألته : « ماالذى تحملق فيه هكذا ؟ »

هانز — « كنت فقط أرى ماأن كان لك أيضا حمامة »

الأم — « بالطبع • ألم تكن تعرف ذلك ؟ »

هانز — « كلا • كنت أفكر أنك مادمت كبيرة الى هذا الحد ، فينبغى أن تكون لك حمامة مثل الحصان • »

وهذا التوقع من هانز الصغير جدير بالملاحظة ، فسيغدو هاما فيما بعد .

ولكن الحدث العظيم فى حياة هانز كان ميلاد أخته الصغيرة « هنه » ، عندما كان عمره على التحديد ثلاثة أعوام ونصفا (١) . وكان أبوه يدون على الفور سلوك هانز فى هذه المناسبة . كتب يقول : « بدأ المخاض فى الخامسة صباحا ، فنقلنا سرير هانز الى الغرفة المجاورة . وهناك استيقظ حوالى السابعة ، واذ سمع أمه تتأوه سأل : « لم تسعل ماما ؟ » وبعد برهة قال :

« ان طائر اللقلق سيأتى اليوم بالتأكيد (٢) » .

« وطبيعى أن هانز كثيرا ماقيل له ، أثناء الأيام القليلة الأخيرة ، أن طائر اللقلق سوف يحضر بنتا صغيرة أو صبيا صغيرا ، وكان محقا تماما فى ربطه هذه الأصوات غير المألوفة من التأوهات بوصول طائر اللقلق .

« وفيما بعد أخذوه الى المطبخ ، فرأى حقيبة الطبيب فى الردهة الأمامية وسأل : « ماهذا ؟ » ، وكانت الاجابة « حقيبة » . وعلى أثر ذلك أعلن فى اقتناع : « طائر اللقلق سيأتى اليوم . » وبعد ولادة الوليد ، حضرت الممرضة الى المطبخ وسمعها هانز تأمر بأعداد قدح من الشاى . وعندئذ قال : « أنا عارف ، ماما تحتاج بعض الشاى لأنها تسعل » . ثم نودى بعد ذلك الى غرفة النوم . لم ينظر الى أمه ، ولكن الى الأوعية والأوانى التى تمتلىء بالماء الممتزج بالدم ، والتى كانت ماتزال بالغرفة . واذ أشار الى وعاء به دم ، صاح ملاحظا فى دهشة : « ولكن الدم لايخرج من حمامتى . »

---

(١) ولد هانز فى ابريل من عام ١٩٠٣ وولدت اخته فى اكتوبر من عام ١٩٠٦ .

(٢) يقال للاطفال . فى بلاد اللغة الالمانية أن طائر اللقلق هو الذى يحضر الوليد .

« كل شيء يقوله يكشف عن أنه يربط ماهو غريب في الموقف بوصول طائر اللقلق • وكل شيء يقع عليه بصره ، يتفحصه بنظرات متشككة وليس ثمة من شك فى أن تشككاته الأولى عن طائر اللقلق قد بزغت عنده»

« أن هانز شديد الغيرة من الوافد الجديد ، وفى كل مرة يمتدحها أحد ، قائلا انها طفلة جميلة وما الى ذلك ، يعلن على الفور فى لهجة من التحقير :

« ولكن ليس لديها بعد أية أسنان • » (١) والواقع أنه عندما رآها لثمرة الأولى كان مندهشا جدا من أنها لاتستطيع أن تتكلم ، وأعتقد أن سبب ذلك هو أن ليس لديها أسنان • وأثناء الأيام القليلة الأولى كان من الطبيعى أن يوضع هانز ، الى حد بعيد ، فى خلفية المسرح • وفجأة وقع مريضا بالتهاب فى الحلق • وفى الحمى قال وهو يهذى : « ولكنى لاأريد أختا صغيرة ! »

« وفى نهاية ستة أشهر تقريبا كان قد تغلب على غيرته ، وعطفه الأخوى على الطفلة لم يكن يعاوله غير احساسه بتفوقه عليها (٢) •

« وبعد أسبوع كان هانز يشهد أخته البالغة من العمر سبعة أيام أثناء حمامها ، فلاحظ قائلا : ولكن حمامتها ماتزال صغيرة تماما » ، ثم أردف ، كما لو كان من قبيل العزاء : « عندما تكبر سوف تكبر حمامتها كما ينبغى (٣) » •

---

(١) هذا أيضا أسلوب نمطى من السلوك • وطفل صغير آخر ، لايكبر أخته الا بعامين ، كان من عادته أن يتفادى مثل هذه الامتداحات بصرخة غاضبة : « صغيرة جدا ! صغيرة جدا ! • »

(٢) طفل آخر يكبر هانز بتليل ، رحب بأخيه الاصغر قائلا : « فليحمله طائر اللقلق من جديد ويرحل » • قارن ذلك بملاحظاتى عن أحلام موت الاحياء فى تفسير الاحلام ، الطبعة السابعة الالمانية ص ١٧١ (الترجمة العربية ، دار المعارف ص ٢٦٥) •

(٣) صبيان آخران ، ممن وصلنى تقرير عنهما ، ارتأيا نفس الرأى ، وعبرا عنه بنفس الكلمات ، واتبعاه بنفس التوقع ، وذلك عندما أتيح لهما لاول مرة أن يشبعا الاستطلاعية عندهما بمشاهدة بدن الاخت الرضيعة • =

« وفى نفس تلك السن (تسعة أشهر بعد الثالثة) قام هانز بتقديم السرد الأول لحلم : « اليوم وأنا نائم رأيت نفسى فى جموندن مع ماريدل » ٠

« وكانت ماريدل ، التى تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ٠ ابنة صاحب الفندق الذى ننزل فيه ، وكان من عادتها غالبا أن تلعب معه » ٠

وبينما كان أب هانز يقص على أمه الحلم فى حضوره ، صحح له هانز قائلا : « ليس مع ماريدل ، بل وحدى تماما مع ماريدل » ٠

وقد يستشعر المرء الارتياع من دلائل هذا التحريف الباكر لعقل الطفل ٠ فلماذا لم يقرر هؤلاء المستطلعون الصغار ماراوه بالفعل ، وهو على التحديد أنه لم تكن هناك حمامة ؟ وفيما يختص بهانز الصغير نستطيع على الاقل تقديم تفسير كامل لادراكه الخاطىء ٠ فاننا نعرف أنه ، بعملية من الاستقراء الدقيق ، قد بلغ الى القضية العامة التى مؤداها أن كل الاحياء ، وفى كل الاشياء ، لديها حمامة ٠ وقد أيدته أمه فى اعتقاده هذا اذ قدمت اليه معلومات مؤيدة فيما يختص بالاشخاص غير المتاحين لملاحظته ٠ لقد غدا الان غير قادر تماما على أن يتنازل عما انجزه من أكتساب استنادا فقط الى ملاحظة وحيدة لاخته الصغيرة ٠ ومن هنا ارتاى أنه فى هذه الحالة أيضا توجد حمامة ، ولكنها فقط ماتزال صغيرة جدا ، وأنها سوف تكبر حتى تصبح كبيرة مثل حمامة الحصان ٠

وبوسعنا أن نمضى خطوة أخرى فى المنافحة تكريما لهانز الصغير ٠ فهو فى واقع الامر لم يسلك على نحو أسوا من فلاسفة مدرسة «فونت» فعند هذه المدرسة ، الشعور خاصية لازمة لما هو نفسى ، تماما كما أن الحمامة عند هانز معيار لاغنى عنه لما هو حى ، فاذا ماالتقى الفيلسوف بعمليات نفسية يتحتم عليه أن يتادى الى استخلاص وجودها ، ولكنه لايستطيع أن يقع على أية دلائل شعورية لها ـ اذ أن المرء فى الواقع لايعرف شيئا عن هذه العمليات ، وان كان من المستحيل أن يتفادى التادى الى استخلاص وجودها ـ فعندئذ فانه بدلا من أن يقول أنها عمليات نفسية لاشعورية ، يطلق عليها نصف شعورية والحمامة ماتزال صغيرة جدا ! وفى هذه المقارنة ترجح كفة هانز ٠ اذ كما هو غالبا الحال فى التحريات الجنسية للاطفال ، يمكن خبيئا وراء الخطأ جزء من المعرفة الحقيقية فالبنات الصغيرات لهن حمامة صغيرة تطلق عليها البظر ، وأن كان هذا لايكبر بل يظل ضامرا قارن دراستى المؤجزة (فى النظريات الجنسية الطفلية ، مشكلات جنسية ، ١٩٠٨) ، المقالات المجموعة مجلد ٧ فى النص الالمانى (الترجمة الانجليزية، مجلد ٢) Ueber Infntile Sexusleheorien, Sexual Problem, 1908

وفى هذا الصدد نعرف مايلى : « فى صيف عام ١٩٠٦ ، كان هانز فى جموندن ، وكان من عادته أن يقضى طوال اليوم فى الجرى مع أطفال صاحب الفندق • وعندما رحلنا عن جموندن اعتقدنا أن الرحيل والعودة الى المدينة سيكون بالنسبة اليه أمرا جد أليم • ولكن لدهشتنا لم يكن الأمر كذلك • فقد بدا مسرورا من التغير ، ولأسابيع عديدة لم يتحدث ألا قليلا جدا عن جموندن • كانت أسابيع عديدة قد انقضت حين بدأت فى البـزوغ ذكريات ــ زاهية الألوان فى الغالب ــ عن الفتـرة التى قضاها فى جموندن • فخلال الأسابيع الاربعة الاخـيرة تقريبا كـان يصيغ ذكرياته تلك فى أخاييل • فهو يتخيل نفسه يلعب مع الأطفال الآخرين ، مع برتا وأولجا وفريتزل ، وهو يتحدث اليهم كما لو كانوا معه فى الواقع ، وبوسعه أن يمضى فى تسلية نفسـه بهـذه الطريقة لساعات فى المرة الواحدة • والآن ــ وقد غدا له أخت وتستحوذ عليه بشكل ظاهر مشكلة مصدر الأطفال ــ فانه دائما يسمى برتا وأولجا « طفليته » ، وقد أضاف مرة : « طفلتاى برتا وأولجا أتى بهما أيضا طائر اللقلق • » ومن الواضح أن الحلم الذى يقع الآن بعد ستة أشهر من الرحيل عن جموندن ينبغى فهمه على أنه تعبير عن الحنين الى العودة الى هناك » •

الى هذا الحد توصل الأب • ويمكننى أن أضيف ، من قبيل التوقع، أن هانز عندما أبدى ملاحظته الأخيرة عن طفلتيه هاتين اللتين أتى بهما طائر اللقلق ، كان يدحض بصوت عال شكا يستقر فى أعماقه •

ومن محاسن الصدف أن أباه قد دون كثرة من الأشياء تكشفت فيما بعد ، وعلى غير انتظار ، عظيمة الدلالة • « كنت أرسم زرافة لهانز الذى تردد كثيرا فى الأيام الأخيرة على حديقة الحيوان فى شونبرون قال لى : « ارسم حمامتها أيضا » • أجبته « ارسمها أنت بنفسك » • وعندئذ أضاف هذا الخط لرسمى بدأ برسم خط قصير ، ثـم أطاله باضافة خط آخر اليه ، ملاحظا : « حمامتها أطول • »

« مررت وهانز بحصان كان يتبول فقال : « الحصان حمامته من تحت مثلى » •

« وكان يشهد حمام أخته البالغة من العمر ثلاثة أشهر فقال فى لهجة أشفاق : « ان لها حمامة صغيرة جدا ، صغيرة جدا » •

« وأهديت الى هانز عروسة ليلعب بها فنزع عنها ملابسها ، وراح يتفحصها بعناية وقال : « لكن حمامتها صغيرة جدا صغيرة جدا • »

وكما سبق أن رأينا فان هذه الصيغة قد أتاحت له أن يواصل أعتقاده فى الكشف الذى كان قد بلغ اليه (أنظر ص ١٨٦) •

كل باحث يتعرض لخطر الوقوع فى خطأ عارض • وهو يجد شيئا من العزاء لو أنه كان — كهانز الصغير فى المثال التالى — غير وحيد فى الخطأ ، بل واستطاع أن يدلل على ذلك بالاستخدام اللغوى الشائع • ذلك أن هانز قد رأى يوما قردا فى كتابه المصور ، فقال مشيرا الى ذيله وهو مرفوع الى أعلى : « أنظر ، بابا ، حمامته ! »

أن اهتمام هانز « بالحمامة » قد تأدى به الى أن يبتدع لنفسه لعبة خاصة به • « تؤدى الردهة الأمامية الى مرحاض والى غرفة معتمة لتخزين الخشب • ومنذ فترة اعتاد هانز الذهاب الى غرفة الخشب هذه وهو يقول : « انى ذاهب الى مرحاضى • » ونظرت مرة الى الداخل لأرى ماكان يفعله فى هذه الغرفة المعتمة • أرانى عضوه وقال : « أنى أطرطر • » أى أنه كان « يلعب » لعبة المرحاض • أما أن ذلك كان من طبيعة اللعب فيتضح ليس فقط من أنه كان يتظاهر فحسب بالتبول ، دون أن يتبول فى الواقع ، بل أيضا من أنه لايذهب الى المرحاض ، وهو ما كان يمكن أن يكون أكثر بساطة ، بل يفضل مخزن الخشب ويطلق عليه « مرحاضى » •

ونحن لانوفى هانز حقه أن نحن قصرنا اهتمامنا على ملامح الشبقية الذاتية من حياته الجنسية . فلدى أبيه مايقدمه الينا من ملاحظات تفصيلية عن علاقاته الغرامية مع الأطفال الآخرين . ومن هذه الملاحظات نستطيع أن نتبين وجود « اختيار موضوعاتى » عنده ، تماما كما عند الراشد ، كما يتحتم الاعتراف بوجود درجة لافتة للغاية من النزواتية واستعداد لتعدد الزوجات .

وفى الشتاء صحبت هانز (وله تسعة أشهر بعد الثالثة) الى حلبة انزلاق على الجليد ، وقدمته الى ابنتى صديقى الصغيرتين ، وكانتا فى حوالى العاشرة من العمر . وجلس هانز على مقربة منهما ، بينما البنتان بالنظر الى احساسهما بسنهما الأكثر نضجا ، راحتا تنظران من عل وفى غير قليل من الازدراء الى الطفل الصغير ، كان يحملق فيهما فى اعجاب ، وان لم يترك ذلك عندهما انطباعا يذكر . وعلى الرغم من ذلك كان هانز يتحدث عنهما دائما فيما بعد قائلا « بنتاى الصغيرتان » « أى بنتاى الصغيرتان ؟ متى تحضر بنتاى الصغيرتان ؟ » وقد ظل لبضعة أسابيع يلاحقنى بالسؤال « متى أذهب من جديد لحلبة التزحلق لأرى بنتى الصغيرتين ؟ » .

صبى فى الخامسة من أبناء عمومته حضر فى زيارة الى هانز ، الذى كان فى ذلك الحين قد بلغ الرابعة . كان هانز يعانقه فى غير انقطاع ، وفى احدى المرات ، بينما كان يسبغ عليه احدى هذه المعانقات قال ، « لكم أنا مغرم بك ! لكم أنا مغرم بك » .

تلك هى العلامة الأولى التى التقينا بها عنده على الجنسية المثلية، ولكنها لن تكون الأخيرة . ان هانز الصغير يبدو حقا أنموذجا لكل الانحرافات الجنسية .

وعندما بلغ هانز الرابعة انتقلنا الى مسكن جديد . وكان بالمطبخ باب يؤدى الى شرفة يستطيع المرء منها ان يرى داخل الشقة المواجهة

التى تقع فى الجانب المقابل من الفناء . وفى هذه الشقة أكتشف هانز بنتا صغيرة فى حوالى السابعة أو الثامنة من العمر . كان يجلس على العتبة المؤديه الى الشرفة ليتأملها فى اعجاب وكان بوسعه أن يظل على هذه الحال ساعات . وفى الرابعة بعد الظهر خاصة ، عندما كانت البنت الصغيرة تعود من المدرسة الى بيتها ، لم يكن من الممكن أن نبقيه فى الغرفة ، كما لم يكن لشىء أن يحمله على مغادرة مركز المراقبة . وذات مرة ، عندما لم تظهر البنت الصغيرة فى النافذة فى الساعة المألوفة ، لم يستطع هانز أن يستقر فى مكان ، وراح يضايق الجميع بأسئلته — « متى ستحضر البنت الصغيرة ؟ أين البنت الصغيرة ؟ » وما الى ذلك . وعندما ظهرت البنت الصغيرة آخر الأمر ، غمرته السعادة ، ولم يحول بصبره قط عن الشقة المواجهة . والعنف الذى تملكه به هذا « الحب من بعيد » (١) ينبغى ارجاعه الى أن هانز لم يكن له رفاق لعب من أى من الجنسين . فقضاء وقت طويل مع الأطفال الآخرين هو ، بكل وضوح ، جانب من النمو السوى للطفل .

وقد أتيحت لهانز صحبة من هذا القبيل عندما رحلنا بعد ذلك بوقت قصير (وكان هانز عندئذ فى الرابعة والنصف من عمره) الى جموندن لقضاء عطلة الصيف . وفى مسكننا هناك ، كان رفاق لعبه هم أطفال صاحب الفندق : فرانزل (فى الثانية عشرة) ، وفريتزل (فى الثامنة) وأولجا (فى السابعة) وبرتا (فى الخامسة) . وبالاضافة الى هؤلاء كان هناك أطفال الجيران : أنا (فى العاشرة) وبنتان صغيرتان أخريان فى التاسعة وفى السابعة ، لاأذكر اسميهما . وكان فريتزل هو الذى يحظى من بينهم بتفضيل هانز ، فكثيرا ما كان هانز يعانقه ويؤكد لــه حبه . وذات يوم حين سئل : « من من الفتيات الصغيرات تحبها أكثر؟»

---

(١) 'Und die Liebe Per Distanz
'Kurzgesagt, missfallt mirganz, Wilhelm Busch.

(الحب من بعيد فيه ارهاق لايلائم مزاجى على الأطلاق — فيلهلم بوش)

أجاب فريتزل ! » وفى نفس الوقت كان يعامل البنات بطريقة رجلية ، عدوانية ، مزهوة ، يعانقهن ويقبلهن بحرارة — الأمر الذى لم يلق عند برتا بصفة خاصة أى اعتراض • وعندما كانت برتاتهم بالخروج من الغرفة ذات مساء ، طوق عنقها بذراعيه ، وقال فى لهجة أشد ماتكون غراما : « برتا ، يالك من حبيبة ! » ولكن هذا لم يمنعه مع ذلك من تقبيل الأخريات أيضا ، ومن تأكيد حبه لهن • فقد كان مغرما أيضا بماريدل التى تبلغ الرابعة عشرة ، وهى واحدة أخرى من بنات صاحب الفندق اعتادت أن تلعب معه • وذات مساء وهو يوضع فى فراشة قال : « أريد أن تنام ماريدل معى • » وعندما قيل له أن هذا غير ممكن، قال : « ينبغى اذن أن تنام ماريدل مع ماما أو بابا • » فقيل له أن هذا غير ممكن أيضا ، فماريدل ينبغى أن تنام مع أبويها • وعندئذ تتابع الحوار التالى :

« هانز — أوه ، عندئذ سأنزل أنا لانام مع ماريدل •

« الأم — أتريد حقا أن تترك ماما وتذهب لتنام تحت ؟

« هانز — أوه ، سوف أصعد من جديد فى الصباح لأتناول طعام الافطار ولأذهب الى التواليت •

« الأم — حسنا ، ان كنت تريد حقا أن تترك بابا وماما وتذهب نخذ اذن سترتك وسروالك و — وداعا ! »

« وقد أخذ هانز بالفعل ملابسه واتجه الى السلم ليذهب وينام مع ماريدل ولكننا بالطبع أعدناه • »

« ووراء رغبته : « أريد أن تنام ماريدل معنا » تكمن رغبة أخرى : « أريد أن تصبح ماريدل (التى يحب جدا أن يكون معها) واحدة من أسرتنا • » ولكن أباه وأمه كانا يأخذانه فى فراشهما ، وأن كان ذلك فقط بين حين وحين ، وليس ثمة شك فى أن رقاده هذا بجانبهما كــان

يستثير عنده أحاسيس شبقية ، ومن ثم فان رغبته فى أن ينام مع ماريدل لها أيضا دلالتها الشبقية . فالرقاد فى الفراش مع أبيه وأمه كان مصدرا للاحاسيس الشبقية عند هانز ، تماما كما هو الحل عنــد أى طفل آخر . »

وعلى الرغم من نوباته من الجنسية المثانيه ، فان هانز الصغير قد تصرف كرجل بمعنى الكلمة فى مواجهته لتحدى أمه .

وفى المثال التالى أيضا قال هانز لأمه : « أتعرفين ، لكم أود جدا أن أنام مع البنت الصغيرة . » هذه الواقعة أتاحت لنا كثيراً من التسلية، اذ أن هانز قد تصرف فى الواقع كراشد متيم . ففى المطعم الذى نتناول فيه طعام الغذاء ، اعتادت أن تحضر ، فى الأيام القليلة الأخيرة ، بنت صغيرة أنيقة فى الثامنة من العمر . وطبيعى أن هانز قد وقع فى حبها على الفور . انه لايتوقف عن الدوران فى مقعده ، يختلس النظرات اليها ، وما أن يفرغ من تناول الطعام حتى يذهب ليجلس على مقربة منها كيما يغازلها ، ولكنه اذا تبين أن أحدا يرقبه وهويفعل ذلك استحال قرمزيا من الخجل . واذا استجابت البنت الصغيرة لنظراته بنظرات منها فانه يتحول بعينيه عنها على الفور الى الناحية الأخرى ، وقد غلبه الارتباك . وسلوكه هذا هو بهجة كبيرة بالطبع لكل الذين يتناولون غذاهم بالمطعم . وكل يوم ، وهو فى طريقه الى المطعم يسأل : « هل تعتقد أن البنت الصغيرة ستكون هناك اليوم ؟ » وعندما تظهر آخر الأمر يحمر وجهه تماما ، شأنه تماما شأن الراشد فى مثل هذا الموقف . وذات يوم أقبل على متهلل الوجه ، وهمس فى أذنى : « بابا أنى أعرف اين تسكن البنت الصغيرة . فقط رأيتها تصعد الدرج فى المكان الفلانى . » وبينما هو يعامل البنات الصغيرات فى البيت بطريقة عدوانية ، فانه فى هذه الحالة الراهنة يبدو بالحرى عاشقا عذريا يضنيه الوجد . وربما يرجع ذلك الى أن البنات الصغيرات فى البيت ريفيــات ، بينمــا البنــت الصغيرة فى المطعم فتاة مجتمع راق . وكما سبق أن ذكرت ، قال ذات مرة أنه يود جدا أن ينام معها .

ولما كنت لاأرغب فى أن يظل هانز نهبا لهذا التوتر النفسى الذى عاناه حتى الآن من جراء حبه لهذه البنت الصغيرة ، فقد رتبت الامر بحيث تعرفا ، ودعوت البنت الصغيرة أن تحضر لتراه فى الحديقة بعد أن يكون قد استيقظ من قيلولته • كان هانز فى انتظاره للبنت الصغيرة من التأثر والانفعال بحيث لم يستطع لأول مرة أن ينام بعد الظهر ، بل راح يتقلب ويتقلب فى فراشه دون انقطاع • وعندما سألته أمه : « لماذا لاتنام ؟ اتفكر فى البنت الصغيرة ؟ » ، أجاب وهو يطفح بالبشر : « نعم » • وعندما عاد من المطعم قال لكل واحد فى البيت : « هل تعرف، اليوم سوف تحضر بنتى الصغيرة لتزانى • » وقد ذكرت ماريل البالغة من العمر أربعة عشر عاما أن هانز ظل يسألها بلا انقطاع : « هل تعتقدين أنت أنها ستكون لطيفة معى ؟ هل تعتقدين أنها ستكون لطيفة معى ؟ هل تعتقدين أنها سوف تقوم بتقبيلى عندما أقبلها ؟ » وما الى ذلك •

ولكن السماء أمطرت بعد الظهر ، وبذلك لم تتحقق الزيارة • وراح هانز يعزى نفسه مع برتا وأولجا •

وثمة ملاحظات أخرى تمت أيضا أثناء عطلة الصيف ، توحى بأن تطورات جديدة كانت تعتمل داخل الصبى الصغير •

وهانز ، ثلاثة أشهر بعد الرابعة فى هذا اليوم كانت الأم تعطى هانز حمامه اليومى ثم قامت بعد ذلك بتجفيفه وتبديره • وبينما كانت أمه تقوم بتبدير المنطقة حول قضيبه ، فى حرص منها أن لا تلمس القضيب، قال هانز : « لم لاتضعى أصبعك عليه ؟ »

الام — لان هذا أمر قذر •

هانز — ماهذا ؟ قذر ؟ لم ؟

الأم — لأن هذا لاينبغى عمله •

هانز (ضاحكا) — ولكنه يبعث بهجة عظيمة (١) •

وفى نفس تلك السن تقريبا رأى هانز حلما يستلفت الأنتباه بتعارضه مع الجرأة التى كشف عنها تجاه أمه • وكان هذا أول حلم للصبى استغلق بفعل التحريف • ومع ذلك فان الذكاء النافذ لأبيه استطاع أن ينفذ الى دلالته •

هانز ، ثلاثة أشهر بعد الرابعة • حلم هذا الصباح استيقظ هانز وقال : « هل تعرف ، هذه الليلة فكرت : واحد قال : من يريد أن يأتى معى ؟ قال آخر : أنا آتى ، وعندئذ كان على هذا الآخر أن يجعل الأول يطرطر • »

ولقد كشفت أسئلة أخرى بوضوح عن عدم وجود أى عنصر بصرى فى هذا الحلم ، وعن أنه ينتمى الى نمط الأحلام السمعية الصرفة • كان هانز فى الايام القليلة الآخيرة يلعب ألعاب «الصالون» و «المراهنة» مع أطفال صاحب الفندق ، ومن بينهم صديقتاه : أولجا « فى السابعة » وبرتا (الخامسة) • (ولعبة « المراهنة » تجرى على هذا النحو : ا : « رهان من هذا الذى فى يدى ؟ » ب : « رهانى » • وعندئذ يكون البت فيما ينبغى على ب أن يفعله •) وينبنى الحلم على غرار هذه اللعبة ، غير أن هانز يرغب فى أن الشخص الذى يقع عليه الرهان يحكم عليه ، لا أن يعطى القبلة المألوفة ، لا ولا أن يتلقى اللكمة المألوفة فى الأذن ، بل أن يطرطر ، أو على وجه أكثر دقة أن يجعل الآخر يطرطر •

---

(١) أم أخرى ، وكانت عصابية ، ولم تكن تعتقد فى وجود الاستمناء الطفلى ، أخبرتنى عن محاولة مماثلة للاغواء من جانب ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات ونصف • كانت قد حاكت لابنتها سروالا صغيرا ، وكانت تقوم بقياسه عليها لترى ما أن من الضيق بحيث يعوقها عن المشى • وكيما تتبين ذلك مررت يدها الى أعلى بطول السطح الداخلى • دن فخذ ابنتها • وفجأة أطبقت البنت الصغيرة بفخذيها على يد أمها قائلة • « أوه ، ماما ، اتركى يدك هنا ، ماأحلى ذلك ! » •

طلبت اليه أن يعيد الحلم ، فسرده بنفس الكلمات ، باستثناء أنه بدلا من أن ينطق : « ثم قال آخر » نطق فى هذه المرة « ثم قالت هى» . « هى » هذه من الواضح أنها برتا أو أولجا ، واحدة من البنات اللاتى كان يلعب معهن .. وبترجمة الحلم يكون كما يلى : «كنت ألعب المراهنة مع البنات الصغيرات ، : وسألت من تريد أن تأتى معى ؟ فأجابت هى (برتا أو أولجا) : أنا آتى . وعندئذ كان عليها أن تجعلنى أطرطر . (بمعنى أنه كان عليها أن تعينه على التبول ، وهو أمر من الواضح أنه لاذ لهانز) .

ومن الواضح أن عملية جعله يطرطر — بفك أزرار بنطلونه واخراج قضيبه — عملية لاذة لهانز . وفى النزهات ، غالبا مايكون الأب هو الذى يعين هانز على هذا النحو ، ويتيح هـذا الطفل فرصة تثبيت نزعاته الجنسية المثلية على أبيه .

ومنذ يومين كما سبق أن ذكرت بينما كانت أمه تقوم على تنظيف وتبدير منطقته الانسالية ، سألها : لم تضعى أصبعك عليه : » وامس عندما كنت أعين هانز على التبول ، طلب الى للمرة الأولى أن أذهب به الى ماوراء البيت حتى لايراه أحد . أضاف « فى العام الماضى عندما كنت أطرطر كانت برتا وأولجا ترقبانى » . وهذا يعنى ، على ماأعتقد، أنه فى العام الماضى كان يستمتع بمراقبة البنتين له ، ولكن الآن لم يعد الأمر كذلك . فاستعراضيته أصبحت الآن واقعة تحت الكبت . وكون رغبته فى أن ترقبه برتا وأولجا وهو يطرطر (أو وهى تجعله يطرطر) قد عدت الآن مكبوتة فى الحياة الواقعية ، فذلك مايفسر ظهور هذه الرغبة فى الحلم حيث أتيح لها أن تتنكر بشكل بارع فى لعبة المراهنة . ومنذ ذلك لاحظت فى مناسبات عديدة أنه لايرغب فى أن يراه أحد وهو يطرطر .

وحسبى هنا أن أنبه الى أن هذا الحلم يتبع القاعدة التى قدمتها

فى كتابى « تفسير الأحلام (١) » ، والتى مؤداها أن الأقوال المنطوقة أو المسموعه فى الحلم مستمدة من أقوال نطق بهـا الحالم أو سمعها فى الأيام السابقة على الحلم .

وقد دون أبو هانز ملاحظة أخرى ، ترجع بتاريخها الى الفترة التالية مباشرة لعودتهم الى فينا : كان هانـز (فى الرابعة والنصف) يشهد من جديد حمام أخته الصغيرة ، عندما راح يضحك . وحين قيل له : « لم تضحك ؟ » أجاب : « انى أضحك من حمامة هنة » . « لم ؟» « لأن حمامتها حلوة جدا » .

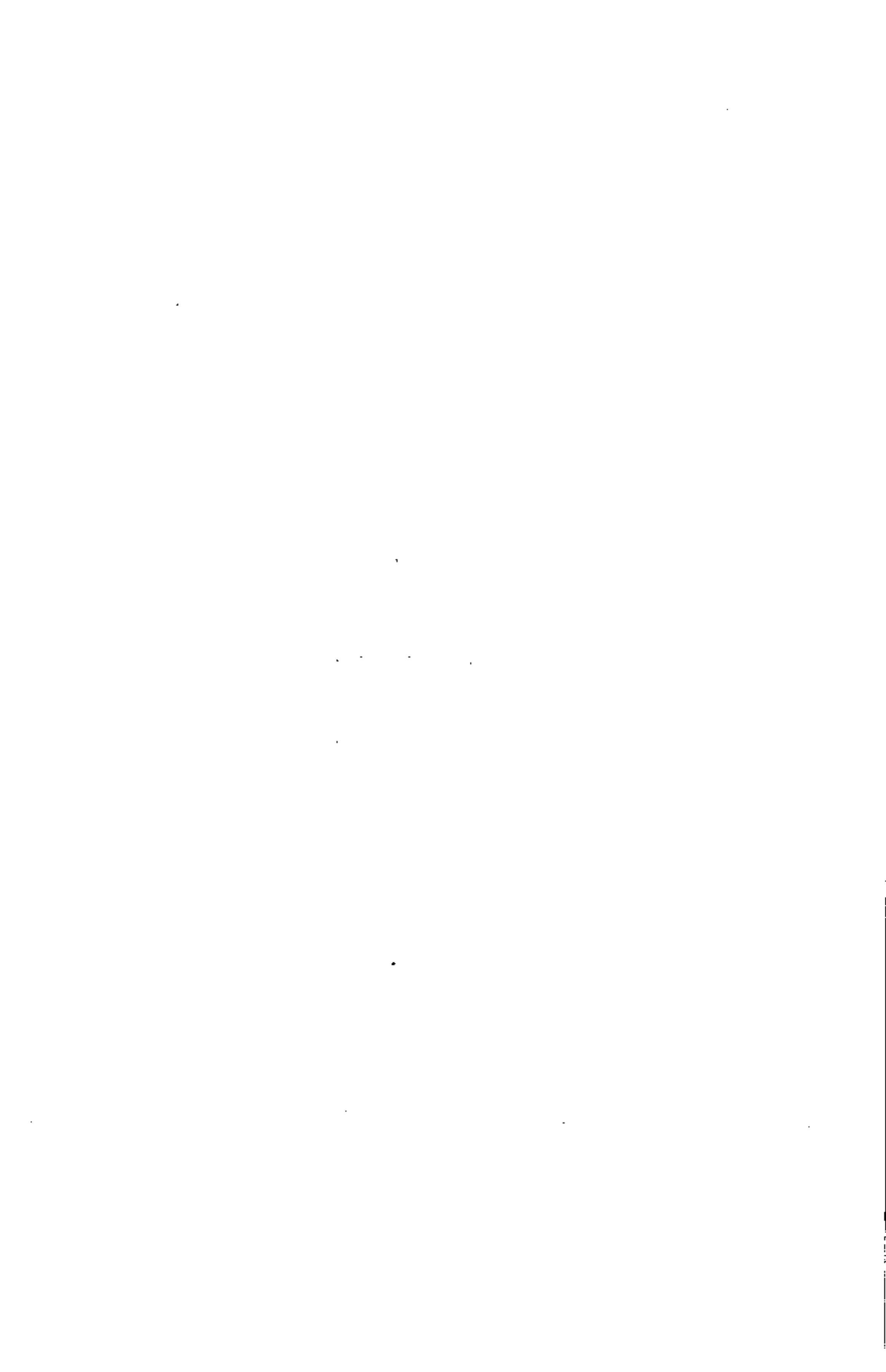
وكانت اجابته بالطبع مخادعة . فحمامتها بدت له فى الحقيقة الأمر عجيبة مضحكة ، أضف الى ذلك أن هذه هى المرة الأولى التى تبـين فيها ، على هذا النحو ، الاختلاف بين عضو التناسل المذكر وعضـو التناسل المؤنث بدلا من أن كان ينكر هذا الاختلاف .

(١) الطبعة السابعة الالمانية ، ص ٢٨٣ وما بعدها .



٣

تاريخ الحـــالة والتحليل



٣

تاريخ الحـــالة والتحليل

« استاذى العزيز ، أنى أبعث اليك بمزيد من المعطيات عن هانز الصغير ــ ولكنها معطيات يؤسفنى فى هذه المرة أن أقول أنها تشكل مادة لتاريخ حالة . فكما سترى ، ظهرت لديه فى الأيام الأخيرة اضطرابات عصبية أقلقتنا ، زوجتى وأنا لأننا لم نستطع العثور على أية وسيلة لازالتها . وسوف استبيح لنفسي فى الغد أن أتوجه للقائك ... ولكنى فى انتظار ذلك ... أبعث اليك بتقرير عن المعطيات التى أتيح لى أن أحصل عليها .

وليس من شك أن التربة قـــد تهيأت لديه من جـــراء الاستثارة الجنسية الزائدة الناجمة عن حنان أمه ، ولكنى لااستطيع تخصيص السبب المباشر لاضطراباته تلك فهـــو يخاف من أن حصانا يعضه فى الطريق ، وهذا الخوف يبدو مرتبطا على نحو مابارتعابه من قضيب كبير . فهو قد تنبه منذ سن باكرة جدا ، كما تعلم من تقرير سابق ، الى ما للحصان من قضيب كبير ، وتأدى فى ذلك الوقت الى أن أمـــه مادامت كبيرة الى هذا الحد ، فلابد وأن تكون لها حمامة مثل الحصان

ولكنى لا أستطيع أن أتبين مايمكن استخلاصه من ذلك . أتراه رأى فى مكان ماشخصا استعراضيا : أم ترى أن الأمر كله يرتبط بأمه: فما لايسرنا كثيرا أن يبدأ فى مثل هذه السن الباكرة فى اثارة المتاعب. وفيما عدا خوفه من الخروج الى الطريق ، وأكتئابه فى المساء ، ظل هانز كما كان مرحا ومبتهجا كعادته دائما . »

وسوف لانتتبع أبا هانز ، لا فى أحاسيسه القلقة التى يسهل فهمها لا ولا فى محاولاته الأولى للعثور على تفسير ، بل سوف نبدأ بتفحص

المعطيات التى أمامنا فليست مهمتنا بحال أن « نفهم » الحالة دفعة واحدة وفى التو ، اذ أن ذلك الفهم لا يمكن البلوغ اليه الا فى مرحلة لاحقة ، عندما تتوفر لدينا عن الحالة انطباعـات كافية • ففى الآونـة الحالية سوف نعلق حكمنا ، مولين نفس الاهتمام لكل شىء متـاح للملاحظة •

أن أبكر التقارير ، التى يرجع تاريخها الى الأيام الأولى من شهر يناير من عامنا هذا (١٩٠٨) تتتابع كما يلى :

هانز (تسعة أشهر بعد الرابعة) يستيقظ ذات صباح وهو يبكى • وتسأله أمه عن سبب بكائه فيجيب : عندما كنت نائما اعتقدت أنك قد رحلت وأنى لم يعد لى أم « اتدلع » معها •

أذن هو حلم حصير (قلق مرضى) •

« سبق لى أن لاحظت شيئا مماثلا لذلك فى جموندن أثناء الصيف• ففى المساء ، وهو فى سريره ، كان غالبا مايكون عاطفيا جدا • وذات مرة قال ملاحظة مفادها : « لو أننى كنت بغير ماما • » أو « لو أنك رحلت من هنا » أو شىء من هذا القبيل ، فانى لاأذكر على وجه الدقة نص كلمـاته • وكان من عـادة أمه دائما ، ولسـوء الحـظ ، اذا مااستولى عليه مثل هذا المزاج الحزين ، أن تأخذه معها الى فراشها •

« وفى الخامس تقريبا من شهر يناير ، سعى الى سرير أمه فى ساعة مبكرة ، وقال : « هل تعرفين ماقالته طنط م ـــ ؟ لقد قالت له تباع (١) صغير لطيف ، • » (كانت طنط م ـــ تنزل عندنا منذ أربعـة

---

(١) فى الالمانية Pisehl بمعنـى قضيـب • ومـن أكثر الأمـور شيـوعا ــ وحالات التحليل النفسى مليئة بذلك ــ أن تلقى الاعضاء التناسلية للاطفال الملاطفة ، ليس فقط بالكلمات ، بل وأيضا بالحركات ، وذلك من جانب الاقارب العطوفين ، ومن بينهم الأبوان نفسهما •

أسابيع • وذات مرة اذ كانت ترقب زوجتى وهى تعطى الصبى حمامه قالت لها فى الواقع هذه الكلمات ولكن بصوت منخفض • سمع هانز هذه الكلمات وهو الآن يحاول أن يستغلها لصالحه •)

وفى السابع من شهر يناير ذهب الى ستادبارك (١) مع الخادمة ، كالعادة • وفى الطريق بدأ يبكى ، وطلب أن يعود الى البيت ، فهو يريد أن « يتدلع » مع ماما • وعندما سئل فى البيت عن سبب رفضه المضى فى النزهة وبكائه ، لم يرغب فى أن يقول ، وظل حتى المساء مرحا كعادته ولكن فى المساء بدأ يستولى عليه الرعب بشكل ظاهر ، وأصبح من غير الممكن ابعاده عن أمه ، ورغب فى أن « يتدلع » معها من جديد • ثم بدأ يعود مرة ثانية الى مرحه ونام نوما هادئا •

وفى الثامن من شهر يناير ، صممت زوجتى على أن تخرج معه بنفسها لتتبين حقيقة الأمر ، وذلك فى نزهة الى شونبرون حيث كان يحلو له أن يذهب دائما • بدأ يبكى من جديد ، غير راغب فى مغادرة البيت ، واستولى عليه الرعب • وفى نهاية الأمر قبل الذهاب ، ولكن كان يبدو عليه الرعب بشكل ظاهر فى الطريق • وفى طريق عودتهما من شونبرون ، قال لأمه ، بعد صراع شديد : « كنت أخاف من أن حصانا يعضنى • » (كانت فى الواقع قد بدت عليه علامات الارتباك فى شونبرون عندما رأى حصانا •) وفى المساء كان من الممكن ، على ما بدا ، أن يعانى نوبة أخرى مماثلة لتلك التى عاناها فى المساء السابق • فيرغب فى أن «يتدلع» • ولكن أمكن تهدئته • قال وهو يبكى : « أنا عارف ، سيكون على غدا أن اذهب من جديد للنزهة • » وقال بعد ذلك : « سوف يحضر الحصان فى الغرفة ،

وفى نفس اليوم سألته أمه : « هل تضع يدك عند حمامتك ؟ » فأجاب : « نعم ، كل مساء وأنا فى الفراش • »

---

(١) Stadtpark حدائق عامة وسط مدينة فينا ـ الترجمة الانجليزية

وفى اليوم التالى ، وهو التاسع من شهر يناير ، تلقى هانز قبل أن يبدأ قيلولته تحذيرا بألا يضع يده عند حمامته • وعندما استيقظ وسئل عماتم ، قال أنه قد وضعها مع ذلك عنوها لفترة وجيزة • •

هاهى اذن بداية الحصر (القلق) عنـــد هـــانز وبداية الفوبيا (الرهاب) أيضا عنده • وثمة أسباب وجيهة لدينا ، كما هو واضح ، لفصلهما الواحد عن الآخر • اضف الى ذلك أن المادة المتاحة تبدو لنـــا كافية تماما لتوجه خطانا ، وما من فترة من الوقت تكون مواتية لفهم حالة من الحالات بقدر ماتكونه مرحلتها الاستهلالية ، على نحو مالدينا هنا ، وان كانت هذه المرحلة كقاعدة عامة ، تتعرض لســوء الحـــظ للاغفال أو التغافل عنها • بدأ الاضطراب العصبى بافكار هى عاطفية وقلقة معا ، ثم أعقب ذلك حلم حصر مضمونه هو : هانز يفقد أمه ، الأمر الذى يجعله غير قادر بعد على أن « يتدلع » معها • فعاطفة هانز تجاه أمه لابد اذن وأن تكون قد زادت بشكل هائل • تلك هى الظاهرة الأساسية التى تشكل أساس حالته •

وتأييدا لذلك ، فلنتذكر هاتين المحاولتين من الاغواء اللتين قام بهما هانز تجاه أمه ، احداهما ترجع بتاريخها الى الصيف ، بينمـــا الأخرى (وتنحصر ببساطة فى امتداحه قضيبه) تأتى مباشرة قبل تفجر فوبيا الطريق عنده • كانت تلك العاطفة التى ازدادت تجاه أمه هى التى أستحالت فجأة الى حصر ، هى التى ــ كما نقول ــ عانت الكبت •

ونحن لانعرف بعد من أين يكون قد أتى ذلك الدافع للكبت • ربما حدث الكبت ببساطة نتيجة لازدياد انفعالات الطفل زيادة تفوق مالديه من قدرة على السيطرة عليها ، وربما تكون هناك قوى أخرى لم نتعرف عليها بعد ، قد عملت عملها أيضا • ذلك ماسوف نتبينه فيما بعد • فقلق هانز هذا ، وهو الذى يناظر صبابة شبقيه مكبوتة ، هو أولا ، ككل حصر طفلى ، بغير موضوع : مجرد حصر ، لم يصبح بعد خوفا • فالطفل لايستطيع أن يتبين من أى شىء هو خائف ، وعندما يرغب

هانز ، بعد نزهته الأولى مع الخادمة ، فى أن يقول من أى شىء هو خائف فذلك ببساطة لأنه لم يتبين بعد هذا الشىء • لقد قال كل مايعرفه، وهو أنه يفتقد ، فى الطريق ، ماما التى يستطيع أن « يتدلع » معها ، وأنه لايرغب فى أن يكون بعيدا عنها • وبقوله هذا يكتشف فى صراحة تامة عن الدلالة الأولى لنفوره من الطريق أضف الى ذلك أن الحالة التى كان عليها هانز أثناء أمسيتين متتاليتين قبل ذهابه الى فراشه ، والتى كانت تتميز بالحصر الذى مايزال بعد مختلطا بصبابة واضحة • هذه الحالة ترينا أنه فى بداية مرضه لم تكن هنالك بعد أى فوبيا من أى نوع ، لا من الطريق ، ولا من النزهة ، لا ولا حتى من الأحصنة • فلو كانت هناك فوبيا لاستحالت الحالة التى تعتريه فى المساء على التفسير، فمن ذا الذى يزعج نفسه وقت النوم بالتفكير فى الطريق أو فى النزهة ؟ وعلى العكس فان تفسير هذه الحالة المسائية يغدو واضحا تماما اذا ما وضعنا فى اعتبارنا أن هانز كانت تغمره عندما تحين ساعة النوم ، زيادة فى اللبيبدو — هذا الذى كان موضعه الأم ، وكان هدفه فيما يتحمل أن ينام معها • فقد تعلم فى الواقع ، من الخبرة التى عاشها فى جموندن أن أمه يمكن حملها ، عندما تستولى عليه مثل هذه الحالة ، على أن تأخذه معها فى فراشها ، وهنا فى فينا كان يريد أن يبلغ نفس هذا الهدف • وليس لنا أيضا أن ننسى أن هانز كان لبعض الوقت فى جموندن بمفرده مع أمه ، اذ لم يكن بوسع أبيه أن يقضى عطلة بأكملها هناك ، وأن عاطفته فى الريف كان يتقاسمها عدد من رفاق اللعب والأصدقاء من الجنسين ، بينما فى فينا لم يكن له منهم أحد ، ومن ثم كان اللبيبدو عنده فى وضع يحتم عليه أن يعود متجها بكليته تماما الى أمه •

وهكذا فان الحصر عنده كان يناظر صبابة ليبيدية مكبوتة ولكن هذا الحصر ليس هو نفس هذه الصبابة : فالكبت ينبغى وضعه فى الاعتبار أيضا • فالصبابة يمكن أن تتحول بتمامها الى اشباع اذا ما أتيح لها الموضوع الذى تصبو اليه • والعلاج من هذ النوع لا تكون

له فاعليته فى التعامل مع الحصر فالحصر يبقى حتى عندما تتوفر الامكانية لاشباع الصبابة . فلم يعد من الممكن تحويل الحصر من جديد وبتمامه الى ليبيدو ، فثمة شىء يبقى على الليبيدو بعيدا تحت الكبت (١) . وقد تبين أن ذلك هو الأمر فى حالة هانز عندما صحبته أمه فى النزهة التالية . فقد كان فى هذه المرة مع أمه ، ومع ذلك ظل يعانى من الحصر ـ أى من صبابة غير مشبعة اليها . صحيح أن الحصر كان أقل ، اذ سمح لنفسه أن ينساق ذاهبا الى النزهة ، بينما كان قد أرغم الخادمة على أن تعود به الى البيت . هذا الى أن الطريق ليس بالمكان الملائم تماما لكى « يتدلع » ، أو لأى شىء آخر يكون هذا العاشق الصغير تواقا الى فعله . ولكن الحصر صعد للتجربة ، وكان الشىء الذى يتحتم عليه بعد ذلك هو أن يعثر على موضوع . لقد كان أثناء تلك النزهة أن عبر لأول مرة عن خوفه من أن حصانا يعضه فمن أين أتت مادة هذه الفوبيا : ربما من تلك العقد التى مانزال بعد نجهلها ، والتى أسهمت فى عملية الكبت ، وأبقت تحت الكبت مشاعره الليبيدية تجاه أمه . تلك مشكلة لم يتضح بعد حلها ، ويتحتم علينا الآن أن نمضى مع تطور الحالم حتى نبلغ الى حلها . ولقد سبق أن قدم لنا بالفعل أبو هانز بعض العلامات الدالة التى قد يمكن الركون اليها فى ثقة ، وذلك من قبيل أن هانز كان دائما يلاحظ الأحصنة باهتمام بسبب مالها من حمامة كبيرة ، وأنه افترض أن أمه لابد وأن تكون لها حمامة مثل الحصان ، وما الى ذلك . وهكذا يمكن أن نتأدى الى الاعتقاد بأن الحصان كان ببساطة مجرد بديل عن أمه . ولكن ان كان الأمر كذلك ، فما عساه أن تكون دلالة خوفه فى المساء من أن حصانا يدخل فى الغرفة ؟ مخاوف سخيفة لصبى صغير ، ذلك ماقد يقال . ولكن العصاب ، وهو فى ذلك لايختلف عن الحلم ، لا يقول قط أشياء سخيفه فنحن عندما نعجز عن فهم شىء نرميه دائما بالسخف.

---

(١) فى صراحة تامة ، ذلك بالفعل هو المعيار الذى بحسبه نبت فيما اذا كانت مثل هذه المشاعر التى تمتزج فيها الرهبة والصبابة سوية أو لا سوية . فنحن نعتبرها « قلقا مرضيا » منذ اللحظة التى لم يعد فيها ممكنا التفريج عن هذه المشاعر بالحصول على الموضوع المصبو اليه .

أشياء سخيفة فنحن عندما نعجز عن فهم شيء نرمية دائما بالسخف فيالها من وسيلة ممتازة نيسر بها المهمة على أنفسنا .

وثمة نقطة أخرى ينبغى بازائها أن نتجنب الاستسلام لهــذه الغواية . فهانز قد صرح بأنه فى كل ليلة قبل النوم كان يتسلى باللعب فى قضيبه . عندئذ يصيح طبيب العائلة قائلا : « آه : لقد اتضح الآن كان شيء . الطفل يستمنى ، ومن هنا قلقه المرضى » . ولكن رويدك ! فأما أن الطفل يمنح نفسه أحاسيس شهوية لاذة بالاستمناء ، فذلك لايفسر لنا فى شيء قلقه ، بل يجعله بالحرى أكثر استغلاقا على الفهم فحالات الحصــر لاتنتج من الاستمناء ، لا ولا من الحصـــول على اشباع من أى نوع . أضف الى ذلك أنه قد يكون لنا أن نفترض أن هانز وقد تخطى الآن الرابعة بتسعة أشهر ، كان يمنح نفسه هــذه اللذه كل مساء منذ سنة على الأقل (أنظر ص ١٨٢) . وسوف نتبين أن هانز فى هذا الوقت بالذات كان بالفعل مشتبكا فى صراع ليخلص نفسه من تلك العادة — الأمر الذى يتفق على نحو أفضل مع الكبت وتكوين الحصر .

وينبغى أن نقول كلمة أيضا ، انصافا لأم هانز المتــازة المخلصة فأبوه يتهمها ، وان لم يكن ذلك بغير مظهر من الحق ، بأنها كانت السبب فى تفجر عصاب الطفل ، بما كانت تبديه من عطف مسرف نحوه ، وبمسارعتها جد المتواترة الى أن تأخــذه الى فراشها . وكــان من الممكن أيضا بنفس اليسر أن نتهمها بأنها قد عملت عملية الكبت بصدها العنيف لعروضه العشقية (« لأن هذا أمر قذر ») (ص ١٩٣) ولكن لقد كان عليها أن تضطلع بدور رسمته الأقدار من قبل ، وكان موقفها عسيرا .

اتفقت مع أب هانز على أن يقول للصبى أن كل هذه الحكاية عن الأحصنة لم تكن غير « حماقة » لا أكثر . وكان على أبيه أن يقول له

أن الحقيقة هي أنه مغرم جدا بأمه ، ويرغب فى أن تأخذه الى فراشها أما خوفه الآن من الأحصنة فسببه أنه قد اهتم كل هـذا الاهتمام الكبير بحماماتها . لقد لاحظ هو نفسه (هانز) أنه ليس من الصواب الانشغال بدرجة زائدة الى هذا الحد بالحمامات حتى بحمامته هـو ، وقد كان صائبا حين فكر على هذا النحو . وقد ألحت الى أبيه بالاضافة الى ذلك بأن عليه يبدأ فى تبصير هانز بعض الشىء بالمعارف الجنسية. أن سلوك الطفل فى الماضى قد خولنا الحق فى أن نفترض أن الليبيدو عنده يتشبث برغبة فى أن يرى حمامة أمه ، ومن هنا فقد اقترحت على أبيه أن يزيل عن هذه الرغبة عند هانز هدفها ، وذلك بأن يجعله يعرف أن أمه وكل الكائنات الأنثوية الأخرى (كمـا يمكنه أن يتبين ذلك استنادا الى هنه) ليس لها حمامة على الاطلاق ، وهـذا العنصر الأخير من التبصير يتحتم تقديمه الى هانز فى فرصة مناسبة يكـون التأدى اليها ابتداء من سؤال أو ملاحظة عارضة تصدر عنه .

ان الملاحظات التالية عن هانز تغطى الفترة من أول مارس الى السابع عشر من نفس الشهر . أما الفترة الفاصلة ، والتى تزيد عن الشهر ، فسوف نتبين فى التو أمرها .

* * *

وان تبصير (١) هانز قد أعقبته فترة من الهدوء النسبى ، كان من الممكن خلالها الخروج به دون صعوبة كبيرة فى نزهته اليومية الى شتاربارك . وخوفه من الاحصنة تحول أكثر فأكثر الى قهـر قوامـه النظر الى الاحصنة . قال : « يتحتم على أن أنظر الى الاحصنة ، وعندئذ أرتعب » .

وبعد نوبة من الأنفلونزا ألزمته الفراش أسبوعين ، ازدادت

(١) فيما يتصل بدلالة حصره ، وليس فيما يتصل بأن النساء ليست لهن حمامة .

الفوبيا عنده من جديد الى درجة من الشدة بحيث لم يعد من الممكن حمله على الخروج ، وفى خير الحالات يخرج الى الشرفة • فى كل يوم من أيام الآحاد كان يذهب معى الى لاينتس(١) ، ففى يوم الأحد لاتكون العربات كثيرة فى الطرقات ، والمسافة قصيرة الى المحطة وفى لاينتس كان يرفض الخروج الى النزهة خارج الحديقة ، لأن عربة كانت تقف أمام الحديقة • وبعد أسبوع آخر ، كان عليه فيه أن يلزم البيت بسبب عملية استئصال اللوزتين ، أصبحت الفوبيا من جديد أكثر سوءا بكثير • صحيح أنه كان يخرج الى الشرفة ، ولكنه لم يكن يخرج الى النزهة • فهو لايكاد يبلغ باب الطريق حتى يستدير عائدا فى سرعة •

وفى يوم الأحد ، الأول من مارس ، جرت المحادثة التالية فى طريقنا الى المحطة • كنت من جديد أحاول أن أبين له أن الأحصنة لاتعض • هو « ولكن الأحصنة البيضاء تعض • ففى جموندن حصان أبيض يعض • لو تضع اصبعك عنده يعض • » (أدهشنى أن يقول « اصبع » بدلا من « يد » •)

ثم روى لى الحكاية التالية التى أوردها هنا فى صورة مترابطة : « عندما كان على ليتزى Lizzi أن ترحل ، كانت هناك عربة بحصان أبيض أمام البيت لتحمل امتعتها الى المحطة • » (قال لى أن ليتزى بنت صغيرة تسكن فى بيت مجاور) • « كان أبوها يقف الى جانب الحصان عندما أدار الحصان رأسه (ليلمسه) فقال لليتزى : لاتضعى اصبعك عند الحصان الأبيض والايعضك (٢) (وعندئذ قلت) « هل

---

(١) ضاحية من ضواحى فينا (لاتقع بعيدة عن شونبرون) حيث كان يعيش جد هانز وجدته •

(٢) قارن كلمات ـ سؤاله الام Gibst du vielleicht die Hand Zum Wiwimacher ? (هل تضع يدك عند حمامتك ؟) مع كلمات التحذير التى قالها أبو ليتزى Gieb nichte die Finger Zum Wessen Pferd (لاتضعى أصبعك عند الحصان الابيض) ـ هامش الترجمة الفرنسية •

تعرف ، أن مايبدو لى هو أنك تتحدث لا عن حصان بل عن حمامة لاينبغى وضع اليد عندها . »

هو — ولكن الحمامة لاتعض .
أنا — ربما تعض مع ذلك .

ثم راح فى حماسة يحاول أن يدلل لى على أن الأمر كان يتعلق فعلا بحصان أبيض (١) .

وفى الثانى من شهر مارس ، اذ كشف من جديد عن علامات تدل على أنه خائف ، قلت له : « هل تعرف ؟ أن الحماقة » (فكذلك كان يسمى الفوبيا التى عنده) « سوف تتحسن لو أنك خرجت أكثر للنزهة فهى الآن فى هذه الحالة من السوء لأنك لم تكن قادرا على أن تخرج اذ كنت مريضا » .

هو — أو ، كلا فهى فى هذه الحالة من السوء لأنى مازلت أضع يدى عند حمامتى فى كل ليلة .

فالطبيب والمريض ، الأب والأبن ، يتفقان اذن فى نسبة الدور الرئيسى ، من بين العوامل المولدة للمرض فى الحالة الراهنة لهانز ، الى عادة الاستمناء . ومع ذلك فقد كانت هناك أيضا — علامات تدل على وجود عوامل أخرى لها أهميتها .

وفى الثالث من شهر مارس جاءتنا خادمة جديدة ، سر لها هانز بصفة خاصة . أنها تتركه يعتلى ظهرها وهى تعكف على تنظيف الأرضية ،

(١) لم يكن هناك من سبب يحمل أبا هانز على يشك فى واقعية الحدث الذى كان يصفه الصبى — ويمكننى أن أضيف أن أحاسيس «الأكلان» فى حشفة القضيب والتى تحمل الاطفال على لمسه ، عادة ما يصفونها فى الالمانية Es beisst mich أنه يعضنى) . وفى العربية (بياكلنى) — المترجمون .

ومن هنا فانه يناديها دائما « حصانى » ، ويشدها من ملابسها وهو يصبح « شى ! » وفى العاشر من شهر مارس تقريبا قال لهذه الخادمة: « لو فعلت هذا الشىء أو ذاك فسيكون عليك أن تنزعى كل ملابسك ، بل وأن تنزعى ملابسك الداخلية أيضا » • (كان يفهم ذلك على أنه عقوبة ، ولكن من اليسير أن نتبين الرغبة التى تكمن وراء ذلك •)

هى — وفيم يضايقنى ذلك ؟ سأقول فقط لنفسى ليس لدى أية نقود لأشترى ملابس •

هو — ولكن سيكون هذا مخجلا ، اذ يرى الناس عندئذ حمامتك •

وهنا نجدنا من جديد أمام نفس الاستطلاعية ، وقد اتجهت الى موضوع جديد وقد تنكرت (بما يلائم فترة الكبت) فى ثياب مهذبة •

وفى صباح الثالث عشر من شهر مارس قلت لهانز : « هل تعرف لو أنك لاتضع يدك بعد الآن عند حمامتك فان الحماقة التى عندك سوف تتحسن بسرعة » •

هانز — ولكنى لم أعد أضع يدى أبدا عند حمامتى •

أنا — ولكنك مازلت ترغب فى ذلك •

هانز — نعم ، انى أرغب • ولكن الرغبة غير الفعل ، والفعل غير الرغبة (! !) •

أنا — حسنا ولكن لكى تمنع رغبتك فى ذلك فسيكون لديك هذا المساء كيس لتنام فيه •

وبعد ذلك خرجنا أمام المنزل • كان هانز مايزال خائفا ، ولكن معنويته كانت قد ارتفعت بشكل واضح بفضل مايتوقع من المساندة

التى يلقاها فى صراعة ، وقال : « أوه ، لأن لدى هذا المساء كيسا لانام فيه فإن الحماقة ستكون قد اختفت مع الغد » . وفى الواقع فان خوفه من الأحصنة كان أقل بكثير ، وكان هادئا بدرجة كافية والعربات تمضى من أمامه .

كان هانز قد وعدنى بالذهاب معى الى لاينتس فى الأحد القادم ، الخامس عشر من شهر مارس . قاوم فى البداية ، ولكنه فى نهاية الأمر ذهب معى . كان من الواضح أنه على مايرام فى الطريق ، اذ لم تكن هناك عربات كثيرة ، وقال «يالفطنة الله ! لقد أقصى الآن كل الاحصنة » . وفى الطريق أخذت أشرح له أن أخته ليس لها حمامة مثل حمامته . قلت له أن البنات الصغيرات والنساء ليس لهن حمامة : فما ما ليس لها ، وهنه ليس لها ، وهكذا .

هانز — وأنت هل لك حمامة ؟

أنا — طبعا . ماذا كنت تعتقد اذن ؟

هانز (بعد برهة) — ولكن البنات الصغيرات كيف تطرطر ان لم يكن لها حمامة ؟

أنا — البنات ليس لهن حمامة مثل حمامتك . ألم تلاحظ ذلك من قبل عندما كانت ماما تعطى هنه حمامها ؟

كان طوال النهار يتمتع بمعنوية عالية جدا ، فكان يتزحلق وما الى ذلك . ولكن قرب المساء فقط عاوده الاكتئاب وبدأ عليه الخوف من الأحصنة .

فى ذلك المساء كانت نوبتة العصبية وحاجته الى أن « يتدلع » أقل بروزا بالقياس الى الأيام السابقة . وفى اليوم التالى أخذته أمه معها فى المدينة ، وكان شديد الارتعاب فى الطرقات . وفى اليوم التالى

بقى فى المنزل ، وكان شديد المرح • وفى صباح اليوم الثالث استيقظ فى السادسة تقريبا وهو فى حالة ارتعاب • وعندما سئل ما الأمر ، قال : « وضعت اصبعى ، ولكن مجرد برهة قصيرة جدا ، عند حمامتى عندئذ رأيت ماما عارية تماما فى قميصها ، وقد تركتنى أرى حمامتها • وقد رأيت جريتا (١) ، جرتيتى ، ما كانت تفعله ماما ، وأريتها حمامتى ثم أبعدت يدى بعد ذلك بسرعة عن حمامتى • » وعندما اعترضت بانه يعنى فقط « فى قميصها » أو « عارية تماما » ، قال هانز : « كانت فى قميصها ، ولكن القميص كان من القصر بحيث رأيت حمامتها • »

لم يكن ذلك على الاطلاق حلما ، بل أخيولة استمنائية ، كانت مع ذلك مكافئة للحلم • فان هذا الذى جعل أمه تفعله كان يستهدف من ورائه بكل وضوح تبريرا لنفسه : « مادامت ماما تعرض حمامتها ، فمن حقى أنا أيضا أن أفعل ذلك • »

وبوسعنا أن نتبين أمرين من هذه الأخيولة • اولهما أن توبنجات أمه كان لها ، فى الوقت الذى تمت فيه ، أثرها البالغ على هانز ، وثانيهما أن التبصير الذى أتيح له من أن النساء ليس لهن حمامة ، لم يتقبله هانز فى البداية • فقد أحزنه أن يكون الأمر كذلك وتشبث فى أخيولته برأيه السابق • وربما كانت لديه أيضا من الأسباب مايجعله يرفض فى البداية تصديق أبيه •

* * *

تقرير أسبوعى من أبى هانز : « استاذى العزيز ، أبعث اليك طيه بما تلا من قصة هانز — انهـا حلقة عظيمة الأهمية • وربمـا استبيح لنفسى أن أقوم بزيارتك فى العيادة يوم الاثنين ألقـادم وأن أحضر معى — ان استطعت ذلك — هانز ، شريطة أن يرغب حقا فى أن

---

(١) جريتا هي احدى البنات الصغيرات فى جموندن ، وحولها تـدور الآن أخاييل هانز فهو يتحدث اليها ويلعب معها •

يحضر • قلت له اليوم : « هل ترغب فى أن تذهب معى يوم الاثنين الى الأستاذ الـذى يستطيـع أن يخلصك من « الحماقة » ، التى لديك ؟ »

هو ـــ لا

أنا ـــ ولكن لديه بنتا صغيرة جميلة جدا • (وعندئذ وافق هانز فى التو وهو مسرور •)

الأحد ، الثانى والعشرون من مارس • ورغبة منى فى أن يمتـد برنامج الأحد اقترحت على هانز أن نذهب أولا الى شونبرون ،ومن هناك نذهب فى منتصف النهار الى لاينتس •ومن ثم يكون عليه أن يسـير ليس فقط من بيتنا الى محطة الجمارك المركزية فى شتادبان (١) ، بل أيضا من محطة هيتزنج الى شونبرون ، ثم من هناك من جـديد الى محطة الترام البخارى فى هيزنج • وقد استطاع أن ينجز هذا كله ، محولا عينيه بعيدا فى سرعة كلما مرت به أحصنة اذ كان يستشعر بالطبع الخوف • وهو فى تحويله عينيه بعيدا كان يتبع نصيحة زودته بها أمه •

وفى شونبرون استشعر الخوف من بعض الحيوانات التى كـان يشهدها من قبل دون أدنى خوف ـــ ومن ثم فقد رفض بشكل قاطع أن يذهب الى بيت الزرافـة ، كمـا رفض أيضا أن يذهب الى الفيـل الذى اعتاد من قبل أن يجد عنده تسلية كبيرة • كان يستشعر الخوف من كل الحيوانات الكبيرة ، بينما كان يجد تسلية عظيمة فى الحيوانات الصغيرة • ومن بين الطيور استشعر فى هذه المرة الخوف من البجع ـــ الأمر الذى لم يحدث قط من قبل ـــ وذلك بالطبع بسبب حجمها أيضا

---

(١) محطة الجمارك المركزية لسكك حديد فينا ، المحلية والخاصة بالضواحى وهيتزنج ضاحية مجاورة لقصر شونبرون ـ هامش الترجمة الانجليزية •

عندئذ قلت له : « هل تعرف لـم تخاف من الحيوانات الكبيرة » أن الحيوانات الكبيرة لها حمامة كبيرة ، فأنت فى الواقع تخاف من الحمامة الكبيرة .

هانز — ولكنى لم أر حتى الآن حمامة الحيوانات الكبيرة (١) .

أنا — ولكنك رأيت حمامة الحصان والحصان بالطبع حيوان كبير .

هانز — أوه ، حمامة الحصان كثيرا . مرة فى جموندن عندما كانت العربة تقف أمـام الباب ، ومـرة أخرى أمـام محطة الجمارك المركزية .

أنا — عندما كنت صغيرا ، يغلب أن تكون قد ذهبت الى اسطبل فى جموندن ...

هانز (مقاطعا) — نعم ، كنت أذهب الى الاسطبل يوميا فى جموندن عندما تعود الأحصنة .

أنا — .. ويغلب أن تكون قـد ارتعبت ذات مـرة عندما رأيت حمامة الحصان الكبيرة . ولكن ليس لك أن تخاف منها . الحيوانات الكبيرة لها حمامة كبيرة ، والحيوانات الصغيرة لها حمامة صغيرة .

هانز — وكل واحد له حمامه . وحمامتى سوف تكبر عندما أكبر ، لأنها ثابتة فى مكانها بكل تأكيد .

وهنا بلغ الحديث نهايته . وخلال الأيام القليلة التالية ، بدت مخاوفه وكأنها ازدادت من جديد بعض الشىء . كان يجترىء بالكاد

---

(١) لم يكن ذلك صحيحا . أنظر تعجبه أمام قفص الاسد (ص١٨٣) . وربما كان ذلك بداية الامنيزيا (النسيان) الناجمة عن الكبت .

على الخروج أمام الباب الأمامى ، وهو الذى كان يؤخذ اليه بعد الغداء •

أن الكلمات الأخيرة من العزاء التى يوجهها هانز الى نفسه تلقى ضوءا على الموقف ، وتتيح لنا أن نجرى فى تأكيدات أبيه بعض التصحيحات • صحيح أن هانز كان يخاف من الحيوانات الكبيرة اذ كان يتحتم عليه أن يفكر فى حمامتها الكبيرة • ولكن لايمكن القول فى الواقع أنه كان يخاف من الحمامة الكبيرة فى ذاتها • ففكرة الحمامة الكبيرة كانت فيما مضى بالنسبة اليه فكرة سارة بلا جدال ، وكان من عادته أن يبذل كل جهده ليتاح له أن يلمح واحدة • ومنذ ذلك الوقت ضاعت هذه المتعة بالنسبة اليه ، بسبب الانقلاب العام للذة الى ألم ، الذى اجتاح كل تقصياته الجنسية — بطريقة لم يتم بعد تفسيرها — وأيضا بتسبب شىء نعرفه بشكل أوضح ، هو على التحديد خبرات وأفكار معينة كانت قد انتهت الى نتائج أليمة • وبوسعنا أن نستخلص من كلمات العزاء التى وجهها لنفسه (« حمامتى سوف تكبر عندما أكبر ») أنه كان دائما أثناء مشاهداته يعقد المقارنة ، وأنه استمر بعيدا كل البعد عن أن يرضى عن حجم حمامته • كانت الحيوانات الكبيرة تذكره بهذا القصور ، وكانت من أجل هذا السبب كريهة بالنسبة اليه • ولكن بالنظر الى أن هذه السلسلة الكلية للافكار لم تكن تستطيع ، فيما يحتمل ، أن تصبح شعورية تماما ، فان هذا الشعور الأليم هو الآخر قد تحول الى حصر ، بحيث يكون الحصر الحالى عند هانز قد تشيد على الأمرين كليهما : لذاته السابقة وألمه الحالى ، فمتى قامت مرة حالة حصر ، فان الحصر يبتلع كل المشاعر الأخرى ، فكلما تقدم الكبت ، وكلما ازدادت هذه الأفكار المشحونة بالوجدانات ، والتى كانت شعورية ، انزلاقا فى اللاشعور ، يكون بوسع جميع الوجدانات أن تتحول الى حصر •

وملاحظة هانز الفريدة : « لأنها ثابتة فى مكانها » تتيح لنا بالرجوع الى جملة ماقاله على سبيل العزاء ، أن نحدس كثرة من الأشياء التى

لم يكن بوسعه أن يعبر عنها فى كلمات ، بل التى لم يعبر عنها خلال هذا التحليل • وسوف أسد هذه الثغرة بعض الشيء ، استنادا ألى الخبرة التى حصلت عليها من تحليلى للراشدين ، ولكنى آمل أن لايعتبر تأويلى هذا من قبيل الاقحام أو التعسف • فاذا كان الدافع الى هذه الفكرة : « لأنها ثابتة فى مكانها » هو العزاء والتحدى ، فاننا نذكر ذلك التهديد الذى تلقاه هانز من أمه ، عندما قالت له أنها سوف تبعث فى طلب من يقطع له « حمامته » ان هو استمر فى العبث بها • وفى الوقت الذى وقع فيه هذا التهديد ، عندما كان هانز فى الثالثة والنصف ، لم يتمخض التهديد عن شىء • فقد أجابها فى هدوء أنه عندئذ سوف يطرطر « بمؤخرته » (ص ١٨٢) فاذا كان تهديد الخصاء يفعل فعله الآن بشكل آجل ، واذا كان هانز الآن ، بعد عام وثلاثة أشهر فريسة الحصر من أن يفقد هذا الجزء الثمين من أناه ، فتلك ظاهرة نمطية بأكمل ماتكون النمطية • وفى حالات مرضية أخرى نستطيع أن نلاحظ مثل هذا التأثير الآجل لتهديدات وأوامر من عهد الطفولة ، حيث تمتد الفترة الزمنية الفاصلة عشرات من السنين أو أكثر ، بل أننى أعرف حالات كانت فيها « الطاعة الآجلة » بتأثير الكبت تضطلع بدور أساسى فى تحديد أعراض المرض •

والتبصر الذى زود به هانز أخيرا ، من أن النساء ليس لهن حمامة ، لايمكن الا أن يكون قد زعزع ثقته فى نفسه وأيقظ عنده عقدة خصائه • لهذا السبب كان تمرده على هذا التبصير ، ولهذا ولهذا السبب لم يتمخض التبصير عن شىء • أمن الممكن أن توجد حقا فى الواقع كائنات حية ليس لها حمامة ؟ لو كان الامر كذلك فلن يكون بعدبعيد على التصديق أن يستطيعوا انتزاع حمامته ، وتحويله ان جاز القول الى امرأة ! (١) •

* * *

(١) ليس لى أن أقطع هنا تتابع الوقائع لابين الطابع النمطى لهذه السلسلة من الافكار اللاشعورية التى أعتقد أن ثمة مايبرر هنا نسبتها الى =

وخلال ليلة السابع والعشرين الى الثامن والعشرين فجأنا هانز بخروجه من فراشه والظلام دامس وبقدومه الى فراشنا • ثمة غرفة صغيرة تفصل غرفته عن غرفتنا • سألناه عن السبب : ربما يكون قد شعر بالخوف • قال : « كلا ، سأخبركما غدا » ومضى ينام فى فراشنا ، ثم حملناه بعد ذلك الى فراشه •

وفى اليوم التالى قمت باستجوابه بشكل دقيق لاتبين سبب قدومه الينا أثناء الليل ، وبعد شىء من التردد جرى الحوار التالى الذى قمت على الفور بتدوينه بالاختزال :

هو — فى الليل كانت فى الغرفة زرافة كبيرة وزرافة مكموشة ، وكانت الزرافة الكبيرة تصيح لأننى أخذت منها الزرافة المكموشة • ثم توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح : وعندئذ جلست فوق الزرافة المكموشة •

أنا (متحيرا) — ماذا ؟ زرافة مكموشة ؟ كيف كان ذلك ؟

هو — نعم • (وبسرعة فتش عن قطعة ورق وكمشها وقال :) كانت مكموشة هكذا •

أنا — وأنت جلست فوق الزرافة المكموشة ؟ كيف ؟

هانز • أن عقدة الخصاء هى اعمق اصل لاشعورى للعداء ضد السامية ، فحتى الحضانة يسمع الصبية الصغار أن هناك شيئا مقطوعا عند اليهودى من قضيبه — قطعة من القضيب كما تظنون — وذلك يخولهم الحق فى احتقار اليهود • وليس هناك من أصل لاشعورى آخر أقوى من ذلك للاحساس بالتفوق على النساء • لقد عامل فاينجر (وهو الفيلسوف الشاب ، ذو المواهب الرفيعة وأن تكن جنسيته مختلة ، والذى انتحر بعد أن فرغ من كتابه « الجنس والخلق ») ، فى فصل حظى باهتمام شديد ، اليهود والنساء بنفس الكراهية ، وصب على الفريقين نفس اللعنات ، كان فاينجر كعصابى تحكمه عقدة الطفلية ، ومن وجهة النظر هذه يكون المشترك بين اليهود والنساء هو العلاقة التى تربطهم بعقدة الخصاء •

ومن جديد أوضح لى الأمر بأن جلس على الأرض .

« أنا — ولماذا جئت الى غرفتنا ،

هو — أنا لاأعرف أنا نفسى .

أنا — هل كنت تشعر بالخوف ؟

هو — لا ، بالتأكيد لا . ،

أنا — هل كنت تحلم بالزرافة ؛

هو — أنا لم أحلم . أنا تخيلت ذلك . أنا تخيلت ذلك كله . كنت قد استيقظت قبل ذلك .

أنا — ماذا يمكن أن تعنى : زرافة مكموشة ؛ فأنت تعرف مع ذلك أنك لاتستطيع أن تكمش فى قبضة اليد زرافة كما تفعل بقطعة من الورق .

هو — أنا أعرف ذلك بالطبع . ولكنى فقط تخيلتها . فليس لهـا بالطبع من وجود فى الواقع (١) . كانت الزرافة المكموشة راقدة تماما على الأرض ، وأنا أخذتها بعيدا — قبضت عليها بيدى .

أنا — ماذا ؟ أتستطيع أن تقبض على زرافة كبيرة بهذا الشكل بيديك ؟

هو — قبضت على الزرافة المكموشة بيدى .

أنا — أين كانت الزرافة الكبيرة فى تلك الأثناء ؟

(١) بلغته الخاصة ، كان هانز يقول بشكل قاطع أن الامر كان أخيولة .

هو — ان الزرافة الكبيرة وقفت ببساطة بعيدا •

أنا — وماذا فعلت بالزرافة المكموشة ؟

هو — أمسكت بها فى يدى برهة ، الى أن توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح • وعندما توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح ، جلست فوق الزرافة المكموشة •

أنا — ولماذا كانت الزرافة الكبيرة تصيح ؟

هو — لأننى كنت قد أخذت منها الزرافة الصغيرة • (وتتبـــه الى أننى أدون كل شىء فسأل :) لماذا تدون ذلك ؟

أنا — لأننى سوف أبعث به الى أستاذ يستطيع أن يخلصك من الحماقة ، التى لديك •

هو — أوه ! وعلى ذلك فقد دونت أيضا أن ماما خلعت قميصها ، وسوف تبعث بذلك أيضا الى الأستاذ •

أنا — نعم • ولكنه لن يفهم كيف يمكنك أن تتخيل أن الزرافة يمكن كمشها •

هو — قل له ببساطة اننى لاأعرف أنا نفسى ، وعندئذ فلن يسأل • فاذا تساءل مع ذلك عن الزرافة المكموشة ماهى ، فبوسعه عندئذ أن يكتب لنا ، ونستطيع أن نرد عليه ، أو فلنكتب اليه الآن على الفور بأننى لاأعرف أنا نفسى •

أنا — ولكن لماذا جئت الينا أثناء الليل ؟

هو — أنا لا أعرف •

أنا — قل لى بسرعة فى أى شىء تفكر •

هو (بمازحا) — فى شراب التوت •

أنا — وفى أى شىء آخر •
هو — وفى بندقية لأقتل بها الناس (١)
رغبتان لديه •

أنا — هل أنت متأكد أنك لم تحلم بذلك ؟

هو — بالتأكيد لا • اننى متأكد تماما من ذلك • (واستطرد :) رجتنى مـامـا طويلا أن أخبرها عن سبب مجيئى اليكما أثناء الليل • ولكنى لم أرغب فى أن أخبرها ، لأننى أولا شعرت بالخزى مع مـاما •

أنا — لماذا ؟

هو — أنا لاأعرف •

والواقع أن زوجتى استجوبته طوال الصباح حتى أخبرها بقصة الزراف •

وفى نفس ذلك اليوم اكتشف الأب حل أخيولة الزراف •

الزرافة الكبيرة هى أنا نفسى ، أو بالحـــرى قضيبـــى الـكبير (الرقبة الطويلة) ، والزرافة المكوشة هى زوجتى ، أو بالحرى عضوها التناسلى • ومن هنا فالأخيولة هى نتيجة التبصير الذى حصل عليه •

الزرافة : أرجع الى النزهة فى شونبرون • أضف الى ذلك أنه كانت لديه صورة لزرافة وفيل معلقة فوق فراشه •

---

(١) عند هذه النقطة كان ابوه ، فى حيرته ، يحاول أن يمارس الفنيات الكلاسيكية للتحليل النفسى • ذلك لم يتمخض عن شىء كثير ، ولكن النتاج، على نحو ماكان عليه ، يمكن أن نتبين دلالته فى ضوء الكشوف اللاحقة •.

والأمر كله هو استعادة لمشهد. كان يجرى صباحا تقريبا أثناء الأيام القليلة الأخيرة • هانز يأتى دائما الينا فى الصباح الباكر ، وزوجتى لاتستطيع أن تقاوم أخذه معها لبضعة دقائق فى فراشها • وعندئذ أبدأ دائما فى أن احذرها من أخذه معها فى فراشها (« ان الزرافة الكبيرة كانت تصيح لأننى كنت قد أخذت منها الزرافة المكموشة • ») ، وتجيب زوجتى بين حين وآخر ، وهى أدنى الى الاحتداد بأن هذا سخف ، وأن دقيقة واحدة لاخطر منها فى نهاية الأمر ، وما الى ذلك • وعندئذ يمكث هانز معها برهة قصيرة • (« ثم توقفت الزرافة الكبيرة عن الصياح ، وعندئذ جلست فوق الزرافة المكموشة • »)

وهكذا فان تفسير هذا المشهد الزواجى ، منقولا الى حياة الزراف، هى كما يلى : استبد به أثناء الليل حنين الى أمه ، الى تربيتاتها ، الى عضوها التناسلى ، فحضر الى غرفة نومها بسبب ذلك • والأمر كله استمرار لخوفه من الأحصنة •

وليس لدى ماأضيفه الى تفسير أبيه النفاذ غير هذا : ان « الجلوس فوق » ربما كان تصور هانز للامتلاك (١) • ولكن الأمر كله كان أخيولة من التحدى تتعلق باغتباطه لانتصاره على مقاومة أبيه • « فلتمض فى الصياح ماشئت ! فان ماما مع ذلك تأخذنى فى فراشها ، وماما ملكى أنا ! » ومن هنا يكون من المعقول أن يتجه ظننا ، كما اتجه ظن أبيه ، الى أن الأخيولة يكمن وراءها خوف من أن لاتحبه أمه ، لان حمامته لم تكن تضاهى حمامة أبيه •

وفى الصباح التالى استطاع أبوه أن يحصل على مايؤكد صحة تفسيره •

---

(١) قارن الاشتقاق فى الكلمتين الالمانيتين hesitzen أن يمتلك sitzens أن يجلس ، أن الكلمة الالمانية للامتلاك Besitz تكشف عن ارتباطها من حيث الأصل الاشتقاقى بالعبارة التى استخدمها هانز الصغير : tich draufsetzen قارن فى العربية بداية الملك بجلوس الملك على العرش ، وفى الريف الجلوس على الارض امتلاكها

فى يوم الأحد ، التاسع والعشرين من مارس ، ذهبت مع هانز الى لاينتس • وعند الباب استأذنت زوجتى فى الانصراف مداعبا بهذه الكلمات : « الى اللقاء ، أيتها الزرافة الكبيرة ! » وتساءل هانز : « زرافة ! لماذا ؟ » فأجبته : « ماما هى الزرافة الكبيرة » ، وعندئذ أضاف هانز : « أوه حقا ! ومنه هى الزرافة المكموشة ، أليست كذلك ؟ »

وفى القطار قمت بتفسير أخيولة الزراف لهانز ، وعندئذ قال : « نعم ، هذا صحيح • » وعندما قلت له ان الزرافة الكبيرة هى أنا نفسى ، وأن رقبتها الطويلة ذكرته بحمامة ، قال : ماما لها رقبة كالزرافة أيضا • فقد رأيت وهى تستحم رقبتها البيضاء (١) » •

وفى صباح يوم الاثنين ، الثلاثين من مارس ، جاءنى هانز وقال : « هل تعرف ؟ لقد تخيلت أمرين هذا الصباح ! » « ماذا كان الأمر الأول ؟ » « كنت معك فى شونبرون فى منطقه الخر ف ، وعندئذ تسللنا الى الداخل من تحت الحبال ، وبعدئذ أخبرنا بذلك رجل البوليس الذى يوجد عند نهاية الحديقة ، فقبض علينا ومضى بنا » ونسى هانز الأمر الثانى •

وانى أضيف الى ذلك الملاحظة التالية • عندما أردنا يوم الأحد التفرج على الخراف ، وجدنا تلك المنطقة من الحديقة مقفلة بالحبال ، بحيث استحال علينا الوصول الى الخراف • وكان هانز شديد الدهشة جدا من أن المنطقة ليست مقفلة الا بحاجز من الحبال ، يسهل تماما التسلل من تحته • فقلت له ان الناس المحترمين لايتسللون من تحت الحبال • فقال أن التسلل سهل تماما ، وكان ردى على ذلك أن رجل البوليس يمكن أن يمر وعندئذ يقبض على الشخص ويمضى به • وعند

---

(١) اقتصر هانز فقط على تأييد تفسير الزرافتين بوصفهما أباه وأمه، دون تأييد الرمزية الجنسية ، التى يحسبها تمثل الزرافة نفسها القضيب • وهذه الرمزية هى ولاشك صحيحة • ولكننا فى الواقع ليس لنا أن نقتضى من هانز أكثر من ذلك •

مدخل شونبرون يقف رجل بوليس من الحرس ، وكنت قد أخبرت هانز مرة أن هذا الرجل يقبض على الاطفال الاشقياء •

وبعد أن عدنا من زيارتنا تلك ، وهى التى قمنا بها فى نفس ذلك اليوم ، اعترف هانز أيضا برغبة لدية فى عمل شىء ممنوع : « هـــل تعرف ؟ لقد تخيلت من جديد شيئا آخر هذا الصباح • » « ماهو ؟ » « ذهبت معك فى القطار ، وحطمنا زجاج نافذة ، فقبض علينا رجل البوليس ومضى بنا •

وها هو تواصل ، أعظم مايكون مسايرة لأخيولة الزرافة ، كان عند هانز ظن بأن امتلاك المرء لأمه ممنوع ، فقـــد اصطدم بحـــاجز المحارم • ولكنه كان ينظر الى الامر بوصفه ممنوعا فى حـــد ذاته • ومن هنا كان أبوه معه دائما فى المغامرات الممنوعة التى يعيشها فى أخاييله ، وكان يقبض عليه معه ، فقد كان أبوه فى تصوره يرتكب هو الأخر مع ماما ذلك الشىء الممنوع الغامض ، الذى أحل محله أفعال العنف ، من قبيل تحطيم زجاج نافذة أو شق الطريق عنوة داخل منطقة مقفلة •

فى عصر ذلك اليوم زارنى الأب وأبنه أثناء عملى بالعيادة • كنت أعرف من قبل هذا الفتى الصغير العجيب ، الذى كان رغـــم كـــل اعتزازه بنفسه لطيفا الى حد أننى كنت أسعد فى كل مرة برؤيته • لست أدرى ماأن يذكرنى ، ولكنه كان يسلك ســـلوكا لاغبـــار عليه • تماما كما يسلك عضو مكتمل العقل من أعضاء الجماعة البشـــرية • كانت الجلسة قصيرة • استهلها أبوه بأن قال أنه على الرغم من كـــل التبصيرات التى زودنا بها هانز ، فان خوفه من الأحصنة لم يتضاءل بعد • وكان علينا أيضا أن نعترف بأن العلاقات لم تكن الا جد ضئيلة بين الأحصنة التى يخافها ومشاعره العاطفية التى تكشفت تجاه أمه • وثمة تفاصيل معينة عرفتها الآن — من أنه كان يتضايق بنوع خاص من هذا الذى تحمله الأحصنة حول عيونها ومن هذا الأسود حـــول أفواهها — لم يكن من الممكن بالتأكيد تفسيرها استنادا الى ماكنـــا

نعرفه • ولكنى بينما كنت أنظر اليهما وهما يجلسان أمامى ، واستمع فى نفس الوقت الى وصف هانز لأحصنة حصــره ، قفزت الى رأسى قطعة أخرى من الحل ، وهى قطعه استطيع جيدا أن أفهم كيف يمكن أن تقلت من أبيه • سألت هانز مداعبا ما أن كانت أحصنتة تلبس نظارات، وقد أجابنى على ذلك بأن لا • وعندئذ سألته ما أن كان أبوه يلبس نظارات ، وقد أجابنى على ذلك أيضا ، على الرغم من كل الواقــع الساطع ، بأن لا • وأخيرا سألته ما أن كان « بالأسود حول الأفواه » يعنى شاربا ؛ ثم أبنت له أنه يخاف من أبيه لأنه (أى هانز) على وجه الدقة جد مغرم بأمه • وأخبرته أنه لابد وأن يكون قد تصور أن أباه غاضب منه لهذا السبب ، وبوسعه (أى هانز) دون أى خوف أن يفضى اليه بأى شىء ، ومضيت أقول أنه قبل أن يولــد بوقت طويل ، كنت أعرف أن هانز صغيرا سوف يولد ويكون جد مغرم بأمه الى حد أنه يجد نفسه مرغما على أن يستشعر الخوف من أبيه بسبب هــذا الغرام ، وقد أخبرت أباه بذلك • وعند هذه النقطــة قاطعنى أبــوه قائلا : « ولكن لماذا تتصور أننى غاضب منك ؟ هل حــدث قط أننى وبختك أو ضربتك ؟ » فأجاب الصغير : « هذا الصباح • » ، وتذكر أبوه أن هانز كان قد نطحه برأسه فى بطنه على حين فجأة تماما الى حد أن الأب ــ فى صورة رد فعل ــ ضربه بيده • ومما تجدر الاشارة اليه أن الأب قد فاته أن يسجل هذه الواقعة ضمن الوحدة الكلية للعصاب ، ولكنه الآن قد تبينها بوصفها تعبيرا عن نزعة الصبى الصغير العدوانية تجاهه ، وربما بوصفها أيضا تعبيرا عن حاجته الى العقوبة على هذه العدوانية (١) •

وفى طريقنا الى البيت سأل هانز أباه : « هل يتحدث الأستاذ مع الله بحيث يستطيع أن يعرف كل هذا قبل وقوعه » ، وكنت أكون جد

---

(١) وفيما بعد كرر الصبى هذا السلوك تجاه أبيه ، وأن يكن فى صورة أوضح واكمل ، ذلك أنه كان يبدأ فيضرب أباه على يده ، ثم يقبل بعــد ذلك فى حنان نفس هذه اليد

فخور بهذه الشهادة التى تجىء على لسان طفل ، لو لم أكن قد استثرتها أنا نفسى بتفاخرى فى دعابة .

ومنذ تاريخ هذه الزيارة كنت أتلقى فى العادة تقريرات يومية عن التغييرات التى تطرأ على حالة المريض الصغير . لم يكن لنا أن نتوقع أن يتخلص هانز من قلقه دفعة واحدة بفعل التبصيرات التى زودته بها ، ولكن غدا من الواضح أن الامكانية قد انفتحت أمامه الآن كيما يخرج الى النور نتاجاته اللاشعورية ، وكيما يصفى الفوبيا التى لديه . ومنذ ذلك التاريخ وصاعدا مضى فى برنامج أمكننى أن أفصح عنه مقدما لأبيه .

اليوم الثانى من ابريل . أول تحسن حقيقى يتم تسجيله بينما كان من غير الممكن من قبل حمله على أن يخرج من الباب الخارجى ويبقى أمامه لبعض الوقت ، وكان كلما اقتربت الأحصنة يجرى دائما عائدا الى داخل البيت ، وقد ارتسمت عليه كل علامات الرعب ، فانه فى هذه المرة بقى أمام الباب الخارجى مدة ساعة — حتى أثناء مرور العربات من أمامه ، الأمر الذى يحدث كثيرا فى شارعنا . وبين حين وحين كان يجرى الى داخل البيت عندما يرى عربة تقترب من بعيد ، ولكنه كان يدور فجأة على عقبيه وكأنه قد عدل عن رأيه . ومهما يكن من أمر ، لم يعد هناك غير بقية حصر ، والتقدم الذى طرأ منذ التبصيرات يستحيل تجاهله .

وفى المساء قال هانز : « مادمنا نذهب الآن الى أمام الباب الخارجى ، فسوف نذهب أيضا الى شتادبارك »

وفى صباح اليوم الثالث من ابريل دخل الفراش معى ، بينما كان فى الأيام القليلة الماضية قد توقف عن ذلك ، قد كان يبدو عليه أنه فخور بعدم فعله ذلك . وسألته : « ولماذا جئت اليوم ؟ »

هانز — عندما يذهب عنى الخوف لن أجىء أبدا .

أنا — واذن فأنت تجىء الى لأنك خائف !

هانز — عندما لاأكون معك أكون خائفا ، وعندما لاأكون معك فى الفراش فعندئذ أكون خائفا . وعندما يذهب عنى الخوف لن أجىء أبدا .

أنا — وعلى ذلك فأنت مغرم بى وتشعر بالخوف حين تكون فى فراشك فى الصباح ! وهذا هو السبب فى أنك تجىء الى ؟

هانز — نعم لماذا اذن قلت لى أنى مغرم بماما وأن هـذا هـو السبب فى خوفى ، بينما أنا مغرم بك ؟

هنا يكشف الصبى الصغير عن درجة من الوضوح غير مألوفة حقا . فهو يتيح لنا أن نتبين كيف أن حبه لأبيه كان يتصـارع مـع كراهيته لأبيه كمنافس مقتدر فيما يتصل بالأم ، وكان يلوم أباه على أنه لم يتجه بانتباهه بعد الى صراع القوى هذا ، وهو الصراع الذى كان لابد وأن يتمخض عن حصر . لم يكن أبوه قد بلغ بعد الى أن يفهمه فهما تاما ، ذلك انه أثناء هذا الحوار لم يبلغ الا الى أن يقنع نفسه بعدائية الصبى الصغير تجاهه ، وهى العـدائية التى قمت بتأكيد وجودها أثناء زيارتهما لى والحوار التالى ، الذى أقدمه مع ذلك دون أى تغيير ، هو فى الواقع بالنسبة الى تقديم التبصر عند الأب ، أكثر أهمية منه بالنسبة الى المريض الصغير .

ومن سوء الحظ أننى لم انتبه فى التو لمغزى هذا اللوم . فمادام هانز جد مغرم بأمه فقد كان من الواضح أنه يريد أن يقصينى عن طريقه ، وبذلك يأخذ مكان أبيه . هذه الرغبة العدائية المكبوحة تتحول الى حصر على أبيه ، وهو يجىء الى فى الصباح ليرى ما أن كنت قد رحلت . ولكن من سوء الحظ أننى لم أفهم ذلك وقتها وقلت له :

أنا — عندما تكون وحيدا تقلق على وتجىء الى غرفتى .

هانز ــ عندما تكون غائبا فانى أخاف أن لاتعود الى البيت •

أنا ــ هل سبق لى قط أننى هددتك بأنى لن أعود الى البيت ؟

« ــ أنت لا ، بل ماما • فقد قالت لى ماما انها لن تعــود الى البيت • (ربما بسبب شقاوته هددته بأن ترحل •)

« أنا ــ قالت ذلك بسبب ماكان من شقاوتك •

« هانز ــ نعم •

« أنا ــ وعلى ذلك فأنت خائف من أن أرحل بسبب ماكان من شقاوتك : وهذا هو السبب فى مجيئك الى غرفتى ،

« وعندما نهضت من المائدة بعد الافطار قال هانز : « بابا ، انتظر ، لاتقمص ، (١) مبتعدا عنى ! » وأدهشنى أن يقول تقمص بدلا من تجرى ، وأجبته : « أوه ، واذن فأنت تخاف من الحصان عنــدما يقمص مبتعدا عنك • » فضحك على أثر ذلك • »

نحن نعلم أن هذا الجانب من القلق المرضى عند هانز ينطوى على عنصرين مكونين : فهناك خوفه من أبيه ، وخوفه على أبيه • الخوف الأول يرجع الى عدائيته تجاه أبيه ، والخوف الثانى يرجع الى الصراع بين حبه ــ الذى تعرض عند هذه النقطة للمغالاة من قبيل التعويض — وكراهيته •

واسترسل الأب : « تلك ولاشك بداية مرحلة هامة • فهو اذن يجترىء ــ فى أحسن الحالات ــ على الخروج من البيت دون أن يبتعد

---

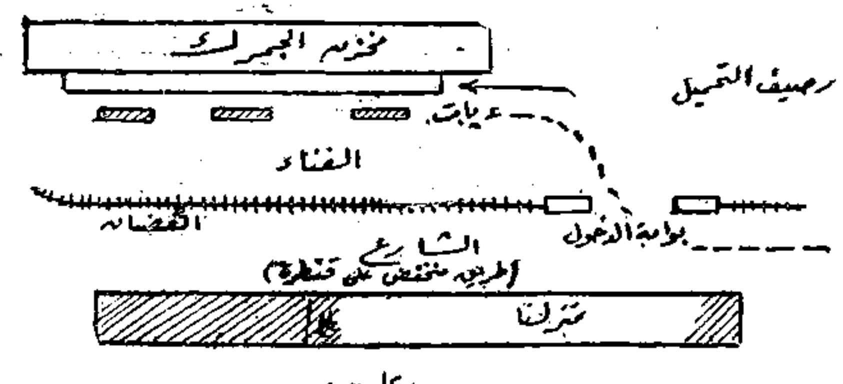
(١) القماص هو ما يخص جرى الخيل فى الانجليزية ، وفى الفرنسية • (المترجمون) •

عنه ، وأنى أن يدور على عقبيه من منتصف الطريق عندما تزحف عليه نوبه الحصر فدافعه الى ذلك كله هو خوفه من أن لايجد ابويه فى البيت لانهما رحلا بعيداً • فهو يبقى لصيقا بالبيت بسبب حبه لامـه ، وهو يخاف من أن ارحل عن البيت بسبب النزعات العدوانية التى يذكيها ضدى ، وذلك لانه بارتحالى يغدو هو الأب •

وأثناء الصيف اعتدت أن اتغيب بصفة مستمرة عن جموندن مرتحلا الى فينا بسبب أعمالى ، وكان هانز عندئذ هو الأب • وأنت تذكر أن خوفه من الأحصنة يرتبط بواقعة فى جموندن ، عندما كـان على حصان أن يحمل أمتعة ليتـزى Lizzi الى المحطـة • فالرغبة المكبوتة فى أن أتحرك بالعربة الى المحطة ، كيما يبقى منفردا بأمـه (هذه الرغبة فى أن « يتحرك الحصان ») قد تحولت الى خوف مـن أن يتحرك الحصان ، والواقع أن ما من شىء يثير فيه الرعب أكثـر من أن تهم بالتحرك عربة من فناء محطة الجمارك المركزية (التى تقع تماما فى مواجهة منزلنا) وتبدأ الأحصنة فى التحرك •

هذه المرحلة الجديدة (مشاعر العدائية تجاه أبيه) ما كان من الممكن أن تظهر إلا بعد أن عرف أننى لست بغاضب من كونه جد مغرم بأمه •

وبعد الظهر خرجت معه من جديد أمام الباب الخارجى ، ومـن جديد خرج هانز امام البيت وبقى أمامه حين كانت العربات تمر مـن أمامه • ولكنه بالنسبة الى عربات قليلة فحسب كان يخاف ، ويجرى الى ردهة المدخل • وقال لى أيضا من قبيل الايضاح : « ليست كل الأحصنة البيضاء تعض • » ومعنى ذلك : أن بعض الأحصنة البيضاء تكشفت ، بفضل التحليل ، على أنها « بابا » ، فلم تعـد بعد تعض ، ولكن مايزال هناك بعض آخر باقيا يعض •



شكل ٢)

« وخريطة الأماكن أمام الباب الخارجى هى كمـا يلى • ف المواجهة مخزن الجمرك الذى يزودنا بالمواد الغذائية • وله رصيف للتحميل تتجه اليه العربات طوال النهار لتحمل صناديق وطرودا ومـا الى ذلك • وهذا الفناء تفصله عن الشارع قضبان ، أما بوابة الدخول الى هذا الفناء فتقع فى مواجهة منزلنا (شكل ٢) • وقد لاحظت منذ بضعة أيام أن هانز كان يرتعب بصفة خاصة لحظة دخول العربات الى الفناء أو خروجها منه ، وهو الأمر الذى كان يضطرها الى أن تدور • وسألته فى ذلك الحين عن سبب ارتعابه الى هذا الحد فأجاب : « أخاف من أن تقع الأحصنة حين تدور العربة (أ) • » وهو يخاف أيضا حين تبدأ فى التحرك العربات الواقفة أمـام رصيف التحميل لتمضى راحلة (ب) • أضف الى ذلك (ج) انـه يرتعب من الأحصنة الكبيرة الخاصة « بالكارو » أكثر مما يرتعب من الأحصنة الصغيرة ، ومن الأحصنة الفظة الخاصة بالمزارع أكثـر من الأحصنة الرشيقة (كهذه التى يجر الاثنان منها عربة الحنطور) • وهـو أيضا يرتعب حين تمر العربة أمامه بسرعة (د) أكثر مما يرتعب حين تتهادى الأحصنة على مهل • هذه التمييزات لم تتضح بالطبع فى جلاء الا خلال الأيام القليلة الأخيرة •

وأنى لأميل الى القول بأنه كان من نتيجة التحليل أن ليس المريض فقط بل وايضا فوبياه قد استجمعا الشجاعة واجتـر على التعبير بشكل أصرح •

« وفى اليوم الخامس من ابريل جاء هانز من جديد الى غرفة نومنا ، فأعدناه ثانية الى فراشة • قلت له : « طالما تجىء الى غرفتنا فى الصباح فان خوفك من الأحصنة لن يتحسن • » ولكنه أجاب فى لهجة من التحدى : «سوف أحضر مع ذلك لو كان لدى خوف•» وعلى ذلك فهو لايرضخ لمنعه من زيارة أمه •

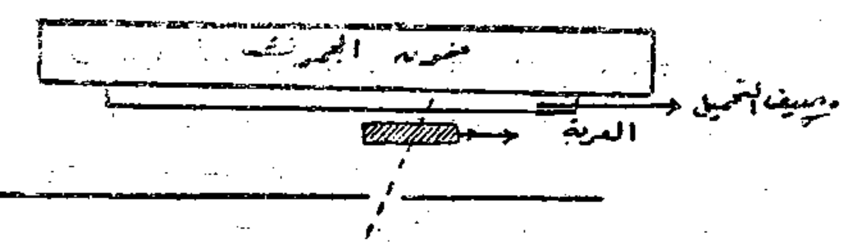
« وبعد الافطار هبطنا الدرج الى خارج البيت • وكان هانز جد مغتبط ، ورسم خطته بحيث أنه بدلا من أن يقف أمام الباب الخارجى كعادته ، يعبر الشارع ويدخل فى الفناء ، حيث كثيرا ما رأى أطفال الشارع يلعبون • قلت له اننى أكون جد مسرور لو أنه عبر الشارع الى الفناء • وانتهزت الفرصة لأسأله عن السبب فى ارتعابه الشديد عندما تبدأ فى التحرك العربات المحملة من أمام رصيف التحميل (ب)

« هانز — انى أخاف ان كنت فوق العربة من أن تنطلق العربة بسرعة ، فأبقى فوقها وأنا أريد أن أنزل الى الرصيف (رصيف التحميل) ، فأمضى بذلك مع العربة •

« أنا — واذا كانت العربة تقف ساكنة ، ألا تكون خائفا عندئذ ؟ ولم لا ؟

« هانز — اذا كانت العربة تقف ساكنة فعندئذ أستطيع بسرعة الصعود فوقها وأقفز منها الى الرصيف •

« (ومن ثم فقد كانت خطة هانز أن يتسلق فوق عربة ، ومنها يقفز الى رصيف التحميل ، ويخاف من أن تمضى به العربة بعيدا وهو مايزال فوقها •)



الطريق الذى كان ينتوى هانز فى خطته أن يتبعه

(شكل ٣)

« أنا — ربما تخاف من أن لاتعود ثانية الى البيت أبدا اذا مضت بك العربة بعيدا ؟

هانز — أوه كلا ! أننى استطيع دائما أن اعود الى ماما بنفس العربة أو « بحنطور » . وأستطيع أيضا أن اخبره برقم المنزل .

« أنا — فمن أى شىء اذن تخاف ؟

« هانز — أنا لاأعرف . ولكن الأستاذ سوف يعرف هل تعتقد أنه سيعرف ؟

« أنا — فلماذا تريد اذن أن تنزل الى الرصيف ؟

« هانز — لأننى لم أذهب هنالك قط ، وبودى جدا أن اذهب الى هناك ، وهل تعرف لماذا أود أن أذهب الى هناك ؟ لأننى أود تحميل وتفريغ الطرود ، وأود أن أتسلق فوق الطرود هناك . أود جدا أتسلق فوق الطرود هناك ! هل تعرف من علمنى التسلق ؟ بعض الصبية كانوا يتسلقون فوق الطرود ، وبودى أيضا أن أفعل ذلك .

« ولكن رغبته لم تتحقق . لان هانز عندما اجترأ من جديد أمام الباب الخارجى ، فان الخطوات القليلة التى خطاها عبر الشارع وفى

الفناء ابتعثت عنده مقاومات عاتية ، اذ كانت العربات لاتنقطع عن الدخول فى الفناء والخروج منه .»

وكل مايعرفه الأستاذ هو أن اللعبة التى كان فى خطة هانز أن يلعبها بالعربات المحملة لابد وأنها كانت بمثابه بديل رمزى لرغبة أخرى ، رغبة لم يتفوه حتى الآن بكلمة عنها . ولكن — اذا لم يبد الأمر اسرافا فى الاجتراء — فان هذه الرغبة يمكن بالفعل ، حتى فى هذه المرحلة ، تبينها .

وبعد الظهر خرجنا مرة أخرى من جديد أمام الباب الخارجى ، وعندما عدنا سألت هانز : « من أى الأحصنة تخاف أشد الخوف ؟ »

« هانز — منها جميعا .

« أنا — هذا غير صحيح .

« هانز — أخاف أشد الخوف من الأحصنة التى لها شىء على أفواهها .

« أنا — ماذا تعنى ؟ أقطعة الحديد التى فى أفواهها ؟

« هانز — كلا . ان لها شيئا أسود فوق أفواهها . (وغطى فمه بيده .)

« أنا — ماذا ؟ ربما شارب ؟

« هانز (ضاحكا) أوه كلا .

« أنا — هل كل الأحصنة لها ذلك الشىء ؟

« هانز — كلا قليل منها فقط .

« أنا — ماهذا الذى لها فوق أفواهها ؟

« هانز ــ شيء أسود • (أعتقد فى الواقع أنه لابد وأن يكون هذا الجزء السميك من الجلد الذى تحمله الأحصنة الكارو ، حــول أفواهها • وأخاف أشد الخوف أيضا من عربات الأثاث •

« أنا ــ لماذا ؟

« هانز ــ عندما تجر أحصنة الأثاث

عربة ثقيلة ، يخيل لى أنها ستقع •

« أنا ــ وعلى ذلك فأنت لاتخاف من عربة صغيرة ؟

« هانز ــ كلا ، فأنا لاأخاف من عربة صغيرة ، ولا من عربة البريد ولكننى أخاف أشد الخوف حين تمر عربة أمنيبوس •

« أنا ــ لماذا ؟ ألأنها ضخمة جدا ؟

« هانز ــ كلا • لأن حصانا فى عربة أومنيبوس وقــع ذات مرة •

« أنا ــ متى ؟

« هانز ــ ذات مرة حين خرجت مع ماما على الرغم من « الحماقة» التى عندى ، وذلك عندما اشتريت الصدرية (الجيليه) ، (تأكد ذلك فيما بعد من جانب أمه) »

« أنا ــ فى أى شيء فكرت عندما وقع الحصان ؟

« هانز ــ أن الأمــر سيكون كذلك دائمــا • كــل الأحصنة فى الأومنيبوسات سوف تقع •

« أنا — فى كل الأومنيبوسات ؟

« هانز — نعم • وفى عربات الاثاث أيضا • ولكن فى عربات الاثاث كثيرا •

« أنا — هل كانت لديك الحماقة بالفعل فى ذلك الوقت ؟

« هانز — كلا • لقد أصبت بها عندئذ • فعندما وقع حصان الأومنيبوس أحدث ذلك عندى رعبا شديدا حقا ؛ فى تلك اللحظة أصبت بالحماقة •

« أنا — ولكن الحماقة كانت أنك تخاف من أن حصانا سيعضك ، وتقول الآن أنك تخاف من أن حصانا سيقع •

« هانز — يقع ويعض (١) •

« أنا — لماذا أحدث ذلك عندك مثل هذا الرعب ؟

« هانز — لأن الحصان فعل هكذا بأقدامه • (رقد هانز على الأرض وأرانى كيف كان الحصان يرفس بأقدامه •) لقد أحدث عندى رعبا لأنه أحدث صخبا شديدا بأقدامه •

« أنا — أين ذهبت مع ماما فى ذلك اليوم ؟

« هانز — أولا الى حلبة التزحلق ، ثم الى المقهى ، ثم الى شراء الصدرية (الجليه) ، ثم الى بائع الفطائر ، ثم الى البيت فى المساء •

---

(١) كان هانز على حق ، مهما بدا من عدم معقولية هذا التقريب بين الامرين • فسلسلة أفكاره ، كما سنرى ، كانت ان الحصان (أباه) سوف يعضه بسبب رغبته (أى هانز) فى أن الحصان (أباه) يقع •

وقد عدنا عبر اشتادبارك . (كل ذلك أكدته زوجتى ، كما أكدت أيضا أن الحصر تفجر على الفور بعد ذلك) .

« أنا — هل مات الحصان عندما وقع ؟

« هانز — نعم !

« أنا — وكيف عرفت ذلك ؟

هانز — لأننى رأيته (وضحك) كلا لم يمت بحال .
« أنا — ربما تخيلت أنه قد مات ؟

« هانز — كلا ، أبدا بالتأكيد . لقد قلته ذلك فقط كدعابة .

« هانز — كلا ، أبدا بالتأكيد . لقد قلت ذلك فقط كدعابة .
(وكانت تعبيرات وجهه فى تلك اللحظة مع ذلك جادة .)

« وحيث أنه كان متعبا فقد تركته يذهب . وكل ماقاله لى بالاضافة الى ذلك أنه كان فى البداية يخاف من أحصنة الأومنيبوسات، ثم من جميع الأحصنة ، وأخيرا فقط من أحصنة عربات الأثاث .

« وفى طريق عودتنا من لاينتس كانت بضعة أسئلة أخرى :

« أنا — عندما وقع حصان الأومنيبوس ماذا كان لونه ؟ أبيض، أحمر ، بنيا ، رماديا ؟

« هانز — أسود . كلا الحصانين كان أسود .

« أنا — هل كان ضخما أم ضئيلا ؟

« هانز — ضخما .

« أنا — ممتلئا أو نحيلا ؟

« هانز — ممتلئها ضخما جدا وممتلئا جدا »

« أنا — وعندما وقع الحصان هل فكرت فى بابا ؟

« هانز — ربما . نعم ، هذا ممكن . »

ربما كانت استقصاءات أبيه قد جانبها التوفيق فى كثير من النقاط، ولكن ليس هناك من ضرر فى التعرف عن كثب على فوبيا من هذا القبيل — وهى التى قد تنزع الى تسميتها بحسب موضوعاتها الجديدة . فبهذه الطريقة يمكننا أن نتبين مدى ماهى عليه من انتشار فى الواقع . فهى تنصب على أحصنة وعلى عربات ، وعلى كون الأحصنة تقع وعلى كون الأحصنة تعض ، وعلى أحصنة من طراز خاص ، وعلى عربات محملة تحميلا ثقيلا وبوسعنا على الفور أن نوضح أن كل هـذه الخصائص ترجـع الى أن الحصـر فى أصلة ليست لـه أيـة صلة بالأحصنة ، بل أنه انزاح اليها بشكل ثانوى ، وأصبح الآن مثبتا على هذه العناصر من « الحصان — كموقف — كلى » ، وهى العناصر التى تكشفت جد ملائمة لتحويلات بعينها ، ويتحتم علينا أن نثنى بصفـة خاصة على نتيجة من اهم نتائج هذه الدراسة للصبى من جانب أبيه . فلقد تبينا السبب المباشر الذى تفجرت الفوبيا فى اثره . كان ذلك عندما رأى الصبى حصانا كبيرا ثقيلا يقـع وواحـد على الأقل من التفسيرات لهذا الانطباع القوى هو ، هذا الذى أبرزه الأب ، من أن هانز قد استشعر عندئذ الرغبة فى أن أباه يقع بنفس هذه الطريقة — ويموت . وتعبيرات وجهة الجادة وهو يسرد هذه الحكاية كانت ترجع ولاشك الى هذه الدلالة اللاشعورية . ولكن أليس من الممكن مع ذلك أن تكون هناك دلالة أخرى خبيئة وراء هذا كله ؟ وماذا يمكن أن تكون دلالة احداث الصخب الشديد بالأرجل ؟

* * *

« كان هانز منذ فترة يلعب لعبة الأحصنة فى الغرفة ، فهو يجرى

قفزا ويقع • ويرفس بقدميه ، ويصهل • وذات مرة علق فى رأسه كيسا صغيرا بوصفه مخلاة : وكان فى مناسبات عديدة يجرى نحوى ويعضنى • »

بهذه الطريقة كان يعبر عن تقبله للتفسيرات الأخيرة بصورة أكثر قطعا مما كان يستطيعه بالكلمات ، مع قلب للادوار بالطبع ، اذ كانت اللعبة فى خدمة رغبة أخيولية • وهكذا كان هانز هو الحصان ، وكان يعض أباه ، وبهذه الطريقة كان يتوحد بأبيه •

« لاحظت فى اليومين الأخيرين أن هانز كان يتحدانى بشكل أشد مايكون جسما ، لا فى قحة ، ولكن فى أسلوب من الدعابة • أكان سببه ذلك أنه لم يعد يخافنى — أنا الحصان ؟

« اليوم السادس من ابريل • بعد الظهر خرجت مع هانز أمام البيت وكلما مر حصان كنت أسأله ماان كان يرى « هذا الشىء الأسود حول فمه » ، وكان فى كل مرة يجيب « لا » • سألته ماذا كان يشبه فى الواقع ذلك الشىء الأسود ، قال حديدا أسود • وعليه لم يتأيد تصورى السابق من أنه كان يعنى قطع الجلد السمكية التى هى جزء من طاقم أحصنة الكارو » • وسألته ماان كان هذا « الأسود » يذكره بشارب : فقال « فقط من حيث لونه • وعلى ذلك فأنا لاأعرف بعد ماهو فى الواقع هذا الشىء •

« تناقص الخوف ، ففى هذه المرة اجترأ على الابتعاد حتى باب البيت المجاور ، ولكنه قفل راجعا بسرعة عندما سمع صوت حوافر الأحصنة من بعيد • وعندما أقتربت عربة من بابنا وتوقفت ، ارتعب وجرى الى داخل البيت ، لأن الحصان بدأ يضرب الأرض بحافره• سألته لماذا هو خائف ، وما ان كان عصبيا لأن الحصان قد فعل هكذا (وضربت الأرض بقدمى) • قال : « لا تفعل مثل هذا الصخب الشديد بقدميك ! » قارن ملاحظته على الحصان الامنيبوس حين وقع •

« وقد ارتعب بصفة خاصة من عربة أثاث وهى تمر . فعندئذ جرى مباشرة الى البيت . سألته فى غير مبالاه : « ألا تبدو عربة الأثاث فى الواقع شبيهة بالامنيبوس ؟ » لم يقل شيئا . وكررت السؤال ، وعندئذ قال : « بالتأكيد ، والا لما كنت أخاف الى هذا الحد من عربة الأثاث . »

اليوم السابع من ابريل . سألت اليوم من جديد ماذا يشبهه « هذا الشيء الأسود حول أفواه الاحصنة » قال هانز : « يشبه الكمامة » . وأغرب ما فى الأمر أن ما من حصان واحد مر منذ ثلاثة أيام وعليه هذه « الكمامة » ، حتى يكون بوسع هانز أن يشير اليها وانا نفسى لم أر حصانا من هذا القبيل فى تجوالاتى ، وعلى الرغم من أن هانز يؤكد وجود مثل هذه الاحصنة . وأعتقد أن بعض أنواع الجمة الاحصنة — وربما الجزء السميك من الجلد حول أفواهها — قد ذكرته بالفعل بشارب ، وأنني بعد ما المحت الى ذلك تلاشى ذلك الخوف هو الآخر .

« تحسن هانز مستمر . ودائرة نشاطه ، اذا اعتبرنا باب البيت مركزها ، تتسع يوما بعد يوم . بل أنه أنجز هذا العمل البطولى الذى كان حتى ذلك الوقت مستحيلا عليه ، ألا وهو عبور الشارع الى الرصيف المقابل وكل ما تبقى من خوف انما يرتبط بمشهد الاومنيبوس ، هذا الذى لم تتضح عندى دلالته بعد .

« اليوم التاسع من ابريل . فى هذا الصباح جاءنى هانز وأنا أغتسل ونصفى الأعلى عار حتى الوسط .

« هانز — بابا ، كم أنت جميل ، كم أنت أبيض !

« أنا — نعم . كحصان أبيض .

« هانز — الشيء الأسود الوحيد هو شاربك . (واستمر) أو ربما الكمامة السوداء .

« قلت له عندئذ اننى ذهبت فى مســاء البارحة لرؤية الأستاذ ، وقلت : « هناك شىء واحد يريد أن يعرفه • » قال هــانز : « انى شغوف بمعرفة ذلك • »

« قلت لهانز اننى أعرف تلك المناسبات التى كــان فيها يحدث صخبا شديدة شديدا بقدميه بقدميه فقاطعنى قائلا : « آه نعم ! حين أكون غاضبا ، أو عندما يكون على آن أعمل لومف (١) بينما أريد بالحــرى أن ألعب • » (كان من عادته حقا أن يحدث صخبا شديدا بقدميه ، بمعنى أن يضرب الارض بقدميــه عنــدما يكــون غاضبـــا ويعمــل لومف » معناه يتبرز • فعندما كان هانز صغيرا قال ذات يوم ، وهو ينهض من فوق وعاء ــ البراز : « أنظر اللومف Lumpf » وكــان يعنى « الجورب Strumpt » • كان يعنى الجورب بالنظر الى شكل البراز ولونه • وهذه التسمية ظلت باقية الى اليوم • ــ وعندما كان هانز جد صغير ، ويتحتم عليه أن يوضع على وعاء ــ البراز ، بينما يرفض أن يترك اللعب ، كان من عادته أن يضرب الأرض بقدميه فى صورة الغضب ، ويرفس فى كل اتجاه ، بل ويلقى بنفسه على الأرض) •

« أنا ــ وانت ترفس بقدميك فى كل اتجاه أيضا حين يتحتــــم عليك أن تطرطر بينما لاتريد أن تذهب ، اذ كنت تفضل بالحــرى أن تستمر فى اللعب •

« هانز ــ أوه • ينبغى أن أطرطر • (وخرج من الغرفة ــ وكان ذلك من قبيل التوكيد ولاشك •)

كان أبوه قد سالنى خلال زيارته لى عما يمكن أن يكون هذا الذى تذكره هانز حين رأى الحصان يقع ويرفس بأقدامه فى كل اتجاه • وأشرت الى أن ذلك يمكن أن يكون استجابته الخاصة حين كان يحتجز بوله • وهاهو هانز يؤكد ذلك الآن عن طريق الظهور من جديد ــ أثناء

(١) Lumpf كلمة خاصة بهانز للدلالة على برازه ــ هامش الترجمة الفرنسية •

الحوار — لرغبته فى التبول ، كما أضاف بعض الدلالات الأخرى لعملية احداث الصخب الشديد بالقدمين •

« وبعد ذلك خرجنا أمام الباب الخارجى • وعندما مرت عربة فحم قال لى : « بابا ، اننى أخاف خوفا شديدا من عربات الفحم أيضا » •

« أنا — ربما لأنها كبيرة فى حجم الأومنيبوسات أيضا •

« هانز — نعم • ولأنها محملة تحميلا ثقيلا الى هذا الحد ، وعلى الأحصنة أن تجر هذا الحمل الثقيل ويمكن أن تقع بسهولة • حين تكون العربة فارغة فأنى لا أخاف منها (وتلك حقيقة) سبق أن اشرت اليها والعربات الثقيلة وحدها هى التى تلقى به فى حالة من الحصر •)

ومع ذلك فقد كان الموقف بشكل قاطع غامضا • كان التحليل قليل التقدم ، واخشى أن القارىء لن يلبث حتى يجد هذا الوصف مضجرا • ومع ذلك فكل تحليل ينطوى على فترات مظلمة من هذا القبيل • ولكن هانز كان الآن على وشك أن يتأدى بنا ألى منطقة غير متوقعة

* * *

« عدت الى البيت وكنت أتحدث مع زوجتى ، التى كانت قد أشترت أشياء مختلفة وكانت ترينا اياها • وكان من بين هذه الأشياء « كيلوت » نسائى أصفر • قال هانز متعجبا : « اخ ! » مرتين أو ثلاثا ، وألقى بنفسه على الأرض ، وبصق • وقالت زوجتى انه كان قد فعل ذلك من قبل ، مرتين أو ثلاثا ، عند رؤية الكيلوت • سألته : « لماذا تقول اخ ؟ »

« هانز — بسبب الكيلوت

« أنا — لماذا ؟ أبسبب لونه ؛ الأنه أصفر ، ويذكرك « باللومف» أو بالبول ؟

« هانز — اللومف ليس أصفر • أنه أبيض أو أسود • (وبعد ذلك مباشرة : » قل لى ، هل يكون من السهل عمل « لومف » اذا كنت تأكل جبنا ؟ (كنت قد قلت له ذلك مرة ، حين سألنى لماذا آكل جبنا •) .

« أنا — نعم •

« هانز — هذا هو السبب فى أنك تذهب دائما منذ الصباح وتعمل لومف ؛ انى أحب كثيرا أن آكل جبنا مع خبزى المدهون بالزبد •

« وكان قد سألنى بالأمس وهو يقفز من حولى فى الشارع : « قل لى ، حين يقفز المرء هكذا يكون من السهل عليه أن يعمل لومف ، » اليس كذلك ؟ » كان هانز يعانى صعوبة فى التبرز منذ البداية وكثيرا ماكانت الملينات والحقن الشرجية امرا ضروريا • وفى وقت مابلغ أمساكه المعتاد من الشدة بحيث استدعت زوجتى الدكتور ل — كان من رأية أن هانز يعانى من زيادة التغذية ، وكان ذلك فى الواقع صحيحا ، فنصح له بتغذية أكثر اعتدالا — واختفت الظاهرة على الفور • • وفى الفترة الأخيرة عاد الامساك الى الظهور بشكل اكثر توترا •

وبعد الغذاء قلت له : « سنكتب من جديد للأستاذ • فأملى على « عندما رأيت الكيلوت الأصفر قلت اخ ! ذلك يجعلنى أبصق ! والقيته بنفسى على الأرض واغمضت عينى ولم انظر • »

« أنا — لماذا ؟

« هانز — لأنى رأيت الكيلوت الأصفر ؟ وقد فعلت نفس الشىء

مع الكيلوت الأسود أيضا (١) • والكيلوت الأسود هو من نفس النوع، ولكنه فقط أسود • (ثم قاطع نفسه قائلا :) هل تعرف انى مسرور • أنى دائما جد مسرور عندما أستطيع الكتابة الى الأستاذ •

أنا — « — لماذا قلت اخ ؟ هل كنت مشمئزا ؟

هانز — نعم ، لأنى رأيت ذلك • تصورت أنه كان يتحتم على أن أعمل لومف •

« أنا — لماذا ؟ •

هانز — لا أدرى •

أنا — متى رأيت الكيلوت الأسود ؟

هانز — ذات يوم ، بينما كانت أنا (خادمتنا) لفترة طويلة هنا مع ماما ، أحضرته الى البيت بعد أن اشترته مباشرة • (هذه الحقيقة أكدتها زوجتى) •

أنا — هل أثار ذلك اشمئزازك أيضا ؟

هانز — نعم •

أنا — هل رأيت ماما فى كيلوت كهذا ؟

هانز — كلا •

(١) منذ أسابيع قليلة اقتنت زوجتى بنطلونا أسود لتلبسه فى نزهاتها على الدراجة •

أنا ــ وهى تلبس ؟

هانز ــ عندما اشترت الكيلوت الأصفر كنت قد رأيته مرة قبل ذلك • (هذا متناقض • فقد رأى الكيلوت الأصفر الأول مرة عندما اشترته أمه) وقد لبست الكيلوت الأسود اليوم أيضا (وهذا صحيح) لأنى رأيتها تخلعه فى الصباح •

أنا ــ ماذا ؟ هل خلعت الكيلوت الأسود فى الصباح ؟

هانز ــ فى الصباح عندما خرجت خلعت الكيلوت الأسود • وعندما رجعت الى البيت لبست الكيلوت الأسود من جديد •

سألت زوجتى عن ذلك ، اذ بدا لى هذا الامر غير معقول • فقالت ان ذلك غير صحيح بالمرة • فهى بالطبع لم تبدل كيلوتها عندما خرجت •

وعلى الفور سألت هانز عن ذلك : « قلت لى أن ماما لبست كيلوت أسود ، وأنها عندما خرجت خلعته ، وأنها عندما عادت الى البيت لبسته من جديد • ولكن ماما تقول أن هذا غير صحيح • »

« هانز ــ اعتقد اننى ربما أكون قد نسيت ، وأنها لم تخلع الكيلوت (بنفاذ صبر) أوه ؛ دعنى وشأنى •

لدى هنا بضعة تعليقات على مسألة الكيلوت • كان من الواضح أنه مجرد نفاق من جانب هانز أن يدعى أنه جد مسرور أن أتيحت له الفرصة ليقدم ايضاحا عن المسألة • وقد ألقى فى النهاية بالقناع جانبا فكان فظا مع أبيه • كان الأمر يتعلق بأشياء زودته يوما بقدر كبير من اللذة ، ولكنه الآن ، وقد أستقر لديه الكبت ، غدا شديد الخزى منها • ويعترف أنه مشمئز منها : وقد أدلى ببعض الأكاذيب الصريحة كيما يموه على الظروف التى رأى فيها أمه تبدل كيلوتها • والواقع أن خلع

كيلوتها ولبسه ينتميان إلى سياق « اللومف » • وكان أبوه على وعى تام بالأمر كله ، وبما كان هانز يحاول أن يخفيه •

وسألت زوجتى ما أن كان هانز يصحبها فى أغلب الأحيان عندما تذهب الى المرحاض • قالت : « نعم ، فى أغلب الأحيان • فهو لايفتأ يضايقنى حتى أسمح له ذلك هو حال كل الأطفال » •

ومع ذلك : فمما ينبغى أن نتذكره بعناية هو هذه الرغبة ، التى كبتها هانز بالفعل فى أن يرى أمه تعمل « لومفة » •

خرجنا أمام البيت • وكان هانز جد مرح ، وكان يطفر من حولى طول الوقت كالحصان • وعلى ذلك قلت له : « والآن من منا • حصان الأومنيبوس ؟ أنا أم أنت أم ماما » •

هانز (دون تردد) — أنا هو • أنا حصان صغير •

وخلال الفترة التى كان الحصر فيها عنده فى الذروة ، وكـان يرتعب عندما يرى الأحصنة وهى تطفر ، سألنى لماذا تفعل ذلك ، وكيما أطمئنه قلت له : « تلك هى أحصنة صغيرة كما ترى ، وهى تطفر هنا وهناك كالصبية الصغار • وأنت تطفر هنا وهناك أنت الآخر ، وأنت صبى صغير » • ومنذ ذلك الحين كان كلما رأى أحصنة تطفر قال : هذا صحيح ، فتلك أحصنة صغيرة ! » •

وبينما كنا نصعد الدرج سألته دون تفكير تقريبا : « هل كان من عادتك أن تلعب لعبة الأحصنة مع الاطفال فى جموندن ؟ »

هانز — نعم • (وهو يفكر) أعتقد أن هذا هو الذى أصابنى بالحماقة •

أنا — من كان الحصان ؟

هانز ــ كنت أنا ، وكانت برتا هى الحوذى :

أنا ــ هل وقعت أية مناسبة عندما كنت حصانا ؟

هانز ــ كلا . عندما كانت برتا تقول « شى » كنت أجرى سريعا جدا ، كنت أجرى باقصى سرعتى (١) .

أنا ــ ألم تلعب قط لعبة الأومنيبوس ؟

هانز ــ كلا . كنا نلعب العربات العادية ، ولعبة الأحصنة بغير عربات ، فعندما تكون للحصان عربة فانه يستطيع أيضا أن يمضى بغير عربة ، وتبقى العربة فى البيت .

أنا ــ هل كان من عادتك كثيرا أن تلعب لعبة الأحصنة ؟

هانز ــ كثيرا جدا . ذات مرة كان فرتنزل (٢) هو الحصان وفرانزل الحوذى ، وجرى فريتنزل سريعا جدا ، وفجأة ارتطمت قدمه بحجر وأخذت تنزف .

أنا ــ ربما يكون قد وقع ؟

هانز ــ كلا . فقد وضع قدمه فى الماء ثم لفها بضمادة (٣) .

أنا ــ هل كثيرا ما كنت الحصان ؟

هانز ــ أوه ، نعم .

---

(١) كان عند هانز لعبة هى طاقم حصان بأجراس .

(٢) هو ، كما نعلم ، أحد أطفال صاحب الفندق .

(٣) أنظر فيما بعد . كان أبوه على حق تماما حين ظن أن فريتزل قد وقع عندئذ .

، أنا — وكان هذا هو السبب فى اصابتك بالحماقة ؟

، هانز — لأنهم ظلوا يقولون لى طول الوقت : « بسبب الحصـــان » « بسبب الحصـــان » (وكان يضغط على كلمة « بسبب ») ، وعلى ذلك فربما أكون قد أصبت بالحماقة لانهم تكلموا هكذا : بســـبب الحصان » (١) •

ولقد تابع أبو هانز لبعض الوقت استقصاءاته فى دروب أخرى دون طـــائل •

، أنا — هل قالوا لك أى شىء عن الاحصنة ؟

، هانز — نعم •

، أنا — ماذا ؟

، هانز — لقد نسيت •

، أنا — ربما حدثوك عن حماقتها :

، هانز — أوه ، كـــلا •

---

(١) ينبغى ان أوضح أن هانز لم يكن يقصد انه أصيبب بالحماقة فى ذلك الوقت ، بل أن ذلك لـــه علاقـــة بالحماقـــة • ولابـــد فى الواقـــع من أن الامر كان كذلك ، فالاعتبارات النظريـــة تقضى بأن ماهـــو اليوم موضوع فوبيا لابـــد وأنه كان يوما فى الماضى مصدر لـــذة هائلة • وبوسعى فى نفس الوقت أن أكمل ماعجز الصبى عن الافصاح عنه ، فاضيف أن كلمة wegen (= بسبب) كانت الأداة التى مكنت الفوبيـــا من أن تمتـــد من الاحصنـــة الى wegen (= العربات) ، أو كما اعتاد هانز أن ينطق الكلمة ويسمعها تنطق (فكلمة wagen (بسبب) تنطق تماما مثل wegen (عربات) • ولاينبغى أن ننسى قط أن الاطفال ينفرون الى الكلمات بصورة أكثر عناية بالقياس الى الكبار ، ومن ثم فان التشابه الصوتى بين الكلمات ينطوى بالنسبة اليهم على أهمية أكثر بكثير •

، أنا — هل كنت تخاف بالفعل من الاحصنة فى ذلك الوقت ؟

، هانز — أوه ، كلا • لم أكن أخافها على الاطلاق •

، أنا — ربما قالت لك برتا ان الاحصنة •

، هانز (مقاطعا) — تطرطر ؟ كلا •

فى اليوم العاشر من ابريل استأنفت حــوارنا الذى كان بالامس ، وحاولت أن أستكشف ماذا يعنى قوله « بسبب الحصان » • لم يستطع هانز أن يتذكر • كل ماكان يعرفه أن بعض الاطفال وقفوا خارج الباب الامامى ذات صباح وقالوا : « بسبب الحصان ، بسبب الحصان ! » كان هناك بنفسه • وحين ضيقت عليه الخناق أعلن أنهم لــم يقولوا على الاطلاق : « بسبب الحصان » ، ولكن الذاكرة خانتة •

أنا — ولكنك كثيرا ما كنت مع الآخرين فى الاسطبل • وبكل تأكيد لابد وأنكم تكلمتم عن الأحصـــــنة • — لم نتكلم • — عن أى شىء تكلمتم ؟ — لا شىء — كل هذا العــدد من الاطفال ولا تتكلمـــون عن شىء ؟ — تكلمنا عن شىء ولكــن لم نتكلم عن الأحصنة • — حسـنا ، ماذا كان ؟ — لم أعد أذكــر شيئا •

، تركت الامر بالنظر الى ما كان واضحا من أن المقاومات بالغـــة الشدة [1] ، ومضيت الى السؤال التالى : « هل كنت تحب اللعـــــب مع برتا ؟ »

هانز — نعم ، كثيرا جدا ، ولكن ليس مـــع أولجا • هل تعــرف ما فعلته أولجا ؟ أعطتنى جريتا مرة كرة من الورق هنــاك فى جموندن ،

(١) فى واقع الامر لم يكن هنالك من شىء ، يمكن استخلاصه من ذلك القول أكثر من تداعيات هانز اللفظية ، وهو الامر الذى غاب عن أبيه • ذلك مثال طيب للظروف التى فى ظلها تضيع جهود المحلل •

فمزقتها أولجا اربا • وبرتا ما كان يمكن أبدا أن تمزق كرتي • كنت أحب كثيرا جدا أن ألعب مع برتا •

، أنا — هل رأيت حمامة برتا ؟ ما شكلها ؟

،هانز — كلا • لكنى رأيت حمامة الأحصنة ، لأنى كنت دائما فى الاسطبل ، وهكذا رأيت حمامة الاحصنة •

، أنا — ومن ثم كنت شغوفا وكنت ترغب فى أن تعرف حمامة برتا وحمامة ماما ما شكلها ؟

، هانز — نعم •

ذكرته كيف شكا لى مرة من أن الفتيات الصغيرات كن يرغبن دائما فى النظر اليه وهو يطرطر •

، هانز — كانت برتا هى الاخرى تنظر الى • (قال ذلك فى رضى بالغ ، بعيدا كل البعد عن الضيق) ، وكثيرا جدا ما فعلت ذلك • فقد كان من عادتى أن أطرطر فى الحديقة الصغيرة حيث كان الفجل ، وكانت هى تقف خارج الباب الامامى وتنظر الى •

، أنا — وحين كانت تطرطر هل كنت تنظر اليها ؟

، هانز — كان من عادتها أن تذهب الى المرحاض •

، أنا — وكنت تريد أن ترى ؟

، هانز — كنت أكون داخل المرحاض عندما تكون هى فيه •

، (تلك حقيقة أخبرنا بها الخدم ذات مرة ، وأذكر أننا نهينا هانز عن فعل ذلك) •

، أنا ـ هـل كنت تخبرها أنك ترغب الدخـول ؟

، هانز ــ كنت أدخل بنفسى ، ولأن برتا كانت تسمح لى ، ليس فى هــذا ما يدعو الى أى خزى •

، أنا ــ وهل كنت ترغب فى أن ترى حمامتها ؟

، هانز ــ نعم ، ولكننى لم أرهـــا •

، وعندئذ ذكــرته بحلمـــــه عن لعبـــــة الرهـــــان ، وهـــــــو الحلم الذى رآه فى جموندن وقلت :

« عنـــدما كنت فى جموندن هـل كنت ترغب من برتـــا فى أن تجعلك تطرطر ؟ » •

، هانز ــ لــم أقــل لها ذلك قط ؟

، أنا ــ لماذا لم تقل لها قط ذلك •

، هانز ــ لأننى لم أفكر فى الامر • (ومقاطعا نفسه) لو أننى كتبت كل شىء للأستاذ ، تنتهى الحماقة التى عندى على الفور ، أليس كذلك ؟

، أنا ــ لماذا كنت تريد من برتا أن تجعلك تطرطر ؟

، هانز ــ لاأدرى • لأنها كانت تنظر الى •

، أنا ــ هل فكرت فى نفسك أنها ينبغى أن تضع يدها على حمامتك ؟

، « هانز ــ نعم • (ثم غير الموضوع) فى جموندن كان الأمر مسليا جدا • ففى الحديقة الصغيرة ، حيث الفجل ، كانت هناك كومة صغيرة من من الرمل ، وكان من عادتى أن ألعب هناك بمجرافى •

، « (تلك هى الحديقة التى كان من عادته أن يطرطر فيها •)

، « أنا — هل كنت تضع يدك على حمامتك فى جموندن وأنت فى الفراش ؟

، هانز — لا • لم أكن قد بدأت فى ذلك ، كنت أنام نوما عميقا فى جموندن بحيث لم أفكر قط فى ذلك • فقد فعلت ذلك فقط فى شارع [1] — وهنا •

، أنا — ولكن برتا لم تضع يدها قط عند حمامتك ؟

، هانز — كلا ، لم تفعل ذلك قط • لأنى لم اطلب اليها ذلك قط ؟

، أنا — حسنا ، ومتى رغبت فى ان تفعل لك ذلك ؟

، هانز — اوه ، مرة فى جموندن •

، أنا — مرة فقط ؟

، هانز — حسنا ، بين حين وحين •

، أنا — أكان من عادتها ان تنظر اليك دائما وانت تطرطر ؟ ربما كانت تريد أن ترى كيف تطرطر ؟

، هانز — ربما كانت تريد ان ترى حمامتى ماشكلها ؟

، أنا — ولكنك انت ايضا كنت تريد ان ترى • برتا فقط ؟

، هانز — برتا واولجا •

، أنا — ومن ايضا ؟

(١) المسكن الذى كانوا يقضون فيه قبل انتقالهم •

، هانز ــ لا احد آخر •

، أنا ــ انت تعرف ان هذا غير صحيح • فماما ايضا •

، هانز ــ نعم ، ماما ايضا •

، أنا ــ ولكنك الآن لم تعد تريد أن ترى • فأنت تعرف شكل حمامة هنه ، أليس كذلك ؟

، هانز ــ ولكنها مع ذلك سوف تكبر ، أليس كذلك ؟ (١)

، أنا ــ نعم بالطبع • ولكن حمامتها عندما تكبر فلن يكــون شكلها شكل حمامتك •

، هانز ــ أنا أعرف ذلك • سوف تكون كما هى (أى كما هى الآن)، فقط أكبر •

، أنا ــ عندما كنا فى جموندن ، هل كنت تريد أن ترى حينما كانت ماما تخلع ملابسها ؟

، هانز ــ نعم • وفى ذلك الحين عندما كانت هنه تأخذ حمامها رأيت حمامتها •

، أنا ــ وحمامة ماما أيضا ؟

، هانز ــ كلا •

، أنا ــ أشعرت باشمئزاز عندما رأيت كيلوت ماما ؟

، هانز ــ فقط حين رأيت الكيلوت الأسود ــ عندما اشترته ــ عندئذ بصقت • ولكنى لاأبصق عندما تلبس الكيلوت أو تخلعه • انى أبصق

---

(١) يرغب هانز فى أن يطمئن أن حمامته هو سوف تكبر •

لأن الكيلوت أسود • هو أسود مثل اللومف • والكيلوت الأصفر مثل الطرطرة (البول) ، وعندئذ اتصور ان على أن اطرطر •

أنا — وعندما تخلع ملابسها ؟

هانز — انى لاأبصق عندئذ أيضا • ولكن عندما يكون كيلوتها جديدا يكون شكله مثل اللومف • وعندما يصبح قديما يبهت لونه ويتسخ • عندما تشتريه يكون نظيفا تماما ، ولكنه فى البيت يتسخ • عندما تشتريه يكون جديدا ، وعندما لاتشتريه يكون قديما •

أنا — وعلى ذلك فأنت لاتشمئز من الكيلوت القديم ؟

هانز — عندما يكون قديما أكثر سوادا بكثير من اللومف ، اليس كذلك ؟ أنه يكون أكثر سوادا بعض الشىء [1] •

أنا — هل كثيرا ماكنت مع ماما فى المرحاض ؟

هانز — كثيرا جدا •

أنا — وهل شعرت باشمئزاز ؟

هانز — نعم ••• لا •

أنا — هل تحب ان تكون هناك عندما تطرطر ماما أو تعمل لومف ؟

هانز — نعم ، احب جدا •

أنا — لماذا تحب ذلك كثيرا جدا ؟

هانز — لاأدرى •

---

(١) رجلنا الصغير يتصارع هنا مع موضوع ليس فى مقدوره أن يعبر عنه فى وضوح ، بحيث يعسر علينا فهمه • فربما كان يعنى أن الكيلوت لايثير عنده شعور اشمئزاز الا اذا رآه منفصلا ، فما أن ترتديه أمه حتى يتوقف عن أن يرتبط عنده باللومف أو الطرطرة (البول) ، ولكنه عندئذ يثير اهتمامه من زوايا اخرى •

، أنا — لأنك تتصور انك سترى حمامتها ؟

، هانز — نعم ، انى اتصور ذلك •

، أنا — ولكن لماذا لم تكن تريد قط أن تذهب الى المرحاض فى لاينتس •

، (كان فى لاينتس يرجونى دائما أن لااذهب به الى المرحاض ، فقد أرتعب مرة من الصخب الذى يحدثه التدفق المفاجىء للماء) •

، هانز — ربما لأن ذلك يحدث صخبا شديدا عند شد السيفون •

، أنا — وعندئذ تخاف •

، هانز — نعم •

، أنا — وماذا عن مرحاضنا هنا ؟

، هانز — هنا لااخاف • فى لاينتس ينتابنى الرعب عندما نشد السيفون • وعندما أكون فى المرحاض ويتدفق الماء بشدة فعندئذ ينتابنى الرعب أيضا •

، وكيما يرينى أنه لايرتعب هنا فى مسكننا ، جعلنى أذهب الى المرحاض واشد السلسلة التى تسبب تدفق الماء • وعندئذ اخذ يوضح لى :

هانز — يحدث فى البداية صخب عنيف ، ثم بعد ذلك صخب هين •

(ذلك عندما مايتدفق الماء) وعندما مايحدث صخب عنيف فانى أفضل أن أبقى فى الداخل ، وعندما يحدث الصخب الهين أفضل بالحرى أن أخرج •

، أنا — لأنك خائف ؟

، هانز — لأنه عندما يكون هناك صخب شديد فانى دائما أحب جدا أن أراه — (ثم يصحح نفسه) ان اسمعه ، ومن هنا افضل ان ابقى فى الداخل حتى اسمعه جيدا •

، أنا — ماالذى يذكرك به الصخب الشديد ؟

، هانز — ان على ان اعمل لومف فى المرحاض •

، (اذن نفس الشىء الذى يذكر به الكيلوت الأسود •)

، أنا — لماذا ؟

، هانز — لاأدرى • ان الصخب الشديد يدوى كما لو كنت تعمل لومف • فالصخب الكبير يذكرنى باللومف ، والصخب الصغيريذكرنى بالطرطرة (البول) • (قارن الكيلوت الأسود والكيلوت الأصفر)

، أنا — قل لى ، ألم يكن حصان الأومنيبوس فى نفس لون اللومف ؟ (فبحسب روايته كان أسود اللون) •

، هانز (جد مندهش) — نعم •

يتحتم على عند هذه النقطة أن أقحم بضع كلمات • كان أبو هانز يسأل أسئلة كثيرة أكثر مما ينبغى ، ويدفع استقصاءه فى خط يتبع أفكارا قبليه لديه ، بدلا من أن يدع الصبى الصغير يعبر عن أفكاره الخاصة • ولهذا السبب بدأ يغلب على التحليل الغموض والتشكك • وكان هانز يمضى فى طريقة الخاص ، فلا يقدم شيئا متى كانت هناك محاولات لجره بعيدا عنه • فاهتمامه فى الوقت الراهن يتركز بكل وضوح فى اللومف والطرطرة (التبول) ، ولا نستطيع أن نعرف لماذا • ومسألة الصخب الشديد هى فى ضآلة حظها من الوضوح كمسألة الكيلوت الأسود والكيلوت الأصفر • وانى اعتقد أن ارهاف السمع عند الصبى قد مكنه من أن يتبين بوضوح الاختلاف بين الصخب الشديد الذى يحدثه الرجل وهو يتبول والصخب الهين الذى تحدثه المرأة • فالتحليل ، بطريقة اصطناعية واكراهية بعض الشىء ، قد أرغم المعطيات التى قدمها هانز على التعبير عن الاختلاف مابين الحاجتين الطبيعيتين • ولا يسعنى الا أن أنصح قرائى،

الذين لم يمارسوا التحليل حتى الآن ، أن لا يحاولوا فهم كل شيء دفعة واحدة ، بل أن يوجهوا نوعا من الانتباه الحيادى لكل نقطة تبرز ، وأن ينتظروا ماسوف يأتى بعد ذلك .

* * *

، اليوم الحادى عشر من ابريل . فى الصباح جاء هانز مرة أخرى الى غرفتنا ، وبعثنا به الى غرفته ، على نحو ماكنا نفعل دائما فى الأيام القليلة الماضية .

وفيما بعد بدأ يتحدث : « بابا ، لقد تخيلت شيئا : كنت فى البانيو[1]، وعندئذ جاء السمكرى وفكه [2] ، ثم أمسك بمثقاب كبير وغرزه فى بطنى»

هذه الأخيولة ترجمها أب هانز كما يلى

، كنت فى الفراش مع ماما . وعندئذ جاء بابا وطردنى بعيدا . وبقضيبه الكبير دفعنى بعيدا عن مكانى بجوار ماما » .

نعلق فى الوقت الحاضر حكمنا على ذلك .

ومضى هانز يسرد فكرة ثانية تخيلها : « كنا فى القطار مسافرين الى جموندن وفى المحطة أخذنا فى ارتداء ملابسنا ، ولكننا لم نستطيع أن نفرغ من ذلك فى الوقت الملائم ، فأخذنا القطار ومضى بنا » .

، وفيما بعد سألته : « هل رأيت قط حصانا يعمل لومف ؟ »

، هانز — نعم ، كثيرا جدا .

---

(١) أم هانز هى التى تعطيه حمامه .
(٢) ليحمله معه بغية اصلاحه .

، أنا ــ هل يحدث صخبا شديدا وهو يغمل لومف ؟

، هانز ــ نعم ٠

، أنا ــ بمذا يذكرك هذا الصخب الشديد ؟

، هانز ــ باللومف حين يسقط فى وعاء التبرز ٠

، ان حصان الأومنيبوس الذى يقع ويحدث صخبا شديدا بأقدامه هو بالتأكيد لومف يسقط فيحدث صخبا ٠ فخوفه من التبرز ، وخوفه من العربات المحملة تحميلا ثقيلا ، يكافىء خوفه من بطن محملة تحميلا ثقيلا ٠

، بهذا الطريق الملتف بدأ يتراءى لأبى هانز الوضع الحقيقى للامور

* * *

، اليوم الحادى عشر من ابريل ٠ أثناء الغذاء قال هانز ٠ « لو كان عندنا فقط بانيو فى جموندن ، بحيث ماكان يكون على أن أذهب الى الحمامات العمومية ! » الواقع أننا فى جموندن كنا نذهب به دائما الى الحمامات العمومية المجاورة ، ليأخذ حمامه الساخن ــ وهو اجراء كان من عادته أن يحتج عليه بدموع ساخنة : وفى فينا أيضا يصرخ دائما اذا ما جعلناه يجلس أو يتمدد فى البانيو الكبير ٠ فهو لايأخذ حمامه الا وهو راكع أو واقف ٠

لقد بدأ هانز الآن يغذى التحليل بادلاءاته التلقائية ٠ فهذه الملحوظة التى أدلى بها تقيم الصلة مابين أخيولتيه الأخيرتين ــ أخيولة السمكرى الذى فك البانيو وأخيولة الرحلة الفاشلة الى جموندن ٠ كان أبوه على صواب حين استخلص من الأخيولة الأخيرة أن هانز لديه شيء من النفور من جموندن ٠ وهذه مناسبة أخرى جد ملائمة تذكرنا بهذه الحقيقة :

أن ماينبثق من اللاشعور ينبغى فهمه ، لافى ضوء مايسبقه ، بل فى ضوء مايتبعه •

، سألته ما أن كان خائفا ، وان كان كذلك فمن أى شىء •

، هانز — من أن أسقط فى البانيو •

، أنا — ولكن لماذا لم تكن قط خائفا عندما كنت تأخذ حمامك فى البانيو الصغير ؟ •

، هانز — لأنى كنت أجلس فيه ، ولااستطيع أن أتمدد • فقد كان لايتسع لذلك •

، أنا — وحين كنت تركب القارب فى جموندن ، ألم تكن تخاف من أن تقع فى الماء ؟

، هانز — كلا ، لأنى كنت ثابتا ، ومن ثم لم يكن من الممكن أن أقع • ففى البانيو الكبير وحده يكون خوفى من أن أقع •

، أنا — ولكن ماما هى التى تعطيك حمامك فيه • فهل أنت تخاف من أن تتركك ماما تقع فى الماء ؟

، هانز — أخاف من أن ترخى يدها فتقع رأسى فى الماء •

، أنا — ولكنك تعرف أن ماما تحبك جدا ، ولايمكن أن تتركك تقع •

، هانز — أنا فقط تخيلت ذلك •

، أنا — لماذا ؟

، هانز — لاأدرى على الاطلاق •

، أنا — ربما لأنك كنت « شقيا » ، فتصورت أنها لم تعد تحبك ؟

، هانز — نعم .

، أنا — حينما كنت تشهد ماما وهى تعطى هنه حمامها ، ربما تكون قد رغبت فى ان ماما ترخى يدها بحيث تقع هنه فى الماء ؟

، هانز — نعم . ،

ولايسعنا الا أن نعترف أن أبا هانز قد أصاب هنا تماما فى حدسه .

* * *

، اليوم الثانى عشر من ابريل . بينما كنا عائدين من لاينتس فى عربة من عربات الدرجة الثانية ، التفت هانز الى الجلد الأسود الذى يكسو المقاعد وقال : « أخ ! هذا يجعلنى أبصق ! الكيلوتات سوداء والأحصنة السوداء تجعلنى أبصق أيضا ! لأنه يكون على أن أعمل لومف » .

، أنا — ربما أنك رأيت عند ماما شيئا أسود فارتعبت منه ؟

، هانز — نعم .

، أنا — حسنا ماذا كان ؟

، هانز — لاأدرى — بلوزة سوداء ، أو جورب أسود .

، أنا — ربما كان شعرا أسود عند حمامتها ، عندما كنت تريد أن تعرف ونظرت .

، هانز (مدافعا عن نفسه) — ولكننى لم أر حمامتها .

، وفى مرة أخرى ارتعب من جديد وهو يرى عربة تنطلق خارجة من بوابة الفناء المواجهة لبيتنا . فسألته : « أليست البوابة على شكل مؤخرة ؟ » .

، هانز ــ والأحصنة هى اللومف ! •

، ومنذ ذلك الوقت كان كلما رأى عربة تنطلق خارجة يقول :

، أنظر ، ها هو لومفى ، يخرج ! » ونطق الكلمة على هذا النحو « لومفى » هو جديد بالنسبة اليه تماما ، فله رنين كلمة تدليل • فأختى بالنسب دائما تنادى طفلها « فومفى » Wumfy

وفى اليوم الثالث عشر من شهر أبريل رأى قطعة كبد فى الحساء فصاح متعجبا : « اخ ! لومف ! » كذلك فان كتلة اللحمة يأكلها على مضض ظاهر هى الأخرى ، لأن شكلها ولونها يذكره باللومف •

، وفى المساء أخبرتنى زوجتى بأن هانز كان فى الشرفة وأنه قال : « تخيلت فى نفسى أن هنه كانت فى الشرفة ووقعت منها » •

، كنت قد قلت له مرة أو مرتين أن ينتبه حتى لاتقترب هنه كثيرا من أعمدة السور عندما تكون فى الشرفة ، لأن السور كان غير عملى على الاطلاق فى تصميمه (على يد أحد الحرفيين من أتباع المذهب الانفصالى فى الفن) • كان يشتمل على فتحات كبيرة بحيث تحتم على أن أغلقها بشبكة من [illegible] رغبة هانز المكبوتة جد شفافة • سألته أمه ماأن [illegible] لا تكون هنه معنا ، فأجاب : « نعم » •

[illegible] عشر من ابريل •• موضوع هنه فى المقام الأول • فكما تتذكر من [illegible] ريرى الباكرة ، كان هانز يشعر بنفور شديد من الوليدة الجديدة التى سلبته جانبا من حب أبويه له • وهذه الكراهية لم تختف

بعد كلية ، ولكنها تعرضت جزئيا لتعويض زائد فى حب مسرف (١) • كان قد عبر من قبل مرارا عن رغبته فى أن طائر اللقلق لاينبغى أن يأتى بأى مزيد من الاطفال ، وفى أننا ينبغى أن ندفع له نقودا حتى لايحضر أى أطفال آخرين من الصندوق الكبير حيث يوجد الأطفال • (قارن خوفه من عربات الأثاث • ألا يبدو الاومنيبوس فى شكل صندوق كبير ؟) • وهو يقول أن هنه تصرخ كثيرا جدا وأن هذا يضايقه •

« وذات مرة قال على حين فجأة : « هل تستطيع أن تتذكر متى جاءت هنه ؟ كانت ترقد الى جوار ماما فى الفراش ، غاية فى اللطف والهدوء • (كان مديحه هذا يقطر زيفا !) •

« ونحن تحت ، أمام البيت ، يمكننا أن نتبين تقدما كبيرا • فحتى عربات الكارو تثير عنده خوفا أقل • صاح مرة ، وهو أدنى مايكون الى الفرح : « ها هو حصان يأتى بشىء أسود على فمه ! » وأخيرا كان بوسعى أن أتبين أنه كان حصانا بكمامة من الجلد • ولكن ما زال لم يكن بحال خائفا من هذا الحصان •

« وذات مرة ضرب الرصيف بعصاه وقال : « قل لى ، هل يوجد رجل تحت ، هنا ؟ — واحد مدفون ؟ — أو أن هذا فقط فى المدافن ؟ » وعلى ذلك فقد كان هانز مشغولا ليس فقط بلغز الحياة بل أيضا بلغز الموت •

« وعندما دخلنا الى البيت من جديد ، رأيت صندوقا فى الردهة الأمامية ، وقال هانز : « هنه سافرت معنا الى جموندن فى صندوق كهذا فى كل مرة سافرنا الى جموندن سافرت معنا فى الصندوق • ألا تصدقنى بعد ؟ هذا صحيح يابابا • صدقنى كان معنا صندوق كبير ، وكان مليئا بالأطفال ، كانوا يجلسون فى البانيو الصغير » • (كان هناك بانيو صغير

---

(١) موضوع « هنه » أتى مباشرة فى أعقاب موضوع « اللومف » ، وتفسير ذلك فى نهاية الامر يبدأ يلوح لنا : فهنه كانت هى نفسها لومفا — والاطفال كانوا لومفا •

داخل الصندوق) . « وضعتهم أنا فى داخله . حقا وصدقا . انى أتذكر ذلك جيدا (١) » .

« أنا — ماالذى تتذكره ؟ .

« هانز — ان هنه سافرت فى الصندوق ، لأننى لم أنس ذلك . وشرف ! .

« أنا — ولكن فى العام الماضى سافرت هنه معنا فى عربة القطار .

« هانز — ولكن قبل ذلك كانت دائما تسافر معنا فى الصندوق.

« أنا — ألم تكن ماما هى التى عندها الصندوق ؟ .

« هانز — نعم كان عند ماما .

« أنا — أين ؟ .

« هانز — فى البيت ، فى مخزن السطح .

« أنا — ربما كانت تحمله معها ؟ (٢) .

---

(١) كان هانز فى تلك اللحظة ينسج أخيولة ونحن نرى أن الصندوق والبانيو لهما نفس المعنى بالنسبة اليه ، فكلاهما يمثل المكان الذى يوجد فيه الاطفال . وينبغى أن نتنبه جيدا الى توكيدات هانز المتكررة فى هذا الموضوع .

(٢) الصندوق بالطبع هو الرحم — كان ابو هانز يحاول أن يجعله يتبين أنه يفهم ذلك . ويصدق ذلك على التوابيت حيث كان الكثيرون من أبطال الاساطير يعرضون منذ الملك ساحون الاجادى .

(ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) قارن دراسة رانك : « اسطورة مولد البطل » ١٩٠٩

Der Nathus von der Geburt der Helden. Eny. Trau. The Myth of the Birth of the Hero. New York 1952.

، هانز — كلا ؛ وعندما نسافر الى جموندن فى المرة التالية ، فسوف تسافر هنه فى الصندوق من جديد •

، أنا فكيف خرجت من الصندوق اذن ؟

، هانز — جرى اخراجها •

، أنا — على يد ماما ؟ •

، هانز — ماما وأنا • ثم ركبنا العربة • وركبت هنه على الحصان ، وقال الحوذى : « شى ! • كان الحوذى يجلس فى المقدمة • هل كنت هناك أنت أيضا ؟ ماما تعرف كل شىء عن ذلك • ماما لاتعرف ، فقد نسيت كل شىء عن ذلك الآن ، ولكن لاتخبرها بشىء ! •

، جعلته يكرر كل ذلك •

، هانز — وعندئذ خرجت هنه •

، أنا — ولكنها لم تكن تستطيع حينذاك المشى على الاطلاق •

، هانز — حسنا ، حملناها وأنزلناها •

، أنا — ولكن كيف استطاعت أن تجلس على الحصان ؟ انها لم تكن تستطيع الجلوس على الاطلاق فى العام الماضى ! •

، هانز — أوه ، نعم ! لقد كانت تجلس جيدا ، وصاحت : « شى ! »، وضربت بسوطها — « شى! شى ! » — وهو السوط الذى كان لى عادة • لم يكن للحصان ركاب ، ولكن هنه ركبته مع ذلك • اننى لاأمزح ، أنت تعرف يابابا •

ماذا يمكن أن تكون دلالة هذا التشبث العنيد من جانب الصبى بكل هذا الهراء ؟ أوه ، كلا ! لم يكن هذا هراء • كان محاكاة تستهدف السخرية، كان انتقام هانز من أبيه • كان ذلك وكأنه يقول : لو أنك توقعت منى حقاً أن أصدق أن طائر اللقلق قد أحضر هنه فى أكتوبر ، بعدما كان من رؤيتى — وكنا مانزال فى الصيف ، أثناء وجودنا فى جموندن — كيف • كانت بطن ماما كبيرة فعندئذ أتوقع منك أن تصدق أكاذيبى » • فماذا يمكن أن تكون دلالة توكيده بأن هنه ، فى الصيف الماضى ، قد سافرت معهم الى جموندن فى الصندوق » ، اللهم الا أنه كان على معرفة بأن أمه حبلى ؟ وكان هانز يتوقع أن تحدد هذه الرحلة فى الصندوق ، فى كل عام من الأعوام التالية ، فتلك واقعة تترجم عن طريقة مألوفة تبرز بها الى الشعور أفكار لاشعورية من الماضى ، أو ربما ترجع هذه الواقعة الى أسباب خاصة ، وتعبر عن خوف هانز من أن يرى تجدد مثل هذا الحمل فى أجازة الصيف القادم • أضف الى ذلك ، أننا نتبين الآن طبيعة هذه الظروف الخاصة التى أفسدت عليه حبه الذهاب الى جموندن ، على نحو ماتكشف عن ذلك أخيولته الثانية •

، وفيما بعد سألته كيف حدث أن أتت هنه — بعد ميلادها — الى فراش أمه •

مكن ذلك هانز من أن ينطلق — مستمتعا من كل قلبه — فى السخرية من أبيه •

، هانز — أتت هنه ببساطة • وضعتها مدام كراوس (القابلة) فى الفراش • لم تكن تستطيع أن تمشى بالطبع • ولكن طائر اللقلق حملها فى منقاره • لم تكن تستطيع أن تمشى بالطبع • (واسترسل دون توقف) صعد طائر اللقلق الدرج حتى السطح، ثم طرق الباب ،وكان الكل نياما ، وكان لديه المفتاح الصحيح ، ففتح الباب ، ووضع هنه فى فراشك أنت (١) ، وكانت ماما نائمة — كلا ، فقد وضعها طائر اللقلق فى فراشها

(١) ذلك من قبيل السخرية بالطبع • تماما كمطلبه اللاحق بأن لاينكشف شىء من هذا السر لأمه •

هى • كان ذلك فى منتصف الليل ، وعندئذ وضعها طائر اللقلق فى الفراش بكل هـدوء ، لم يحـدث أى صوت بقدميه ، وبعدئذ أخـذ قبعتـه وانصرف • كلا لم تكن لديه قبعة •

، أنا ــ من أخذ قبعته ؟ ربما الطبيب ؟

، هانز ــ وبعد ذلك انصرف طائر اللقلق ، رجع الى بيته ، ثم دق جرس الباب • فتوقف كل من البيت عن النوم • ولكن لاتخبر بذلك ماما أو تينى (الطاهية) • ذلك سر •

، أنا ــ هل تحب هنه ؟

، هانز ــ أوه ، نعم • أحبها جدا •

، أنا ــ هل كنت تفضل أن هنه تكون على قيد الحياة ؟ أو تكون ؟ •

، هانز ــ كنت أفضل بالحرى أن لا تكون على قيد الحياة •

، أنا ــ لماذا ؟

، هانز ــ على الأقل ماكانت تصرخ هكذا ، وأنا لاأستطيع أن أتحمل صراخها •

، أنا ــ لماذا ؟ أنت نفسك تصرخ •

، هانز ــ ولكن هنه تصرخ أيضا •

، أنا ــ لماذا لاتستطيع أن تتحمل صراخها ؟ •

، هانز ــ لأنها تصرخ عاليا جدا •

، أنا ــ ولكنها لاتصرخ أبدا •

، هانز ــ عندما نضربها ، بام بام ، على مؤخرتها العارية عندئذ تصرخ •

، أنا ــ هل حدث قط أنك ضربتها ، بام بام ، ؟ •

، هانز ــ عندما تضربها • ماما ، بام بام ، على مؤخرتها ، عندئذ تصرخ •

، أنا ــ وهذا يضايقك ؟ •

، هانز ــ كلا •• لماذا ؟ فقط لأنها تحدث صخبا شديدا بصرخاتها •

، أنا ــ مادمت تفضل أنها لاتكون على قيد الحياة ، فمعنى ذلك أنك لاتحبها على الاطلاق •

، هانز (موافقا) ــ هيم ؛ حسنا •

، أنا ــ ذلك هو السبب فى أنك تخيلت ، عندما كانت ماما تعطى منه حمامها ، لو أنها أرخت يدها وتركتها • وعندئذ تقع هنه فى الماء •

، هانز (مكملا عبارتى) ــ •• ، وتموت •

، أنا ــ وعندئذ تنفرد وحدك بماما • والولــد الطيب لاينبغى أن يتمنى مثل هذا الشىء •

هانز ــ ولكنه يستطيع أن يتخيل ذلك •

، أنا ــ ولكن ذلك ليس شيئا طيبا •

، هانز — لو تخيل ذلك فهذا أمر طيب مع ذلك ، بحيث يمكن أن تكتب به للأستاذ [1] .

، وفيما بعد قلت له : « هل تعرف ، عندما تكبر هنه ، وتستطيع أن تتكلم ، فسوف تحبها أكثر . »

، هانز — أوه ، كلا . فأنى أحبها بالفعل . ففى الخريف عندما تكبر سوف أذهب معها الى شتادبارك بمفردنا فقط ، وأشرح لها كل شىء .

وبينما كنت أقدم اليه مزيدا من التبصيرات ، قاطعنى ، ربما بغرض أن يوضح لى أن الأمر لم يكن من جانبه سيئا الى هذا الحد ، أن يتمنى موت هنه .

، هانز — أنت تعرف مع ذلك أنها كانت على قيد الحياة منذ زمن طويل قبل أن تأتى هنا . فعندما كانت مع طائر اللقلق كانت على قيد الحياة أيضا .

، أنا — كلا . ربما لم تكن فى نهاية الأمر عند طائر اللقلق .

، هانز — فمن الذى أتى بها اذن ؟ ان طائر اللقلق أتى بها .

، أنا — من أين أتى بها اذن ؟

، هانز — أوه ، من عنده .

، أنا — أين كان يحتفظ بها اذن ؟

، هانز — فى الصندوق . فى صندوق طائر اللقلق .

---

(١) أحسنت أيها الصغير هانز ، ليس لى أن آمل من أى راشد فى فهم افضل من ذلك للتحليل النفسى .

، أنا — حسنا ، ولكن هذا الصندوق ماشكله ؟

، هانز — أحمر • مدهون أحمر • (دم ؟)

، أنا — من أخبرك بذلك ؟

، هانز — ماما •• تخيلت ذلك فى نفسى ••• ذلك فى الكتاب •

، أنا — فى أى كتاب ؟

، هانز — فى كتاب الصور • (جعلته يحضر كتاب الصور الأول الذى عنده • وكانت فيه صورة عش طائر اللقلق ، مع طيور لقلق على مدخنة حمراء • كان ذلك هو الصندوق • ومن الغريب انه كانت هناك على نفس الصفحة أيضا صورة حصان يجرى تركيب حدوة له [1] • قـام هانز بازاحة الأطفال الى الصندوق ، لأنه لم يرهم فى العش •)

، أنا — وماذا صنع طائر اللقلق بهنه ؟

، هانز — عندئذ أتى بها طائر اللقلق الى هنا • فى منقاره • أنت تعرف طائر اللقلق فى شونبرون ، الذى عض المظلة • (ذكرى واقعة فى شونبرون) •

، أنا — هل تعرف كيف أتى طائر اللقلق بهنه ؟

، هانز — أنت تعرف أننى كنت مازال نائما • ان طائر اللقلق لايستطيع أبدا أن يأتى ببنت صغيرة أو بصبى صغير فى الصباح •

---

(١) فى استباق لما سوف يأتى ، تجدر الاشارة الى أن beschlagen الكلمة الالمانية (يجرى تركيب حدوه له) لاتختلف الا فى حرف واحد عن beschlagen

الكلمة الالمانية (يجرى ضربه) — هامش الترجمتين الانجليزية والفرنسية •

، أنا — لماذا ؟

هانز — انه لايستطيع ، ان طائر اللقلق لايستطيع أن يفعل ذلك . هل تعرف لماذا ؟ حتى لايراه الناس . وعندئذ ، فجأة فى الصباح ، نجد بنتا صغيرة عندنا (١) .

، أنا — ولكنك مع ذلك كنت شديد الرغبة فى ذلك الوقت فى أن تعرف كيف فعل طائر اللقلق ذلك ؟

، هانز — أوه ، نعم .

، أنا — كيف كان شكل هنه عندما أتت ؟

، هانز (فى نفاق) بيضاء جدا ولطيفة . غاية فى الجمال .

، أنا — ولكنك عندما رأيتها أول مرة لم تعجبك .

، هانز — أوه ، أعجبتنى ، كثيرا جدا !

، أنا — ولكنك أندهشت من أنها كانت صغيرة جدا .

، هانز — نعم .

، أنا — كانت صغيرة مثل ماذا ؟

، هانز — مثل فرخ طائر اللقلق .

---

(١) ليس ثمه مايدعو الى التوقف لتفحص لامنطقية هانز . ففى حواره السابق برز من عنده عدم تصديقه لحكاية طائر اللقلق وذلك بمناسبة ماأستشعره من ضيق بأبيه لاسرافه فى الالغاز . ولكن هانز قد استعاد الان هدوءه ، فراح يجيب على أسئلة أبيه بالتصورات الشكلية ، حيث ابتدع تفسيرات يتغلب بها على الصعوبات الكثيرة التى تنطوى عليها حكاية اللقلق .

، أنا — ومثلٌ ماذا أيضا ؛ ربما مثل لومف ؟

، هانز — أوه ، كلا • اللومف أكبر بكثير ••• فى الحقيقة أصغر قليلا من هنه •

كنت قد تنبأت لأبيه بأنه من الممكن ارجاع فوبيا هانز الى أفكار ورغبات تتصل بمولد شقيقته الصغيرة • ولكن كان قد فاتنى أن أنبهه الى أنه ، بحسب النظرية الجنسية عند الأطفال ، يكون الطفل الوليد هو « لومف » ، بحيث يتحتم على الطريق الذى يتبعه هانز أن يمضى عبر العقدة الاخراجية • ولقد كان بسبب هذا ألاهمال من جانبى أن تقدم التحليل قد أعتراه الغموض بشكل مؤقت • أما الآن ، وقد اتضح الأمر ، فقد حاول الأب مرة ثانية تفحص هانز حول هذه النقطة الهامة •

، وفى اليوم التالى جعلت هانز يكرر ماقاله لى فى اليوم السابق • قال : « سافرت هنه الى جموندن فى الصندوق الكبير ، وسافرت ماما فى عربة القطار ، وسافرت هنه فى قطار البضاعة مع الصندوق ، ثم عندما وصلنا الى جموندن قمت مع ماما بحمل هنه خارج الصندوق ، ووضعناها على الحصان • كان الحوذى يجلس فى المقدمة ، وكان مع هنه السوط القديم » (السوط الذى كان لديه فى العام الماضى) « وضربت بـه الحصان وراحت تصيح شئ ! ، وكان ذلك مسليا جدا ، وكان الحوذى أيضا يضرب بالسوط : — أن الحوذى لم يضرب ابدا بالسوط ، لأن السوط كان مع هنه • كان الحوذى يمسك باللجام — وكانت هنه تمسك باللجام أيضا • » (فى كل مرة كنا نستقل عربة من المحطة الى البيت • وهانز هنا يحاول أن يصالح بين الواقع والأخيولة •) « وفى جموندن حملنا هنه وأنزلناها من فوق الحصان ، وصعدت بنفسها درجات السلم • » (فى العام الماضى عندما كانت هنه فى جموندن ، كانت فى الشهر الثامن من عمرها • وفى العام السابق على ذلك — وأخيولة هانز تشير بوضوح الى ذلك التاريخ — كانت أمه عندما وصلت الى جموندن حبلى فى الشهر الخامس •)

، أنا — فى العام الماضى كانت هنه بالفعل معنا •

، هانز — فى العام الماضى كانت معنا تركب العربة ، ولكن فى العام السابق على ذلك عندما كانت تعيش معنا ...

، أنا — هل كانت معنا بالفعل فى ذلك الوقت ؟

، — نعم . أنت كنت دائما معنا ، وكان من عادتك دائما أن تركب معى القارب ، وكانت هنه خادمتنا .

، أنا — ولكن ذلك لم يكن فى العام الماضى . فلم تكن هنه بعد على قيد الحياة .

، هانز — بلا ، لقد كانت على قيد الحياة حينذاك . وحتى حين كانت ماتزال فى الصندوق أثناء السفر كانت تستطيع أن تجرى ، وكانت تستطيع أن تقول أنا ، . (لم تستطع أن تقول ذلك الا منذ أربعة أشهر)

، أنا — ولكنها لم تكن معنا على الاطلاق فى ذلك الوقت .

، هانز — أوه ، بلا . فقد كانت ، كانت مع طائر اللقلق .

، أنا — ماعمرها اذن الآن ؟

، هانز — سيكون عمرها سنتين فى الخريف . كانت هنه بالتأكيد على قيد الحياة ، وأنت تعرف أنها كانت على قيد الحياة .

، أنا — ومتى كانت مع طائر اللقلق فى صندوق طائر اللقلق ؟

، هانز — قبل أن تسافر فى الصندوق بزمن طويل جدا .

، أنا — اذن منذكم من الزمن استطاعت هنه أن تمشى ؟ فانها عندما كانت فى جموندن لم تكن تستطيع بعد أن تمشى .

« هانز — فى العام الماضى لم تكن تستطيع ، أما فيما عدا ذلك فكانت تستطيع .

« أنا — ولكن هنه لم تكن فى جموندن الا مرة واحدة .

« هانز — كلا ، كانت هناك مرتين . نعم ، هو كذلك . بوسعى أن أتذكر تماما . سل ماما ، وسوف تخبرك بذلك فى التو .

« أنا — ليس هذا صحيحا ، مع ذلك .

« هانز — بلا ، هذا صحيح . عندما كانت فى جموندن أول مرة كانت تستطيع أن تمشى وأن تركب الحصان ، وفيما بعد كان يتحتم حملها . — كلا . فانها لم تركب الحصان الا فى وقت لاحق ، وفى العام الماضى كـان يتحتم حملها .

« أنا — ولكنها منذ وقت قصير فقط استطاعت أن تمشى . وفى جموندن لم تكن تستطيع أن تمشى .

« هانز — بلا . فقط أكتب ذلك . فانى أستطيع أن أتذكر ذلك تماما . لماذا تضحك ؟

« أنا — لأنك مخادع ، لأنك تعرف تماما أن هنه لم تكن فى جموندن غير مرة واحدة .

هانز — كلا . هذا غير صحيح . ففى المرة الأولى ركبت هى على الحصان ... وفى المرة الثانية ... (بدت عليه علامات الشك الواضح).

« أنا — ربما كان الحصان هو ماما .

« هانز — كلا . حصان حقيقى بعربة وكارتا .

، أنا — ولكن كان من عادتنا دائما أن نركب عربة بحصانين •

، هانز — حسنا اذن ، كانت عربه بحصانين •

، أنا — ماذا كانت تأكل هنه داخل الصندوق ؟

، هانز — وضعوا لها داخل الصندوق خبزا وزبدا ورنجة وفجلا (نفس الأشياء التى كنا تتناولها فى العشاء فى جموندن) ، وأثناء السفر كانت هنه تدهن خبزها بالزبد وأكلت خمسين وجبة •

، أنا — الم تكن هنه تصرخ ؟

، هانز — كلا •

، أنا — ماذا كانت تفعل اذن ؟

، هانز — كانت تجلس هادئة تماما فى الداخل •

، أنا — ألم تكن تتحرك فى الداخل ؟

، هانز — كلا ، كانت تأكل دائما طوال الوقت دون توقف ، ولم تتحرك مرة واحدة • شربت هنه فنجانين كبيرين من القهوة — وفى الصباح كان كل شىء قد انتهى ، وتركت وراءها بقايا الطعام فى الصندوق ، أوراق الفجلتين وسكينا لقطع الفجل • لقد التهمت كل شىء كأرنب برى : دقيقة واحدة وكان كل شىء قد انتهى • كان ذلك مضحكا حقا • هنه وأنا سافرنا معا فى الواقع فى الصندوق ، نمت طول الليل فى الصندوق • (سافرنا فى الواقع منذ عامين الى جموندن أثناء الليل •) وسافرت ماما فى عربة القطار • وظللنا نأكل طول الوقت عندما كنا نركب العربة أيضا ، كان ذلك رائعا • لم تكن على الاطلاق فوق الحصان ••(غدا الآن مترددا ، لأنه عرف أننا كنا قد ركبنا عربة بحصانين) ••• جلست فى العربة • نعم

هكذا كانت ، ولكن هنه وأنا كنا فى العربة وحدنا ••• وماما ركبت على الحصان ، وركبت كارولين (خادمتنا فى العام الماضى) على الحصان الآخر ••• هل تعرف ، ان ماأقوله لك ليس صحيحا على الاطلاق •

، أنا — ماهذا الذى ليس بصحيح ؟

، هانز — لاشىء منه صحيح • ضعنى أنا وهنه فى الصندوق (١) ، وسوف أطرطر فى الصندوق • سوف أطرطر ببساطة فى بنطلونى ، فأنا لاأهتم بذلك على الاطلاق فليس فيـــه على الاطـــلاق مايبعث علـــى الخجل • هل تعرف ، هذا ليس بتهريج ، ولكنه أمر يبعث على التسلية جدا •

، وبعد ذلك حكى لى كيف أتى طائر اللقلق — تماما كما حكى ذلك بالأمس ، فيما عدا أنه حذف الجزء الخاص بأن طائر اللقلق أخذ قبعته وهو ينصرف •

، أنا — أين كان طائر اللقلق يحتفظ بمفتاح الباب ؟

، هانز — فى جيبه •

، أنا — وأين يوجد جيب طائر اللقلق ؟

، هانز — فى منقاره •

، أنا — فى منقاره ! اننى لم أر قط حتى الآن طائر لقلق بمفتاح فى منقاره •

---

(١) الصندوق الذى يوجد فى الردهة الامامية والذى أخذناه ضمن متاعنا فى جموندن•

، هانز ــ كيف بغير ذلك استطاع أن يدخل ؟ وكيف اذن يدخل طائر اللقلق من الباب ؟ كلا ، هذا غير صحيح • اننى أخطأت ببساطة • ان طائر اللقلق دق الباب الخارجى ، ففتح له واحد الباب •

، أنا ــ وكيف دق الباب ؟

، هانز ــ دق الجرس •

، أنا ــ وكيف فعل ذلك ؟

، هانز ــ استخدم منقاره ، فضغط به على الجرس •

، أنا ــ وهل أغلق طائر اللقلق الباب من ورائه ؟

، هانز ــ كلا ، اغلقته خادمة • كانت يقظة ، ففتحت الباب لطـــائر اللقلق ، ثم أغلقته من جديد •

، أنا ــ أين يعيش طائر اللقلق ؟

، هانز ــ أين ؟ فى الصندوق الذى يحفظ فيه البنات الصغيرات • ربما فى شونبرون •

، أنا ــ اننى لم أر قط صندوقا فى شونبرون •

، هانز ــ لابد وأنه كان بعيدا • هل تعرف كيف يفتح طائر اللقلق الصندوق ؟ يستخدم منقاره ــ وللصندوق أيضا مفتاح ــ يستخدم منقاره برفع نصفه الأعلى ، فيفتح الصندوق هكذا • (ويوضح العمليه بتمثيلها على كالون المكتب •) وهذا مقبض أيضا •

، أنا ــ وبنت صغيرة هكذا ألا تكون أثقل مما يحتمل طائر اللقلق ؟
، هانز ــ أوه ، كلا •

، نا — قل لى ، أليس الأمنيبوس فى شكله كصندوق طائر اللقلق ؟

، هانز — بلا .

، أنا — وعربة الأثاث ؟

، هانز — وأيضا عربة « البعبع » التى تجمع الأطفال الأشقياء .

* * *

، اليوم السابع عشر من ابريل بالامس نفذ هانز مشروعه الذى كان يحلم به منذ وقت طويل ، فى أن يعبر الطريق الى داخل الفناء المواجه لمنزلنا . ولكنه اليوم لايريد تنفيذه ، اذ كانت هناك عربة تقف عند رصيف التحميل تماما فى مواجهة بوابة الدخول . قال لى : « عندما تقف عربة هناك فانى أخاف من أن اعاكس الأحصنة فتقع وتحدث صخبا شديدا بأقدامها . »

، أنا — كيف تكون معاكسة الأحصنة ؟

، هانز — عندما تكون غاضبا منها تعاكسها ، وعندما تصيح (شى) ! ، . (١)

، أنا — هل عاكست قط أحصنة ؟

، هانز — نعم ، كثيرا جدا . أخاف من أننى أفعل ذلك ، ولكنى لاأفعله فى الواقع .

، أنا — هل عاكست قط أحصنة فى جموندن ؟

---

(١) كثيرا ما كان هانز يرتعب بشدة حين يرى الحوذى يضرب حصانه ويصيح « شى ! »

، هانز ــ كلا .

، أنا ــ ولكنك تحب أن تعاكسها ؟

، هانز ــ أوه ، نعم . كثيرا جدا .

، أنا ــ هل تحب أن تضربها بالسوط ؟

، هانز ــ نعم .

، أنا ــ هل تحب أن تضرب الأحصنة كما تضرب ماما هنه ؟ فأنت تحبه ذلك أيضا ، أليس كذلك ؟

، هانز ــ ليس هناك من ضرر على الأحصنة عندما تضرب : (قلت له ذلك مرة لأخفف من خوفه عندما يرى الاحصنة تضرب بالسياط .)
فعلت ذلك مرة فى الواقع . فقد كان معى السوط مر فضربت به الحصان، فوقع وأحدث صخبا شديدا بأقدامه .

، أنا ــ متى ؟

، هانز ــ فى جموندن .

،أنا ــ حصان حقيقى ؟ مشدود الى عربة ؟

، هانز ــ لم يكن مشدودا الى عربة .

، أنا ــ أين كان أذن ؟

، هانز ــ كنت فقط أمسك به حتى لايجرى بعيدا . (كان ذلك كله بالطبع أبعد مايكون عن التصديق)

، أنا ــ أين كان ذلك ؟

، هانز — قرب المزود •

، أنا — من سمح لك ؟ هل ترك الحوذى الحصان واقفا هناك ؟

، هانز — كان ببساطة حصانا من الأسطبل •

، أنا — كيف وصل الى المزود ؟

، هانز — أخذته الى هناك •

، أنا — من أى مكان ؟ أخرجته من الاسطبل ؟

، هانز — أخرجته لأننى كنت أريد أن أضربه •

، أنا — ألم تخرج قط حصانا فى الاسطبل ؟

، هانز — أوه ، نعم لويزل (الحوذى فى جموندن •)

، أنا — هل سمح لك ؟

، هانز — تحدثت اليه فى لطف ، فقال ان بوسعى أن أفعل ذلك•

، أنا — ماذا قلت له ؟

، هانز — هل يمكننى أن آخذ الحصان ، وأضربه بالسوط ، وأصيح فيه • وقد قال • « نعم » •

، أنا — هل ضربته بالسوط كثيرا ؟

، هانز — ماقلته لك ليس فيه شىء من الصحة •

، أنا — مامقدار الصحيح فيه ؟

، هانز — لاشىء منه صحيح ، انى فقط قلته لك على سبيل المزاح •

، أنا — ألم تخرج قط حصانا من الأسطبل ؟

، هانز — أوه ، كلا •

، أنا — ولكنك كنت ترغب فى ذلك •

، هانز — أوه ، نعم كنت أرغب فى ذلك •

، أنا — فى جموندن ؟

، هانز — كلا ، هنا فقط • تخيلت ذلك الصباح عندما كنت عاريا تماما ، كلا ، فى الصباح وأنا فى الفراش •

، أنا — لماذا لم تخبرنى قط بذلك •

، هانز — لم أفكر فى ذلك •

، أنا — تخيلت ذلك فى نفسك لأنك رأيته فى الطريق ؟

، هانز — نعم •

، أنا — من الذى ترغب حقا فى أن تضربة ؟ ماما ، هنه ، أو أنا ؟

، هانز — ماما •

، أنا — لماذا ؟

، هانز — لأننى ببساطة أحب أن اضربها •

، أنا — متى رأيت قط أحدا يضرب أمه ؟

، هانز — لم أر قط أحدا يفعل ذلك ، لم أر قط ذلك فى حياتى كلها •

، أنا — وهذا مع ذلك هو ماتريد أن تفعله • كيف كنت تريد أن تنجز ذلك ؟

، هانز — بمضرب السجاد • (كثيرا ما تهدده أمه بأن تضربه بمضرب السجاد) •

، كنت مضطرا الى أن أوقف الحوار عند هذا الحد اليوم •

، وفى الطريق أوضح لى هانز أن الأومنيبوسات ، وعربات الأثاث ، وعربات الفحم هى كلها عربات ـــ صناديق لطائر اللقلق .

، ومعنى هذا نساء حبليات . ونوبة السادية عند هانز ، وهى السابقة مباشرة على ذلك ، لايمكن أن تكون منفصلة عن الموضوع الحالى .

* * *

، اليوم الحادى والعشرين من ابريل . هذا الصباح قال هانز أنه تخيل مايلى : « كان هناك قطار فى لاينتس ، وسافرت من لاينتس ، حيث جدتى ، الى محطة الجمارك المركزية . لم تكن أنت قد فرغت بعد من هبوط درجات المعبر ، عندما كان القطار الثانى قد بلغ فعلا الى سانت فايت (١) وعندما نزلت أنت ، كان هناك قطار بالفعل ، فركبنا فيه » .

(كان هانز فى لاينتس بالأمس . وللوصول الى رصيف السفر لابد من عبور معبر . ومن ذلك الرصيف يمكن للعين أن ترى على أمتـــداد القضبان محطة سانت فايت والأمر كله غامض بعض الشيء . كانت فكرة هانز فى الأصل هى بالتأكيد أنه قد رحل فى قطار أول، هذا الذى فاتنى ، وأنه بعد ذلك أتى قطار ثان من سانت فايت فرحلت فيه من بعده ولكنه قام بتحريف جانب من أخيولة الهروب هذه ، بحيث قال فى نهايتها : كلانا لم يرحل الا فى القطار الثانى .

، هذه الأخيولة ترتبط بالأخيوط الاخيرة ، التى لم نقم بتفسيرها ، والتى بحسبها استغرقنا وقتا أكثر مما ينبغى فى ارتداء ملابسنا عند محطة جموندن ، بحيث مضى بنا القطار قبل أن نستطيع النزول) .

، بعد الظهر ، أمام البيت جرى هانز فجأة داخل البيت ، عندما أقبلت عربة بحصانين . لم يكن بوسعى أن أرى فى العربة والحصانين

---

(١) محطة أونترسانت فايت Unter St. Veit هى المحطة التالية للاينتس بعد مغادرة فينا ـ هامش الترجمتين الانجليزية والفرنسية :

شيئا غير عادى • فسألته ماذا حدث • قال : « الحصانان مزهوان جدا ، بحيث أخاف أن يقعا • » (كان الحودى يشد اليه بقوة لجام الحصانين، بحيث كانا يتهاديان فى خطوات قصيرة ، ورأساهما عاليا الى الوراء ، وكان منظرهما فى الحقيقة مزهوا) •

، سألته من هو ، فى الواقع المزهو جدا •

هانز ــ أنت هو ، عندما آتى وادخل فى الفراش مع ماما •

، أنا ــ واذن فأنت تريدنى أن أقع ؟

، هانز ــ نعم • كان ينبغى أن تكون عاريا (يقصد عارى القدمين ، كما كان فريتزل) وأن ترتطم بحجر ، وأن يسيل الدم ، وعندئذ أستطيع على الأقل أن أبقى بعض الوقت بمفردى مع ماما • وعندما تعود صاعدا مسكننا يكون بوسعى أن أهرب بسرعة ، وحتى لاترانى •

، أنا ــ هل ــ تذكر من الذى ارتطم بالحجر ؟

، هانز ــ نعم ، فريتزل •

، أنا ــ عندما وقع فريتزل ، ماالشىء الذى خطر ببالك (١) •

، هانز ــ أنه كان ينبغى أن ترتطم أنت بالحجر وتقع •

، أنا ــ وعلى ذلك فأنت تريد أن تبقى بمفردك مع ماما •

، هانز ــ نعم

، أنا ــ على أى شىء كنت قد وبختك فى الواقع ؟

، هانز ــ لاأدرى (! ! !)

---

(١) وهكذا فان فريتزل قد وقع بالفعل ـ وهو الامر الذى انكره من قبل •

، الماذا ؟

، هانز — لأنك كنت تغضب •

، هانز — ولكن هذا غير صحيح •

، هانز — بلا • أنه صحيح • كنت تغضب ، أنا أعرف ذلك • هذا لابد وأن يكون صحيحا •

، ومن الواضح أن هانز لم يتأثر بشكل بتفسيرى : أن صغار الصبيان وحدهم يأتون ويدخلون فى الفراش مع أمهم ، بينما كبار الصبيان ينامون فى فراشهم •

وأغلب ظنى أن رغبته فى « معاكسة » الحصان ، بمعنى أن يضربه ويصيح به لاتتجه الى أمه ، كما زعم ذلك ، بل تتجه الى أنا • وليس من شك فى أنه فقط وضع أمه فى الصدارة لأنه لم يكن يرغب فى أن يصرح لى بحقيقة الأمر • فقد كان فى الأيام القليلة الاخيرة ودودا معى بصفة خاصة

واذا ما تحدثنا بروح التفوق الذى ماأسهل أن يحققه المرء بعد أن تنقضى الواقعة ، فانه يكون بوسعنا أن نصحح التفسير ألذى قدمه أبو هانز ، قائلين بأن رغبة الصبى فى « معاكسة » الحصان تنطوى على عنصرين مكونين : فهى تتكون من رغبة سادية غامضة تجاه أمه ، ومن نزعة واضحة للانتقام من أبيه • ولم يكن للنزعة الأخيرة أن تبرز قبل أن يأتى دور الرغبة الأولى فتظهر فى صلتها بعقدة الحمل ففى عملية تكون الفوبيا ، ابتداء من الأفكار اللاشعورية التى تكمن وراءها يحدث تكثيف ، ولهذا السبب فان مسار التحليل لايمكن بحال أن يتبع مسار تكون العصاب

* * *

واليوم الثانى والعشرون من ابريل • وفى هذا الصباح أيضا تخيل هانز شيئا بينه وبين نفسه : « صبى شوارع يركب عربة نقل كبيرة ، ثم يأتى الحارس ويجرده من ملابسه ويتركه عاريا تماما ، ويجعله يقف هناك

حتى صباح اليوم التالى ، وفى الصباح يعطى الصبى للحارس خمسين الف فلورين حتى يستطيع أن يستأنف ركوبه على العربة •

(ان سكة حديد الشمال (١) تمتد فى مواجهة بيتنا تماما • وعلى خط قضبان جانبى هناك تقف عربة صغيرة (ترولل) ، رأى هانز يوما صبى شوارع يركب عليها • فأراد هو أن يفعل نفس الشىء ، ولكننى أخبرته بأن ذلك غير مسموح به ، وأنه لو فعل فسيلاحقه الحارس • ثمة عنصر ثان فى هذه الأخيولة هى الرغبة المكبوتة عند هانز فى أن يكون عاريا •)

استطعنا أن نلاحظ ، منذ بعض الوقت ، أن خيال هانز يعمل بأخيلة مستمدة من وسائل المواصلات (٢) ، ويمضى بشكل منهجى من الأحصنة التى تجر العربات الى السكك الحديدية • وهكذا فان كل فوبيا من الشارع ترتبط بهامع الوقت فوبيا من السكك الحديدية •

« وفى وقت الغذاء أخبرونى أن هانز كان يلعب طوال الصباح بعروسة من الكاوتشوك كان يسميها جريتا Grete • أدخل مطواة صغيرة فى الفتحة التى كان مثبتا فيها فى ألاصل ألصفارة الصغيرة المسطحة من القصدير ، ثم مزق مابين رجل العروسة بحيث أمكن لسلاح المطواة أن يخرج من ذلك الموضع • وقال للخادمة ، وهو يشير الى مابين رجلى العروسة : « أنظرى ، هنا حمامتها ! »

« أنا — مااللعبة التى لعبتها مع عروستك اليوم ؟

هانز — مزقتها مابين الرجلين • هل تعرف لماذا ؟ لأنه كانت توجد مطواة فى داخلها هى مطواة ماما • كنت قد أدخلتها من الفتحة التى

---

(١) فى الاصل Nordbahn — المترجمون •

تستخدم لغرض Verkehr ، بمعنى « الممارسة غير المشروعة » و

(٢) أنظر هامش ٣ من ص ٧٤ من حالة دورا ، حيث كلمة « محطة » « الاتصال » و « الاتصال الجنسى » ، فتهىء بطانة نفسية لكثير من فوبيات السكك الحديدية •

تصرخ منها رأسها ، وعندئذ مزقت مابين رجليها ، فخرجت المطواة من هذا الموضع .

« أنا — لماذا مزقت مابين رجليها ؟ حتى تستطيع أن ترى حمامتها ؟

«هانز — كانت حمامتها موجودة من قبل ، وكنت أستطيع أن أراها على أى حال .

« أنا — لماذا أدخلت المطواة فيها ؟ .

« هانز — لاأدرى .

« أنا — حسنا ، المطواة تشبه أى شىء .

« أحضر هانز المطواة لى .

« أنا — ربما تكون قد تخيلت أنها طفل صغير ؟

« هانز — كلا ، أنا لا أتخيل أى شىء على الاطلاق ، ولكن يبدو أن طائر اللقلق كان لديه مرة طفل صغير — أو أحد ما .

« أنا — متى ؟

هانز — ذات مرة . سمعت بذلك — أو ربما لم أسمع بذلك على الاطلاق ؟ أو ربما أكون قد قلت ذلك خطأ ؟ .

« أنا — ماذا تقصد بقولك : خطأ ؟

« هانز — أن ذلك غير صحيح .

« أنا — كل شىء يقوله المرء هو صحيح الى حد ما .

« هانز — أوه ! نعم ، الى حد ما .

، أنا (بعد أن غيرت موضوع الحديث) ــ كيف يتولد الفراخ فى تصورك •

، هانز ــ ان طائر اللقلق يجعلها ببساطة تكبر ، ان طائر اللقلق يجعل الفراخ تكبر ــ كلا الله يفعل ذلك •

« أوضحت له أن الفراخ بيضا ، وأنه من البيض تخرج فراخ أخرى•

« ضحك هانز •

« أنا ــ لماذا تضحك ؟

هانز ــ لأن هذا الذى تقوله لى يسرنى •

قال لى بانه قد سبق له أن رأى ذلك بالفعل •

، أنا ــ أين ؟ •

، هانز ــ أنت فعلت ذلك •

، أنا ــ أين بضت أنا بيضة ؟

، هانز ــ فى جموندن ، بضت أنت بيضة فى الحشائش ، وخرجت منها فى التو فرخة تقفز • أنت بضت مرة بيضة ، أعرف أنك فعلت ذلك ،

أعرف ذلك بالتأكيد • لأن ماما قالت ذلك •

، أنا ــ سوف أسأل ماما ما أن كان ذلك صحيحا •

، هانز ــ هذا غير صحيح على الاطلاق ، ولكنى أنا بضت مرة بيضة، وخرجت منها فرخة تقفز •

، أنا ــ أين ؟

، هانز — فى جموندن ، رقدت فى الحشائش ، كلا ، ركعت على ركبتى، ولم يرنى الأطفال على الاطلاق ، وفجأة فى الصباح قلت : « ابحثوا أيها الأطفال ، فبالأمس بضت بيضه ! » وفجأة كلهم بحثوا ، وفجأة كلهم رأوا بيضة ، وخرج منها هانز صغير • حسنا ، لماذا تضحك ؟ ماما لاتعرف ذلك، وكارولين لاتعرف ذلك ، لأن ما من أحد كان يرانى ، وفجأة بضت بيضة، وفجأة كانت البيضة موجودة حقا وفعلا • بابا ، متى تخرج فرخة من البيضة ، عندما نترك البيضة وحدها ؟ هل ينبغى أن نأكلها ؟

، وضحت له الأمر

، هانز — حسنا ، فلنترك البيضة للفرخة ، وعندئذ سوف تخرج فرخة • ولنضعها داخل الصندوق ، ونأخذها الى جموندن •

ان هانز الصغير قد أمسك بجرأة فى يديه بعنان تحليله ، بالنظر الى تردد أبويه فى تزويده بالتبصيرات التى كان عليهما أن يزوداه بها منذ وقت طويل•فمن خلال فعل أعراضى صارخ، قال لهما:«أنظرا ذلك هو تصورى عن الميلاد كيف يحدث • » وما قاله للخادمة عن دلالة اللعبة التى كان يقوم بها على العروسة لم يكن صادقا ، فقد أنكر صراحة فى حديثه مع أبيه أن رغبته كانت تقتصر على رؤيته حمامتها • وبعدما أخبره أبوه، وكأنه يسدد قسطا من دينه ، كيف تخرج الفراخ من البيض ، فان عدم رضاه وعدم ثقته ومعرفته المتفوقه بالمسألة قد ائتلفت كلها فى سخرية ساخرة ، تصاعدت فى أقواله الأخيرة الى حد التلميح جد الواضح الى ميلاد أخته •

، أنا — أى لعبة كنت تلعب بعروستك ؟

، هانز — كنت أناديها : جريتا •

، أنا — لماذا ؟

، هانز — لأنى كنت أناديها جريتا •

« أنا — كيف كنت تلعب ؟

« هانز — كنت ببساطة أرعاها كطفل صغير حقيقى ٠

« أنا — هل تحب أن تكون لك بنت صغيرة ؟

« هانز — أوه ، نعم ، لم لا ؟ انى أحب أن تكون لى بنت صغيرة ولكن ماما لاينبغى أن تكون لها بنت صغيرة ، فانى لاأحب ذلك ٠

« (كثيرا ماعبر عن هذا الرأى من قبل ٠ فهو مايزال يخاف من أن يفقد مزيدا من مكانته بميلاد طفل ثالث ٠)

« أنا — ولكن النساء وحدهن يكون لهن أطفال ٠

« هانز — سوف تكون لى بنت صغيرة ٠

« أنا — من أين ستأتى بها اذن ؟

« هانز — حسنا ، من طائر اللقلق ٠ فطائر اللقلق يخرج البنت الصغيرة ، وفجأة تبيض البنت الصغيرة بيضة ، ومن البيضة تخرج هنه أخرى هنه أخرى ومن هنه تخرج هنه أخرى ٠ كلا ، تخرج هنه واحدة ٠

« أنا — أنت ترغب فى أن تكون لك بنت صغيرة ٠

« هانز — نعم ، فى العام القادم ستكون لى بنت صغيرة ، وسوف يكون اسمها هنه أيضا ٠

« أنا — ولكن ماما لماذا لاينبغى أن تكون لها بنت صغيرة ؟

« هانز — لأننى أنا أريد أن تكون لى مرة بنت صغيرة ٠

« أنا — ولكنك لايمكن أن تكون لك بنت صغيرة ٠

، هانز — أوه ،بلى ، فالصبيان يكون لهم بنات ، والبنات يكون لهن صبيان (١) •

انا — الصبيان لايكون لهم اطفال ولكن النساء فقط المامات (الأمهات) فقط لهن أطفال •

، هانز — ولكن لما لايكون لى ؟

، أنا — لأن الله رتب الأمور هكذا •

، هانز — ولكن لماذا لاتكون لك أنت بنت صغيرة • أوه ، نعم ، فسوف تكون لك واحدة بالتاكيد • ماعليك الا أن تنتظر •

، أنا — استطيع ان انتظر طويلا !

، هانز — ولكنى مع ذلك لك •

، انا — لكن ماما هى التى اتت بك الى العالم • وعلى ذلك فأنت لماما ولى •

، هانز — هل هنه لى أو لماما •

، انا — هى لماما •

، هانز — كلا ، هى لى • لم لاتكون لى ولماما ؟

، انا — هنه هى لى ولماما ولك •

، هانز — ذلك هو أرأيت ! •

طالما كان الطفل يجهل العضو التناسلى الأنثوى ، فان عنصرا اساسيا ينقصه بالطبع لفهم العلاقات الجنسية •

* * *

، فى اليوم الرابع والعشرين من ابريل تلقى هانز من زوجتى ومنى

(١) هذا جزء صغير آخر من النظرية الجنسية الطفلية ذات دلالة غير متوقعة •

تبصيرات الى حد معين : اخبرناه ان الأطفال يكبرون داخل أمهاتهم ، ثم ينضغطون فيخرجون الى العالم مثل « لومف » ، وان ذلك ينطوى على قدر كبير من الألم •

، وبعد الظهر خرجنا امام البيت • كان هناك تحسن ظاهر فى حالته • كان يجرى وراء العربات • والشىء الوحيد الذى كان ينم عن وجود بقية من حصره كان ينحصر فى انه لم يكن يجترىء على الابتعاد عن المنطقة المجاورة للباب الخارجى ، ولم يكن من الممكن حمله على الخروج فى اية نزهة طويلة •

، وفى اليوم الخامس والعشرين من ابريل نطحنى هانز براسه فى بطنى ، على نحو مافعل ذلك مرة من قبل • سألته مأن كان عنزه • قال: « نعم ، كبش • » فسألته اين رأى كبشا •

، هانز — فى جموندن : كان عند فريتزل كبش • (كان عند فريتزل خروف حقيقى صغير يلعب به •)

، أنا — ينبغى أن تحدثنى عن الخروف الصغير • ماذا كان يفعل ؟

هانز — أنت تعرف أن الآنسة ميتسى (معلمة مدرسة كانت تسكن فى البيت) كان من عادتها دائما أن تضع هنه على الخروف الصغير ؟ ولكنه لم يكن يستطيع عندئذ أن ينهض ، ولم يكن يستطيع أن ينطح• ولكنك اذا اقتربت منه فعادة ما ينطح ، لأن له قرنين ، كان من عادة فريتزل أن يجره بحبل ، وأن يربطه الى شجرة • كان دائما يربطه الى شجرة •

، أنا — هل نطحك الخروف الصغير ؟

هانز — لقد وثب نحوى ، أخذنى فريتزل مرة على مقربة منه

واقتربت منه مرة ، ولم أكن أعرف ، وفجأة وثب نحوى • وقد كان ذلك مسليا جدا — ولم أكن خائفا •

، كان ذلك بالتأكيد غير صحيح •

، أنا — هل تحب بابا ؟

، هانز — أوه ، نعم •

، أنا — أو ربما لا •

، كان هانز يلعب بلعبة هى حصان صغير • وفى تلك اللحظة وقع الحصان ، فصاح هانز : « وقع الحصان ! أنظر أى صخب شديد يحدثه ! »

، أنا — أنت متضايق بعض الشيء من بابا لأن ماما تحبه •
هانز — كلا •

، أنا — واذن ، لماذا تبكى دائما عندما تعطينى ماما قبلة ؟ ألأنك غيران ؟

، هانز — غيران ، نعم •

، أنا — كنت تحب أن تكون أنت بابا •

، هانز — هانز أوه ، نعم •

، أنا — ماذا كنت تحب أن تفعل لو أنك كنت بابا ؟

، هانز — وكنت أنت هانز ؟ كنت أحب عندئذ أن آخذك الى لا ينتس كل أيام الآحاد — كلا ، كل أيام الاسبوع أيضا • لو كنت أنا بابا كنت أكون دائما لطيفا وطيبا •

، أنا — ولكن ما الذى كنت تحب أن تفعله مع ماما ؟

، هانز — اخذها الى لا ينتس أيضا •

، أنا — وماذا أيضا •

، هانز — لا شىء •

، أنا اذن لماذا كنت غيران ؟

، هانز — لا ادرى •

، — وهل كنت فى جموندن أيضا غيران ؟

، هانز — ليس فى جموندن • (هذا غير صحيح •) ففى جموندن كانت لى أشيائى الخاصة • وكان عندى حديقة فى جموندن وأيضا أطفال •

، أنا — هل تستطيع أن تتذكر البقرة كيف كان لها عجل صغير ؟

، هانز — أوه نعم • أتى العجل الصغير فى عربة • (قيل له ذلك ولا شك جموندن ، تلك نقطة أخرى ثانية ضد نظرية طائر اللقلق •) وبقرة أخرى ضغطته فخرج من مؤخرتها • (كان ذلك بالفعل نتاج تبصيره ، هذا الذى كان يحاول أن يناغمه مع نظرية العربة) •

، أنا — ليس بصحيح أن العجل الصغير أتى فى عربة ، فقد خرج من البقرة فى الزريبة •

، وجادل هانز فى ذلك ، قائلا انه رأى فى العربة فى الصباح • ونبهته الى أنه ربما قد قيل له ذلك عن العجل من أنه أتى فى عربة • وفى النهاية ،سلم بذلك وقال :

« أغلب الظن أن برتا أخبرتنى بذلك ـــ أولا ـــ او ربما كان صاحب الفندق ، اذا كان هناك ، وكان الوقت ليلا • وعلى ذلك فصـــحيح فى النهاية ما كنت أقوله لك ـــ أو يبدو لى أن ما من أحد اخبرنى بذلك • »

، ان لم أكن مخطئا فان العجل الصغير قد حملوه بعيدا فى عربة ، ومن هنا كان الخلط •

، أنا ـــ لماذا لم تتصور أن طائر اللقلق هو الذى أتى به ؟

، هانز ـــ لم أكن أريد أن أتصـــور ذلك •

، أنا ـــ ولكنك تصـــورت أن طائر اللقلق أتى بهنه ؟

، هانز ـــ فى الصباح (يوم الولادة) تصـــورت ذلك • ـــ قـــل لى يا بابا ، هل كان السيد رايتســـنجلر (صاحب الفندق) هنـــــاك عندما خرج العجل الصغير من البقرة ؟ (١)•

، أنا ـــ لا أدرى• هل تعتقد أنه كان هنـــاك •

، هانز ـــ أعتقد ذلك •• بابا ، هل لاحظت بين حين وآخـــر أن الأحصنة لها شىء أســـود على أفواهها ؟

، أنا ـــ لاحظت ذلك بين حين وآخر فى الطريق فى جموندن (٢) •
، أنا ـــ هل كثيرا ماكنت تدخل الى الفراش مع ماما فى جموندن ؟

---

(١) كان هانز ـ ولديه من الاسباب القوية مايجعله عديم الثقة فى المعلومات التى يقدمها الكبار ـ يتساءل مالن كان صاحب الفندق أجـــدر بالتصديق من ابيه •

(٢) كان تسلسل الافكار كما يلى : خلال فترة طويلة رفض أبوه أن يصدق ما كان يقوله من وجود شىء أسود على أفواه الاحصنة ، لكن تثبت صحة ذلك فى نهاية الامر •

، هانز ـــ نعم •

، أنا ـــ وكنت تتصــور فى نفسك انك بابا ؟

، هانز ـــ نعم •

، أنا ـــ وعندئذ شعرت أنك خائف من بابا ؟

، هانز ـــ انت تعرف كل شىء ، لم أكن أعرف شيئا •

، أنا ـــ عندما وقع فريتنزل تخيلت : وفقط لو أن بابا وقع هكذا ! هل تستطيع أن تتذكر الجنازة فى جموندن ؟ (كانت الجنـازة الأولى التى شهدها هانز • وكثيرا ما يسترجعها ، وهى ولا شـك ذكـرى حاجبة) •

، أنا ـــ عندئذ تخيلت فقط لو أن بابا يموت وتصبح أنت بابا •
، هانز ـــ نعم : وماذا عن ذلك ؟

، هانز : نعم •

، أنا ـــ أى العربات ما تزال تخـاف منها ؟

، هانز ـــ كلهـا •

، أنا ـــ أنت تعرف أن هـذا غير صحيح •

، هانز ـــ لست أخاف من العـربات ذات الحصـانين ، ولا من العربات ذات الحصـــان الواحد • انى أخاف من الأومنيبوسات ومن عربات الأثاث ، ولكن فقط عندما تكون محمـاة ، وليس عندما تكـون

فارغة • وعندما يكون هنـــاك حصان واحد ، وتكون العربة محملـــة الى اخـــرها ، عندئذ أخـــاف ، ولكن عندما يكون هنـــاك حصـــانان وتكون العـــربة محملة الى آخرها ، فعندئذ لا أخـــاف •

« أنا ــ هل تخـــاف من الأومنيبوسات لانه يوجد بداخلها اناس كثيرون ؟

« هانز ــ لأنه توجد امتعة كثيرة على ظهرها •

« أنا ــ وعندما كانت ماما على وشـــك ان تكـــون لها هنه (١) ، هل كانت هي ايضـــا محملة الى آخرها •

« هانز ــ ماما ستكون محملة الى آخرها مرة اخـــرى عندما يكون لهـــا طفل آخر ، عندما يبدأ طفل آخر يكبر ، عندما يكون طفـــل آخر بداخلهـــا •

« أنا ــ وانت تحـــب ذلك •

« هانز ــ نعم •

« أنا ــ أنت قلت أنك لا تحـــب أن يكون لـــاما طفل اخر •

« هانز ــ حسنا ، فلن تكون محملة مرة أخرى • قالت ماما بأنها اذا كانت لاتريد طفلا ، فان الله لايريد طفلا هو الآخر • اذا كانت ماما لاتريد طفلا فلن يكون لها طفل • (بالأمس سأل هانز بالطبع ما اذا كان هناك أى أطفال آخرين فى داخل ماما • وقالت له لا ،وقلت له أنه اذا كان الله لايريد ذلك فما من طفل سينمو فى داخلها) •

---

(١) (حينما نلتقى بالتعبير « يكون له طفل » او « يكون لها طفل » فالمقصود هو الانجاب ــ المترجمون) •

، هانز ــ ولكن ماما قالت لى انها اذا لم ترد هى فلن ينمو أى طفل ، وأنت تقول لى أن الله اذا لم يرد •

، أجبته ان الأمر هو كما قلت له ، وهو ماعلق عليه قائلا : لقد كنت أنت هناك ، أليس كذلك ؟ فأنت بالتأكيد تعرف الأمر على نحو أفضل » •

عنــدئذ بــادر الى اســتجواب أمــه ، فصالحت مابين القولين بأن قالت بأنها اذا لم ترد هى ذلك فان الله ايضا لايريده (١) •

، أنا ــ يبدو لى ، على أى حال ، أنك ترغب أن يكون لماما طفل •

، هانز ــ ولكنى لاأريد أن يحدث ذلك •

، أنا ــ ولكنك ترغب فيه •

، هانز ــ أوه ، نعم • أرغب •

، أنا ــ هل تعرف لماذا ترغب فى ذلك ؟ ذلك لأنك تريد أن تكون بابا •

، هانز ــ نعم ••• كيف يستقيم الأمر ؟

، أنا ــ أى أمر ؟

، هانز ــ أنت تقول أن الآباء لا يمكن أن يكون لهم أطفال ، فكيف يستقيم الأمر مع رغبتى فى أن أكون بابا ؟

---

(١) Ce qui femme veut Dieu veut. (بالفرنسية فى الاصل الالمانى) « ماتريده المرأة يريده الله » • ولكن هانز بفطنته المعهودة قد وضع هنا مرة أخرى من جديد اصبعه على مشكلة بالغة الاهمية •

، أنا — أنت ترغب فى أن تكون بابا وان تتزوج ماما ، أنت ترغب فى أن تكون كبيرا مثلى ، وأن يكون لك شارب ، وترغب فى أن يكـون لماما طفل •

، هانز — بابا ، عندما أتزوج لن يكون لى طفل الا اذا اردت ذلك عندما أتزوج ماما ، واذا لم أرد طفـلا ، فان الله أيضـا لن يـريد ذلك ، عندما أتزوج •

، أنا — هل ترغب فى أن تتزوج ماما ؟

، هانز — أو ، نعم •

من اليسير ان نتبين أن استمتاع هانز بهذه الأخيولة يتعكر صفوه بسبب عدم تيقنه من الدور الذى يضطلع به الآباء وتشككـه فيما أن كان انجاب الأطفال أمرا يخضع لتحكمه •

* * *

وفى مساء اليوم نفسه ، عندما وضعنا هانز فى فراشه ، قالى لى: « هـل تعـرف يابابا ماسأفعله الان سـوف أتحـدث مع جريتا حتى العاشرة ، انها فى الفراش معى • وأطفالى هم دائما فى الفراش معى • هل تستطيع ان تخبرنى كيف ان الأمر كذلك ؟ » — ولما كان هانز يغلبه النعاس ، وعدته بأننا سوف ندون ذلك فى اليوم التالى ، فمضى فى نومه •

، لقد سبق أن أشرت فى تقـارير سابقة الى أن هانز منذ عودته من جموندن كانت لديه بلا انقطاع آخاييل تدور حول اطفاله ، وكان يجرى أحاديث معهم . الى غير ذلك (١) •

---

(١) ليس من الضرورى فى هذا الصدد أن نفترض عند هانز وجود رغبة من طبيعةانثوية لانجاب الاطفال ٠لقد كان مع أمه أن عاش هانز ، كطفل ، أمتع خبراته ، وانه الان يكرر هـذه الخبرات ، ويضطلع بنفسـه فيها بالدور الايجابى ، الذى كان بالضرورة من ثم دورا أمه •

، ومن ثم ففى اليوم السادس والعشرين من أبريل سأله لماذا يفكر دائما فى أطفاله •

، هانز — لماذا ؟ لأننى أرغب جدا فى أن يكون لى أطفال ، ولكنى لا أريد أبدا أن يحدث ذلك ، فانى لاأرغب فى أن يكون لى أطفال (١) •

، أنا — هل كنت تتخيل دائما أن برتا وأولجا والباقين كانوا أطفالك ؟

، هانز — نعم • وأيضا فرتزل وفريتول وبول (رفاق لعبه فى لاينتس) ولودى •

، وهذا الاخير اسم بنت ابتدعه لطفلته ألمفضلة ألتى يتحدث عنها كثيرا جدا •

— وقد يكون لى ان أنبه هنا الى أن شخصية لودى ليست من ابتداع الأيام القليلة الاخيرة ، بل كانت موجودة فى تاريخ سابق على تلقيه التبصيرات الأخيرة (فى اليوم الرابع والعشرين من أبريل) •

« أنا — من هى لودى ؟ هل هى فى جموندن ؟

، هانز — كلا •

، أنا — هل هناك لودى ؟

، هانز — نعم ، انى أعرفها •

---

(١) هذا التناقض الواضح كان تناقضا بين الخيال والواقع ، بين الرغبة وتحقق الوجود كان هانز يعرف انه فى الواقع طفل ، وان اطفالا آخرين يستطيع ان يكرر معهم ضروب الحنان التى تسبق له ان استمتع بها •

، أنا — من هى اذن ؟

، هانز — الطفلة التى كانت لى (انجبتها) هنا •

، أنا — ماشكلها ؟ •

، هانز — شكلها ؟ عينان سوداوان ، شعر أسود ••• قابلتها مرة مع ماريدل (جموندن) بينما كنت اتنزه فى المدينة •

، وعندما أردت أن أتعمق الأمر تبين لى أن الأمر محض ابتداع (١)

، أنا — وهكذا تخيلت أنك أما لهم ؟

، هانز — وكنت أيضا فى الواقع أمهم •

، أنا — ماذا كنت تفعل مع أطفالك ؟

، هانز — كنت اجعلهم ينامون معى ، البنات والصبيان

، أنا — كل يوم ؟

، هانز — نعم ، بالتأكيد •

، أنا — هل كنت تتحدث اليهم ؟

، هانز — عندما لااستطيع أن أضع كل الاطفال فى الفراش ، فانى أضع بعض الأطفال على الأريكة ، وبعضهم الآخر فى عربة الأطفال ، فاذا كان هناك بعض آخر مايزال باقيا • فانى أصعد بهم الى طابق السطوح ، وأضعهم فى الصندوق ، فلو تبقى بعض آخر أضعهم فى الصندوق الآخر •

---

(١) ومن الممكن مع ذلك أن يكون هانز قد التقى صدفه فى جموندن بشخص ما ، فانزله من نفسه منزلة أعلى • هذا الى أن لون العينين والشعر فى مثله الاعلى نسخة من أمه •

، أنا — وعلى ذلك فان صناديق أطفال طائر اللقلق كانت فى طابق السطوح ؟

، هانز — نعم .

، أنا — متى كان لك أطفـال ؟ هل كانت هنه وقتهـا على قيد الحياة ؟

، هانز — نعم ، كانت على قيد الحياة منذ وقت طويل .

، أنا — ولكن ممن كان لك الأطفـال فيما تصورت ؟

، هانز — متى انا (١) .

، أنا — ولكنك فى ذلك الوقت لم تكن لديك أية فـكرة عن أن الأطفـال يأتون من شخص ما .

، هانز — تصورت ان طائر اللقلق قد اتى بهم . (كذب وهروب بكل وضـوح (٢)) .

، أنا — كانت جريتا معك فى الفراش بالأمس ، ولكنك تعـرف جيداً ان الصبيان لا يمكن ان يكون لهم أطفـال .

، هانز — نعم ، نعم . ولكنى أعتقـد ذلك على الرغـم من كل شىء .

، أنا — كيف عثرت على اسـم لودى ؟ فمـا من بنت لهـا هـذا الاسـم ربما لوتى ؟

(١) لم يكن يوسع هانز ان يجيب من وجهة نظر اخرى غير الشبقية الذاتية .

(٢) كانوا اطفال خياله ، أى أطفال استمنائه .

، هانز — أوه ، كلا ، لودى • لا أدرى ، ولكنه مع ذلك اسـم جميل •

، أنا (مازحا) — ربما تقصد شـو كولودى ؟ (١)

، هانز (على الفور) — كلا ، سـافالودى Saffalodi
•••• لانى أحب جدا أن آكل السجق والسلامى (٢) أيضا •

، أنا — قل لى ، اليس السـافالودى شكله مثل « اللومف » ؟

، هانز — بلى •

، أنا — حسنا ، واللومف ما شـكله ؟

، هانز — أسـود • أنت تعرف ، مشيرا الى حاجبى وشاربى) « كهذا وكهذا » •

، أنا — وماذا أيضا ؟ ومستدير كالسجق المتبل (السافالادى) (٣) ؟

، هـانز — نعم •

، أنا — عندما كنت تجلس على وعـاء التبرز ، ويأتى لـومف هل كنت تتصور فى نفسك أنك بسبيل انجـاب طفل ؟

، هانز (ضاحـكا) — « نعم • حتى فى شـارع — ، وهنـا أيضـا »•

---

(١) Schokolade هى الكلمة الالمانية للشكولاته — هامش الترجمة الانجليزية •)

(٢) Saffalodi Zervelatwurst (سجق متبل) ويطيب لزوجتى أن تحكى كيف أن خالتها دائما ماتسمى ذلك Soffilodi وفيلودى • وربما يكون هانز قد سمع ذلك •

(٣) نوع آخر من السجق — هامش الانجليزية •

، أنا — هل تعرف ، عندما وقعت أحصـــنة الأمنيبوس ؟ كان الأمنيبوس يشبه فى شـكله صندوق الاطفال ، وعندما وقع الحصان الاســود كان يشبه تماما • • •

هانز — (مكملا) •• — يشبه تماما انجـاب طفل •

، أنا — وماذا تصــورت عندما أحدث بأقدامه صخبا شديدا ؟

، هانز — أوه ، عندما لا أريد أن أجلس على وعــاء التبــرز ، وأفضــل بالحرى أن ألعـب ، عندئذ فانى أحدث بقدمى صخبـــا شــديدا كهذا • (وضرب الارض بقدميه •)

، ذلك كان سبب اهتمامه بمســألة ما ان كان الناس يرغبون أو لا يرغبون فى أن يكون لهم اطفــال •

، وطوال النهار اليوم كان هانز يلعب لعبة تحميل وتفريغ صناديق الطــرود ، وقال انه يرغب فى الحصــول على عربة — لعبة ، وعلى صناديق من هــذا النوع ، ليلعب بها • وما كان يثير عنــده أعظــم الاهتمام فى فناء الجمارك المواجه لنا انما كان تحميل وتفريغ العربات وكان من عادته أن يرتعب أشــد الرعب عندما تبدأ فى التحرك عربة تم تحميلهــا • كان من عــادته ان يقــول : « الاحصنة ســـوف تقع (١) » وكان من عادته أن يسمى أبــواب سقيفة مبنى الجمارك « خــروم » • (ومن ثم الخــرم الاول ، الخــرم الثانى ، الخــرم الثالث الـــخ •) ولكنه الآن بــدلا من « خـــرم » يقيـــول « خرم مؤخرة » •

---

(١) السنا نقول فى العــادة nider Kommen وتعنى حرفيا) ينزل الى اسفل) عندما تلد امرأة ؟

(وفى الفرنسية أيضا يقال mettre bas (تضع الى أسفل)، عندما تلد اناث الماشية — هامش الترجمة الفرنسية •

، اختفى القلق تماما تقريبا ، فيما عدا أنه يفضل البقاء فى المنطقة المجاورة للبيت ، حتى يحتفظ بخط رجعة لنفسه ان هو ارتعب • ولكنه الآن لايهرب أبدا ملتجئا الى البيت ، بل يبقى فى الطريق طول الوقت. وكما نعلم ، فقد بدأ مرضه بعودته باكيا على أثر نزهة خارج البيت ؛ وعندما وجد نفسه مكرها على الخروج لنزهة ثانية ، لم يذهب الا الى محطة الجمارك المركزية فى شتادبان ، حيث مازال رؤية بيتنا ممكنة • وفى فترة ولادة زوجتى أبعدناه عنها بالطبع ، وقلقه الحالى ، الذى يمنعه من أن يبتعد عن المنطقة المجاورة للبيت ، ليس فى الحقيقة غير ذلك الحنين الذى استشعره اليها فى تلك الفترة •

* * *

، اليوم الثلاثون من شهر ابريل رأيت هانز يلعب من جديد مع أطفاله الخياليين

فقلت له : هالو ، أما يزال اطفالك أحياء ؟ أنت تعرف تماما أن الصبى لايمكن أن يكون له أطفال » •

« هانز : » انا أعرف ذلك •• كنت أمهم فيما قبل ، أما الآن « فانى أبوهم »

« أنا : » ومن هى أم الأطفال ؟ »

« هانز : » حسنا ، أنها ماما ، وأنت جدهم »

« أنا : » وأذن فأنت تريـد أن تكـون كبيرا مثلى ، وأن تتـزوج ماما ، ومن ثم ترغب فى أن يكون لهـا أطفال » •

« هانز : » نعم ، ذلك ماأرغب فيه ، وعندئذ سـوف تكون جدتى التى فى لاينزر أمى) « هى جدتهم » •

كانت الامور تمضى الى نتيجـة تبعث على الرضا ، فـأوديـب الصغير قد عثر على حل يفضل ذلك الذى سطره القدر • فبدلا من أن ينحى أبـاه بعيدا عن الطريق ، منحه نفس السـعادة التى كان يرغب فيها هو نفسه ، رقاه الى مرتبة الجد ، وجعله هو الآخر يتزوج أمه .

وقال : « هل تعرف ؟ دعنا ندون شيئا للاستاذ » .

« وفى اليوم الاول من شهر مايو جاءنى هانز وقت الغـــذاء

« أنا — حسنا ، وماذا يكون هذا الشيء ؟

« هانز : — فى هذا الصباح كنت فى المرحاض مع كل أطفـالى • فى البداية عملت لومف وعملت ميه ، وكانوا ينظرون الى • ثم وضعتهم بعد على الرحاض ، فعملوا ميه وعملوا لومف ، ثم مسـحت لهـم بالورق مؤخراتهم • هل تعرف لماذا ؟ لانى أحب جـدا أن يكـون لـى أطفـال ، وعندئذ سـوف أقوم بعمل كل شيء لهم — أصحبهم الى المرحاض ، انظف مؤخراتهم ، وأعمل لهم كل ما يعمل للاطفـال » •

بعد الاعتراف الذى تضمنته هذه الاخيولة ، يكون من العسـير أن نجادل فى وجود لذة عند هانز ترتبط بالوظائف الخراجية •

« وبعد الظهر اجترأ للمرة الاولى على الذهـاب الى شنادربارك• ولمـا كان ذلك هو يوم أول مايو ، فقـد كانت حركة المـرور بالطبع أقـل من المعتاد ، ولكنهـا كانت مع ذلك كافيـة تماما — حتى ذلك الوقت — لاثارة رعبه • كان مزهوا جدا بما أنجـزه وبعد تنـاول الشاى وجدتنى مضطرا لان أصحبه الى شتادبارك مرة أخـرى • فى الطريق التقينا بأومنيبوس ، نبهنى اليه هانز قائلا : « انظر ! عـربة بصندوق طائر اللقلق ! » فاذا ذهب معى الى شتادبارك مرة أخرى غدا، على نحو ما اتفقنـا ، فسوف يكون بوسعنا حقا أن نعتبر أنه قد شفى من مرضـه •

وفى اليوم الثانى من شهر مايـو جاءنى هانز فى الصباح ، وقال: « هل تعرف ؟ لقد تخيلت شيئا هذا الصباح • » فى البداية نسى هانز

هذا الشيء ، ولكنه فيما بعـو حكى لى مايلى : وأن بدت عليه علامات مقاومة شـديدة : « حضر السمكرى ، وفى البداية أقتلع مؤخـرتى بالكماشـة ، ثم أعطانى مؤخرة أخـرى ، ثم فعـل نفس الشيء ببتاع الميـه بتاعى . لقـد قال لى : ، دعنى أرى مؤخرتك ، وكان عـلى أن استدير ، فاقتلعها ، ثم قال ، دعنى أرى بتاع الميـه بتاعك ! » .

لقـد أمسك أبـو هانز بدلالة أخيولة الرغبة هـذه ، ولم يتردد لحظة فيما يتصل بالتفسير الوحيد الذى يمكن أن تنطوى عليه .

أنا — « لقـد أعطاك بتاع ميه أكبر ومؤخـرة أكبر » .

هانز — « نعم » .

أنا — مثل ما لبابا . لانك ترغب فى أن تكون بابا .

هانز — نعم ، وأحب أن يكون لى شـارب كشاربك ، وشـعر فى البـدن كشعرك . (وأشار الى الشعر على صدرى) .

وفى ضوء ذلك ينبغى أن نعيد النظر فى تفسير أخيولة هانز السابقة على تلك ، والتى فيها حضر السمكرى ، وفك البانيو ، وغـرز مثقابـا فى بطنه . كان البانيـو الكبير يعنى مؤخـــرة ، وكان المثقاب أو المفك أو (كما فسرنا ذلك فى حينه) يعنى بتاع ميه (١) . فالأخيـــولتان متطابقتـــان .

---

(١) ربما يكون لنا أن نضيف أن كلمة « مثقاب » Rchrer لم يتم اختيارها بغير اعتبار لارتباطها بكلمتى « مولود » و « ميلاد » فان صح ذلك (geboren, Gebunt) فان هانز لم يميز بين « ينثقب» و «يتولد» geboren, gebchrt ونحنى اتقبل هـذا الرأى الذى صدر عن محلل خبير من الزملاء ، ولكنى لست فى وضع يمكننى من أن أقطع ان كنا هنا ازاء رابطة تتسم بالعمق والعمومية بين الفكرتين ، أو كنا فقط أزاء مجرى تشابه لفظى خاص باللغة الالمانية . ان برومينيوس Paramantha ، خالق البشر ، هو أيضا من ناحية الاشتقاق اللغوى أو (الثاقب) . قارن ابراهام : « الحلم والاسطورة » ، ١٩٠٨ Abraham, Traum und Mhns.

« هذا الى أن خوف هانز من البانيو الكبير قد أتيح له بذلك ضوء جديد (وهــذا الخوف قــد تناقص بالفعــل •) فمــــا يكـــــدره أن تكون « مؤخرته » صغيرة بدرجة لا تليق بالبانيـــو الكبير » •

وخـــلال الأيام القليلة التاليـــة كتبت لى أم هانز عـــدة مرات لتعبير عن سرورها بشفاء حبيبها الصغير •

***

وبعد أسبوع وصلنى من أبى هانز التذييل التالى :

« أستاذى العزيز ،

يسرنى أن أقــدم الاضافات التالية الى تاريخ حالة هانز :

١ — أن استحسن ، بعــد تزويده بالجـــزء الاول من التبصيرات ، لم يكن من الاكتمال على نحو مايمكن ان يكون قــد صورته عليـــه • صحيح أن هانز كـــان يخـــرج فى نزهـــات ، ولكن كـــان ذلك فقـــط تحـــت الارغـــام ، وفى حـــالة من القلـــق الشـــديد • ذهـــب معى مرة الى حد محطة الجمارك المركزية ، حيث ما يزال يمكن رؤية بيتنا ، ولكن لم يكن من المكن حمله على أن يمضى الى أبعد من ذلك •

« ٢ — فيما يتصل بـــ « شراب التوت » و « بندقية للقتل » : كنا نعطى هانز شراب التوت حين يعـــانى الامساك • وهو غالبـــا ما يخلـــط بين Schiessen (يقتل) و Scheissen الكلمة الألمانيـــة الدارجة للتبرز (تخرى) •

« ٣ — كان هانز فى حوالى الرابعة من عمره عندما أبعدناه من غرفة نومنا الى غرفة خاصة به •

« ٤ — ثمة متخلف من اضطرابه ما يزال باقيا ، وان لم يعــد بعد فى شـــكل خوف ، ولكن فقط فى شـــكل غريزة سوية لتوجيه الأسئلة • ومعظم الاسئلة ينصب على الاشياء : «مم تصنع ؟» (الترمواىات

والآلات الخ ، والاشياء « من يصنعها ؟ » ، الى غير ذلك • وتتميز غالبية أسئلة هانز بأنه يوجهها وان يكن قد أجاب عليها بالفعل بنفسه • وكل ما يريده هو أن يتأكد • وعندما أرهقنى مرة بأسئلته وقلت له : « هل تعتقد أننى أستطيع الاجابة على كل سؤال توجهه ؟ » ، أجاب : « حسنا ، كنت أعتقد أنك كما عرفت مسألة الحصان فستعرف ذلك أيضا • • »

، ٥ — ان هانز لا يشير الآن الى مرضه الا على أنه واقعة تاريخيه « وقتما كانت عندى الحماقة •• » •

، ٦ — وثمة متخلف بقى بغير حل : فهانز ما يزال يعصر ذهنه كيما يتبين ما يمكن أن تكون عليه علاقة الأب بطفله ، ما دامت الام هى التى تخرجه الى العالم • ذلك ما يتضح من أسئلته من قبيل : « انى أنتمى اليك أنت أيضا ، أليس كذلك ؟ » (وهو يقصد أنه لا ينتمى فحسب الى أمه) فليس من الواضح بالنسبة له على أى نحو هو ينتمى الى • ومن ناحية أخرى ، وليس لدى أى دليل مباشر على أنه ، كما تفترض ، قد أستمع صدفة الى أبويه أثناء الجماع •

، ٧ — وربما يتحتم فى عرض الحالة أن نلح على مايتميز به قلقه من شدة عاتية ، والا لكان من الممكن أن يقال بأن الصبى كان سيخرج الى النزهات على الفور لو أنه تلقى « علقة ساخنة » •

وفى الختام أضيف هذه الكلمات : ان الحصر المنبعث عن عقدة الخصاء عند هانز قد تم ، فى أخيولته الاخيرة ، التغلب عليه أيضا ، وتحولت توقعاته القلقة الاليمة الى توقعات سعيدة • نعم ، فان الدكتور (السمكرى) قد حضر ، واقتلع قضيبه ـ ولكن فقط ليعطيه قضيبا أكبر بدلا منه • وفيما عدا ذلك ، فان باحثنا الصغير قد اكتشف ببساطة ، فى وقت باكر الحقيقة التى مؤداها ان كل معرفة ناقصة ، وان كل خطوة يخطوها الى الامام فى طريق المعرفة تترك وراءها متخلفا بغير حل •

٣

تعليـــق

سوف أشرع الآن فى تفحص معطيات هـذه الحالة المرضـية الخاصة بتطور فوبيا (زهاب) وانفضاضها عنـد الصبى دون الخامسة من العمر ، وسوف اضطلع بذلك من ثلاث زوايا • أولا ، سـوف أتقصى الى حـد تقدم معطيات هـذه الحالة تأييدا للآراء التى عرضتها فى كتابى « ثلاث مقـالات فى نظرية الجنس (Drei Abhanglungen Zur Sexualtheorie) الـذى نشـرته عـام ١٩٠٥ • وثانيـا ، سوف أتقصى الى أى حد تعين معطيات هـذه الحالة على فهم هـذا هذا الشكل جد الشائع من الاضطراب • وثالثا ، سوف أتقصى ما أن كان يمكن الافـادة منها بحيث تلقى ضوءا على الحالة النفسية للاطفال ، أو بحيث تمدنا بنقد لأهدافنا التربوية •

(١)

أن أنطباعى هو أن لوحة الحالة الجنسـية للطفل التى تقدمهـا معطيات هذه الحالة عن هانز الصغير تتفق تماما مع الآراء التى سـبق أن قدمتها فى نظريتى عن الحياة الجنسية للاطفـال (اسـتنادا الى فحوص التحليل النفسى التى أجريتها على الراشدين) فى الكتـاب المذكور • ولكن قبل أن أتناول هذا الاتفاق فى تفصيلاته ، يتحتم على أن أرد على اعتراضين سـوف يرتفعان ضد استخدامى لهـذا التحليل من أجل هذا الغرض • الاعتراض الاول ينحصر فى أن هانز ليس بطفل عادى ، بل لديه — كما أثبتت الوقائع ، ونعنى مرضه — استعداد سابق للعصاب ، وأنه « فاسد الجبلة » (١) ، ومن هنا لا يكون من المشروع

---

(١) deginerate (E.) degenere Fr.

أن نسحب على الاطفال الآخرين الأسوياء نتائج ربمـا كانت صحيحة بالنسبة اليه • وسأرجىء النظر فى هذا الاعتراض بالنظر الى أنه يقتصر على الحـد من قيمة معطيات حالة هانز ، دون أن يلغيها تماما •

أما الاعتراض الثانى ، وهو الاكثر استعصاء على المصـالحه ، فينحصر فى أن التحليل النفسى لطفل على يد أب شرع فى العمـل وهو مشـبع بآرائى النظرية ، وملوث بأحكامى القبلية ، يتحتم أن يكون مجردا تماما من أية قيمة موضـوعية • فالطفل ، كما سـيقال ، هو بالضرورة شديد القابلية للايحاء ، وربما ليس تجـاه أى شخص بقـدر ما هو تجاه أبيه ، وسوف يستسلم لاى ايحاء كان من جانب أبيـه ، عرفانا منه بكل هذا الاهتمام الذى يوجهه اليه ، فما من شىء مما يقوله يمكن أن ينطـوى على امكانية الاقناع ، فكـل مستدعياته ، وكـل أخاييله وأحلامه ، سوف تتبع بالطبع هذا الطريق الذى سيقت اليه بكل وسيلة ممكنة • ومرة أخرى باختصـار ، فالأمر كله هو مجـرد « ايحـاء » وكل ما هنا لك من اختلاف هو أن الايحـاء فى حـالة الطفل يكون من الأيسر تبينه بالقياس الى حالة الراشد •

وثمة شىء فريد ، مازلت أذكره ، عندما دخلت الى معترك الآراء العلمية منذ اثنين وعشرين عاما ، هو تلك السخرية التى استقبل بهـا الجيل السالف من أطباء الأعصاب وأطباء الأمراض العقلية فى تلك الأيام التوكيدات الخاصة بالايحاء وتأثيراته • ولكن منذ ذلك الحـين تبدل الموقف بصورة أساسية • فالنفور السابق قد انقلب الى تقبل مسرف الترحيب ، وقد حدث ذلك ليس فقط نتيجة للانطباع الذى كان لابد وأن تحدثه أبحاث ليبيو Lièbault وبرنهايم Bernheim وتلاميذهما خلال هذه الاعوام العشرين ، بل أيضا لأنه قد اتضح منذ ذلك الحين عظم مايمكن أن يتحقق من اقتصاد فى الجهد الفكرى باستخدام هذه الكلمة الترديدة (ايحاء) • مامن أحـد يعرف ، ومامن أحد يهتم بأن يعرف ماهو الايحاء ، ومن اين يأتى ، ومتى يحدث ، — فيكفى أن كل ماهو مربك فى مجال علم النفس يمكن وضعه تحت لافتة « الايحاء » *

ولست اتفق مع وجهة النظر الشائعة اليوم من أن أقوال الأطفال هى دائما أبدا كيفما اتفق ، وغير جديرة بالتصديق . فالـ « كيفما اتفق » ليس له من وجود فى الحياة النفسية . ويكون أقوال الاطفال غير جديرة بالتصديق فذلك يرجع الى غلبة الخيال عندهم ، تماما كما أن تكون أقوال الراشدين غير جديرة بالتصديق يرجع الى غلبة الأحكام القبلية عندهم . وفيما عدا ذلك ، فان الأطفال هم الآخرون لايكذبون بغير سبب ، ولديهم على وجه الجملة من الميل الى حب الحقيقة بأكثر مما لدى الذين يكبرونهم . فلو أننا رفضنا أقوال هانز الصغير جملة وتفصيلا فاننا بكل تأكيد نظلمه أشد الظلم . فبوسعنا على العكس أن نميز بوضوح بين المناسبات التى كان فيها ، تحت تأثير القوة القهارة للمقاومة ، يزيف الوقائع أو يحتجزها ، والمناسبات التى كان فيها ، بسبب عدم تيقنه هو نفسه ، يجارى أباه (بحيث لاينبغى أن نضع مايقوله موضع الاعتبار) ، والمناسبات التى كان فيها ، بعيدا عن أى ضغط يتفجر فى فيض من المعلومات عما يجرى حقا فى داخله ، وعن أمور لم يكن أحد سواه حتى ذلك الحين يعلم عنها شيئا . ان أقوال الكبار لاتنطوى على يقين أكبر ومما يبعث على الاسف أن مامن تقرير عن تحليل نفسى يمكن أن يقدم صورة صحيحة عن الانطباعات التى تلقاها المحلل أثناء قيامه بالتحليل ، وأن مامن احساس نهائى بالاقتناع يمكن الحصول عليه من قراءة مثل هذا التقرير ، فذلك لا يتأتى الا بأن يعيش المرء التجربة الحية وهو يقوم بالتحليل . ولكن هذا القصور وهو بنفس الدرجة لصيق بتحليلات الكبار .

أن هانز الصغير يصفه أبوه بأنه طفل مرح وصريح ، وهكذا كان ينبغى أن يكون ، بالنظر الى التربية التى تلقاها على يدى أبويه ، والتى كانت تنحصر بصفه أساسية فى استبعاد خطايانا التربوية المألوفة ، فطالما كان بوسعه أن يمضى فى تقصياته فى سذاجـة سعيدة ، دون أن تخطر بباله تلك الصراعات التى كان يتحتم عما قليل أن تنشأ عن هذه التقصيات ، كان يفضى بكل شىء ، والملاحظات التى ترجع الى تاريخ سابق على الفوبيا ترتفع على كل شك أو تردد ، لقد كان مع تفجر المرض

وأثناء التحليل أن بدأت تتضح التفارقات بين ماكان يقوله وما كان يفكر فيه ، وكان ذلك من ناحية لأن المادة اللاشعورية ، التى كان يعجز عن السيطرة عليها دفعة واحدة ، كانت تجتاحه على الرغم منه ، ومن ناحية أخرى لأن محتوى أفكاره كان من شأنه ، بالنظر الى علاقته بأبويه ، أن يستثير التحفظات • وانى أعتقد ، بعيدا عن الانحياز ، أن هذه الصعوبات هى الأخرى لم تكن هنا بأعظم مما هى عليه فى كثير من تحليلات الكبار •

صحيح أنه أثناء التحليل كان يتحتم اخبار هانز بكثير من الأشياء التى لم يكن يستطيع أن يقولها بنفسه ، وأنه كان يتحتم تقديم افكار اليه وما من شىء بعد قد كشف عن وجودها لديه ، وأنه كان يتحتم توجيه انتباهه فى ذلك الاتجاه الذى كان ابوه يتوقع مقدما شىء منه ، وذلك يقلل من القيمة الاقناعية لهذا التحليل،ولكن هذا الاجراء هو مايحدث فى كل تحليل • فالتحليل النفسى ليس ببحث علمى محايد ، ولكنه اجراء علاجى • فماهيته ليست هى اثبات شىء بل مجرد تعديل شىء ، فأثناء التحليل النفسى يقدم المحلل دائما لمريضه (أن كثيراً أو قليلا بحسب الحالة) الصور الشعورية المتوقعة ، التى بفضلها يصبح فى وضع يمكنه من أن يتعرف على المادة اللاشعورية ويمسك بها • فهناك بعض من المرضى الذين يحتاجون الى هذه المعونة بدرجة أكبر ، بينما يحتاج اليها بعض آخر بدرجة أقل ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يستغنى كلية عن هذه المعونة ، ان كان له أن يمضى فى العلاج • ان الاضطرابات الهينة ربما يمكن التخلص منها بجهود ذاتية من الفرد ، ولكن هذا مستحيل فى حالة العصاب ـــ وهو شىء انبثق ضد الأنا كعنصر غريب عليها • وكيما يمكن مواجهة هذا العنصر على خير نحو ، لابد من معونة شخص آخر ، وبقدر ماتكون معونة هذا الشخص الآخر ممكنة ينفتح العصاب للعلاج • فاذا كان أى عصاب بطبيعته ذاتها يزور عن هذا « الشخص الآخر » ـــ وتلك فيما يبدو خاصية من خصائص تلك الحالات التى تدخل تحت اسم الجنون الباكر ـــ فعندئذ تكون هذه الحالة لنفس هذا السبب مستحيلة على العلاج بأى جهد من جانبنا

وعليه فمن المسلم به أن الطفل ، بسبب قصور تطور أجهزته العقلية ، يحتاج الى معونة كبيرة بصفة خاصة • ولكن المعلومات التى يزود بها المحلل مرضاه هى فى نهاية الأمر مستمدة بدورها من خبراته التحليلية ، ويكون اقتناعا قائما على أسس متينة حقا أن نحن ، بهذا التدخل من جانب المحلل ، تمكنا من الكشف عن بنية المادة المولدة للمرض ، ومن القضاء على المرض فى نفس الوقت •

ومع ذلك ، فان مريضنا الصغير ، حتى فى أثناء تحليله ، قد كشف عن قدر كاف من الاستقلالية يسمح بتبرئته من تهمة « الايحاء » وهو ككل الأطفال الآخرين قد قام بتطبيق نظرياته الجنسية الطفلية على المادة التى أمامه ، دون أن يتلقى أى تشجيع حتى يقوم بذلك • وهذه النظريات بعيدة الى أقصى حد عن عقلية الراشدين • والواقع أننى فى هذه الحالة قد فاتنى أن أنبه أبا هانز الى أن الطريق الذى سوف يتأدى بهانز الى مشكلة ولادة الأطفال يتحتم أن يمر بالعقدة الاخراجية وهذا التقصير من جانبى ، وأن تمخض عن مرحلة غامضة فى التحليل الا أنه كان مع ذلك وسيلة زودتنا بدليل رائع على أصالة واستقلالية العمليات النفسية عند هانز فقد غدا فجأة ينشغل « باللومف » ، دون أن يكون لدى أبيه — وهو الذى كان بحسب زعم النزاعمين يمارس الايحاء عليه — أدنى فكرة عن الكيفية التى تأدى بها الى ذلك ، أو عما يمكن أن يتمخض عنه ذلك • كذلك لايمكن تحميل أبيه أية مسئولية ايحائية عن الأخيولتين الخاصتين بالسمكرى ، واللتين انبعثتا عن «عقدة الخصاء» الباكرة التكوين عند هانز • ويتحتم هنا أن أعترف أننى ، بدافع من اعتبارات نظرية ، قد أخفيت تماما عن أبى هانز ما كنت أتوقعه من أن الأمر سوف يتكشف عن وجود مثل هذه العلاقة ، وذلك حتى لاأفسد القيمة الاقناعية لدليل من نوع نادرا مايقع فى قبضة أيدينا •

ولو أننى مضيت أتعمق فى تفصيلات التحليل ، لكان بوسعى أن أقدم كثرة من الادلة على تحرر هانز من « الايحاء » ، ولكنى سوف

أتوقف الآن عن المضى فى مناقشة الاعتراض الأول (١) • فانى على وعى من اننى حتى بهـــذا التحليل الممعن ، لن انجـــح فى اقناع أى شخص لايريد أن ينفتح للاقتناع ، ومن هنا فسوف أمضى فى مناقشة الحالة من أجل أولئك القراء المقتنعين بالفعل بالواقعية الموضوعية للمادة اللاشعورية المولدة للمرض • وأنى لأفعل ذلك فى يقين يمت على السرور من أن هؤلاء القراء يتزايد عددهم بشكل مطرد •

* * *

ان السمة الأولى التى يمكن اعتبارها عند هانز الصغير جزءا مـــن حياته الجنسية هى اهتمامه العارم بصفة جد خاصة بحمامته ـــ وهـــو عضو يشير اسمه الى احدى وظيفتيه،التى هى بالكاد أقلهما أهمية، وهى وظيفة لايمكن تجاهلها فى فترة الحضانة • وهذا الاهتمام قـــد اثار عنده روح البحث والتقصى ، ومن ثم اكتشف أن وجود أو عـــدم وجود حمامة يمكن من التفرقة بين الأحياء وغير الاحياء من الأشياء • لقد أعتقد أن كل الاحياء هم على شاكلته ، فلديهم هذا العضو الهام من أعضاء البدن ، لاحظ وجوده عند الحيوانات الكبيرة ، وتوقع أن كون الأمر كذلك عند أبويه كليهما ، بل أنه لم يتراجع عن اعتقاده ، حتى أمام شهادة عينيه ، فقرر وجود هذا العصفور عند اخته الحديثة الولادة • ويمكن القول بأنها كانت تكون هزة مروعة « لفلسفته عن العالم » لو أنه كان عليه أن يتنازل عن اعتقاده فى وجود هذا العضو عند كائن مماثل له ، كان ذلك يكون بمثابة اقتلاع لهذا العضو منه هو نفسه • وربما كان بسبب ذلك أن تهديد أمه له ، الذى كان ينصب بالتحديد على فقدانه لحمامته ، سرعان مـــا انطرد من بين أفكـــاره ، بحيث لم تتكشف تأثيراته الا فى وقت لاحق • وكان هذا التدخل من جانب الأم يرجع الى أن هانز كان يهوى فى العادة أن يتيح لنفسه أحاسيس اللذة باللعب فى عضوه : كان الصبى الصغير قد شرع يمارس

---

(١) (الاول من حيث المناقشة ، والثـانى من حيث الترتيب ـ المترجمون).

هذا النشاط الأكثر شيوعا وسوية من الانشطة الجنسية للشبقية الذاتية .

أن اللذة التى يحصل عليها الفرد فى عضوه الجنسى يمكن أن ترتبط بالنظارية (١) فى شكليهما الايجابى والسلبى ، وذلك على نحو وصفه الفريد أدلن أدق وصف تحت باسم « تشابك الغرائز » (٢) . ومن ثم بدأ هانز الصغير يتلمس الفرص لرؤية حمامات الآخرين ، ازدهرت استطلاعيته الجنسية ، وفى نفس الوقت كان يحب أن يستعرض حمامته . كان أحد أحلامه ، الذى يرجع بتاريخه الى بداية فترة الكبت، يعبر عن رغبته فى أن احدى صديقاته الصغيرات تعينه على أن يطرطر ، بمعنى أن تشارك فى رؤية المشهد ، ، وعليه فان الحلم يكشف عن أن هذه الرغبة كانت الى ذلك الحين قائمة لم تنكبت ، وقد أيدت المعلومات اللاحقة أنه كان من عادة هانز أن يشبع تلك الرغبة .

وسرعان ماارتبط الجانب الايجابى من النظرية ألجنسية عنده بدافع محدد . فلطالما كرر لأبيه ولأمه تعبيره عن أسفه على أنه لم يشهد قط حتى الآن حمامتيهما ، وربما كانت حاجته الى المقارنة هى التى اضطرته لذلك . أن الأناهى دائما المعيار الذى يقيس به ألفرد العالم الخارجى ، فالفرد يأخذ فى تفهم العالم عن طريق مقارنته المتصلة مع نفسه . فقد لاحظ هانز أن الحيوانات الكبيرة لهما حمامة أكبر نسبيا من حمامته ، ومن ثم توقع أن نفس الأمر يصدق على أبويه ، وكان شغوفا بأن يتحقق من ذلك . تصور أن أمه أن تكون لها حمامه « مثل الحصان » . وعندئذ تسلح بالعزاء المريح : ان حمامته ستكبر معه . يبدو الأمر وكأن رغبة الطفل فى أن يكبر قد تركزت فى عضوه الانسالى .

---

(١) (السكوبتوفيليا ، أى اللذة الجنسية للنظر ـ المترجمون) .

(٢) Der Aggiessionsbetrieb in Leben und in der Neurose, 1969 (غريزة العدوان فى الحياة وفى العصاب) .

وهكذا ففى الجبلة الجنسية عند هانز الصغير كانت المنطقة الانسالية منذ البداية هى تلك المنطقة التى تزوده — من بين المناطق الشبقية عنده — بأعظم قدر من اللذة • واللذة الأخرى الوحيدة المماثله التى تكشفت عنده كانت اللذة الاخراجية ، ونعنى اللذة المرتبطة بفتحتى الاخراج ، اللتين يتم عبرهما التبول والتبرز وفى أخيولته الأخيرة الخاصة بالنعيم ، والتى بها تغلب على مرضه ، تخيل هانز أن لدية أطفالا ، يأخذهم الى المرحاض ، ويجعلهم يطرطرون ، ويمسح لهم مؤخراتهم • ويعمل لهم باختصار « كل مايمكن عمله مع الأطفال»، ومن هنا يبدو من المستحيل تجنب الاعتقاد بأن نفس هذه العمليات ، أثناء الفترة التى كان فيها هانز موضع العناية كطفل صغير ، كانت بالنسبة اليه مصدرا لأحاسيس لاذة • كان يحصل على هذه اللذة من مناطقه الشبقية بمعونة الشخص الذى كان يعتنى به — ونعنى فى الواقع أمه ، وهكذا فان هذه اللذة كانت بالفعل قد حددت الطريق لاختيار الموضوع • ولكن من الممكن أيضا أنه فى تاريخ أبكر كان من عادته أن يتيح لنفسه هذه اللذة فى صورة شبقية ذاتية — أى أنه كان واحدا من أولئك الأطفال الذين يحبون احتجاز مخرجاتهم ، بحيث أزيد على القول بأن ذلك « من الممكن » لان الامر لم يتم الكشف عنه بوضوح فى التحليل ، « فعمل صخب شديد بالارجل » (الترفيس) ، يكون فى اخراجها مايتيح لهم الحصول على احاسيس شهويه • ولن وهو الامر الذى أصبح هانز فيما بعد يرتعب منه اشد الرعب ، يؤيد هذه الامكانية • ولكن ، مهما يكن من أمر ، فان هذين المصدرين للذة لم يكن لهما عند هانز من أهمية تستلفت الانتباه بشكل خاص ، على نحو مايكون ذلك غالبا عند أطفال اخرين • فقد اعتاد هانز النظافة فى وقت باكر ، فلم يكن للتبول اللا ارادى أثناء النهار أو أثناء الليل من دور فى سنواته الأولى ومامن أثر لديه ، كشفت عنه الملاحظة ، لنزعة عنده الى اللعب ببرازه ، وهى نزعة جد منفرة بالنسبة للراشدين ، وكثيرا ماتعاود الظهور فى نهاية عمليات النكوص النفسى •

وعند هذه النقطة ينبغى أيضا أن ننبه على الفور الى أنه أثناء

الفوبيا كان هناك ، بشكل لايمكن تجاهله ، كبت لهذين العنصرين جد المزدهرين من نشاطه الجنسى • كان يخجل من التبول أمام الآخرين ويتهم نفسه بأنه قد وضع يده على حمامته ، ويبذل جهودا للتخلص من الاستمناء ، ويبدى اشمئزازه من « اللومف » و « البول » ومن كل شىء يذكره بهما • وفى الاخيولة التى يرعى فيها أطفاله تخلص هانز من هذا الكبت الاخير •

ان جبلة جنسية كهذه التى عند هانز لايبدو أنها تنطوى على استعداد سابق لنشأة الانحرافات أو صورها السالبة (وسنقتصر هنا — من هذه الصور — على تناول الهستيريا) فبقدرما تبلغ اليه خبرتى (فما تزال هناك حتى الآن حاجة حقيقية الى التحدث بتحفظ فى هذه النقطة) تتميز الجبلة الفطرية للهستيريين بكون المنطقة الانسالية أقل هيمنة بالقياس الى المناطق الشبقية الاخرى • وأما أن ذلك يصدق أيضا على المنحرفين جنسيا ، فأمر يكاد أن يكون غنيا عن البيان ولكن يتحتم علينا أن نستثنى بشكل صريح من هذه القاعدة شكلا بعينه من الاشكال التى يتخذها « الانحراف الجنسى » • فعند أولئك الذين سيصبحون فيما بعد مثليى الجنسية ، نلتقى فى الطفولة بنفس هذه الهيمنة للمنطقة الانسالية (وخاصة بهيمنة القضيب) التى نلتقى بها عند الاسوياء (١) • ان ما يستشعره مثلى الجنسية من تقدير كبير لعضوه الذكرى ، هو فى الواقع مايحدد مصيرة ففى طفولته يختار النساء موضوعا جنسيا ، طالما أعتقد أنهن أيضا لهن أيضا مايعتبره جزءا من البدن لاغنى عنه ، وعندما يبلغ الى الاقتناع بأنهن قد خدعنه فى هذه النقطة ، فانهن يتوقفن عن أن يكن موضع تقبل منه كموضوعات جنسية • فمثلى الجنسية لايستطيع أن يتنازل عن وجود

(وكما تأدت بى توقعاتى الى أن أفترض ، وكما كشفت عن ذلك ملاحظاتى سادجر Sadger فان جميع مثليى الجنسية يمرون فى طفولتهم بمرحلة من النمو للناحيتين amphigenic حيث تتجه (الرغبة بدون تمييز الى الأفراد من الجنسين كموضوعات جنسية — هامش الترجمة الفرنسية •

القضيب عند أى كائن يمكن أن يجتذبه الى الاتصــال الجنسى واذا كانت الظروف مواتية فســوف يثبت الليبدولديه على « أمــرأة ذات قضيب » على شاب أنثوى المظهر • وعليه فمثليو الجنسية هــم أشخاص لايستطيعون ، بالنظر الى الاهمية الشبقية الذاتية للعضــو الانسالى عندهم ، أن يتنازلوا عن وجود خاصية مماثلة فى موضوعهم الجنسى • انهم فى مســار ارتقائهم من الشبقية الذاتية الى حــب الموضوع قد توقفوا عند نقطة تثبيت هى أدنى الى المستوى الأول منها الى الثانى •

ليس من مبرر على الاطلاق للقول بغريزة خاصة من الجنسية المثلية • فان مايجعل الشخص مثلى الجنسية ليس خاصية فى حياته الغريزية بل خاصية فى اختياره للموضوع • وانى أرجع القارىء هنا أنى ماقدمته فى كتابى « نظرية الجنس » ، والذى مؤداه أننا قــد توهمنا خطأ قيام اتحاد بين الغريزة والموضوع فى الحياة الجنسية هو من المتانة بأكثر مما عليه الأمر فى الواقع • فمثلى الجنسية يمكن أن تكون لديه غرائز سوية ، ولكنه عاجز عن تحرير هذه الغرائز من صنف من الموضوعات التى تتميز بخاصية معينة • وأثناء الطفولة ، حيث يبدو من المسلم لديه عمومية هذه الخاصية المعينة ، يكون بوسعه أن يسلك مثل هانز الصغير ، الذى كان مغرما فى غير تمييز بصغــــار البنات ، بحيث وصف مرة صديقه فريتزل على أنه « البنت التى يهواها أكثر من سائر البنات » • كان هانز مثلى الجنسية (كما يمكن أن يكونه كل الأطفال) ، مما يتفق تماما مع الحقيقة التى لاينبغى أن تغيب عنا أبــدا ، من أنــه لم يكن يعرف الا عضوا انساليا من نـــوع واحــد عضوا انساليا مثل عضوه (١) •

---

(١) (ملحوظة أضافية عام ١٩٢٣ •) — لقد وجهت النظر فيما بعــد (١٩٢٢) الى أن مرحلة النمو الجنسى التى كان يمر بها مريضنا الصغير تتميز دائما بمعرفة نوع واحد ليس غير للعضو الانسالى ، هو على التحديد العضو الذكرى • وفى تعارض مع مرحلة النضج اللاحقة تتميز هذه المرحلــة لا بهيمنه العضو الانسالى ، بل بهيمنه العضو الذكرى (قضيبيا كــان أم بظرا ، المترجم)

وفى نموه اللاحق ، على أى حال ، لم يتجه داعرنا الصغير الى الجنسية المثلية بل ذكورة عارمة نزاعة الى تعدد الزوجات (البوليجاميا)، وكان يعرف أيضا كيف ينوع من سلوكه بتنوع موضوعاته الأنثوية — متهور العدوانية فى حالة ، مترددا وخجولا فى حالة أخرى • لقد تحول حبه من أمه الى موضوعات حب أخرى ، ولكن فى الوقت الذى ندرت فيه هذه الموضوعات عاد حبه اليها ، ليتفجر عصابا • وعندئذ فقط اتضح الى أى حد من الشدة بلغ حبه لأمه ، وعبر أية تقلبات مضى هذا الحب • إن الهدف الجنسى الذى كان يستهدفه مع رفيقات لعبه ، من النوم معهن ، انما نشأ فى الأصل فى علاقته بأمه • وقد عبر عن هدفه هذا فى كلمات يمكن أن تكون ملائمة فى فم راشد ، وان كان مضمونها فى الحالة الأخيرة أكثر ثراء (١) • لقد وجد الصبى طريقه الى حب الموضوعات بالطريقة المألوفة من خلال العناية التى نالها حين كان طفلا صغيرا ، ولكن نوعا جديدا من اللذة قد غدا الآن عنده أعظم اللذات على الاطلاق — ونعنى لذة النوم مع أمه • وننبه هنا الى أهمية اللذة النابعة من الملامسة الجلدية كعنصر مكون لهذا الهدف الجديد عند هانز ، والذى بحسب التسمية — المفتعلة كما رأينا — عند مول Moll يمكن وصفه على أنه أشباع لغريزة التحسيس (٢) » •

وهانز فى اتجاهه من أبيه وأمه يؤيد ، بأقصى مايكون عيانية وحسما، ماسبق لى أن قدمته فى كتابى « تفسير الأحلام » ، وفى كتابى « نظرية الجنس » عن العلاقات الجنسية للطفل بأبويه • كان هانز بحق أوديبا صغيرا يرغب فى « تنحية » أبيه عن طريقه ، وفى التخلص منه ، حتى ينفرد بأمه الجميلة وينام معها • هذه الرغبة نشأت فى الأصل أثناء

---

(١) والتعبير الالمانى bai jemandem Schalifen ، ويعنى حرفيا « ينام مع » يستخدم أيضا (على نحو ما يستخدم فى الانجليزية التعبير to lie with « يرقد مع ») بمعنى يضاجع ، هامش الترجمة الانجيزية، « ويصدق هذا ايضا فى العربية وفى الفرنسية — المترجمون • ».

(٢) « Gontrectation ، هى الحفزة الى لس أفراد الجنس الآخر بغير تمييز (هافلوك اليس ، ١٩١٠) — معجم هاريمان — المترجمون • »

عطلة الصيف ، عندما عمل تناوب حضور الأب وغيابه على تنبيه هانز الى الشرط الضرورى اللازم لعلاقته الحميمة بأمة ، هذه التى كان يصبو اليها • فى ذلك الوقت ، كانت الصورة التى اتخذتها الرغبة هى ببساطة أن أباه ينبغى أن « يرحل » ، وفى مرحلة لاحقة أصبح من الممكن لخوفه من أن يعضه حصان أبيض ، أن يربط نفسه مباشرة بتلك الصورة الاولى التى اتخذتها الرغبة ، وذلك بفعل انطباع أتفق أن استشعره لحظة رحيل شخص آخر ولكن فيما بعد (ربما لم يكن ذلك قبل عودتهم الى فينا ، حيث لم يعد من الممكن التعويل على غيابات أبيه) اتخذت الرغبة صورة أخرى ، هى أن الأب ينبغى أن يرحل الى الابد — ينبغى أن يموت • والخوف الذى انبعث من رغبة هانز هذه فى موت أبيه ، والذى بذلك يمكن القول بأنه كان يرجع الى دافع سوى، كان يشكل العقبة الرئيسية فى وجه التحليل ، حتى تمت ازالته أثناء الحديث الذى جرى فى عيادتى (١) •

ولكن هانز لم يكن بأى حال شريرا صغيرا • فهو لم يكن حتى واحدا من أولئك الاطفال الذين فى سنه مازال تنطلق عندهم فى حرية تلك النزعة الى القسوة والعنف التى هى جانب من الطبيعة البشرية • بل على العكس من ذلك كانت لديه بشكل غير عادى نزعة الى الحنان والطيبة ، فقد قرر أبوه أن تحول النزعات العدوانية الى مشاعر الاشفاق قد تحقق عنده فى سن جد باكرة • فقبل الفوبيا بوقت طويل كان قد أصبح ينزعج عند رؤيته لأحصنة الا راجيح وهى تنضرب ، ولم يكن بوسعه دون انفعال أن يرى أحدا يبكى فى حضوره • صحيح أنه فى مرحلة من التحليل ظهر جانب من ساديته المكبوحه ، فى سياق بعينه (٢):

---

(١) من المؤكد تماما أن هاتين المستدعيتين عند هانز : شراب التوت ، و « بندقية القتل » ، لابد وأنهما ترجعان الى أكثر من مجموعة من المحددات • فهما ، فيما يحتمل ، فى علاقة مع كراهية لابيه بقدر ما هما عقدة الامساك عنده• والاب ، الذى استطاع بنفسه أن يمسك بهذه العلاقة الاخيرة ، قد أشار أيضا الى ما « لشراب التوت » من علاقة « بالدم » •

(١) رغبته فى أن يضرب • ويعاكس الاحصنة •

ولكنه كان سادية مكبوحة ، وسيكون علينا الآن أن نتقصى من السياق الذى ظهرت تلك السادية فى مكانه ، وما الذى ترمز اليه • كان هانز يحب فى عمق نفس هذا الأب الذى كان ضده يغذى تلك الرغبات فى موته ، وبينما كان ذكاؤه لايتقبل هذا التناقض (١) ، كان يكشف فى واقـــع الأمر عن وجود هذا التناقض عندما كان ينطح أباه ثم يسارع فى التوالى تقبيل الموضع الذى نطحه • ويتحتم علينا نحن أنفسنا أن نحترز من عدم تقبل هذا التناقض • فالحياة الانفعالية للانسان تتكون على وجه الجملة من أزواج من المتناقضات من هذا القبيل (٢) • ولو يكن الأمـــر كذلك ، لما كانت هناك فيما يحتمل كبوتات أو أعصبة • وعند الراشد ، كقاعدة عامة ، لايصبح أى زوج من أزواج المتناقضات هذه شعوريا فى جانبية فى آن واحد ، اللهم ألا فى ذروة الحب المشبوب ، أما فيما عـــدا ذلك فعادة مايمضى الجانبان بحيث يكبح أحدهما الآخر ، حتى ينجح أحدهما فى مواراة الآخر تماما ، وحجبه عن الأنظار • ولكنهما عنـــد الأطفال يستطيعان أن يتعايشا فى سلام جنبا الى جنب خلال فترة طويلة من الوقت •

كان أعظم التأثيرات أهمية فى مسار النمو النفسجنسى عند هانز هو ميلاد أخت صغيرة عندما كان فى الثالثة والنصف من عمره • فهذا الحدث قد أبرز علاقاته مع أبويه ، وفرض على تفكيره مشكلات لا حل لها • وبعد ذلك ، فان رؤيته للعناية ، وهى تغدق على أخته الصغيرة ، قد بعثت فى نفسه ذكريات أبكر تجاريب اللذة التى عاشها • وتأثير ذلك الحدث هو أيضا نمطى : ففى عدد يفوق كل توقع من تواريخ الحالات السوية والمرضية على السواء ، نجدنا مضطرين الى أن نتخذ نقطة بدايتنا من تفجر لذة جنسية واستطلاعية جنسية ترتبط ــ كما هو الشأن فى هذه الحالة ــ بميلاد الطفل التالى • كـــان سلوك هانز تجـــاه الطـــارىء

---

(١) أنظر السؤال الحرج الذى وجهه الى أبيه (ص ٢٢٤) •

(٢) Das macht, ich binkein ausgckliigelt Buch, Ich bin ein Menseh mit seinem Widerspruch C.F.M. yer, Huftens lerzte Tage (انى لست فى الواقع اسطورة عبودية بل انسان بكل التناقضات البشرية) •

الجديد هو على التحديد ما وضعته فى كتابى« تفسير الأحلام (١) » وبعد أيام قليلة ، وهو يعانى الحمى ، فضح هانز مدى ضآلة ترحيبه بالاضافة التى طرأت على الأسرة • فهنا تظهر العدائية أولا ، ثم يأتى الحب فيما بعد (٢) • ومنذ ذلك الحين فصاعدا فان الخوف من أن يجىء طفل جديد أيضا قد وجد مكانا بين أفكاره الشعورية • وفى العصاب ، فان عدائيته، التى كان قد تم بالفعل كبحها ، تمثلت فى خوف نوعى — هو الخوف من البانيو • وفى التحليل عبر هانز بشكل صريح عن رغبته فى موت أخته ، ولم يقنع بتلميحات يتحتم على أبيه أن يقوم بتتميمها • لم يكن ضميره ينظر الى هذه الرغبة على أنها من السوء مثل مثيلتها من الرغبة فى موت أبيــه . ولكن من الواضح أنه كان فى لا شــعوره لا يفرق بينهما ، فكل منهما قد انتزع ماما منه ، وحال دون انفراده بها •

أضف الى ذلك أن هذا الحدث ، والمشــاعر التى ابتعثهــا ، قد وجهت رغباته وجهة جديدة • ففى أخيولته الاخيرة والمظفرة جمع معا كل رغباته الشبقية ، سواء منها ما يرجع الى مرحلة الشبقية الذاتيــة أو مايرتبط بحب الموضوع • فى تلك الأخيولة تزوج أمه الجميلة ، وكان له أطفال لا حصر لهم ، يعنى بهم على طريقته الخاصة •

* * *

ذات يوم ، بينما كان هانز فى الطريق ، استولت عليه نوبة من الحصر (القلق المرضى) • لم يكن بوسعه بعد أن يقول ماهذا الذى يخاف منه ، ولكنه فى البداية الأولى لحالة الحصر هذه فضح لأبيه دافعه الى أن يمرض والميزة التى يحصل عليها من المرض • كان يرغب فى أن يبقى مع أمه ، وأن « يتدلع » معها ، وتذكره بأنه كان قد أبعد عنها وقت ميلاد الطفلة الصغيرة ربما يكون أيضا — كما أشار أبوه — قد أسهم فى اذكاء

---

(١) الطبعة السابعة الالمانية ، ص ١٧٤ • الترجمة العربية : تفسير الاحــلام دار المعــارف بمصر ، ص ٢٦٥ وما بعدها •

(٢) قارن خططه عما ينتوى أن يفعله حين تكبــر اخته وتستطيع أن تتكلم (ص ٦٦٠) •

صبابته اليها • وسرعان ماتضح أن حصره لم يعد من الممكن رده من جديد الى صبابته ، فقد كان يخاف حتى حين كانت تصحبه أمه • وفى الفترة الفاصلة ظهرت دلائل تشير الى هذا الذى غدا الليبيدو (ألذى تحول الآن الى حصر) متشبثا به • فقد عبر هانز عن خوف نوعى تماما من أن يعضه حصان أبيض •

والأضطرابات من هذا النوع تسمى « فوبيا » ، وربما كان من الممكن أن نصنف حالة هانز على أنها أجورافوبيا ، لولا هـذه الحقيقة التى مؤداها أن مايميز الاجورافابيا هـو أن الانتقـال ، ألذى يعجـز المريض فيما عدا ذلك عن أن يقوم به ، يمكن دائما أن يتم بسهولة حين يصاحبه شخص معين ـ هو فى الحالات القصوى الطبيب • وفوبيـا هانز لايتوفر فيها هذا الشرط ، فسرعان ماتوقفت عن أن تكون لها أية صلة بالانتقال ، وأخذت تتركز بوضوح أكثر فأكثر على الأحصنة • وفى الايام الباكرة من مرضه ، حين كان قلقه فى أعلى ذروته ، عبر هانز عن خوفه من أن « يدخل الحصان الى الغرفة » ، وكان ذلك هو الذى أعاننى كثيرا على فهم حالته •

فى تصنيف الأعصبة ، لم يتم حتى الآن تعيين مكان محدد « للفوبيا » ويبدو من المؤكد أنه يتحتم اعتبارها فحسب مجرد زملات (١) يمكن أن تشكل جانبا من أعصبة مختلفة ، وأننا لسـنا بحاجـة الى تصنيفها بحسبانها كنها مرضيا قائما برأسه ، وبالنسبة الى الفوبيات من قبيل فوبيا هانز الصغير ، وهى فى الواقع أكثرها شيوعا ، يبدو لى أن أسم « هستيريا الحصر » ليس غير ملائم • وقد اقترحت هذا المصطلح على الدكتور ف • شتكل ، عندما كان يضطلع بوصف لحـالات الحصـر العصابى (٢) ، وانى لآمل أن يعم استخدامه ، فهذا المصطلح يجد ما

---

(١) Syndromes

(٢) W. Stekel, Nervose Angstzustande und ihre Behandlung, 1908 (حالات الحصر وعلاجهـا •) •

يبرره فى تشابه مابين البنية السيكولوجية لهـذه الفوبيـات والبنية السيكولوجية للهستريا ــ وهو تشابه تام فيما عدا نقطـة واحدة . ولكن هذه النقطة مع ذلك هى نقطة حاسمة ، وملائمة تماما لأغراض التمييز . ففى هستيريا الحصر فان الليبيدو الذى تجرد من المادة المولدة للمرض عن طريق الكبت لايتبدن (بمعنى أنه لايتحول من مجاله النفسى الى تعصيب بدنى) ، بل يظل طليقا فى صورة حصر . وفى الحالات الكلينيكية التى نلتقى بها يمكن « لهستيريا الحصر » هذه أن تأتلف مع « هستيريا التبدين (١) » بكل النسب الممكنة . هناك حالات من هستيريا التبدين الخالصة ، دون أى أثر للحصر ، تماما كما أن هناك حالات من هستيريا الحصر ليس غير ، تتبدى فى مشاعر حصر وفوبيات دون أن يمتزج بها أى تبدين . وحالة هانز الصغير هى واحدة من النوع الأخير .

أن هستيريات الحصر هى الأكثـر شيوعا بين الاعصبة النفسية . ولكنها ، قبل كل شىء ، أبكر الأعصبة ظهورا فى الحياة ، أنها بالدرجـة الاولى أعصبة الطفـولة . وعندما تستخدم أى عبارات من قبيـل أن « اعصاب » طفلها فى حالة سيئة ، فبوسعنا أن نكون على ثقـة ، فى تسـع حالات من عشر ، من أن الطفل يعـانى نوعـا من الحصر ، أو عـدة أنـواع فى آن واحـد . ومن سوء الحظ أن الميـكانيزم المرهف لهذه الاضطرابات العظيمة الدلالة : لم ينل بعـد حظا كافيا من الدراسة . فلم يتقرر بعد ما أن كانت هستيريا الحصر ــ تمييزا لها من هستيريـا التبدين والاعصبة الاخرى ــ ترجع الى العوامل الجبلية وحدها ، أو الى الخـبرات الطارئة وحدها أو الى ائتلاف من النوعين (٢) . ويبدو

---

(١) (Conversion Hysteria)

(٢) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣ .) ــ ان المشكلة هنا لم تلق المتابعة . ولكن ليس من سبب يدعونا الى أن نفترض أن هستيريا الحصر تشذ عن القاعدة التى مؤداها أن الاستعداد السابق والخبرة كليهما يتحتم أن يسهما فى الاسباب المولدة للعصاب . يبدو أن رأى رانك عن آثار صدمة الميلاد يلقى ضوءا خاصا على الاستعداد السابق لهستيريا الحصر ، وهو الاستعداد جد القوى فى الطفولة . (لقد نقد فرويد هذا الرأى فيما بعد عام ١٩٢٦ فى الفصل الثامن من كتابه الكف والاعراض والحصر . أنظر الترجمة العربية بقلم د. عثمان نجاتى بعنوان القلق . مكتبة النهضة . المترجمـــون) .

فى أن هستيريا الحصر ، من بين كل الاضطرابات العصابية ، هى أقلها حاجة الى استعداد جبلى ، ومن ثم فهى أيسر الاعصبة حدوثا فى أى وقت من الحياة •

وثمة خاصية أساسية من خصائص هستيريت الحصر من اليسير جدا أن نتبينها ، فهستيريا الحصر تنزع أكثر فأكثر الى أن تصبح « فوبيا » • وفى النهاية يمكن أن يكون المريض قد تخلص من كل حصره ، ولكن ذلك فقط بثمن باهظ هو اخضاع المريض نفسه لكل ضروب الكفوف والتقييدات • فمنذ البداية فى هستيريا الحصر ثمة جهد نفسى متواصل يعمل على أن يقيد نفسيا من جديد هذا الحصر الذى غدا طليقا ، ولكن هذا العمل ليس بوسعه لا أن يعيد من جديد الحصر الى لبيبيدو (١) لا ولا أن يجد نقطة لتقييده فى نفس هذه العقد ألتى منها انبعث الليبيدو • فليس أمامه من سبيل الا أن يسد ألطريق على كل فرصة يمكن أن تؤدى الى نشأه الحصر وذلك بأقامة موانع نفسية فى صورة تحوطات أو كفوف أو تحريمات ، وهذه ألصروح الدفاعية هى التى تتبدى لنا فى صورة فوبيات وتشكل أمام ناظرينا لب المرض •

ويمكن القول بأن علاج هستيريا الحصر كان حتى الآن علاجا سالبا تماما • فقد كشفت الخبرة عن استحالة ، بل وأحيانا عن خطورة ، محاولة شفاء فوبيا بوسائل عنيفة أى بحرمان المريض أولا من دفاعاته ، ووضعه بعد ذلك فى موقف لا يستطيع فيه أن يتفادى ما يحتاجه من حصر متفجر • والخلاصة هى أنه ما من شىء يمكن عمله الا أن ندع المريض ، وقد اعيتنا الحيل ، يفتش له عن مأمن ، حيثما يعتقد أن بوسعه أن يجده ، وأن نكتفى بالنظر اليه ـ مما لا يعينه كثيرا ـ باحتقار على « جبنه الذى ليس له ما يبرره » •

كان والدا هانز الصغير ، منذ البداية ، قد عقدا عزمهما على أن لا يسخرا منه أو يعنفا معه ، بل أن يحاولا البلوغ الى رغباته المكبوته

---

(١) تشير هذه العبارة الى نظرية فرويد الاولى فى الحصر بوصفه طاقة الليبيدو المكبوت ، وقد صحح فرويد هذه العبارة بحيث أصبح الحصر هو الباعث على كبت الليبيدو (المترجمون) •

بطرائق التحليل النفسى • وقد كلل النجـاح الجهـود المضنية غـير العادية لتى بذلهـا الأب ، وسوف تتيح لنـا تقريره فرصة للنفـاذ الى نسيج هذا النوع من الفوبيـا ، وتتبع مسـار تحليلها •

***

ليس من المستبعد ، فيما اعتقد ، أن تكون الاسهابات والتفصيلات فى هذا التحليل قد جعلته غامضا بعض الشىء بالنسبة الى القارىء • ومن ثم فسـوف أبدأ بتقـديم موجز مقتضب عنه ، بحيث استـبعد منه كل ما هو جانبى ومشتت للانتباه ، موجها الانتبـاه الى النتائـج وهى تتتابع فى خروجها الى الضوء واحـدة بعد أخرى •

وأول شىء نتبينه هو أن تنفجـر حالة الحصر لم يكن بأى حـال فجائيا ، كما بدا للوهلة الأولى • فقبل ذلك بأيام قليلة صحا الطفل من حلم حصر ، مؤداه أن أمـه قد رحلت ، ولم تعـدمعه الآن أم «يتدلع» معها • هـذا الحلم وحده يشير الى وجود عملية كبت بالغة الشـدة • وليس بوسعنا تفسير هذا الحلم ، على نحو ما نفعل مع كثير من أحلام الحصر الاخرى ، بأن نفترض أن الطفـل قد استشعر فى حلمـه حصرا ناشئا من سبب بدنى ، وأنه قد استفاد من هـذا الحصر ليشبع رغبـة لا شـعورية ، كانت تظل بغير ذلك عميقة الانكبـات (١) • بل يتحتم علينا بالحرى أن ننظر الى هذا الحلم على أنه حلم عقوبة وكبت بمعنى الكلمة ، بل ـــ أكثر من ذلك ـــ على أنه حلم فشل فى وظيفته ، طالمـا أن الطفل قد صحـا من النوم فى حـالة حصر • ونستطيع فى يسر أن نبنى من جديد هذا الذى حدث بالفعـل فى اللاشعور • كان الطفـل يحلم بتدليلات أمـه ، وبأنه ينام معها ، ولكن كل اللذة تحـولت الى حصر ، وكل المضمون الفكرى الى نقيضه • فقد حقق الكبـت انتصارا على ميـكانيزم الحلم •

---

(١) انظر كتابى « تفسير الاحلام » ، الطبعة السابعة الالمانية ، ص ٤٣٣ •

(أنظر الترجمة العربية : تفسير الاحلام • دار المعـارف بمصر صحة ٣٥٤) •

ولكن البدايات الاولى لهذا الموقف السيكولوجى ترجع الى ما قبل ذلك أيضا ، فخلال الصيف السابق اعترت هانز حالات نفسية مشـابهة ، هى مزاج من الصبابة والحصر ، تفـوه فيها بأمور مشـابهة ، وفى ذلك الوقت أتاحت له هذه الحـالات أمتيازا : اذ أخـذته أمـه معها فى فراشها • وبوسعنا أن نفترض أن هانز قد غدا منذ ذلك الحين فى حـالة من الاستثارة الجنسية الشديدة التى كانت الأم موضوعا لها • وهذه الشدة فى استثارته قد ظهرت فى محاولتيه لغواية أمـه (وقعت المحاولة الثانية قبل تفجر قلقه مباشرة) ، وقد عثر بالصدفة على مسرب لافراغ الاسـتثارة بالاستمناء فى كل مسـاء ، وبهذه الطريقة كان يحقـق الاشباع • أما كيف تم التحول المفاجىء لهذه الاسـتثارة الى حصر : أتم تلقائيا ، أم تم نتيجة رفض أمه لعروضه العشقية ، أم تم نتيجـة الابتعاث الطارىء للانطباعات الباكـرة بفعل مرضه كسـبب مباشر (وهو ما سـوف نسمع عنه الآن) ــ فذلك مالا نستطيع البت فيه ، والواقع أن ذلك أمر لا يهم ، فتلك احتمالات ثلاثة لا يمكن أعتبارها غير مسـايرة بعضها لبعض • وتبقى هذه الحقيقة وهى أن أستثارتـه الجنسية قد تحولت فجأة الى حصر •

لقد سبق أن وصفنا سلوك الصبى فى بداية هذا الحصر ، كمـا وصفنا المضمون الأول الذى نسبه الى هذا الحصر ، وهو على التحديد خوفه من أن حصانا يعضه ، عند هذه النقطة حدث أول تدخل للعـلاج قال له أبواه ان حصره هو نتيجة الاستمناء ، وشجعاه على أن يقلع عن هذه العادة • وقد حرصت على أن يلحا ــ فى حديثهما معه ــ بأعظم الاهتمام على حبه لأمه ، فقد كان ذلك هو مايحاول أن يحل محله خوفه من الأحصنة • هذا التدخل الأول أحدث تحسنا طفيفا ، ولكن سرعان ماضاعت من جديد تلك الأرض التى كسبناها • وذلك أثناء فترة من المرض البدنى • ظلت حالة هانز دون تغير • وسرعان بعد ذلك ماأرجع خوفه من أن حصانا يعضه الى انطباع عاشه فى جموندن • أب قال لابنته عند رحيلها هذه الكلمات من التحذير : « لاتضعى اصبعك عند الحصان ، فلو فعلت فسيعضك • » وكلمات « لاتضعى اصبعك عند » ، وهى التى

استخدمها هانز فى حكايته لهذا التحذير ، تشبه الكلمات التى صيغ بها التحذير ضد الاستمناء • ومن هنا ، فقد بدا للوهلة الأولى وكأن أبوى هانز على حق فى افتراضهما بأن ماكان يخافه هو اغراقه فى الاستمناء • ولكن العلاقة ماتزال فى جملتها غير محددة ، ويبدو وكأنها كانت مجرد صدفة أن الأحصنة غدت شبحه المخيف •

كنت قد افترضت أن رغبة هانز المكبوتة يمكن أن تكون الآن رغبته فى أن يرى بأى ثمن حمامة أمه • وحيث أن سلوكه تجاه الخادمة الجديدة جاء مؤيدا لهذا الافتراض ، فقد قدم له أبوه الدفعة الأولى من التبصيرات ، وهى على التحديد أن النساء ليس لهن حمامة • وقد استجاب هانز لهذه المحاولة الأولى لمعاونته ، بأخيولة مؤداها أنه رأى أمه تعرض حمامتها (١) • هذه الأخيولة ، وملاحظة أدلى بها هانز أثناء الحوار ، يتيحان لنا أن نلقى أول نظرة على العمليات النفسية اللاشعورية عند المريض • ذلك أن تهديد الخصاء ، الذى وجهته اليه أمه منذ مايقرب من خمسة عشرة شهرا ، قد بدأ الآن يحدث تأثيره عليه بشكل آجل • فأخيولته من أن أمه تفعل نفس الشىء الذى سبق أن فعله هو (التعبير الشهير للأطفال « وأنت أيضا ! حين يوضعون موضع الاتهام) كانت تستهدف تبرير الذات ، كانت أخيولة حماية ودفاع • وينبغى أن ننتبه الى أن أبوى هانز كانا هما اللذان استخرجا ، من بين المادة المولدة للمرض والتى تعتمل فى داخله ، الموضوع الخاص باهتمامه «بالحمامات» وقد مضى هانز فى اثرهما على هذه الأرض ، ولكنه لم يدخل بعد فى التحليل بأقدام مستقلة • فلم يكن من الممكن بعد ملاحظة أى أثر علاجى مضى التحليل بعيدا تماما عن موضوع الأحصنة ، وتبصيره بأن النساء ليس لهن حمامة كان من شأنه بالحرى أن يزيد من حرصه على أن يبقى على حمامته •

---

(١) ويخول لنا السياق أن نضيف : « ونلمسها » (ص ٢١٠) • فهو نفسه فى نهاية الامر لم يكن يستطيع أن يعرض حمامته دون أن يلمسها •

ومع ذلك فليس النجاح العلاجي هو هدفنا الأول ، فنحن بالحرى نحاول تمكين المريض من أن يبلغ الى امساك شعوري برغباته اللاشعورية وذلك مايمكن تحقيقه بعملنا ، معتمدين على الاشارات التى يمدنا بها ، ومن ثم بمعونة فنياتنا فى التأويل ، مقدمين عقده اللاشعورية الى شعوره فى كلمات من عندنا • وسوف تكون هناك درجة معينة من التشابه بين مايسمعه منا وبين هذا الذى يفتش عنه ، والذى يحاول — على الرغم من كل المقاومات — أن يشق طريقه الى الشعور ، وهذا التشابه هو الذى يضع المريض فى موقف يمكنه من أن يتعرف على المادة اللاشعورية • والمحلل يسبق المريض على طريق المعرفة ، بينما المريض يتبع ، من ورائه بقليل ، طريقه الخاص به ، حتى يلتقى الاثنان عند الهدف المعين • ومن عادة المحللين المبتدئين أن يخلطوا بين هذين الموقفين ، فيتوهمون أن اللحظة التى تتضح فيها لهم احدى العقد اللاشعورية عند المريض هى أيضا اللحظة التى يتعرف فيها المريض نفسه على هذه العقدة • انهم يتوقعون أكثر مما ينبغى حين يتوهمون أنهم سوف يشفون المريض بمجرد تقديم هذه المعرفة اليه • ذلك أن المريض لايستطيع أن يفيد من هذه المعرفة بأكثر من أن يستعين بها فى التعرف على العقدة اللاشعورية ، حيث تستقر عميقة فى لاشعوره • أن نجاحا مبدئيا من هذا القبيل هو الذى حصلنا عليه الآن عند هانز • فبوسعه الآن ، وقد سيطر جزئيا على عقدة الخصاء لديه ، أن يفضى الينا برغباته فيما يتصل بأمه • وقد فعل ذلك ، فى شكل مايزال محرفا، فى أخيولة الزرافتين ، اللتين كانت احداهما تصيح فى غير طائل لأن هانز قد استولى على الثانية • وقد عبر هانز عن « الاستيلاء » تعبيرا تشكيليا بحسبانه « جلوسا على » • وقد تعرف أبوه عان الأخيولة من حيث هى تكرار لمشهد فى غرفة النوم كان يجرى عادة فى الصباح بين الصبى وأبويه ، وسرعان ماجرد الرغبة الخبيئة من قناعها الذى كانت ماتزال تتنكر فيه • كان أبو الصبى وأمه هما الزرافتان • أما السبب فى اختيار أخيولة عن الزراف كأداة للتنكر فيجد مايفسره تماما : فى زيارة قام بها الصبى لنفس هذه الحيوانات الكبيرة فى شونبرون قبل

ذلك بأيام قليلة ، وفى رسم هانز للزرافة فى وقت أبكر ، وهو الرسم الذى احتفظ به أبوه ، وربما أيضا فى مقارنة لاشعورية تستند الى الرقبة الطويلة الجامدة عند الزرافة (١) • ومما قد تجدر ملاحظته أن الزراف ، بوصفه حيوانا كبيرا ومثيرا للاهتمام بالنظر الى حجامته : كان بوسعه أن يدخل فى منافسة مع الأحصنة فى الاضطلاع بدور الشبح المخيف (أضف الى ذلك أن يكون أبوه وأمه كليهما قد تبديا فى صورة زرافتين ، كان يشكل أشارة لم تتم الافادة منها حتى الآن فى تفسير « أحصنة الحصر ») •

وبعد قصة الزرافتين مباشرة أنتج هانز أخيولتين صغيرتين : احداهما يشق فيها الطريق عنوة ألى داخل مكان ممنوع فى شونبرون، والأخرى يحطم فيها زجاج النافذة فى عربة السكة الحديد فى شتادبان. وفى الأخيولتين يبرز بوضوح الطابع المعيب للفعل الجدير بالعقاب ، كما يبرز أبو هانز شريكا • ومن سوء الحظ أن الأب لم ينجح فى تفسير الأخيولتين ، بحيث لم يفد هانز شيئا من سردهما عليه • وفى التحليل ، على أية حال ، فان الشيء الذى لم يتحقق فهمه يعود بالضرورة الى الظهور من جديد ، هو أشبه مايكون بروح هائمة يستحيل عليها أن تعرف الاستقرار قبل أن ينحل اللغز ويبطل السحر •

وليس بالنسبة الينا من صعوبة تعترض فهمنا لهاتين الأخيولتين المتصفتين بالجناح • فيما تنتميان الى عقدة الاستيلاء على الأم عند هانز • فثمة نوع من الصور الغائم بزغ فى نفس الصبى عن شيء مايمكن أن يفعله مع أمه ، ويتحقق به استيلاؤه عليها ، وكيما يعبر هانز عن هذا الفعل الذى لايستطيع الامساك بــه ، يلجــأ الى تعبيرين تشكيليين معينين يلتقيان عند سمتين مشتركتين هما العنف والممنوع ، ويتفق مضمونهما بشكل عجيب مع الحقيقة الخبيئة ، الى حد يستثير أشد دهشتنا • وكل مانستطيع قوله أنهما كــانتا أخيولتين رمزيتين

(١) وربما يتفق مع ذلك اعجاب هانز فيما بعد برقبة أبيه •

للجماع ، ولم يكن من التفصيلات العديمة الأهمية أن كان أبوه يشاركه الفعلين : وكأني به يقول « بودى أن أفعل شيئا مع ماما ، شيئا ممنوعا، لست أدرى ماهو ، ولكني أعرف أنك أنت الآخر تفعله » •

ان أخيولة الزرافتين قد دعمت اقتناعا كان قد بدأ يستقر فى ذهنى حين عبر هانز عن خوفه من أن « يدخل الحصان الى الغرفة » ، ووجدت أن الفرصة المناسبة قد حانت عندئذ لتبصيره بأنه انما كان خائفا من أبيه لأنه كان هو نفسه يغذى فى أعماقه رغبات من الغيرة والعدائية ضد أبيه — فقد كان من الضرورى افتراض ذلك بحسبانه جانبا من وجداناته اللاشعورية • وبتبصيره بذلك ، أكون قد فسرت له جزئيا خوفه من الاحصنة : فالحصان هو بالضرورة أبوه — هذا الذى لدى هانز من الاسباب الداخلية الوجيهة ما يدعوه الى الخوف منه • وبعض التفصيلات التى كشف هانز عن خوفه منها — الشىء الاسود على أفواه الاحصنة والاشياء التى أمام عيونها (الشارب والنظارة وهما امتياز ينفرد به الرجل الراشد) — قد بدت لى منقولة بشكل مباشر من أبيه الى الاحصنة •

وبتبصيرى لهانز بذلك أزلت عنده أعتى المقاومات التى تمنع أفكاره اللاشعورية من أن تصبح شعورية : وكان أبوه فى واقع الامر هو الذى يضطلع بدور المحلل • ومنذ تلك اللحظة تخطينا ذروة الحالة ، وأصبحت المادة تتدفق فياضة ، ووجد المريض الصغير من الشجاعة ما جعله يحكى تفصيلات الفوبيا ، ولم يلبث أن بدأ يسهم بشكل ايجابى فى توجيه مسار التحليل (١) •

---

(١) وحتى فى التحليلات التى يكون فيها المحلل والمريض ولا قرابة بينهما ، يلعب الخوف من الاب دورا من أهم الادوار كمقاومة ضد المادة اللاشعورية المولدة للمرض • والمقاومات تتخذ من ناحية صورة البواعث • أو من ناحية أخرى ، كما هو فى هذا المثال ، يكون بوسع جزء من المادة اللاشعورية ، بحكم مضمونه ذاته ، أن يعمل على كف ظهور جزء آخر من نفس هذه المادة ذاتها •

ولم نتبين الا الآن من أى الموضوعات ومن أى الانطباعات يخاف هانز • لم يكن فحسب يخاف من الاحصنة أن تعضه — فسرعان ما توقف عن الحديث فى ذلك بل أيضا من العربات ، من عربات الاثاث ، ومن الامنيبوسات (والخاصية المشتركة بينها ، كما غدا واضحا الآن أنها كلها محملة تحميلا ثقيلا) ، ومن الاحصنة التى تبدأ فى التحرك، ومن الاحصنة التى تبدو كبيرة وثقيلة ، ومن الاحصنة التى تركض مسرعة • وهانز يفسر بنفسه ما تعنيه هذه التخصيصات ، كان يخاف من أن الاحصنة تقع ، ومن ثم أدخل فى فوبياه ، كل ما بدا من شأنه أن ييسر وقوعها •

وليس مما هو قليل الحدوث أن لا ينجح المحلل فى تبين المضمون الدقيق للفوبيا ، أو الصيغة اللفظية الدقيقة لحفزة حصارية ، أو ما الى ذلك ، الا بعد أن يمضى شوطا بعينه فى العمل التحليلى مع المريض • فالكبت لم يقتصر على أنه نزل بالعقد اللاشعورية ، ولكنه يظل باستمرار يهاجم مشتقاتها أيضا ، بل انه يمنع المريض من أن يصبح على وعى بنتاجاته المرضية ذاتها ، وبذلك فان المحلل يجد نفسه فى ذلك الموقف ، المستغرب من طبيب ، اذ يعمل على اعانة المرض ، وتوجيه الاهتمام اليه • ولكن الذين يجهلون تماما طبيعة التحليل النفسى هم وحدهم الذين يبالغون فى أهمية هذا الطور من العلاج ، منتهين الى اننا ينبغى أن نتوقع بسبب ذلك أن يتمخض التحليل عن الاضرار بالمريض • وحقيقة الامر هى أنه يتحتم عليك أن تمسك بلصك قبل أن يكون بوسعك أن تشنقه ، وأنه يتحتم علينا أن نتحمل عناء البدء بالامساك بالتكوينات المرضية التى نهدف الى تدميرها بالعلاج •

وقد سبق لى أن ذكرت ، فى تعليقاتى العابرة على تاريخ الحالة أنه من المفيد جدا أن نغوص على هذا النحو فى تفاصيل فوبيا ، فنبلغ من ثم الى اقتناع بالطبيعة الثانوية للعلاقة ما بين الحصر وموضوعاته • ذلك هو ما يفسر كون الفوبيات غير محددة الجال بشكل عجيب ، وفى نفس الوقت محدودة الشروط بشكل محكم•

ومن الواضح أن هانز قد أستمد مادة التنكــرات التي لبسها خوفه من الانطباعات التي كان يتلقاها طــوال اليوم بالنظر الى وجــود محطة الجمارك المركزية فى مواجهة بيته ومما يتعلق بذلك أيضا ماكشف عنه هانز من حفــزة وان تكــن الآن فى حالة كــف بســبب الحصر الى ألالعــب بالحمولة التى على ألعربات ، بالطرود ، وألبراميل وألصناديق ، كما يفعل صبية الشــوارع •

كان عند هذه المرحلة من التحليل أن تذكر هانز تلك الحــادثة ، العديمة الدلالة فى ذاتهــا ، والتى سبقت مباشرة تفجر المرض ، والتى يمكن بلا شــك اعتبارها السبب المباشر لهذا التفجر • خرج فى نزهة مع أمــه ، فرأى حصان أو أومنيبوس يقع ، ويضرب بأقدامه فى كل اتجاه• أحدث ذلك عنده انطباعا شديدا • فقد ارتعب ، واعتقد أن الحصان قد مات ، ومنذ ذلك الحين فصاعدا اعتقد ان كل الاحصنة سوف تقــع • وقد نبهه أبوه الى أنه عندما رأى الحصان يقع لابد وأن يكون قد فكر فيه هو ، فى أبيــه ، وأن يكون قد رغب فى أن أبــاه يقع بنفس الطريقة ويموت • ولم يجــادل هانز فى هــذا التفسير ، وبعد برهــة قصيرة شرع يلعب لعبة تنحصر فى أن يعض أباه ، كاشــفا بذلك عن تقبــله للتفسير الذى مؤداه أنه قد وحد بين أبيــه والحصان الذى كان يخاف منه • ومنذ ذلك الحين فصاعدا كان سلوكه تجــاه أبيــه متحــررا وبلا خوف ، بل ومتبجحا بعض الشيء •ومع ذلك فان خوفه من الاحصنة ظل مستمرا ، كما لم يكن قداتضح بعد خلال أية سلسلة من التداعيات استطاع الحصان الذى يقع أن يبتعث الرغبات اللاشــعورية عند هــانز •

فلنوجز النتائج التى بلغنا اليها حتى الآن • فمن وراء الخــوف الذى عبر عنه هانز فى البداية ، وهو خوفه من أن حصانا يعضــه ، اكتشفنا خوفا يستقر عنده فى مســتوى أعمق ، هو خوفه من أن حصانا يقــع ، وكلا النوعين من الاحصنة ، هذا الذى يعض وذلك الذى يقع ، قد تكشفا على أنهما يرمزان لابيــه ، الذى سيعاقب هانز على الرغبات الشريرة التى كان يضمرها • ضده • وخلال هــذه الفترة ابتعد التحليل عن موضــوع أمه •

وعلى غير انتظار تماما ، وبالتأكيد دون أن يستحثه أبوه بحال ، بدأ هانز الآن ينشغل بعقدة « اللومف » ، ويبدى تقززه من أشياء تذكره بافراغ أمعائه • ولما كان أبوه غير متهىء لان يمضى معه فى هذا الخط الجديد ، فقد مضى بالتحليل عنوة فى ذلك الاتجاه الذى كان يريد المضى فيه • وقد تأدى بهانز الى أن يتذكر حادثة وقعت فى جموندن ، كان انطباعه الخاص بها يكمن وراء انطباعه عن حصان الامنيبوس الذى وقع • ففر يتزل ، رفيق اللعب الذى كان هانز يحبه كثيرا ، والذى ربما كان أيضا منافسه فى صديقاته الصغيرات العديدات ، ارتطمت قدمه وهو يلعب الحصان ، بحجر فوقع وسال الدم من قدمه • ورؤية حصان الامنيبوس يقع قد ذكرته بهذه الحادثة•

وجدير بالملاحظة أن هانز ، الذى كان عندئذ ينشغل بأمور أخرى ، بدأ بانكار أن فريتزل وقع (وان كانت تلك هى الواقعة التى تشكل الرابطة بين المشهدين) ، ولم يسلم بذلك الا فى مرحلة لاحقة من التحليل • وعلى أية حال ، فان ما يجدر ملاحظته بصفة خاصة هو كيف أن تحول الليبيدو عند هانز الى حصر ثم اسقاطه على الموضوع الرئيسى للفوبيا عنده ، وهو الاحصنة • كانت الاحصنة هى أكثر ما يشد اهتمامه من بين الحيوانات الكبيرة جميعها ، فلعبة الحصان كانت لعبته المفضلة مع الاطفال الآخرين • وكنت أعتقد ، وهذا ما أكده لى أبو هانز عندما سألته ، أن أول شخص قام لهانز بدور الحصان لابد وأنه كان أبوه ، وكان هو الذى مكن هانز من أن يعتبر فريتزل بديل أبيه عندما وقعت الحادثة فى جموندن • وعندما استقر الكبت ، متمخضا عن انقلاب فى الوجدانات ، فان هانز ، الذى كان فيما سبق يجد المتعة فى الاحصنة ، تحتم عليه بالضرورة أن يخاف منها •

ولكن ، كما سبق أن قلنا ، كان بفضل تدخل أبى هانز أن بلغنا الى هذا الاكتشاف الأخير الهام عن الطريقة التى عمل بها السبب المباشر للمرض عمله • كان هانز نفسه مستغرقا فى اهتماماته اللومفية ، وفى هذا الطريق ينبغى أن نمضى معه آخر الأمر • ونتبين عندئذ أن هانز كان من

عادته فيما مضى أن يصر على مصاحبة أمة داخل المرحاض ، وأنه قــد أحيا هذه العادة مع صديقته برنا فى وقت كانت فيه تشغل مكان أمه ، ذلك حتى انكشفت الواقعة ومنع من أن يفعل ذلك • ان لذة النظر عندما يكون شخص محبوب يقضى حاجته الطبيعية هى مرة أخرى ، « تشابك غرائز » ، ظاهرة استطعنا أن نشهد لها مثالا عند هانز ، وفى النهاية مضى أبوه فى رمزية اللومف ، وتبين ماهنالك من تشابه بين عربة محملة تحميلا ثقيلا وبد ن محمل بالبراز ، بين الطريقة التى بها تخرج عربة من بوابة خارجية والطريقة التى يخرج بها البراز من البدن ، وما الى ذلك •

ومهما يكن ، فان موقف هانز من التحليل قد تغير بصفة أساسية بالقياس الى ما كان عليه فى المراحل السابقة • ففيما سبق ، كان بوسـع أبيه أن يخطره مسبقا بما سوف يظهر ، بينما كان هانز فحسب يتبع أقوال أبيه ، مهرولا فى اثرها ، أما الآن فان هانز هو الذى يمضى فى المقدمة بخطى سريعة وثابتة ، بحيث أصبح من العسير على أبيه أن يلاحقه • أنتج هانز ، دون أى تدخل ، أخيولة جديده : فالسمكرى فك البانيو الذى كان هانز بداخلة ، ثم ضربه فى بطنه بمثقابه الكبير ومنــذ ذلك ألحــين كانت المادة التى تظهر تفيض من كل ناحية بما يزيد على قدرتنا على الفهم المباشر • لم نستطيع أن نفهم الا فى وقت لاحق أنها كانت أخيولة أنجاب، الباشر • لم نستطع أن نفهم الا فى وقت لاحق أنها كانت أخيولة اجاب، عانت التحريف بفعل الحصر • فالبانيو الكبير الذى تخيل هانز نفسه بداخله كان رحم أمه ، والمثقاب » Bohrer الذى تبينه الأب منذ البداية قضيبا ، يرجع السبب فى ذكره هنا الى ارتباطه بالانولاد ، (الميلاد) ge boren (١) • والتفسير الذى نجدنا مضطرين لأن نعطيه للأخيولة سوف يبدو بالطبع جد غريب : « بقضيبك الكبير ثقبتنى (بمعنى ، ولدتنى ،) ووضعتنى فى رحم أمى » • ولكن الأخيولة فى وقتها أفلتت من التفسير ، فاقتصرت على أن تكون بالنسبة لهانز نقطة ارتباط يواصل منها تقديم معلوماته •

---

(١) راجع هامش ص ٩٢ ـ المترجمــــون •

كشف هانز عن خوفه من أن تعطيه أمه حمامه فى البانيو الكبير ، وكان هذا القلق من جديد قلقا مركبا • جزء منه مايزال يستعصى على فهمنا ، ولكن الجزء الآخر يمكن فهمه دفعة واحدة بالرجوع الى أخته الطفلة وهى تأخذ حمامها • لقد اعترف هانز بأنه كانت لديه الرغبة فى أن تترك الأم أخته الطفلة تقع وهى تعطيها حمامها ، بحيث تموت • كان قلقه ، وأمه تعطية حمامه ، هو خوف من الثأر على هذه الرغبة الشريرة ، ومن أن تنزل به العقوبة فيصيبه نفس الشىء • ترك هانز الآن موضوع اللومف ، وانتقل مباشرة الى موضوع أخته الطفلة • ويوسعنا أن نستشعر مايمكن أن يعنيه هذا التجاوز فى الواقع : ان هنه الصغيرة هى نفسها لومف — كل الأطفال هم لومفات ، ويتولدون كاللومفات ونستطيع الآن أن نتبين أن كل عربات الأثاث وعربات النقل الثقيل والأومنيبوسات لم تكن غير عربات — صناديق — طائر اللقلق ، ولم تكن لها أهمية عند هانز الا من حيث أنها تمثـلات رمزية للحمل ، وأنه عندما كان حصان ثقيل أو محمل تحميلا ثقيلا يقع لم يكن هانز يرى فى ذلك الا شيئا واحدا — ميلاد طفل ، ولادة ein Nierkommen [1] • وهكذا فان الحصان الذى يقع لم يكن فحسب أبا يموت ، بل أيضا أمه تلد طفلا •

وعند هذه النقطة قدم لنا هانز مفاجأة ، لم نكن مهيئين لها أقل تهيئة • كان قد لاحظ ، عند أمه ، الحمل الذى انتهى بميلاد أخته الصغيرة وذلك عندما كان فى الثالثة والنصف من عمره • وقد استطاع هانز تماما ، على الأقل بعد الولادة ، أن يتمثل فى نفسه حقيقة ماجرى فى الواقع ، دون أن يدلى — وهذا صحيح — بذلك لأحد ، بل ربما دون أن يكون قادرا على التعبير عنه • وكل ما كان يمكن تبينه فى ذلك الوقت هو أن هانز ، بعد الولادة مباشرة ، اتخذ موقفا من الشك المتطرف تجاه كل مايمكن أن يحمل اشارة الى وجود طائر اللقلق • أما كون هانز — فى تعارض تام مع أقواله الصريحة — كان يعرف فى لاشعورة من أين أتته

---

(١) أنظـر هامش ص ٢٨٤ — المترجمـــــون •

الطفلة وأين كانت قبل ذلك ، فذلك ماأثبته هذا التحليل اثباتا لايرقى اليه ظل من شك ، وربما يكون ذلك فى الواقع هو من هذا التحليل الموضع الذى تستحيل مهاجمته •

وأعظم دليل قاطع على ذلك تقدمه لنا أخيولته (التى تتشبث بهـا بأقصى عناد ، وزينها بكل هذه التفصيلات الثرية) عن كيف كانت هنه معهم فى جموندن فى الصيف السابق على ميلادها ، وكيف سافرت الى هناك معهم ، وكيف كان بوسعها أن تفعل عندئذ أكثر بكثير مما كانت تستطيعه بعد عام ، بعد ميلادها • والقحة التى حكى بها هانز هذه الأخيولة ، والاكاذيب العجيبة العديدة التى مزجها بها ، لم تكن بأى حال عديمة المعنى اذ كان ذلك يستهدف الأنتقام من أبيه ، هذا كان يحمل له هانز ضغينة ، بسبب تضليلة اياه بخرافة طائر اللقلق • كان الأمر تماما وكأنه يقول : « أن كنت حقا قد اعتقدت أننى من الغباء الى هذا الحد بحيث أصدق أن اللقلق قد أتى بهنه ، فعندئذ استطيع بدورى أن أتوقع منك أن تصدق خرافاتى • » وفعل الانتقام هذا من جانب باحثنا الصغير ضد أبيه قد جاءت فى اثره الأخيولة ذات الصلة الواضحة به عن معاكسة الأحصنة وضربها • وهذه الاخيولة هى الاخرى تشتمل على عنصرين • فمن ناحية كانت تقوم على المعاكسة ، هذه التى وجهها ضـد أبيه قبل ذلك مباشرة ، ومن ناحية أخرى فانها تمخضت من جديد عن الرغبات السادية الغامضة المتجهة ضد أمه ، والتى سبق أن عبر عنها فى أخاييله (وأن لم تكن مفهومة فى بداية الأمر) عن فعل شىء ممنوع • بل أن هانز قد صرح شعوريا برغبته فى أن يضرب أمه •

لم يبق أمامنا الآن الكثير من الألغاز • فثمة أخيولة غامضة عن قطار يفوتهما ، يبدو أنها كانت طليعة للفكرة اللاحقة عن تسليم أبى هانز الى جدة هانز فى لاينتس ، اذ أن الأخيولة تتعلق بزيارة الى لاينتس ، وتظهر الجدة فى الأخيولة • أخيولة أخرى فيها صبى يعطى السـائق خمسين ألف فلورين ليتركه يركب على العربة (ص ٢٧٣)تبدو وكأنها خطة لشراء أمه من أبيه ، هذا الذى يكمن جانب من قوته بالطبع فى ثرائه

وفى ذلك الوقت تقريبا ، أعترف أيضا ، بدرجة من الصراحة لم يبلغ اليها قط من قبل ، أنه كان يرغب فى التخلص من أبيه ، وأن سبب رغبته فى ذلك أن أباه كان يعكر عليه صفو خلوته مع أمه • ولاينبغى أن ندهش حين نلتقى بنفس الرغبات تعاود الظهور باستمرار فى مسار التحليل • فالرتابة ترجع فقط الى أن عملية التفسير قد اكتملت • أما بالنسبة الى هانز ، فهى لم تكن مجرد تكرارات ، بل درجات فى ارتقاء مطرد يمضى من التلميح الوجل الى التصريح الشعورى بمعنى الكلمة ، بعيدا عن كل تحريض

وماسوف يأتى بعد ذلك لا يعدو أن يكون تأكيـدات من جانب هانز لنتائج التحليل التى أرستها تفسيراتنا • ففى فعل أعراضى لايمكن أن ينفتح لاى لبس ، موهه بعض الشىء على الخادمة ولكن ليس ابـدأ على الأب ، أبان هانز عن الكيفية التى يتم بها الميلاد فى تصوره ، ولكننا اذا نظرنا فى هذا الفعل الأعراضى عن كثب يكون بوسعنا أن نرى أنه قد أبان عن شىء آخر ، فقد كان يلمح الى شىء لم تأت الأشـارة اليه مرة أخرى فى التحليل • دفع مطواة كانت لامـه فى ثقب مستدير بجسم المطاط ، ثم جعل المطواة عروسة من تسقط خارجة بتمزيقه مابين رجليها • فالتبصير الذى تلقاه من أبويه اثر ذلك مباشرة ، من أن الأطفال ينمون فى الواقع داخل أبدان أمهاتهم ثم يدفعون خـارجين من هذه الأبدان كلومف ، انما جاء بعد الأوان ، فلم يكن بوسعه أن يضيف اليه جديدا وثمة فعـل أعراضى آخر ، حدث وكـأنه مجرد صدفة ، أنطوى على اعتراف منه برغبته فى موت أبيه ، ففى نفس اللحظة التى كان يتحدث فيها اليه عن هذه الرغبة فى الموت ، ترك هانز حصانا كان يلعب به يسقط من يده — رمى به الى الأرض فى الواقع • هذا الى أنه أيد فى كثير من عباراته الفرض الذى مؤداه أن ألعربات ألمحملة تحميلا ثقيلا كانت تمثل بالنسبة اليه حمل أمه ، وأن وقوع الحصان يمثل ولادة طفـل • ولكن أبرع هذه التأييدات كلها فى هذا الصددما كان من تدليله على أن الاطفـال فى رأيه هم « لومفات » ، بابتداعه أسم « لودى » لطفـله المفضل • ولكن هذه الواقعة لم تصل الى علمنا الا متأخرة ، اذ تبين

عندئذ أنه كان يلعب بهذا الطفل « السجق » ، طفله المفضل ، منذ وقت طويل مضى (١) .

لقد سبق أن تناولنا الاخيولتين الأخيرتين عند هانز ، اللتين أكتمل بهما شفاؤه . فاحداهما ، أخيولة السمكرى وهو يزوده بحمامة جديدة هي — كما حدس أبوه — حمامة أكبر لم تكن مجرد تكرار للاخيولة الابكر عن السمكرى والبيانو . فهذه الاخيولة الجديدة كانت أخيولة رغبـــة مظفرة ، تغلب بها على خوفه من الخصـــاء . أما أخيولته الاخرى التى تصرح برغبته فى الزواج من أمه ، وفى أن يكون له منها أطفال كثيرون فانها لم تقتصر على استنفادها مضمون العقد اللاشعورية التى تحركت الى السطح برؤية الحصان يقع ، والتى ولدت عنده الحصر . ذلك أن هذه الأخيولة قد صححت أيضا ذلك الجانب من أفكاره الذى لم يكن مقبولا على الاطلاق ، فبدلا من أن تقتل الاخيولة الأب ، جعلته عديم الاذى ، بأن منحته ترقية الزواج من جدة هـــانز . بهذه الاخيولة بلغ المرض والتحليل كلاهما النهاية الملائمة .

* * *

عندما يكون تحليل حالة ما ماضيـــا فى تقدمه ، يكون من المستحيل البلوغ الى أى انطباع واضح عن بنية العصاب وتطوره . فذلك يتطلب عملية تركيبية ينبغى القيام بها بعد ذلك . وفى محاولتنا القيام بمثل هذه العملية التركيبية عن فوبيا هانز الصغير سوف نجعل نقطة انطلاقنـــا وصف جبلته النفسية ، ورغبـــاته الجنسية المهيمنة ، والاحداث التى سبقت ميلاد أخته ، مما قدمناه فى جزء باكر من هذا المقال .

---

(١) أذكر مجموعة رسوم للفنان هينه T. T. Heine فى عدد من مجلة Simplicissimus

حيث صور هذا الرسام العبقرى حكاية جزار الخنازير الذى وقع فى آلة السجق، والذى فى صورة سجقة صغيرة ، بكاه أبواه ، وتلقى بركات الكنيسة ، وصعد الى السماء . وفكرة الفنان تبدو للوهلة الاولى غير مألوفة ، ولكن حكايـــة « لودى » فى هذا التحليل تمكننا من أن نرجع فكرة الفنان الى أصلها الطفلى .

فمقدم أخته أدخل على حياة هانز كثرة من العناصر الجديدة ، التي لم تجعله منذ ذلك الحين فصاعدا يذوق طعم الراحة . فأولا كان عليه أن يعانى درجة معينة من الحرمان : بادىء ذى بدء ، انفصالا مؤقتــا عن أمه ، وبعد ذلك نقصا دائما فى قدر العناية والاهتمام اللذين كــان يتلقاهما منها ، واللذين عليه منذ ذلك الحين فصاعدا أن يعتاد تشاطرهما مع أخته . وثانيا عاش هانز ابتعاث لذاته التى نعم بها عندما كان يتلقى العناية كطفل ، ابتعاثا مرجعه كل هذا الذى كان يرى أمه تعمل من أجل الطفل . ونتيجة لهذين التأثيرين غدت حاجاته الشبقية أكثر شدة ، بينما بدات فى نفس الوقت تلقى اشباعا غير كاف . وقد قام هانز بتعويض نفسه عن الخسارة التى لحقت به بسبب مجىء اخته بأن تخيل أن له أطفالا هو نفسه ، وطالما كان فى جموندن — فى زيارته الثانية لهــا ، وكان بوسعه فى الواقع أن يلعب مع هؤلاء الاطفال ، كان يجد فى ذلك منصرفــا كافيا لعواطفه . ولكنه بعد عودته الى فينا أصبح من جديد وحيداً ، فاتجه بكل مطالبه الى أمه . وكان فى الفترة الفاصلة قد عانى حرمانا آخر ، اذ نفى من غرفة أمه وهو فى الرابعة والنصف من عمره . وعندئذ فان قابليته التى اشتدت للاستثارة الشبقية بدأت تعبر عــن نفسها فى أخاييل — كان بها يستحضر فى وحدته رفاق لعبه فى الصيف الماضى - وفى اشباع منتظم من الشبقية الذاتية كان يحصل عليه بتنبيهات استمنائية لعضو انساله .

وثالثا فان ميلاد أخته قد حدا به الى أن يعمل فكره وكان ذلك من ناحية يستحيل أن يتأدى به الى نتيجة ، وكان من ناحية أخرى يجره الى صراعات انفعالية . كان يواجه اللغز الكبير : من أين يأتى الأطفال الذى ربما يكون أول مشكلة تستنهض القوى العقلية للطفل ، والذى ربما كان لغز أبى الهول فى طيبة ليس غير نسخة محرفة له . رفض هانز التفسير الذى قدم اليه من أن طائر اللقلق أتى بهنه . لأنه كان قد لاحظ قبل ميلاد الطفل بعدة أشهر أن بدن أمه قد انفتخ ، وأنها بعــد ذلك رقـــدت فى الفراش ، وأنها كانت تتأوه أثناء حدوث الميلاد ، وأنها عندما تركــت الفراش ذهب عن بدنها الانتفاخ . ومن ثم فقد استنتج أن هنه كانت

داخل بدن أمه ، ثم خرجت منه بعد ذلك كلومف اذ كان بوسعه أن يتخيل عملية الولادة على أنها عملية لاذة أذ ربطها بمشاعره اللاذة الأولى عند التبرز وبذلك كان لديه دافع مزدوج لرغبته فى أن يكون له أطفال هو نفسه ولدة ولادتهم ، ولذة العناية بهم (تعويضية ، ان جاز القول) • لم يكن فى ذلك كله مايمكن أن يتأدى به الى الشكوك والصراعات •

ولكن كان هناك شىء آخر لايمكن الا أن يثير الارتباك عند هانز • فأبوه لابد وأن كانت له علاقة ما بمولد هنه الصغيرة ، لأنه كان قد أعلن أن هنه وهانز نفسه هما طفلاه • ومع ذلك فقد كان من المؤكد أن ليس الأب هو الذى وضعهما بل الام • وهذا الاب كان يقف حائلا بينه وبين أمه • فعندما يكون حاضراً لايستطيع هانز أن ينام مع أمه ، وعندما كانت أمه ترغب فى أن تأخذه معها فى فراشها كان من عادة أبيه أن يصيح• لقد تعلم هانز من الخبرة كيف يكون كل شىء على مايرام عندما يكون أبوه غائبا ، وكان الأمر المعقول وحده هو أن يرغب هانز فى التخلص منه • وعندئذ لقيت عدائية هانز تعزيزا جديدا • فقد أخبره أبوه بتلك الأكذوبة عن طائر اللقلق ، ومن ثم جعل من المستحيل عليه أن يطالب استيضاح هذه الأمور • فهو لم يقتصر على أن منعه من أن يكون فى الفراش مع أمه ، بل حرمه أيضا من المعرفة التى كان يتعطش اليها • كان يضع هانز فى وضع مجحف من الناحيتين • وكان من الواضح أنه يفعل ذلك لمصلحته الخاصة •

ولكن هذا الأب الذى لم يكن يستطيع هانز أن يمنع نفسه من كراهيته كمنافس ، كان هو نفس الأب الذى أحبه هانز دائما ، وكان مضطرا لأن يمضى فى حبه له ، فقد كان هذا الاب أنموذجه ، وكان أول رفيق لعب له ، وتعهده بالرعاية منذ طفولته الباكرة ، وكان هذا هو الذى ولد عند هانز أول صراع وجدانى ، وهو صراع لم يستطيع أن يعثر على حل مباشر له • ووفقا لتطور طبيعة هانز كان ولابد فى البداية للحب أن تكون له اليد الطولى ، وأن يقوم بكبح الكراهية دون أن يقتدر مع ذلك على تبديدها ، ذلك أن تلك الكراهية كانت تتلقى بلا انقطاع مددا جديدا من جراء حب هانز لأمه •

ولكن أباه ليس فقط كان يعرف من أين يأتى الأطفال ، بل كان أيضا يفعل شيئا ما من شأنه أن يأتى بهم — وهو الشيء الذى لم يكن هانز يستطيع حدسه الا بشكل غائم ، و « الحمامة » لابد وأن تكون لها صلة بهذا الشيء ، اذ أن حمامته كانت تهتاج كلما فكر فى هذه الأشياء — وتلك الحمامة لابد أيضا وأن تكون كبيرة ، أكبر من حمامة هانز . فلو كان هانز قد انتبه لهذه الأحاسيس الارهاصية لما كان بوسعه أن يعترض أن ذلك الشيء هو ضرب من أعمال العنف تعانيه الأم ، ضرب من التحطيم ، من عمل فتحة فى شيء ما من الاقتحام عنوه لمكان مغلق — تلك كانت فى الواقع الحفزات التى كان يستشعرهـا تجيش فى داخله ، ولكن على الرغم من أن الأحاسيس التى استشعرها قضيبه قد وضعه على الطريق الى افتراض وجود مهبل ، الا أنه مع ذلك لم يقتدر على حل اللغز اذ لم يكن هناك بحسب خبرته من شيء موجود يشبه هذا الذى كانت تتطلبه حمامته . وعلى النقيض من ذلك تماما فان اقتناع هانز بأن أمه لهـا حمامة تماما مثل ماله قد سد عليه الطريق الى حل اللغز . فمحاولته لحل هذه المشكلة ونعنى : ما الذى ينبغى فعله مع ماما كى يكون لها أطفال ؟ غاصت عميقا فى لاشعوره . وحفزتاه الايجابيتان — حفزته العدوانية ضد أبيه وحفزته السادية العشقية تجاه أمه — ظلتا معطلتين ، الأولى بسبب ذلك الحب الذى كان قائما جنبا الى جنب مع الكراهية ، والثانية بسبب الحيرة التى أسلمته اليها نظرياته الجنسية الطفلية .

على هذا النحو ، استنادا منى الى نتائج التحليل ، وجدتنى مضطرا الى أن أعيد بناء العقيدة والرغبـات اللاشعورية ، هذه التى تمخض كبتها وابتعاثها عن الفوبيا عند هانز الصغير . وأنى اذ أفعل ذلك ، فانى على وعى بأننى أنسب قدرا كبيرا من القدرة العقلية لطفل هو بين الرابعة والخامسة من العمر ، ولكنى أترك زمـام نفسى لهذا الذى اكتشفنـاه حديثا ، دون أن أتقيد بالأحكام القلبية لجهلنا . وربما كان من الممكن أن نستخدم خوف هانز من « عمل صخب شديد بالأرجل » لنسد بضع ثغرات أخرى فى سجل أدلتنا . صحيح أن هانز صرح بأن ذلك يذكره بضربه بأرجله عندما كان عليه أن يقطع لعبه لكى يعمل « لومف » ، الأمر

الذى يضع هذا العنصر من العصاب فى علاقة مع مشكلة ما ان كانت أمه عن رضى قد رغبت فى أن يكون لها أطفال أو عن كره أرغمت على ذلك • ولكنى لا اعتقد أن ذلــك يقدم تفسيرا مكتمــلا « لعمل صخب شديد بالأرجل» • لم يكن بوسع أبى هانز أن يؤيد ظنى فى وجود ذكرى ما ، تتحرك فى نفس الصبى ، عن ملاحظته مشهد جماع جنسى بين أبويه عندما كان ينام فى غرفة نومهما • فلنقنع اذن بما استطعنا الكشف عنه •

ومن العسير أن نتبين — فى الموقف الذى كــان يعيشه ، والذى فرغنا من تقديم لوحة عنه — هذا السبب الذى أدى الى التغير المفاجىء عند هانز ، الى تحول الصبابه اللبيبدية عنده الى حصر ، بعبارة أخرى من أى جانب كان بدء الكبت ؟ بما لا يمكن القطع باجابة لهذا السؤال قبل مقارنة هذا التحليل بعدد من التحليلات المماثلة • ما الذى قلب الميزان ؟ أكان قصوره العقلى عن أن يحل المشكلة العسيرة عن انجاب الاطفال ، وعن أن يجابه الحفزات العدوانية التى يطلقها الاقتراب الغائم من حل هذه المشكلة ؟ أم ترى كن قصوره البدنى ، كنوع من عدم التسامح الجبلى عن أن يتحمل الاشباع الاستمنائى الذى يعيشة بانتظام ؟ (بمعنى أم أن مجرد استمرار الهياج الجنسى بمثــل هذه الدرجة العالية من الشدة كان لابد بالضرورة وأن يؤدى الى انقلاب الوجدان ؟) — هذه المشكلة ينبغى أن نتركها مفتوحة بغير اجابة حتى يتاح لخبرات جديدة أن تأتى لمعونتنا •

وثمة اعتبارات تتصل بتسلسل الأحداث تمنعنــا من أن نولى أهمية كبيرة للسبب المباشر لتفجير المرض عند هانز ، اذ كانت قــد ظهرت عنده علامات على الخوف قبل وقت طويل من رؤيته حصــان الأومنيبوس يقع فى الشارع •

ومع ذلك فان العصاب قد ربط نفسه بشكل مباشر بهذا الحدث الطارىء ، واحتفظ بأثر منه ، اذ ارتفع بالحصان الى مرتبة « موضوع حصر » • ان الانطباع الذى عاشه هــانز ، حين اتفق لــه أن يرى

الحصان يقع ، لم يكن لينطوى بذاته على أية « قوة صدمية » ، فبهذا الحدث الذى اتفق لهانز أن رآه لم يكتسب فاعليته الكبيرة فى توليد المرض الا بفضل ما كان للحصان سبق من أهمية عنده كموضــوع اهتمام وتفضيل ، والا بفضل ارتباطه بحدث أبكر وأكثر صــدمية بمعنى الكلمة جرى فى جموندن ، وهو وقوع فريتزل وهو يلعب دور الحصان ، والا بفضل وجود طريق ميسر للتداعى تأدى بهانز مــن فريتزال الى الأب . حتى كل هذه الارتباطات ربما مــا كانت لتكون كافية بحــال ، لولا أن الانطبــاع ذاته ــ بفضل مرونة العــلاقات الارتباطية وانفتاحها للالتباس ــ قد تكشف الى حد ملائم لابتعاث ثانية العقد التى كانت مترسبة فى لاشعور هانز ، عقدة ولادة أمه الحامل . ومنذ تلك اللحظة غدا الطريق مفتوحا أمام عودة المكبوت ، وقد عاد المكبوت على النحو التالى : المادة المولدة للمرض أعيد تشكيلها ونقلها على عقدة الحصان ، بينما الوجدانات المصاحبة كلها بلا استثناء تحولت الى حصر .

ومما تجدر ملاحظته أن المضمون الفكرى لفوبيا هانز ، على نحو ما كان عليه عندئذ ، كان لابد وأن يعانى عملية أخرى من التحريف والابدال ، قبل أن يكون بوسع هذا المضمون أن يبلغ الى الشعور . كانت الصيغة اللفظية الأولى التى عبر بهــا هانز عن حصره هى : الحصان سوف يعضنى » ، وكان ذلك مشتقا من حدث آخر جرى فى جموندن ، وكان يرتبط من ناحية برغباته ضد أبيه ، ويذكره من ناحية أخرى بالتحذير الذى كان قد تلقاه ضد الاستمناء . وثمة أمر محير ، ربما يرجع الى أبويه ، يفرض نفسه هاهنا على انتباهنا . فانى لست على ثقة من أن التقارير عن هانز فى تلك الفترة كانت تكتب بعنــاية كافية ، بحيث تمكننا من أن نقطع بما ان كان هانز قد عبر بهذه الصيغة عن حصره قبل أو فقط بعد أن وبخته أمه بخصوص استمنائه . انى أميل الى الاعتقاد بأن ذلك لم يكن الا بعد ، وأن تعارض ذلك مع النص الوارد فى تاريخ الحالة . ومهما يكن ، فمن الواضح أنه فى كل موضوع كانت عقدة العدائية عند هانز ضد أبيه تحجب عقدته الشهوية تجــاه

أمه ، تماما كما كانت الأولى تكشفا وتصفية فى التحليل •

وفى حالات أخرى من هذا القبيل كان يمكن أن يقال ماهو أكثر بكثير عن بينة العصاب وتطوره واتساع مجاله • ولكن تاريخ نوبة هانز الصغير كان جد قصير ، فتاريخ مرضه لم يكد يبدأ حتى حل محله تاريخ علاجه • وعلى الرغم من أنه أثناء العلاج ، بدت الفوبيا وكأنها تستفحل ، تمتد الى موضوعات جديدة ، وتفرض شروطا جديدة ، فان أبا هانز — بالنظر الى أنه هو نفسه كان يضطلع بعلاج الحالة — كان لديه بالطبع من الاستبصار الكافى مايجعله يدرك أن الأمر يتعلق فحسب بمجرد انبثاق مادة موجودة بالفعل ، وليس بنتاجات جديدة يمكن اعتبار العلاج مسئولا عنها • وفى علاج حالات أخرى لن يكون من الممكن دائما التعويل على مثل هذا الاستبصار النافذ •

وقبل أن يكون بوسعى أن أعتبر هذه الصورة التركيبية مكتملة ، يتحتم على أن أتناول الحالة من زاوية أخرى ، مما يجرنا الى لب الصعوبات التى تعترض طريق فهمنا للحالات العصابية • لقد رأينا كيف أن مريضنا الصغير اجتاحته موجة عارمة من الكبت ، وأن هذه الموجة قد أنصبت بالتحديد على هذه العناصر المهيمنة من جنسيته (١) • تخلى عن الاستمناء ، وابتعد فى اشمئزاز عن كل ما من شأنه أن يذكره بالمخرجات أو بالتطلع الى الآخرين وهم يقضون حاجاتهم الطبيعية • ولكن تلك لم تكن العناصر التى ابتعثها السبب المباشر للمرض (رؤيته الحصان يقع) كما لم تكن العناصر التى زودت الأعراض بمادتها ، أى بمضمونها فى الفوبيا •

وفى ذلك ما يتيح لنا هاهنا تمييزا جذريا • فسوف نبلغ الى فهم

---

(١) بل أن أبا هانز قد لاحظ فى نفس الوقت مع هذا الكبت ظهور قدر من الاعلاء عند هانز • فمنذ بداية حصره بدأ هانز يكشف عن اهتمام متزايد بالموسيقى ، وبدأت تزدهر عنده موهبته الموسيقية الموروثة •

أعمق للحالة بتحولنا الى تلك العناصر الأخرى التى تجيب على هذين الشرطين الاخيرين اللذين سبق ذكرهما • كانت تلك نزعات هانز سبق أن عانت الكبح ، وبقدر ماتستطيع أن نرى ، لم تستطع قط أن تترجم عن نفسها فى تعبير غير مكفوف : مشاعر عدائية وغيرة ضد أبيه ، وحفزات سادية (تباشير ترهص ، أن جاز القول ، بالجماع) ضد أمه • هذه الكبوحات الباكرة ربما كانت هى العوامل الشارطة للاستعداد للعصاب اللاحق • تلك النزعات العدوانية لم تجد لها عند هانز أى مخرج ، وعندما ، فى وقت من الحرمان والهياج الجنسى المتزايد ، حاولت هذه النزعات ، وقد نالها التعزيز ، أن تشق طريقها الى الخارج ، عندئذ تفجر هذا الصراع الذى نسميه « فوبيا » • أثناء مسار هذه الفوبيا ، نجح جانب من الأفكار المكبوته ، فى صورة محرفة ومنقولة على عقدة أخرى ، فى شق طريقه الى الشعور بوصفه مضمونا للفوبيا • ولكن مما لاشك فيه ان ذلك النجاح كان جديرا بالازدراء • فالنصر ما يزال لقوى الكبت ، هذه التى انتهزت الفرصة لتمتد بسلطانها الى عناصر أخرى غير هذه التى كانت قد تمردت • ولكن ليس فى هذا ، مع ذلك ، ما ينال على الاطلاق من الحقيقة التى مؤادها أن لب مرض هانز كان يتوقف كلية على طبيعة العناصر الغريزية التى كان يتحتم طردها •

فمضمون الفوبيا كان على نحو بحيث يتحتم أن يلزم عنه تقييد كبير لحرية الحركة ، وكان ذلك أيضا ما تستهدفه الفوبيا • ومن هنا فقد كانت هذه الفوبيا رد فعل قويا ضد الحفزات الحركية الغائمة المتجهة بصفة خاصة الى أمه فالحصان كان دائما عند هانز يمثل لذة الحركة • (« انى حصان صغير » ، هكذا كان يقول هانز وهو يثب فى كل اتجاه) • ولكن بالنظر الى أن لذة الحركة هذه كانت تتضمن حفزة الجماع ، فان العصاب قد فرض على لذة الحركة قيدا ، وجعل من الحصان شعارا للرعب • وهكذا يبدو الأمر وكأن الغرائز المكبوتة لم يبق لها من شىء فى العصاب الاشرف تزويد الحصر بتعلات تبرز ظهوره فى الشعور • ولكن كائنا ما كان وضوح هذا الانتصار للقوى المضادة

للجنسية فى فوبيا هانز ، الا أنه بالنظر الى أن هذا المرض هو ، بحكم طبيعته ذاتها ، مصـالحة ، فليس من الممكن أن يقف نصيب الغرائز المكبوتة عند هذا الحد . ففوبيا هانز من الاحصنة هى ، فى نهـاية الامر ، عقبة تحول دون خروجه الى الشارع ، ومن ثم يمكن أن تكون وسيلة تسمح له بأن يبقى فى البيت مع أمه الحبيبة . وهكذا فان حبه لأمه استطاع بهذه الطريقة أن يبلغ مظفرا الى هدفه . فمن خلال الفوبيا ذاتها ، تشبث العاشق الصغير بموضوع حبه ، وان كـانت اجراءات قد اتخذت بالتأكيد لتجعل هانز عديم الايذاء . أن الطابع الحقيقى لاضطراب عصابى انما يتبدى فى هذه النتيجة المزدوجة .

لقد قدم الفريد أدلر منذ وقت قريب ، فى مقال موح (١) ، رأيا مؤداه أن الحصر ينشأ من كبح ماأسماه « غريزة العدوان » ونسب الى هذه الغريزة ، بعملية تأليفية كاسمة ، الدور الأساسى فى كل ما يحدث للناس ، سواء كان ذلك « فى الحياة أو فى العصاب » . ومن حيث أننا أنتهينا فى حالة الفوبيا التى نحن بصددها ، الى أن الحصر ينبغى تفسيره بوصفه ناجما عن كبت النزعات العدوانية عند هانز (النزعات العدوانية المتجهة ضد أبيه ، والنزعات السـادية المتجهة الى أمه) **فيبدو أننا بذلك قد قدمنا أسطع تأييد لرأى أدلر .** ومع ذلك فاننى ماأستطعت قط أن أتقبل وجهة النظر هذه ، وانى لاعتبرها تعميما مضللا . اننى لاأستطيع أن أحمل نفسى على التسليم بوجـود غريزة عدوان قائمة برأسها ، جنبا الى جنب مع الغريزتين المعروفتين من قبل ، غريزة حفظ الذات والغريزة الجنسية ، وعلى قدم المساواة معهما (٢) . يبدو لى أن أدلر قد جسد من قبل الخطأ فى غريزة قائمة

(١) الفريد أدلر : « غريزة العدوان فى الحياة وفى العصاب »
Der Aggressionsbetrieb im Leben und in der Neurose, 1908.
وهـذا هو نفس المقـال الذى سبق أن استعرت منه مصطلح « تشابك الغرائز »
confluence of instincts.

(٢) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) كتبت هذه الفقرة فى وقت كان مايزال =

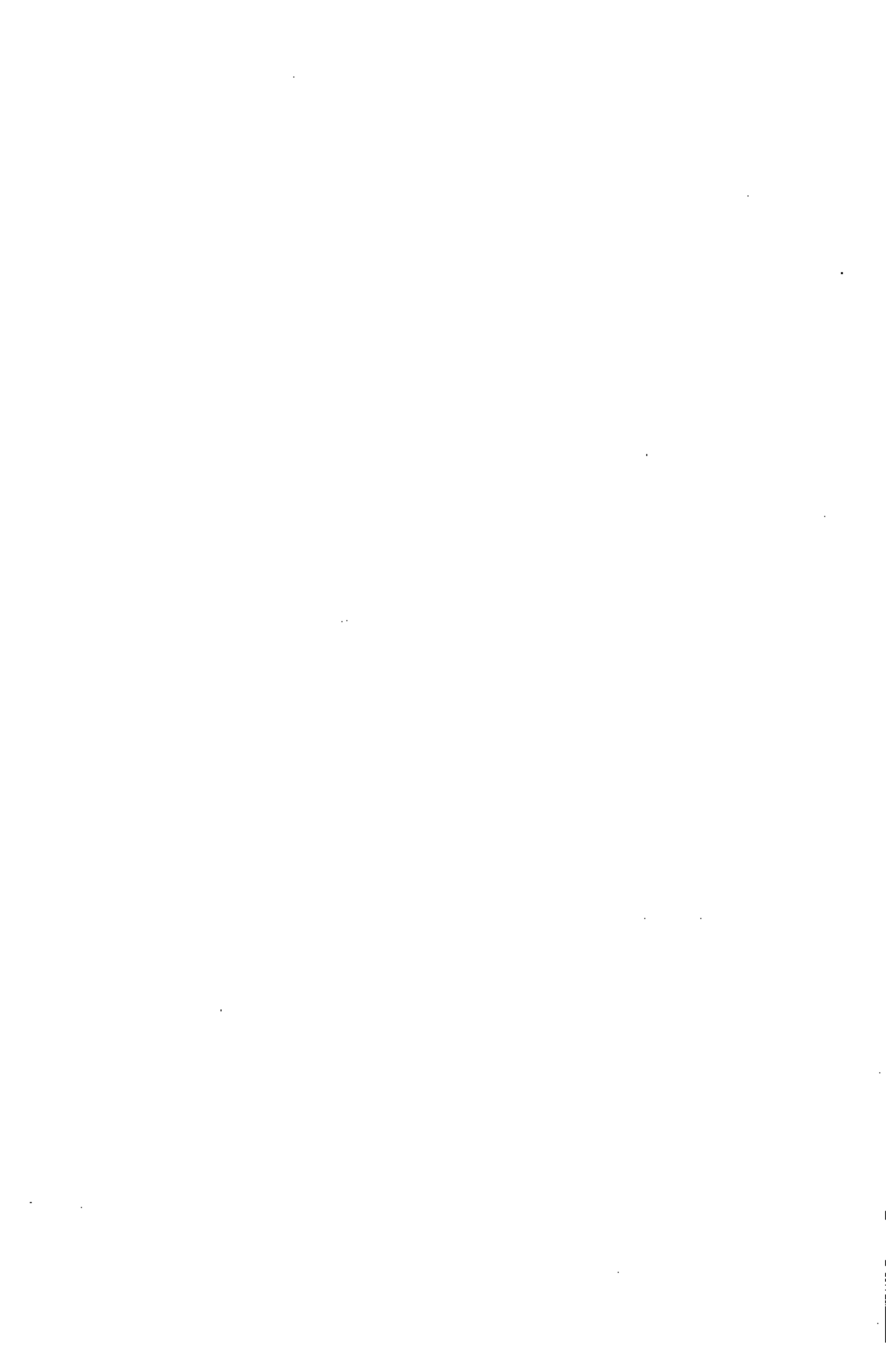
برأسها ماهو فى واقع الامر خاصية عـامة وضرورية لكـل الغرائز والحفزات ـ وأعنى طابعها « الحفزى » والدينامى ، ممـا يمكن وصفه بأنه قدرتها على استهـلال الحركة • فلو سلمنـا بوجهة نظر أدلر ،فعندئذ لن يبقى من الغرائز الأخرى شىء اللهم ألا أرتباطها بهدف أذ أرتباطها بالوسيلة لبلوغ هذا الهدف تكون قد سلبته منها «غريزة العدوان» وعلى الرغم من كل ماتتسم به نظريتنا فى الغرائز من غموض وبعد عن اليقينية ، فانى أوثر فى الوقت الحاضر التمسك بوجهة نظرنـا الحالية ، التى تترك لكل غريزة قدرتها الخاصة بهـا على أن تكون عدوانية ، وبالنسبة للغريزتين المكبوتتين عند هانز ، فانى أميل الى أن اعتبرهما عنصرين من عناصر الليبيدو الجنسى المألوفة منذ وقت طويل •

= فيه أدلر يقف على أرض التحليل النفسى ، وقبل أن يقول الاحتجاج بالذكرى وينكر الكتب • ومنذ ذلك الوقت وجدتنى مضطرا انا نفسى الى أن أؤكد وجود « غريزة العدوان » ، ولكنها تختلف عن غريزة العدوان عند أدلر ، وانى أفضـل تسميتها « غريزة تدمير » • أنظر : مافوق مبدأ اللذة (١٩٢٠) ـ والانا والهى (١٩٢٣) Des Ich und das Es فتعارض هذه الغريزة مع الغرائز الليبيدية يتترجم فى الاستقطـاب المألوف بين الحب والكراهية • واختلافى مع وجهـة نظر أدلر ، التى تصادر خاصية عامة للغرائز لصالح واحدة منها ، مايزال على حالـة •

* الترجمة العـربية : دار المعـارف بمصر •



٣



٣

سوف أشرع الآن فيما أرجو أن يكون نقاشا موجزا حول مدى ما يمكن أن تقدمه لنا فوبيا هانز الصغير مما يتسم بالعمومية والأهمية عن حياة الاطفال وتربيتهم . ولكن قبل ذلك يتحتم على أن أعود الى ذلك الاعتراض الذى طال احتجازه ، والذى بحسبه يعتبر هانز عصابيا ، « فاسد الجبلة » ذا وراثة سيئة ، وليس بطفل عادى يمكن أن نتأدى منه الى الآخرين . ومنذ فترة طويلة وأنا أتألم كلما فكرت فى الطريقة التى سوف ينزل بها المتشيعون « للانسان السوى » على رأس هانزنا الصغير المسكين بمجرد أن يعرفوا بأنه من الممكن فى الواقع التدليل على أنه كان لديه عيب وراثى . فأمه الجميلة وقعت فريسه عصاب نتيجة صراع عانته وهى يافعة . وقد أستطعت فى ذلك الوقت أن أكون لها عونا ، وكانت تلك فى الواقع هى بداية علاقتى بأبوى هانز . ولست اجترىء الا فى أشد الحياء أن أتقدم ببعض الاعتبارات فى صالحه .

فاولا ، لم يكن هانز بهذا الذى نقصد اليه عندما نقول بدقة : « فاسد الجبلة » تقضى عليه وراثته أن يكون عصابيا . بل على العكس من ذلك كان متين البنيان من الناحية البدنية ، وكان رفيقا صغيرا مزحا لطيفا سريع البديهة ، بوسعه أن يدخل السرور على الآخرين بالاضافة الى أبيه . ليس هناك من شك بالطبع فى نضجه الباكر جنسيا ، ولكننا نفتقر فى هذه النقطة الى المعطيات التى تكفى لمقارنة يمكن التعويل عليها . فاننى أعرف ، على سبيل المثال ، من بحث فسيح أجرى فى أمريكا ، أنه ليس من الامور النادرة بحال أن نعثر عند صبيان فى مثل هذه السن الباكرة على اختيارات للموضوع وعلى مشاعر عشقية ، ويمكن معرفة ذلك أيضا من دراسة سجلات الطفولة لرجال أصبحوا يعرفون فيما بعد بأنهم « عظماء » . ومن هنا فانى أميل الى الاعتقاد بأن النضج الباكر جنسيا هو قرين — قل

أن يتغيب — للنضج الباكر عقليا ، ومن هنا فان النضج الباكر جنسيا هو شيء نلتقي به في الاطفال الموهوبين أكثر بكثير مما نتوقع •

وأكثر من ذلك ، اننى ألفت الانتباه فى صالح هانز (معترفا فى صراحة بتحيزى) الى أنه ليس بالطفل الوحيد الذى أصيب بفوبيا فى وقت أو آخر من طفولته • فمن المعروف جيدا أن الاضطرابات من هذا النوع شائعة بدرجة عجيبة تماما ، حتى عند الاطفال الذين تكون تنشئتهم من الاحكام بحيث لا تترك مجالا لتعليق • هؤلاء الاطفال ، فى حياتهم اللاحقة ، اما أن يصبحوا عصابيين أو يبقون أصحاء • فالفوبيات عندهم تخرسها الصيحات فى الحضانة لانها ليست متاحة للعلاج وان تكن مثيرة بكل تأكيد للانزعاج • وهى على مر الشهور والسنين تنحسر ، ويبدو الطفل وكأنه قد شفى ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يعرف أية تغيرات سيكولوجية اقتضاها مثل هذا الشفاء ، ولا أية تغيرات فى الشخصية انطوى عليها • ولكن عندما يأتى الينا مريض عصابى راشد للعلاج بالتحليل النفسى (ولنفترض أن مرضه لم يظهر الا بعد بلوغه الرشد) فاننا نتبين بانتظام أن عصابه مرتبط بحصر طفلى من هذا النوع الذى كنا بصدد دراسته ، وأنه فى الواقع استمرار لهذا الحصر ، بحيث يبدو الامر ان جاز القول وكأن خيطا من النشاط النفسى يتصل فى غير توقف ابتداء من صراعات طفولته ينغزل نسيجا خلال حياته — وذلك بصرف النظر عما ان كان العرض الاول لهذه الصراعات قد تشبث بالبقاء أو انحسر تحت ضغط الظروف • وعلى ذلك فانى أعتقد أن مرض هانز ربما لم يكن أشد خطورة من مرض كثرة من الاطفال الآخرين الذين لا يوصمون بأنهم « فاسدو الجبلة » ، ولكن بالنظر الى أن هانز جرت تنشئته بعيدا عن التخويف ، وبأقصى ما يمكن من تقدير ، وأدنى ما يمكن من اكراه ، فقد اجترأ حصره على الظهور بشكل أكثر جسارة منه عند الآخرين • فعند هانز لم يكن هناك مكان لدوافع من قبيل القصد السيء والخوف من العقوبة ، والتى لابد وأنها تسهم عند أطفال آخرين فى ارغام الحصر على الانحسار • ويبدو لى أننا نهتم

أكثر مما ينبغى بالأعراض وأقل مما ينبغى بأسبابها • فكل ما نستهدفه فى تربيتنا للاطفال هو أن يتركونا فى سلام ، فلا تكون لدينا مشكلات، بأختصار نستهدف عمل « طفل نموذجى » دون أن نتساءل ما ان كانت هذه الطريقة فى صالح الطفل أو فى غير صالحه • ومن هنا فانى أستطيع أن أتصور أنه ربما كان فى صالح هانز أن تظهر هذه الفوبيا عنده ، لانها شدت انتباه أبويه الى الصعوبات التى يتحتم على الطفل أن يواجهها عندما يكون عليه ، أثناء تربيته ككائن متحضر، أن يقهر فى طبيعته حفزاته الغريزية الفطرية ، ولأن اضطراب هانز قد تأدى بأبيه الى أن بعينه • وربما تكون لهانز الآن ميزة على الآخرين ، من حيث أنه لم يعد يحمل فى نفسه هذه البذرة فى صورة عقد مكبوتة ، هذه التى لابد وأن يكون لها دائما اثرها على حياة الطفل اللاحقة ، والتى لابد وأن تتمخض عن درجة معينة من التشوه فى الشخصية ، ان لم تتمخض عن استعداد لعصاب لاحق • انى أميل الى الاعتقاد بأن الامر هو كذلك ، ولكنى لست أدرى ما ان كان كثيرون آخرون يشاطروننى رأيى ، بل ولست أدرى ما ان كانت التجربة ستثبت أننى على حق •

ولكن يتحتم على الآن أن أتقصى أى ضرر قد أصاب هانز باخراجنا الى النور تلك العقد التى ليست فقط مكبوتة عند الاطفال بل أيضا موهوبة من الآباء • فهل شرع الصبى الصغير فى القيام بأدنى « محاولة » جدية بخصوص رغبته تجاه أمه ؟ أو هل تمخضت مقاصده السيئة ضد أبيه عن تصرفات شريرة ؟ ذلك بالتأكيد ما يمكن أن يخشاه كثير من الأطباء الذين يسيئون فهم طبيعة التحليل النفسى، ويتوهمون أننا نقوى من الغرائز الخبيثة حين نجعلها شعورية • مثل هؤلاء « الحكماء » هم منطقيون مع أنفسهم حين يتضرعون الينا بحق السماء بأن لا نلمس هذه الاشياء الخطيرة التى تتربص كامنة وراء العصاب • وهم اذ يفعلون ذلك يغيب عنهم ، وهذا حق ، أنهم أطباء ، وأن تحذيراتهم تشبه بشكل عجيب تحذيرات دوجبرى فى رواية

شكسبير « ضجيج كبير من أجل لا شيء » (١) عندما نصح الحارس بأن يتجنب أى احتكاك باللصوص أو الاشرار الذين يمكن أن يلتقى بهم : « لأنه كلما قل اتصالك بمثل هذه الحثالة كان ذلك أفضل لشرفك » (٢) •

وعلى العكس من ذلك ، كانت النتائج الوحيدة للتحليل هى أن هانز قد شفى ، وتوقف عن أن يخاف من الاحصنة ، وأصبحت علاقته بأبيه هى بالحرى أدنى الى الألفة ، على نحو ما قرره الأب فى شيء من المرح • ولكن كائنة ما كانت خسارة أبيه من احترام الصبى له ، فقد عوضه عن ذلك ما كسبه من ثقته • قال هانز : « اعتقدت أنك كنت تعرف كل شيء ، ما دمت قد عرفت ذلك عن الحصان » • ان التحليل لا يمحو فى الواقع نتيجة الكبت • فالغرائز التى كانت من قبل مكبوحة تظل مكبوحة ، ولكن النتيجة نفسها تتحقق بطريقة مختلفة • فالتحليل يضع فى مكان عملية الكبت ، التى هى عملية آلية وباهظة ، عملية تحكم فى الغرائز معتدلة وملائمة تتم بواسطة أعلى القوى العقلية • وفى كلمة ، فان التحليل يضع الادانة فى مكان الكبت• وذلك يزودنا فيما يبدو بالدليل الذى طال البحث عنه على أن للشعور وظيفة بيولوجية ، وعلى أنه بدخوله الى المسرح تتحقق ميزة هامة (٣) •

---

(١) [Much Abs about Nothing, act III, scene iii, Dogberry
If you meet a thief, you may suspect him, by virtue of your office, to be no true man; and for such kind of men, the less you meddle or make with them why, the more is for your honesty.]

(٢) عند هذه القصة لا استطيع ان اكتم سؤالا حائرا • من اين يحصل خصومى على معلوماتهم التى يقدمونها بكل هذه الثقة ، عن مسألة ما ان كانت الغرائز الجنسية المكبوتة تلعب دورا ! وان كان كذلك فاى دور ضمن الاسباب المولدة للاعصبة ، من اين لهم لو انهم سدوا افواه مرضاهم بمجرد أن يبدأ هؤلاء المرضى فى الحديث عن عقدهم او مشتقاتها ! ذلك أن المصدر البديل الوحيد الذى يبقى بعد ذلك امامهم هو مؤلفاتى ومؤلفات أشياعى •

(٣) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) — انى استخدم هنا مصطلح =

ولو كان الامر بيدى تماما ، لاجترأت على تزويـد الصـبى بالتبصير الوحيد الذى كان ينقصه ، والذى ضن به أبواه عليه . كنت أدعم ارهاصاته الغريزية بأن أعرفه بوجود المهبل والجماع ، وبذلك كنت أمعن فى التقليل من المتخلفات التى بقيت عنده بغير حل ، وأضع حدا لسيل أسئلته . وانى لعلى ثقة من أن ذلك التبصير الجديد لـم يكن ليجعله يفقد لا حبه لأمه ، لا ولا طبيعته الطفلية ، ومن أنه كان سيفهم أن انشغاله بهذه الأمور الهامة ، بل والملحة ، يتحتم عليه فى الوقت الحاضر أن يسكن الى الراحة ، حتى تتاح لرغبته فى أن يكبر أن تتحقق . ولكن التجربة التربوية لم تذهب الى هذا الحد .

أما أنه يستحيل رسم حد فاصل بين «العصابيين» و «الأسوياء» — من الأطفال أو من الراشدين — ، وأما أن تصورنا عن « المرض » هو مجرد تصور عملى ، هو مسألة درجة ، وأما أن الاستعداد وأحداث الحياة يتحتم أن يأتلفا قبل أن نتخطى العتبة التى يبدأ من بعدهـا المرض ، وأما أنه نتيجة لذلك ينتقل عدد من الناس دون توقف مـن صنف الأسوياء الى صنف المرضى العصابيين ، بينما ينتقل عدد آخر أقل بكثير فى الاتجاه المضاد — فتلك كلها أمور كثر الحديث عنها ولقيت الكثير من القبول ، بحيث أننى بكل تأكيد لست وحيدا فى التمسك بصدقها . ومن المحتمل جدا ، وهذا أقل ما يقال ، أن تربية الطفـل تستطيع أن تمارس تأثيرا قويا ، ان حسنا وان سـيئا ، على هـذا الاستعداد الذى تحدثنا عنه الآن ، بوصفه أحد العاملين المولـدين « للمرض » ، أما ما ينبغى أن تهدف اليه التربية ، وفى أى موضـع

=

« الشعور » فى معنى انصرفت عنه منذ ذلك الحين ، وهو على التحديد لوصف عمليات التفكير العادية من قبيل تلك التى تقتدر على الدخول الى الشعور . ونحن نعلم أن عمليات التفكير من هذا القبيل يمكن أن تحدث أيضا قبل — شعوريا ، ويحسن بنا أن نعتبر « شعوريتها » . من وجهة نظر ظاهرياتية بحتة . ولست أقصد بذلك أن أدحض ما هو متوقع من أن الشعور فى هذا المعنى الاكثر تحديدا لابد وأن يضطلع أيضـا بوظيفـة بيولوجية .

يتحتم عليها أن تتدخل ، فذلك ما تبدو الاجابة عليه فى الوقت الحاضر جد عسيرة • فحتى الآن لم تتخذ التربية لنفسها من هدف الا التحكم فى الغرائز ، وقد يكون أدنى الى الدقة أن نقول قمع الغرائز • ولم تكن النتائج بأى حال باعثة على الرضى • وحيث نجحت هذه التربية لم يكن ذلك الا لصالح عدد قليل من الافراد المحظوظين ، ممن لم يطلب اليهم أن يقمعوا غرائزهم • بل ما من أحد تقصى بأية وسائل ، وبأى ثمن من التضحيات ، هذا القمع للغرائز المزعجة قد أنجز • فلو أننا وضعنا بدلا من تلك مهمة أخرى ، تستهدف بدلا من ذلك جعل الفرد قادرا على أن يصبح عضوا فى المجتمع متحضرا ونافعا بأقل ما يمكن من التضحية بايجابيته ، فعندئذ تكون الاضواء التى أمدنا بها التحليل النفسى عن منشأ العقد المولدة للمرض ، وعن نواة كل عصاب ، جديرة بأن ينظر اليها المربون بحسبانها هاديا ، تجل قيمته على الوصف ، لتصرفاتهم تجاه الاطفال • أما ما يمكن أن تكون عليه النتائج العملية المترتبة علىذلك ، والى أى حد يمكن أن تؤدى التجربة الى تبرير تطبيق هذه النتائج فى نظامنا الاجتماعى الحالى ، فتلك أمور أتركه للآخرين يدرسونها ويبتون فيها •

وليس لى أن أغادر فوبيا مريضنا الصغير قبل أن أعبر عن فكرة تسبغ ، فى رأيى • على هذا التحليل (الذى انتهى الى الشفاء) قيمة خاصة • فلو تحدثت بالدقة ، فان هذا التحليل لم يعلمنى شيئا جديدا ، شيئا لم أكن من قبل قادرا على حدسه (وان يكن ذلك على الاغلب فى صورة أقل تحددا ، وعن طريق غير مباشر بدرجة أمعن) من تحليلات مرضى آخرين فى سن أكثر نضجا • ولكن أعصبة هؤلاء المرضى الآخرين يمكن فى كل حالة ارجاعها الى نفس العقد الطفلية التى كشفنا عنها وراء فوبيا هانز • ومن هنا فانى أميل الى أن أنسب الى هذا العصاب الطفلى أهمية جد خاصة كنمط وكأنموذج ، والى أن أفترض أن الكثرة الكثيرة لظواهر الكبت التى تكشف عنها الاعصبة ، والكثرة الكثيرة للمواد المولدة للمرض فى هذه الاعصبة ، ليس ثمة ما يمنع من أن تكون راجعة الى عدد جد قليل من العمليات التى تعمل دائما عملها فى نفس العقدة ، فى نفس المضمون الفكرى •

٤

تذييل (١٩٢٢)

٤

تذييل (١٩٢٢)

منذ بضعة أشهر ـ فى ربيع عام ١٩٢٢ ـ تقدم الى شاب وأخبرنى أنه هانز الصغير ، الذى كان عصابه الطفلى موضوع مقالى الذى نشر عام ١٩٠٩ ، كنت جد مسرورا أن أراه مرة أخرى ، لاننى بعد نهاية تحليله بعامين تقريبا انقطعت صلتى به ، فلم أسمع شيئا عنه منذ أكثر من عشر سنين . كان نشر هذا التحليل ، وهو أول تحليل لطفل ، قد أحدث اثارة شديدة بل واستنكارا أشد ، وتوقع البعض مستقبلا أشد ما يكون سوءا لهذا الصبى الصغير المسكين ، الذى « انتهكت براءته » فى مثل هذه السن الغضة فكان ضحية تحليل نفسى .

ولكن ما من شىء من هذه التوجسات قد تحقق ، فقد أصبح هانز الآن شابا قويا فى التاسعة عشرة من عمره . وصرح بأنه على ما يرام تماما ، ولا يعانى من أية اضطرابات أو كفوف . فهو ليس فقط قد اجتاز مراهقته دون أن تنال منه ، بل انه أيضا قد واجه بنجاح محنة من أشد المحن على حياته العاطفية . فقد وقع الطلاق بين أبويه ، وتزوج كل منهما من ناحيته . ونتيجة لذلك كان يعيش بمفرده ، ولكنه كان على علاقة طيبه بأبويه كليهما ، ولم يكن يأسف الا على انفصاله ـ نتيجة لتفرق الاسرة ـ عن شقيقته الصغرى التى كان شديد التعلق بها .

وشىء واحد مما أخبرنى به هانز قد بدا لى عجيبا بشكل خاص ، ومن ثم فانى لا أخاطر بتقديم أى تفسير عنه . فقد أخبرنى بأنه عندما قرأ تاريخ حالته ، بدا له كل شىء غريبا عليه ، فهو لم يتعرف على نفسه ، ولم يكن بوسعه أن يتذكر شيئا ، ولم يكن الا حين بلغت به

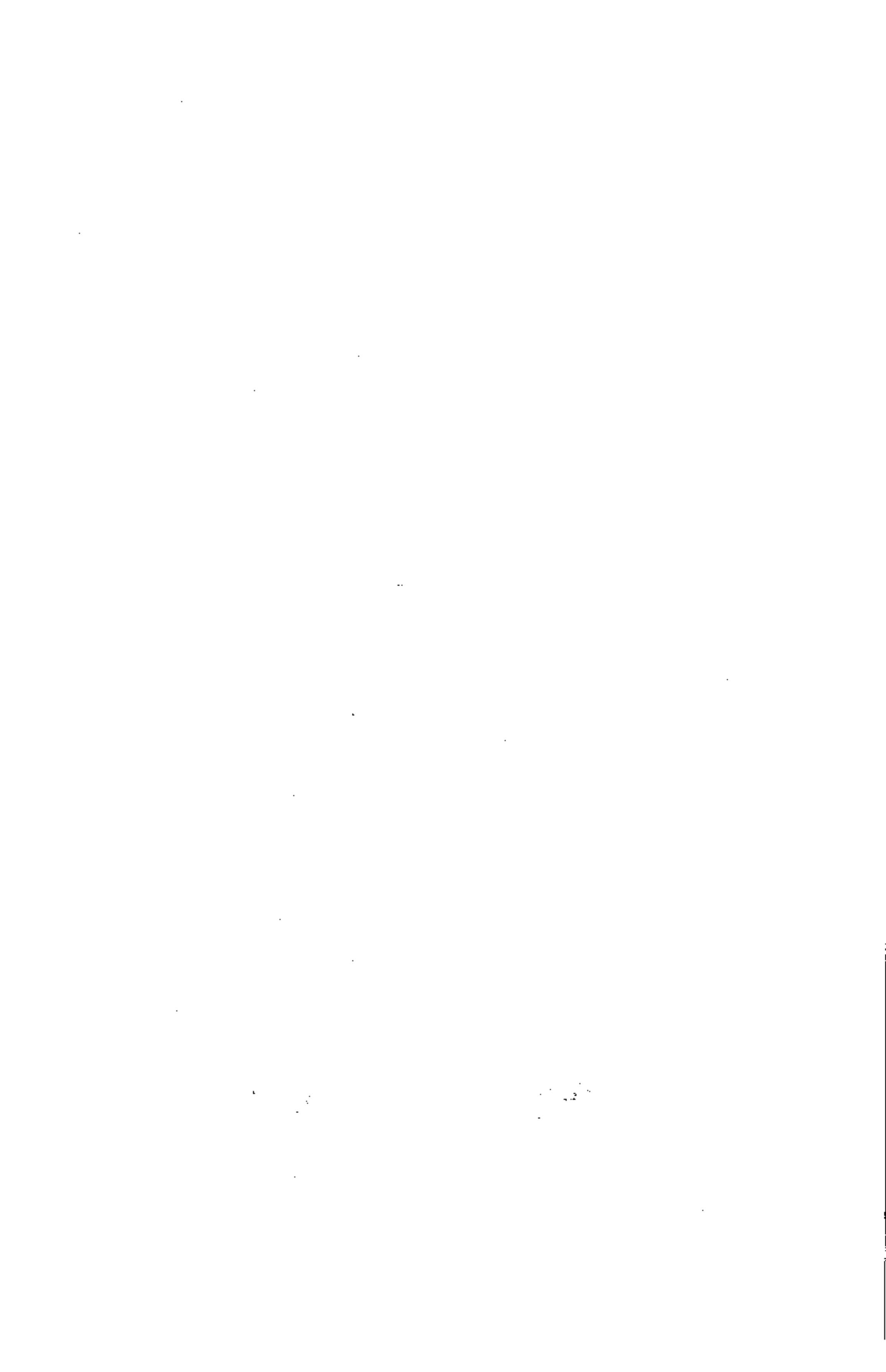
القراءة الى رحلة جموندن أن لاح له وميض باهت من الذكرى بأنه من الممكن أن يكون هو الذى يدور حوله الحديث • وهكذا فان التحليل لم يصن الاحداث من الامنيزيا ، بل ان التحليل نفسه قد اجتاحته الامنيزيا • وأى شخص يألف التحليل يمكن أن يخبر بين الحين والحين شيئا مماثلا فى نومه • يوقظه حلم ، فيصمم على تحليله فى التو ، ثم يستغرق فى النوم من جديد وهو يشعر برضى تام عما انتهى اليه جهده ، وفى الصباح التالى يكون حلمه وتحليله على السواء قد جرفهما النسيان •

٥

ملاحظات عن حالة عصاب قهرى

رجل (الفيران)

١٩٠٩



تصــدير

بقـــلم

مصطفى زيور

تمتاز حالة « رجل الفيران » وهى حالة عصاب قهرى بما يمتاز به هذا النوع من العصاب من بيان البعد السيمانطيقى أى المعـنى والدلالة التى تتضمنها الاعراض العصابية على نحو أكثر وضوحا مما هى عليه فى الأعصبه الهستيرية . ذلك أن الحيل الدفاعيـة فى العصاب القهرى وبخاصة الكبت لا تنصب على كافة أحداث الطفولة والمصادر المباشرة للصراع العصابى كما هو الحال فى الهستيريا ، وانما تنصب على الروابط بين المركبات النفسية وعزل وجداناتهـا عنها بحيث يعرفها المريض ويجهلها معا ، أى يتذكرها ولكن معناها يغيب عنه .

هذه المعرفة المقترنة بالمجهلة تجعل المريض بهذا العصاب مسرحا للنضال بينهما ، نضال من شأنه أن تستعين المجهلة بدفاعات مـن الدرجة الثانية يستمدها المريض من العقلانية من حيث النمط لا من حيث مقدمات الاستدلال العقلانى ، بحيث لا يقتصر الامر على أفكار قهرية وانما يتميز المريض بهذا العصاب بتفكير يتصف بالقهر هــو مصدر عذابه ومطية رغباته معا .

فاذا تأملنا الدفاعات الاخرى بالاضافة الى أنواع الدفاع السابق ذكرها ، من قبيل الاضمار والحذف التى تجعل منطق المريض يبدو لنا نابيا مفتقرا الى الاتساق ، ثم ذلك الدفاع الرهيب أعنى قهـر الشك الذى يجعل افضاءات المريض سلسلة من الجزم والنفى يمتنع علينا معها أن يستقر فهمنا على شىء ، ويبدو المريض وكأنه عاجز عن أن يرى لنفسه رأيا ــ نقول اذا تأملنا هذه الخصائص للتفكير القهرى

تبين لنا سبب قصور النظريات السابقة على التحليل النفسى ، والتى كانت لا تأخذ فى الاعتبار الا هذه الخصائص ، وتنتهى الى تفسير مقارن فى مستوى التفكير الشعورى من قبيل : « الوهن النفسى » (بسيكاستنيا بييرجانيه) أو « جنون الشك » وما الى ذلك ، أى تفسيرات تلحق العصابى القهرى اما « بالضعف النفسى » مما يجعل المريض عاجزا عن الامساك بزمام تفكيره ، أو تلحقه بطائفة قريبة من المرض العقلى •

وواضح أن هذه التفسيرات تتضمن نظرة يائسة من حيث الشفاء ، ولا تزال كذلك لدى بعض أطباء النفسى الذين لا يعرفون طريقا الى هذا المرض غير طريق العقاقير مثل المطمئنات وما اليها •

وسيرى القارىء — اذا وضع نصب عينيه هذه الخلفية لموقف الطب النفسى التقليدى — مبلغ عبقرية فرويد فى اختراق حجب الدفاعات وازالة مبهمتها ، ثم مهارته الفذة وحذقه فى فض معميات التفكير القهرى فيستبين البناء السيكولوجى التحتانى ، وبذلك يصبح المتخيل ، مصدر التكوينات المرضية ، فى متناول الفكر الشعورى وضيائه • فيستقيم بعد اعوجاج ، وباستقامته يستقيم اللوغوس بعد تعثر • واستقامة اللوغوس هو الشفاء كما نراه يتحقق لدى رجل الفئران •

ومما تجدر الاشارة اليه معالجة فرويد فى الفصل النظرى ، لظاهرتى القهر والشك وهما أبرز مقومات العصاب القهرى • فقد أوضح فرويد على نحو يظفر بالاقناع أن الشك — فضلا عن دوره الدفاعى كما سبق بيان ذلك — انما هو نتيجة للتكوين الاساسى فى العصاب أعنى ما يتصف به من ثنائية الوجدان وما ينجم عن ذلك من حرب طاحنة بين الحب والكراهية ، بحيث أن شك المريض انما هو فى نهاية الامر شكه فى قدرته على الحب لما يلقاه الحب لديه من اقتحامات الكراهية المتصفة بسادية عنيفة • ومن ثم فان القهر محاولة لتعويض زائد ازاء الشك والتردد •

فعندما يتاح لدفعة شبقية أو مضادة لها أن تجد طريقا ملتفا نتسلل خفية من خلاله بغية الاشباع ، فان كل الطاقة المحجوزة خلف ما يقيمه الشك من الكف والمنع ، تلقى فى مساندة يلزم عنها لزوما أن تخترق الدفعة كل الحواجز فى طريقها نحو التنفيذ ، والا غاص المريض فى لجة هوجاء من الحصر .

من ذلك نتبين مصدر القهر سواء كان ذلك فى ميدان الفكر أو الفعل .

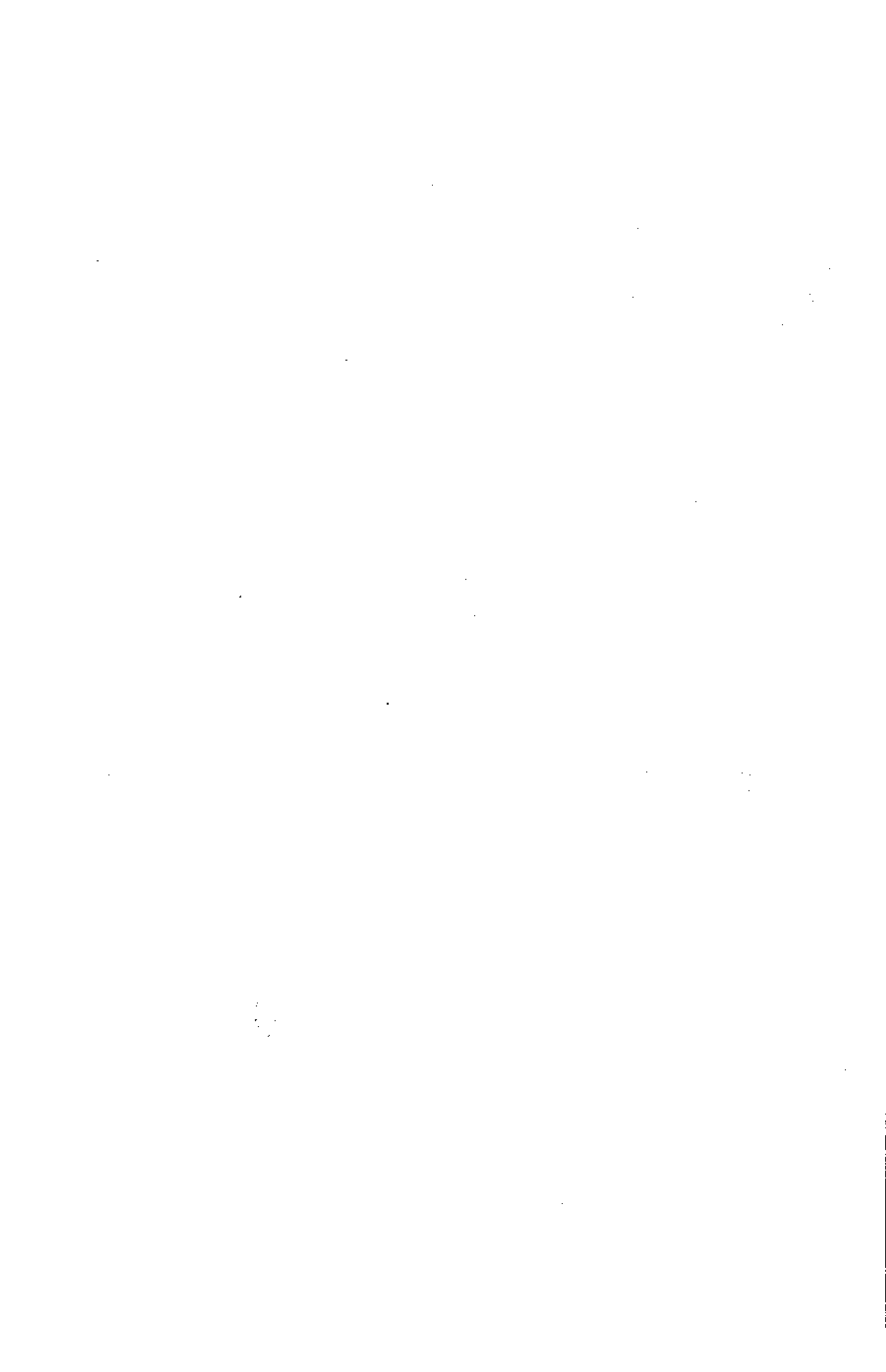
ومما يميز هذا العصاب ردة الفعل الى الفكر بحيث ينطبق على الفكر ما ينطبق على العقل من قهر يحتال المريض تخفيفا لعبئة بتشبيق الفكر بحيث يصبح قهر الفكر معاناة وشبقا معا .

ومما يميز حالة رجل الفئران عن غيرها،أن فرويد على غير عادته لم يمزق مذكراته — بعد النشر — التى كان يسجلها فى مساء كل يوم عن مضمون جلسات التحليل النفسى لهذا المريض ، فأمكن بذلك نشر هذه المذكرات أخيرا . ويضيق المقام عن ذكر ما تلقيه هذه المذكرات من أضواء جديدة .

ونقتصر على الاشارة الى مسألتين : الاولى هى ما نتبينه من فنيات التحليل فى الحقبة التى جرى أثناءها علاج رجل الفئران قبل أن يطور هذه الفنيات ويصقلها فى السنوات التالية . والمسألة الثانية ما ذكره فرويد فى هذه المذكرات عن حادثة تعثر أثناء التحليل كان من شأنها اختلاط الامر لديه ونسيانه لبعض افضاءات المريض . حتى تبين له أن ذلك يرجع الى « مشكلة ذاتية » لديه ما أن فطن اليها حتى استقامت ذاكرته . وتعد هذه الواقعة من أروع أمثلة « مضاد التحليل » التى ينبغى على المحلل أن يتناوله بالتحليل ، كما يتناول التحويل لدى المريض . وبغير هذا التحليل المزدوج للتحويل ومضاد التحويل يمتنع على المحلل أن يمضى بمريضه الى الشفاء .

ملاحظات عن حالة عصاب قهرى

(رجل الفئران)



ملاحظات عن حالة عصاب قهرى (1)

(رجل الفئران)

المادة التى تنطوى عليها الصفحات التالية سوف تكون مـــن نوعين :

أولا : سوف أقدم بعض اجزاء مقتطفه من تاريخ حالة عصاب قهرى • وهذه الحالة ، بالنظر الى طولها ، وفداحة تأثيراتها ، ورأى المريض نفسه فيها ، جديرة بأن تعتبر على درجة من الخطـــورة • والعلاج الذى استمر نحو عام تأدى الى الشفاء التام لشـــخصية المريض ، وازالة كفوفه •

وثانيا : سوف أقدم ، انطلاقا من هذه الحالة ، وواضعا أيضا فى اعتبارى حالات أخرى سبق لى تحليلها ، بضع مفاهيم متفرقة موجزة عن نشأة الظواهر القهرية وميكانيزماتها المرهفة • وهذه المفاهيم ،

---

(1) ظهر هذا المقال أول مرة عام ١٩٠٩ بعنوان :
Bemerkungen Ober einen Fall von zwanganerose Jabrbueh für Paychoanaly tische und paschopathologische Forachungen. Vol. I

ثم ظهر بعد ذلك فى :
Sammlung kleiner Schriften zur Neurosenlebre

(مجموعة مقالات قصيرة عن الاعصبة) ، السلسلة الثالثة ، ١٩١٣ .
وقد تمت ترجمته الى الفرنسية Gesainmelte Scbriften. v. VIII
(المؤلفات الكاملة لفرويد) على يد مارى بونابارت ور . ليفنشتاين ،
وظهرت تلك الترجمة أولا فى المجلة الفرنسية للتحليل النفسى عام ١٩٣٢ •
(مجلد ٥ ، عدد ٣) Revue Francaise de Psychanalye
ويوجد هذا المقال فى المجلة العاشرة من :
workxs of S. Freud Stamdard Edi. The Complete Psycological

على ما آمل ، تكمل وتواصل ملاحظاتى الاولى عن هذا الموضوع ، وهى التى نشرتها عام ١٨٩٦ (١) •

وبرنامج من هذا القبيل يتطلب فيما يبدو لى شيئا من التبرير ، والا فقد يذهب الظن بالبعض الى أننى أعتبر هذه الطريقة فى عرض الحالة مبرأة من كل نقد ، وأنموذجية جديرة بالتقليد ، بينما أنا فى الواقع أكيف نفسى ، ليس غير ، لصعوبات بعضها خارجى وبعضها الآخر ينتمى الى صميم الموضوع • وكان يسرنى أن أقدم عن هذه الحالة ما هو أكثر ، لو كان ذلك من حقى أو بوسعى أن أفعله • فانى لا أستطيع فى الواقع تقديم تاريخ كامل للملاج ، لان ذلك سوف يتطلب منى أن أخوض فى تفصيلات عن ظروف حياة مريضى • فالاهتمام الفضولى فى عاصمتنا هذه ، والذى يلاحق بتركيز خاص أعمالى العلاجية ، يحول بينى وبين أن أقدم لوحة أمينة عن الحالة • هذا الى أننى أصبحت أميل أكثر فأكثر الى أن أعتبر التحريفات التى عادة ما يلتجؤ اليها فى مثل هذه الظروف • عديمة الجدوى وتنفتح للنقد • فان كانت التحريفات هينة فشلت فيما ترمى اليه من حماية المريض من الاستطلاع الفضولى ، بينما ان هى تعدت ذلك اقتضت تضحية جد باهظة ، اذ تجرد من المعقولية سياق الوقائع ، هذا الذى يستند فى تماسكه التحديد الى الجزئيات الصغيرة من الحياة الواقعية • ويترتب على هذه الحقيقة تلك المفارقة التى مؤداها أنه من الايسر كثيرا أن نفشى من حياة المريض أعظم الاسرار الحميمة من أن نفشى أتفه الوقائع وأكثرها براءة ، لانه بينما لا يكون من شأن الاولى أن

---

(١) Weitere Bemerkungen ùber die Abwehr-Neuropsy ehossen Gessmmlie Werke, Vol. I

(١) (ملاحظات أخرى عن دفاع الاعصبة النفسية،القسم الثانى منه بعنوان : طبيعة وميكانيزم العصاب القهرى) ١٨٩٦ ، (المقالات المجموعة، مجلدا) وفى Standard Ed.

Collected Papers, Vol. I

تلقى أى ضوء على هويته ، فان الثانية ، ألتى عادة ما يعرف بها ، من شأنها أن تكشف عن هويته لكل الناس •

ذلك هو عذرى عما قمت به ، على هذا النمو الجذرى ، من ايجاز شديد لتاريخ هذه الحالة وتاريخ علاجها • بل وبوسعى أن أقدم أيضا أسبابا أكثر وجاهة لاقتصارى على بضع نتائج متفرقة من مباحث التحليل النفسى فى العصاب القهرى • ويتحتم على أن أعترف بأننى لم أبلغ حتى ألآن حد النفاذ المكتمل فى البنية المعقدة لحالة خطيرة من العصاب القهرى • كما يتحتم أن أعترف بأنه حتى لو كان بوسعى أن أقدم عرضا مكتملا لتحليل حالة ما ، لكان يستحيل على أن أجعل بنية هذا العصاب ــ على نحو ما نتبينها أو نحدسها فى ممارسة ــ متاحة لفهم الآخرين عبر هذه الطبقات المتراكبة التى يجتازها العمل التحليلى • ومما يزيد كثيرا من صعوبة مثل هذا العمل مقاومات المريض، والصور التى تتخذها هذه المقاومات • ولكن حتى بصرف النظر عن ذلك ، ينبغى التسليم بأن العصاب القهرى ليس فى ذاته بشىء يسير على الفهم ــ فهو يقل كثيرا فى ذلك بالقياس الى حالة الهستيريا • وكان ينبغى بطبيعة الحال أن نتوقع أن يكون الامر على عكس ذلك • فلغة العصاب القهرى ــ ونعنى الوسائل التى يعبر بها عن أفكاره الدفينة ــ ليست ، ان جاز القول ، غير لهجة من لغة الهستيريا ، ولكنها لهجة كان ينبغى أن نقتدر على فهمها بشكل أيسر ، لانها أدنى ارتباطا بأشكال التعبير التى يتخذها تفكيرنا الشعورى ، اذا ما قيست بلغة الهستيريا • فلغة العصاب القهرى ، قبل كل شىء ، لا تنطوى على قفزة من عملية نفسية الى تعصيب بدنى ــ تبدين هستيرى ــ الامر الذى يستحيل أن يكون مفهوما لدينا بشكل تام •

واذا كان الواقع لا يؤيد توقعاتنا تلك ، فربما يرجع ذلك ليس غير الى معارفنا الاقل عمقا بالعصاب القهرى • فالاشخاص الذين يعانون درجة خطيرة من العصاب القهرى يسعون الى العلاج بالتحليل أقل كثيرا مما يفعل مرضى الهستيريا • انهم يسترون مرضهم عمن

حولهم طالما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وغالبا ما لا يلجأون الى الطبيب الا بعد أن يكون عصابهم قد بلغ مرحلة مستفحلة الى حد ، بحيث لو قارناه مثلا بمرضى السل الرئوى ، لادى الى رفض قبولهم بالمصحة . هذا الى أننى أعقد هذه المقارنة لانه فى حالات العصاب القهرى ، الهينة أو الخطيرة ، متى تناولها التحليل فى مرحلة باكرة ، نستطيع ، كما هو الشأن فى حالة هذا المرض المعدى المزمن ، أن نتبين سلسلة من النتائج العلاجية الباهرة .

فى هذه الظروف لا يبقى أمامنا الا أن نفرض الوقائع على هـذا النحو من القصور وعدم الاكتمال الذى نعرفها عليه والذى يحق لنـا أن نصرح به . وهذه المعارف الجزئية التى نقدمها فى هذه الصفحات، على الرغم من أن البلوغ اليها كان مضنيا بدرجة كافية ، ربما لا تكون بذاتها جد باعثة على الرضا،ولكنها يمكن أن تكون نقطة بدء لعمل باحثين آخرين ، وقد يبلغ الجهد المشترك الى نجاح ربما لا يكون فى متناول جهد فردى .

١

مقتطفات من تاريخ الحالة



١

مقتطفات من تاريخ الحالة

رجل ما يزال فى شبابه ، جامعى التعليم ، قدم الى نفسه قائلا أنه قد عانى من القهور (أفكار ودفعات قهرية) بصفة مستمرة منذ طفولته ، وان اشتدت هذه المعاناة بصفة خاصة فى السنوات الاربع الاخيرة . كانت السمات الاساسية لاضطرابه هى : أنه يستشعر مخاوف من أن ينزل شيء (مكروه) بشخصين يحبهما حبا شديدا — أبيه وسيدة كان يحبها فى اجلال : هذا الى أنه كان يستشعر حفزات قهرية — من قبيل حفزة مثلا الى أن يقطع رقبته بموسى ، أضف الى ذلك انه كانت تنشأ عنده تجريمات ، أحيانا ما تتصل بأمور تافهة تماما . قال لى انه قد ضيع سنوات يناضل ضد أفكاره هذه ، الامر الذى جعله متخلفا فى الحياة . ولقد حاول علاجات عديدة ، ولكن ما من واحد منها كان ذا نفع له ، فيما عدا دورة علاجية من الاستشفاء بالمياه فى احدى المصحات على مقربة من س — ، وربما كان ذلك فيما يعتقد راجعا الى أنه عقد علاقة هناك مع امرأة أتاحت له ممارسة منتظمة للاتصالات الجنسية . أما هنا فى فينا ، فليست لديه فيما يقول فرص من هذا القبيل ، فالاتصالات الجنسية لا تتاح له الا نادرا ، وعلى فترات غير منتظمة . وكان يشمئز من البغايا . وبصفة عامة ، كانت حياته الجنسية — على حد قوله — فقيرة ، فالاستمناء لم يلعب فيها غير دور ضئيل ، فى عامه السادس عشر أو السابع عشر . كانت قدرته الجنسية تبدو عادية ، وقد قام بأول اتصال جنسى فى عامه السادس والعشرين .

ولد عندى انطباعا بأنه شخص صافى الذهن حاد الذكاء . وعندما سألته عن هذا الذى جعله يهتم كل هذا الاهتمام بأن يخبرنى عن حياته الجنسية ، أجاب بأن ذلك هو ما كان يعرفه عن نظرياتى .

ولكنه فى الواقع لم يقرأ شيئا من مؤلفاتى ، فيما عدا أنه كان منذ وقت قصير يقلب صفحات واحد من كتبى ، فوقع على تفسير لتداعيات لفظية غريبة (١) ، ذكرته كثيرا بتآليفه « الفكرية المضـنية » المتصلة بأفكاره التى قرر بسببها أن يعهد بنفسه الى .

(أ) بداية العلاج

فى اليوم التالى تعهد بأن يلتزم باتباع الشرط الواحد والوحيد للعلاج — وهو على التحديد أن يقول كل شىء يخطر بباله ، حتى ولو كان ذلك أليما بالنسبة اليه ، أو بدا لـه عديم الاهمية أو عديم المعنى، أو عديم الصلة بالموضوع . وعندئذ تركت له الحرية فى أن يختـار الموضوع الذى يرغب فى البدء به . فبدأ حديثه كما يلى (٢) :

أخبرنى بأنه كان لديه صديق ، وكانت فكرته عن هذا الصديق عالية بشكل غير عادى . كان من عادته أن يلجأ اليه فى كل مرة تستبد به حفزة اجرامية . ويسأله ما ان كان يحتقره كمجرم . وكان من عادة صديقه عندئذ أن يزوده بدعم معنوى ، اذ يؤكد له بأنه رجل لا يعيب سلوكه أى شىء ، وربما اعتاد منذ طفولته أن ينظر الى حياته بمنظار أسود . واستطرد يقول بأنه ، فى وقت أبكر من حياته ، كان هنـاك شخص آخر له مثل هذا التأثير عليه . كان ذلك الشخص طـالبا فى التاسعة عشرة من عمره (بينما كان هو نفسه فى ذلك الوقت فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، وكان فيما يبدو يحمل الحب لهذا المريض ،

---

(١) Zur Psychopathologie des Alltagslebens, 1904.

« فى سيكوباثولوجية الحياة اليومية » .

(٢) ما يلى مستمد من ملاحظات كنت أدونها فى مساء يوم الجلسة ، ويقترب ما أمكن من نفس كلمات المريض . — واجـدنى هنا مضطرا الى التحذير من ممارسة التدوين أثناء الجلسات لاقوال المريض . فما يترتب على ذلك من تشتت فى انتباه المحلل يضر بالمريض بأكثر مما تستطيع تبريره هذه الزيادة فى الدقة التى يمكن البلوغ اليها فى سرد تاريخ الحالة .

وقد أذكى عنده قيمة الذات بدرجة غير عادية ، الى حد جعل مريضنا يعتقد بأنه عبقرى . هذا الطالب أصبح فيما بعد مدرسا عليه ، وعندئذ غير فجأة من سلوكه نحوه ، فراح يعامله على أنه أبله . وبمرور الوقت تبين له أن ذلك الطالب كان شغوفا باحدى شقيقاته . واتضح له أنه كان يتخذه مجرد وسيلة تتيح له أن يدخل الى أسرته . كانت أول صفعة كبرى فى حياته .

ثم استطرد دون أن يبدى أية علامة على الانتقال .

(ب) الجنسية الطفلية

وبدأت حياتى الجنسية فى وقت باكر جدا . بوسعى أن أتذكر مشهدا يرجع الى عامى الرابع أو الخامس ، (ومنذ عامى السادس وصاعدا أستطيع أن أتذكر كل شىء) بزغ هذا المشهد فى رأسى بشكل واضح تماما بعد ذلك بسنوات . كانت عندنا مربية شابة رائعة الجمال تسمى الآنسة بطرس [1] . كانت ذات مساء مستلقية على الاريكة وهى تقرأ . وكنت مستلقيا الى جانبها ، وسألتها بأن تسمح لى فى أن أدخل تحت النصف الاسفل من ثوبها . فسمحت لى بذلك ، بشرط أن لا أتحدث

---

(١) ان الدكتور الفريد أدلر ، الذى كان يوما من المحللين النفسيين ، التى ترتبط بالاقوال الاولى الاستهلالية التى ينطق بها المرضى . وأمامنا وجه الانتباه ذات مرة فى محاضرة له فى جلسة ضيفة الى الاهمية الخاصة هنا مثال على ذلك . فكلمات المريض الافتتاحية تبرز التأثير الذى يمارسه الرجال عليه ، أى تبرز الدور الذى يلعبه فى حياته الاختيار المثلى الجنسية الموضوع . ولكن أقواله انتقلت بعد ذلك مباشرة الى موضوع ثان ، سوف يصبح فيما بعد ذا أهمية كبيرة ، هو على التحديد الصراع بين الرجل والمرأة والتناقض بينهما فى الاهتمامات . وحتى كونه قد تذكر مربيته الاولى الجميلة باسم عائلتها ، الذى هو بالصدفة اسم مذكر ، فذلك أمر ينبغى أن يوضع موضع الاعتبار فى هذا الصدد . ففى الاوساط البورجوازية فى فينا اشيع فى العادة مناداة المربية باسمها الاول ، وبهذا الاسم يتم فى العادة تذكرها .

عن ذلك الى أحد . كانت بالكاد ترتدى شيئا ، ورحت أعبث بأصابعى فى عضوها التناسلى وفى الجزء الاسفل من بدنها الذى أدهشنى كشىء غريب جدا . ومنذ ذلك الحين أصابتنى استطلاعية متحرقة ومضنية لمشاهدة البدن الانثوى . وما زال بوسعى أن أتذكر هذا الهياج الذى كان يستبد بى وأنا أنتظر فى الحمام (الذى كان فى ذلك الحين مسموحا لى أن أذهب اليه مع شقيقاتى والمربية) حتى تنزع المربية عنها ملابسها وتنزل فى الماء . وبوسعى أن أتذكر أشياء أكثر منذ عامى السادس فصاعدا . فى ذلك الوقت كانت عندنا مربية أخرى ، كانت هى الاخرى شابة وجميلة . كانت لديها دمامل فى ردفيها ، وكان من عادتها أن تعصرها فى المساء . وكان من عادتى أن أترقب فى تلهف حلــول تلك اللحظة لاشبع استطلاعيتى . وكذلك كان الحال فى الحمام ، وان كانت الآنسة لينا أكثر تحفظا من سابقتها . (واجابة منه على سؤال ألقيته أخبرنى المريض : كقاعدة عامة لم أكن أنام فى غرفتها بل فى الاغلب مع أبوى) . وأذكر مشهدا لابد وأن يكون قد حدث وأنا فى السابعة من العمر (١) . كنا نجلس معا ذات مساء ــ المربية والطاهية وخادمة أخرى وأنا وشقيقى الذى يصغرنى بعام ونصــف . كان النســاء الشابات يتحدثن ، وتنبهت فجأة الى الآنسة لينا وهى تقول : « مع الصغير يمكن الآن عمل ذلك ، أما بول (أنا) فهو عديم المهارة ، وسوف يفشل بالتأكيد فى العملية » . لم أفهم فى وضوح ما كانت تعنيه ، ولكنى استشعرت فى ذلك الاستهانة بى فرحت أبكى . وشرعت لينا تسرى عنى ، وقصت على كيف أن احدى الخادمات التى فعلت ذلك مع صبى صغير كانت مسئولة عنه قد دخلت السجن لعدة شهور . ولست أعتقد أنها قد ارتكبت بالفعل معى أى شىء ممنوع ، ولكننى كنت على قدر كبير جدا من الحرية معها . فعندما كنت أدخل الى فراشها كان من عادتى أن أعريها وأتحسسها ، ولم تكن تبدى أى اعتراض . لم تكن شديدة الذكاء ، وكان لديها بشكل واضح تحرق جنسى شديد . وكانت

(١) سلم المريض بعد ذلك بأن هذا المشهد يمكن أن يكون قد حدث بعد ذلك بعام أو عامين .

فى الثالثة والعشرين من عمرها ، وكان قد سبق لها أن أنجبت طفلا ، تزوجت من أبيه فيما بعد ، بحيث أنها اليوم مدام « هوفرات » (١). وحتى الآن كثيرا ، التقى بها فى الطريق .

وعندما كنت فى السادسة من عمرى كنت أعانى بالفعل من الانتصاب ، وأعرف اننى ذهبت ذات يوم الى أمى أشكو لها من ذلك الانتصاب . وأعرف أيضا اننى ، كيما أفعل ذلك ، كان على أن أتغلب على بعض الهواجس . لاننى كنت استشعر وجود علاقة ما بين هذا الموضوع وبين أفكارى واستطلاعيتى ، وكان من عادتى فى ذلك الوقت أن تستبد بى فكرة مريضة مؤداها أن أبوى يعرفان أفكارى ، وقد فسرت ذلك لنفسى بأن افترضت بأننى لابد وأن أكون قد نطقت بها بصوت عال ، دون أن أسمع نفسى وأنا أنطق بها .

« وانى اعتبر ذلك بداية مرضى . كانت هناك بعض شخصيات ، بعض خادمات ، يعجبنى كثيرا جدا ، وكانت لدى رغبة شديدة جدا فى أن أراهن عاريات . ولكنى كنت وأنا أشعر بهذه الرغبة استشعر احساسا يبعث بغرابته على القلق (٢) فكأن أمرا ما يتحتم أن يقع لو أننى فكرت فى هذه الرغبة ، وكأنه يتحتم على أن أفعل كل شىء لامنع هذا الامر من أن يقع .

« واجابة على سؤال منى قدم لى مثالا لهذه المخاوف : « مثلا

---

(١) (ان اللقب النمسوى Hofrat يمنح للبارزين من الاطباء والمحامين واساتذة الجامعات ، والموظفين المدنيين الخ . وربما يعادل فى انجلترا الحديثة رتبة الشرف المعروفة بالفروسية Knighthood — هامش الترجمة الانجليزية) .

(٢) « بالالمانية Unbeimleh وهى كلمة يصعب ترجمتها وقد جرى العرف لدى المحللين النفسيين على ترجمتها فى الانجليزية بكلمة Uncanny وفى الفرنسية Equietante etrangeté وقد كتب فرويد مقالا هاما فى هذا المفهوم .

من أن أبى يموت » ومنذ سن جد باكرة ، ولسنوات طـويلة ، كانت الافكار عن موت أبى تشغل ذهنى وتسبب لى اكتئابا شديدا » •

عند هذا الموضع عرفت فى اندهاش أن الأب ، الذى كانت أفكار المريض القهرية ما تزال تدور حوله حتى الوقت الحالى ، كان قد مات قبل ذلك بسنوات عدة •

ان الظواهر التى وصفها المريض فى الجلسة الاولى من علاجه ، والتى يرجع تاريخها الى عامه السادس أو السابع ، لم تكن فقط ، كما أعتقد ، مجرد بداية مرضه ، بل هى مرضه ذاته • انهـا عصاب قهرى مكتمل لا ينقصه أى عنصر أساسى ، انها فى آن واحد النـواة والانموذج الاصلى لعصابه اللاحق — فهى ان جاز القول كيان عضوى برعمى ، يستحيل علينا بغير دراسته أن نتمكن من الامساك بالانتظام المعقد لمرضه الحالى • فنحن نرى الطفل يستبد به عنصر من عناصر الغريزة الجنسية هو النظارية (السكوبتوفيليا) ، ترتب عليه أن كانت تنتابه بصفة مستمرة رغبة جد قوية تتعلق بأفراد الجنس المؤنث ممن يحظين باعجابه — هى رغبته فى أن يراهن عاريات • وهذه الرغبة تناظر الفكرة القهرية اللاحقة • واذا كانت خاصية القهر لم تظهر بعـد فى الرغبة ، فذلك لان أنا الطفل لم يكن بعد قد وضع نفسه فى معارضة تامة ضد هذه الرغبة • ولم يكن بعد قد اعتبرها شيئا غريبا عليها • ومع ذلك فقد كانت هناك بالفعل معارضة فعالة من مصدر أو آخر ضد هذه الرغبة ، اذ أن ظهور هذه الرغبة كان يصحبه دائما وبانتظام وجدان أليم (١) ، وكان من الواضح أن هناك صراعا يزدهر فى نفسية هـذا الداعر الصغير • فجنبا الى جنب مع هذه الرغبة القهرية ، وفى ارتباط وثيق معها ، كان هناك خوف قهرى : ففى كل مرة تنتابه رغبة مـن هذا القبيل ، لم يكن بوسعه أن يدفع عن نفسه الخوف من أن شيئا مروعا سيقع • هذا الشىء المروع كان منذ تلك الفترة يتشح بهـذه

---

(١) يتحتم على أن أنبه الى أنه كانت هناك محاولات لتفسير القهور دون أى اعتبار للوجدانية ! .

الخاصية المميزة من اللاتجدد ، هذا الذى يشكل ، منذ الآن فصاعدا، خاصية لا تتبدل لكل مظهر من مظاهر العصاب . ولكن عند طفل لن يكون من العسير أن نكشف القناع عن هذا الذى يتحجب وراء لا تحدد من هذا القبيل.فلو أننا بلغنا الى معرفة مثال محدد لما يعبر عنه العصاب القهرى بعموميات غير محددة ، فبوسعنا أن نكون على ثقة من أن هذا المثال المحدد يشكل الفكرة الاصلية والحقيقية التى كانت هذه العموميات تستهدف حجبها . ومن ثم فان الخوف القهرى الحالى عند مريضنا ، اذا ما تقصينا دلالته الاصلية ، يكون كما يلى :

« اذا عنت لى هذه الرغبة فى أن أرى امرأة عارية فان أبى يتحتم أن يموت » فالوجدان الاليم كان يتخذ بشكل قاطع طابع الغرابة المقلقة . والخرافة ، وكان منذ هذه اللحظة بالفعل يولد حفزات الى عمل شىء ما لتفادى الكارثة الوشيكة . وكان من شأن هذه الحفزات أن تتطور فيما بعد الى الاجراءات الدفاعية التى تبناها المريض .

وهكذا نجدنا أمام : حفزة شبقية وحركة من التمرد ضدها ، أمام رغبة لم تصبح بعد قهرية ، وخوف يناضل ضدها هو بالفعل قهرى ، أمام وجدان أليم وحفزة الى انجاز اجراءات دفاعية . تلك هى القائمة الكاملة للعصاب . والواقع أنه يوجد شىء أكثر ، هو على التحديد نوع من التكوين شبه الهذائى (١) ذى مضمون عجيب أن أبويه يعرفان أفكاره لانه كان ينطق بها بصوت عال دون أن يسمع نفسه وهو ينطق بها . ولن نبعد عن الصواب ان نحن سلمنا أن الطفل فى قيامه بهذه المحاولة للتفسير كان لديه أحساس غائم بهذه الظواهر النفسية الغريبة التى نسميها لا شعورية والتى يستحيل أن نستغنى عنها ان كان لنا أن نلقى أى ضوء علمى هذا الموضوع . الغامض . « انى أنطق بأفكارى بصوت عال ، دون أن أسمعها » ذلك ما يبدو وكأنه اسقاط الى العالم

---

(١) « «delirium» مصطلح يستخدم هنا بمعنى خاص يأتى شرحه فيما بعد ، ص ٤٧٣ — هامش الترجمة الانجليزية » .

الخارجى لافتراضنا بأنه كانت لديه أفكار دون أن يعرف أى شىء عنها ، انه يبدو وكأنه ادراك داخل النفس لما هو مكبوت •

الأمر واضح : فهذا العصاب الطفلى البرعمى كان ينطوى على مشكلة وعلى سخف ظاهر ، شأنه شأن أى عصاب معقد عند الراشد • فماذا يمكن أن تعنيه فكرة الطفل من أنه اذا عنت له الرغبة الداعرة فسيتحتم على أبيه أن يموت ؟ هل الأمر مجرد سخف ؟ أم ان هناك وسيلة لفهم هذه الكلمات باعتبارها نتيجة حتمية تلزم عن أحداث ومقدمات أبكر ؟ •

فاذا ما طبقنا على هذا العصاب المعارف التى أكتسبناها من حالات أخرى ، فانه لن يكون بوسعنا أن نتجنب الافتراض ، فى هذه الحالة كما فى غيرها ، بأن الطفل قبل أن يبلغ عامه السادس وقعت له احداث صدمية ، وصراعات وكبوتات مما جرفته الامنيزيا ، ولكنها تركت وراءها ، من قبيل المتخلفات ، مضمون هذا الخوف القهرى • وسوف نتبين فيما بعد الى أى حد يكون بوسعنا أن نعثر من جديد على تلك التجارب المنسية ، أو أن نعيد بناءها فى شىء من اليقين • وفى انتظار ذلك ، ينبغى أن نلح بالاهمية على هذه الواقعة ، التى ربما كانت أكثر من مجرد صدفة ، وهى أن الامنيزيا الطفلية عند المريض قد آنتهت على وجه الدقة مع عامة السادس •

وانى لاعرف حالات أخرى عديدة من العصاب القهرى المزمن كانت بدايتها كما فى هذه الحالة ، فى الطفولة الباكرة ، برغبات داعرة مماثلة ، مصحوبة بمخاوف مشئومة ، وبنزعة الى القيام باجراءات دفاعية • فقد التقيت بهذه البداية فى عدد من الحالات الاخرى • فهى نمطية بصورة مطلقة ، وان كان من المحتمل أن لا تكون هذه البداية هى النمط الوحيد الممكن • بقيت كلمة أخرى أحب أن أضيفها فى موضوع التجارب الجنسية الباكرة للمريض ، قبل أن أنتقل الى أحداث الجلسة الثانية • فمما لا يسهل الجدل فيه ، أن هذه التجارب كانت

هامة جديرة بالاعتبار ، سيان فى ذاتها أو بالنسبة الى نتائجها . ولكن ذلك أيضا كان هو الحال فى الحالات الاخرى من العصاب القهرى التى أتيح لى أن أقوم بتحليلها . فمثل هذه الحالات على العكس من حالات الهستيريا ، تتسم دائما أبدا بخاصية النشاط الجنسى السابق لاوانه . فالاعصبة القهرية بأكثر كثيرا من الهستيريات ، توضح لنا كيف أن العوامل التى تتمخض عن العصاب النفسى تكمن فى الحياة الجنسية الطفلية للمريض ، وليس فى حياته الجنسية الحالية . فالحياة الجنسية الحالية لعصابى قهرى كثيرا ما تتبدى للملاحظ غير المتمرس ، سوية تماما ، والواقع أنها كثيرا ما تكشف عن شذوذات وعناصر مرضية أقل بكثير مما عليه الأمر فى حالة مريضنا هذا .

(جـ) الخوف القهرى الكبير

اعتقد أننى سأبدا اليوم بتلك التجربة التى كانت السبب المباشر فى قدومى اليك . كان ذلك فى شهر أغسطس أثناء المناورات فى س : كنت أعانى قبل ذلك ، وأضنى نفسى بكل أنواع الافكار القهرية ، ولكنها سرعان ما تبددت جميعها أثناء المناورات . كنت حريصا على أن أبين للضباط العاملين أن الضباط الاحتياطيين من أمثالى ليس فقط قد تعلموا كثيرا ، بل بوسعهم أيضا أن يتحملوا كثيرا . وذات يوم انطلقنا من س — فى مسيرة قصيرة . وفى أثناء الاستراحة فقدت نظارتى الانفية ، وعلى الرغم من أنه كان بوسعى أن أعثر عليها ، الا أننى لم أكن أرغب فى أن يتأخر تحركنا ، ومن هنا صرفت النظر عن هذه الحالة . ولكنى أبرقت الى نظاراتى الخاص فى فينا ليبعث الى بنظارة أخرى مع عودة البريد . وأثناء الاستراحة نفسها كنت أجلس بين ضابطين ، أحدهما ، وهو نقيب تشيكى الاسم ، سوف يتضح أنه لم يكن قليل الاهمية بالنسبة لى . كنت استشعر نوعا من الرعب منه ، اذ كان من الواضح أنه ولع بالقسوة [1] . لست أقول أنه كان

---

(١) سوف تكون الاشارة اليه فيما بعد باسم النقيب القاسى — المترجمون .

رجلا سيئا ، ولكنه فى ميس الضباط كثيرا ما دافع عن ضرورة ادخال العقوبات البدنية ، بحيث كان يتحتم على أن أعارضه بشكل جد حاسم، حسنا ، فأثناء تلك الاستراحة خضنا فى حديث أخبرنى النقيب خلاله أنه قد قرأ عن عقوبة مروعة بشكل خاص شائعة فى الشرق •

هنا يتوقف المريض ، وينهض من الاريكة ، ويرجونى فى أن أعفيه من سرد التفاصيل • أكدت له أننى أنا نفسى لا أستسيغ القسوة بحال ، وأننى بالتأكيد لا رغبة لى فى تعذيبه ، ولكننى بطبيعة الحال لا استطيع أن أعفيه من شىء لا أملكه فذلك مثله أن يطلب الى أن أحضر اليه القمر (١) • ذلك أن التغلب على المقاومات هو شرط للعلاج ، ولا يمكن الاستغناء عنه تحت أى ظرف من الظروف • (كنت قد شرحت له فكرة المقاومة فى بداية الجلسة ، عندما أخبرنى بأن لديه الكثير فى نفسه مما يلزمه أن يتغلب عليه ان كان له أن يقص على هذه التجربة)• ومضيت أقول بأننى سأفعل مع ذلك كل ما فى وسعى لاحدس الدلالة المليئة لاية تلميحات يقدمها الى • أربما كان يفكر فى الاعدام باجلاس المتهم المحكوم عليه على الخازوق ؟ كلا — ليس هذا •• كان المحكوم عليه يجرى تقييده •• — كان حديثه من عدم الوضوح بحيث لم يكن بوسعى أن أحدس فى التوفى أى وضع كان يتم ذلك التقييد — وعلى اليتيه كان يقلب وعاء •• به فئران • — ونهض قائما من جديد وعليه كل علامات الرعب والمقاومة — وتشق طريقها داخلة — فى أسته ، قلت مكملا •

وفى لحظة هامة من حديثه ، كان يبدو على وجهه تعبير معقد وغريب • ولم يكن بوسعى أن أفسره الا على أنه رعب من لذة لديه لم يكن على وعى بها • واستطرد بأقصى صعوبة : فى تلك اللحظة ومضت فى ذهنى فكرة أن ذلك كان يحدث لشخص جد عزيز عندى(١)،

---

(١) « فكرة » ، هكذا قال — فان المصطلح الاقوى والاكثر دلالة • (رغبة) أو بالاحرى « خوف » قد احتجزته الرقابة بكل وضوح • وليس بوسعى لسوء الحظ أن اقدم صورة صادقة لما يطبع كل ملاحظاته من لا تحديد مميز بشكل خاص •

واجابة منه على سؤال مباشر قال بأنه لم يكن هو نفسه الذى يقــوم بتنفيذ العقوبة ، ولكن كان ذلك يجرى ، ان جاز القول ، بطريقــة لا شخصية • وبعد أن استحثثته بعض الشيء تبينت أن ذلك الشخص الذى كانت تتجه اليه تلك « الفكرة » عنده كان السيدة التى تحظى باعجابه •

=

توقف عن السرد ليؤكد لى أن هاتين الفكرتين كانتا بالنسبة اليه منفرتين وغريبتين تماما ، وليخبرنى بأن كل ما يأتى بعد ذلك يتعاقب فى ذهنه بأقصى سرعة مذهلة • وفى نفس الوقت مع الفكرة كانت تبرز دائما « عقوبة » ، وهى الاجراء الدفاعى الذى كان يتحتم عليــه أن يتخذه كيما يمنع الاخيولة من أن تتحقق • فعندما تحدث اليه النقيب عن ذلك التعذيب المروع ، وبرزت لديه الفكرتان ،استطاع ، بما لديه من صيغة مألوفة : (هى كلمة « ولكن ! » مصحوبة باشارة استنكار وبالكلمات التى يرددها لنفسه : « أى شخص هذا الذى تفكر فيه ؟») أن ينجح أيضا فى أن يتخلص من الفكرتين كليهما •

هذه التثنيه كانت مفاجأة لى ، وهى لا شك قد حيرت القارىء • فنحن لم نسمع حتى الآن الا عن فكرة واحدة ـــ فكرة السيدة التى تعانى التعذيب بالفئران • وحيث أن أباه كان قد توفى منذ سنوات عديدة ، فان هذا الخوف القهرى كان أشد امعانا فى السخف من الخوف الاول ، ومن ثم فقد حاول أن يفلت من الاعتراف به لفترة أطول قليلا•

وفى مساء اليوم التالى سلمه نفس النقيب طردا وصل بالبريد وقال له « الملازم (١) دفع عنك الرسوم • ينبغى أن تسددها له »•كان بالطرد النظارة الانفية التى أبرق فى طلبها • وعلى أية حال ، فقــد تخلقت فى نفسه فى تلك اللحظة « جزاء » هى على التحديد : ينــبغى

---

(١) الاسماء هنا ليس لها تقريبا من اهمية .

أن لا يسدد هذا الرسوم (١) ، والا فان « ذلك » سوف يحدث : (أى أن أخيولة الفيران سوف تتحقق بالنسبة لابيه وللسيدة) • وعلى الفور ، بمقتضى نوع من الاجراء كان مألوفا لديه ، كيما يناضل ضد هذا الجزاء ، برز لديه هذا الأمر الداخلى فى صورة قسم : ينبغى عليك أنت أن تسدد ٣٫٨٠ كراونا (٢) للملازم•أ » قال هذه الكلمات لنفسه بصوت نصف عال تقريبا •

وبعد يومين انتهت المناورات • وقد قضى كل تلك الفترة الفاصلة فى جهود ليسدد للملازم•أ ذلك المبلغ الضئيل ، ولكن نشأت سلسلة من الصعوبات من طبيعة خارجية فى الظاهر لتحول دون هذا السداد • فقد حاول أولا أن يقوم بالسداد عن طريق ضابط آخر كان فى طريقه الى مكتب البريد • ولكنه استشعر راحة كبيرة عندما أعاد اليه هذا الضابط النقود ، قائلا بأنه لم يقابل هناك الملازم•أ ، وذلك لان هذه الطريقة فى وفائه بقسمه لم تكن لترضيه ، لانها لم تكن تتفق مع حرفية كلمات القسم ، وهى : « ينبغى عليك أنت أن تسدد المبلغ للملازم•أ » وأخيرا ألتقى بالملازم•أ ، وهو الشخص الذى يفتش عنه ، ولكنه رفض أن يتقبل المبلغ ، معلنا بأنه لم يسدد عنه شيئا ، وليست له علاقة بالبريد ، فذلك كان من اختصاص الملازم ب • وقد أوقع ذلك مريضى فى حيرة شديدة ، فقد كان معنى ذلك أنه يستحيل عليه الوفاء بقسمه ، اذا كان يستند الى واقعة زائفة • عندئذ ابتدع وسيلة جد عجيبة للتخلص من مأزقة ، هى على التحديد أن يذهب الى مكتب البريد مع كلا الرجلين أ وب ، وهناك يتحتم على أن يدفع الى الموظفة الشابة بالبريد مبلغ ٣٫٨٠ كراونا ، ويتحتم على الموظفة الشابة أن تدفع ذلك المبلغ نفسه الى ب ، وعندئذ يقوم هو نفسه بسداد المبلغ الى أ طبقا لنص قسمه •

---

(١) كانت الرسوم المعينة هى ثمن النظارة الانفية . ففى النمسا يشيع فى البريد نظام « الدفع عند التسلم » — هامش الترجمة الانجليزية.

(٢) هذا المبلغ كان يعادل فى ذلك الوقت ثلاث شلنات وبنسين — هامش الترجمة الانجليزية •

ولن يدهشنى عند هذا الموضع أن أسمع أن القارئ قد توقف عن أن يكون قادرا على المتابعة . اذ أنه حتى البيانات التفصيلية التى قدمها الى المريض عن الوقائع الخارجية فى تلك الايام ، وعن استجاباته لها ، كانت مليئة بالتناقضات الذاتية وكان التباسها يبعث على اليأس . ولما سرد على القصة للمرة الثالثة ، وليس قبل ذلك . استطعت أن أجعله يتبين ابهاماتها ، وأن أكشف له عما تنطوى عليه من أخطاء الذاكرة وأنواع النقل التى تورط فيها . وسوف أوفر على نفسى عناء سرد هذه التفصيلات ، هذه التى سوف نتبين الاساسى منها بعد قليل، وسأقتصر على أن أضيف أن المريض فى نهاية هذه الجلسة الثانية كان يتصرف وكأنه فى حالة من الذهول والخلط . فكثيرا ما كان يخاطبنى على أننى « نقيب » ، ربما لأننى أخبرته فى بداية الجلسة بأننى أنا نفسى لا أستسيغ القسوة مثل النقيب م ، وأنه ليس فى نيتى أن أعذبه فى غير طائل .

والمعلومة الاخرى الوحيدة التى حصلت عليها منه خلال هذه الجلسة هى أنه منذ البداية الاولى لقهوره ، وفى كل المناسبات السابقة التى كان يستشعر فيها الخوف من أن شيئا سوف يقع للاشخاص الذين يحبهم ، بما لا يقل عن المناسبة الحالية ، كان يعتقد أن المصائب التى يتحتم أن تنزل بهم ، سوف تصيبهم ليس فقط فى الحياة الحالية ، بل أيضا فى الحياة الابدية — فى الآخرة . كان حتى عامه الرابع عشر أو الخامس عشر متدينا بشكل جد مترمت ، ولكنه منذ ذلك الوقت فصاعدا غدا بالتدريج هذا المفكر المتحرر الذى هو اليوم . وقد صالح هذا التناقض بين معتقداته وقهوره بأن قال لنفسه : « ماذا تعرف عن العالم الآخر ، بل ماذا يعرف عنه الآخرون ؟ وحيث أنه ما من شيء يمكن معرفته عنه ، اذن فأنت لا تخاطر بشيء — واذن فأفعل » . وهذا الشكل من الدليل قد بدأ ولا اعتراض عليه عند هذا الرجل الذى يتسم فى مناسبات أخرى بصفاء الذهن بصفة خاصة ، ولكنه بهذه الطريقة أستطاع أن يستغل عدم يقينية العقل البشرى فى مواجهة هذه المشكلات لصالح الاتجاه الدينى الذى هجره .

وفى الجلسة الثالثة أكمل المريض قصته الفريدة عن جهــوده للوفاء بقسمه القهرى • فى ذلك المساء انعقد آخر اجتماع للضـــباط قبل انتهاء المناورات • كان من نصيبه أن يرد بكلمة على النخب الذى شربه الجميع تكريما « للضباط الاحتياطيين » • تحدث فأحسن الحديث، ولكنه كان وكأنه فى حلم ، فقد كان فى قرارة نفسه يتعذب فى غسير انقطاع من جراء قسمه • قضى ليلــة مروعــة • فالحجج والحجج المضادة كانت تتصارع فى داخله • كانت الحجة الرئيسية بطبيعــة الحال هى أن الواقعة التى يقوم عليها قسمه ــ وهى أن الملازم أ قد سدد عنه الرسوم ــ قد تكشفت زائفة • ومع ذلك فقد راح يعزى نفسه بفكرة أن المسألة لم تنته بعد بالنظر الى أن أ ســـوف يســـافر معه فى الصباح التالى جانبا من الرحلة حتى محطة السكة الحديد عند ف (١) ، ومن ثم يكون أمامه متسع من الوقت ليطلب اليه هــذه الخدمة الضرورية ، ولكنه فى واقع الأمر لم يفعل ذلك ، وترك أ يرحل بدونه ، ولكنه أصدر تعليمات الى مراسلته لكى يخبر أ بأنه ينتوى زيارته بعد الظهر من ذلك اليوم • وقد يبلغ مريضنا المحطة فى التاسعة والنصف صباحا • أودع أمتعته هناك ، ثم تفرغ لمهام مختلفة كان عليه أن يقوم بها فى تلك المدينة الصغيرة ، وفى نيته بعد ذلك أن يقوم بزيارة أ • كانت القرية التى يقيم فيها أ على مسافة ساعة تقريبا مـــن السفر بالعربة من مدينة ف ــ وكانت الرحلة بالســكة الحديد الى المكان الذى يوجد فيه مكتب البريد تستغرق ثلاث ساعات • ومـــن هنا فقد حسب حسابه بحيث أن تنفيذ خطته المعقدة يترك له بالكاد وقتا يمكنه من اللحاق بقطار المساء الذى يغـــادر ف ــ الى فيينا • كانت الفكرتان اللتان تتصارعان فى داخله هما ، من ناحية : « لست الا جبانا ، فانى أريد بكل وضوح أن أتجنب هذا الكدر فى أن أطلب هذه الخدمة من أ ــ وفى أن ينظر الى على أنى مجنون ، ومن أجل ذلك فانى أرغب فى عدم الوفاء بقسمى » • ومن ناحية أخرى : « ان

---

(١) فى الاصل ا ، ولم نشأ ان نترجمها ب حتى لا تختلط بشخصية الملازم ب ــ المترجمون •

الأمر على العكس اذ من الجبن تحقيق هذا القسم ، لانى لا أرغب فى الوفاء به الا لاتخلص من قهورى » • وروى لى انه فى كل مرة ، فى مداولاته الداخلية ، تتعادل عنــده على هــذا النحــو حجتان متناقضتان ، كان من عادته أن يسلم زمام نفسه الى أحداث عارضة وكأنها مشيئة الله • ومن هنا فعندما طلب اليه حمال فى المحطــة : « قطار العاشرة يا سيادة الملازم ؟ » • كانت اجابته : « نعم » وعلى ذلك سافر فى الساعة العاشرة ، محققا بذلك سياسة الامر الواقع ، التى أراحته الى حد بعيد ، وكذلك احتجز فى عربة المطعــم مكانا للغذاء • وفى أول محطة وقف بها القطار خطر له أن الوقت ما يزال امامه كيما ينزل ، وينتظر القطار المسافر فى الاتجاه المضاد ، ويذهب عائدا الى بلدة ف ــ ويستقل عربة الى المكان الذى يقيم فيه الملازم أ، حيث يقوم معه فى القطار برحلة الثلاث ساعات الى المكان الذى يوجد فيه مكتب البريد ، وهكذا • ولم يحل بينه وبين تنفيذ هذا المخطط الا كونه قد ارتبط مع مشرف عربة الطعم باحتجاز مكان للغذاء ومع ذلك فانه لم يتنازل عن مخططه ، ولكنه أجل فقط نزوله الى المحطــة التالية • وبهذه الطريقة مضى يؤجل النزول من محطة الى التالية حتى بلغ الى محطة كان يستحيل عليه أن ينزل بها بسبب بعض أقاربه المقيمين هناك • وعندئذ عقد عزمه على أن يمضى الى فينا ، حيث يلتقى هناك بصديقه ، ويشرح له الموقف ، ثم يعود بقطار الليــل الى بلدة ف ــ ان ارتأى صديقه ذلك • وعندما عبرت له عن شكى فى امكانية تنفيذ ذلك من الناحية العملية ، أكد لى بأنه كان سيكون لديه نصف ساعة كاملة ما بين وصول قطاره وقيام القطار الآخر • وعندما وصل الى فينا لم يعثر على صديقه فى المطعم الذى كان يتوقع أن يجده فيه ؛ ولم يصل الى شقة هذا الصديق الا فى الحــادية عشر مساء ، فشرح له الموقف فى نفس الليلة • أبدى صديقه دهشة شديدة من أنه ما يزال لديه شك فيما ان كان مصابا بقهورة وطمأنه فى تلك الليلة بحيث أنه نام نوما هادئا • وفى صباح اليوم التالى ذهب معه الى البريد ليرسل الــ ٣٫٨٠ كراونا الى مكتب البريد الذى كان قد وصل اليه الطرد المحتوى على النظارة الانفية •

كانت هذه الواقعة الاخيرة هي التي زودتني بنقطة البدء التي أستطيع منها تصحيح التحريفات المختلفة التى أنطوت عليها قصته • فبعدما أعاده صديقه الى رشده أرسل ذلك المبلغ الصغير من النقود ، لا الى الملازم أ ولا الي الملازم ب ، بل مباشرة الي مكتب البريـد • ومن ثم فلابد وأنه كان يعرف بأنه مدين بالرسوم المقررة على الطرد، لموظفة البريد وليس لاى شخص آخر ، بل ولابد وأنه كان يعـرف ذلك قبل أن يبدأ رحلته فى القطار • وقد اتضح أن المريض كان فى الواقع يعرف ذلك ، قبل أن يطلب اليه النقيب م تسديد الرسوم وقبل أن يقطع على نفسه القسم ، فقد تذكر الآن أنه قبل ساعات من لقائه بالنقيب القاسى كان قد التقى بنقيب آخر أطلعه على حقيقة الأمـر كله • فهذا النقيب الاخير لم يكد يسمح اسمه حتى أخبره بأنه كان فى مكتب البريد منذ برهة قصيرة ، وأن السيدة الشابة التى تعمـل هناك قد سألته عما ان كان يعرف الملازم هـ (مريضنا) الذى وصـله طرد بنظام « الدفع عند التسلم » • وأجاب الضابط بأنه لا يعرفه ، ولكن السيدة الشابة قالت بأنها تثق فى هذا الملازم الذى لا تعرفه ، وأنها فى انتظار قدومه سوف تدفع عنه الرسوم • وعلى هذا النحو تسلم مريضنا النظارة الانفية التى كان قد أبرق فى طلبهـا • كان النقيب القاسى قد ارتكب خطأ اذ طلب اليه ، وهو يسلمه الطـرد ، أن يقوم بتسديد مبلغ ٣٫٨٠ كراونا للملازم أ ، ولابد وأن المريض قد تبين هذا الخطأ • ولكنه على الرغم من ذلك قطع على نفسه قسما ينبنى على هذا الخطأ ، وهو قسم استحال عذابا بالنسبة اليه • وهو اذ يفعل ذلك حجب عن نفسه ، تماما كما حجب عنى وهـو يسرد القصة ، واقعة النقيب الآخر ووجود السيدة الشابة الواثقة فيه فى مكتب البريد • ومع ذلك فانى أعترف بان هذا التصحيح لم يكن من شأنه الا أن يجعل سلوكه أكثر سخفا ، وأكثر لا معقولية عما كان يبدو عليه من قبل •

وبعد أن ترك المريض صديقه وعاد الى أسرته اسـتبدت بـه الشكوك من جديد • فحجج صديقه لم تكن لتختلف عن حججه التى

يرددها لنفسه ، وهو لم يكن يغيب عنه بحال أن الراحة المؤقتة التى استشعرها ترجع فحسب الى التأثير الشخصى لصديقه ، وليس الى أى شخص آخر . كان قراره باستشارة طبيب يدخل بشكل بارع ضمن النسيج الكلى لشبه هذائه على النحو التالى . كان فى نيته أن يقنع الطبيب بأن يعطيه شهادة مؤداها أنه من الضرورى له ، كيما يبرأ ، أن يقوم بطقوس كهذه التى ابتدعها فيما يتصل بالملازم أ ، وكان يأمل أن يقتنع الملازم ، بفضل هذه الشهادة ، فيقبل منه الـ ٣٫٨٠ كراونا . والصدفة التى جعلت واحدا من كتبى يقع فى يديه فى هذه اللحظة هى التى اتجهت به الى . وعلى أى حال لم يكن الامر معى أن يحصل على شهادة ، فكل ما طلبه منى ، وكان منطقيا تماما ، أن أخلصه من قهوره . وبعد ذلك بعدة شهور ، عندما بلغت مقاومته ذروتها ، استشعر من جديد غواية السفر الى بلدة ف — ليبحث عن الملازم أ وليمضى معه فى مهزلة تسديد النقود له .

(د) بدء تلقين فى طبيعة العلاج

ليس للقارىء أن يتوقع أن يسمع منى فى التو ما يمكن أن ألقيه من ضوء على قهور المريض الغريبة والسخيفة عن الفيران . فالفنيات الحقة للتحليل النفسى تتطلب من الطبيب أن يكبح استطلاعيته ، ويترك للمريض حرية مطلقة فى اختيار الترتيب الذى تتتابع بحسبه الموضوعات الواحد بعد الآخر أثناء العلاج . ومن هنا فقد استقبلت المريض فى الجلسة الرابعة بهذا السؤال : « بأى موضوع سوف تبدأ الحديث اليوم ؟ » .

أجاب : « لقد عقدت العزم على أن أخبرك بشىء أعتبره غاية فى الاهمية ، وقد سبب لى عذابا منذ البداية » . وعندئذ أخبرنى بكل تفصيلات المرض الاخير لابيه الذى مات من انتفاخ رئوى (امفيزيما) قبل ذلك بتسع سنوات . وذات مساء ، وكان يعتقد أن الأمر عند أبيه لا يعدو أن يكون مجرد أزمة ، سأل الطبيب متى يمكن

أعتبار أن الخطر قد زال • كانت الاجابة : « مساء بعد باكر » • لم يخطر بباله قط أن أباه لن تمتد به الحياة الى هذا الموعـد • وفى الحادية عشرة والنصف مساء رقد يستريح ساعة • وعندما استيقظ فى الواحدة صباحا أخبره طبيب صديق أن أباه قد مات • وقد أنب نفسه على أنه لم يكن حاضرا أثناء وفاته ، وقد أشتد تأنيبه لنفسه عندما أخبرته المرضة بأن أباه قد نطق اسمه مرة فى الايام الاخيرة، وقال لها وهى تتقدم الى سريره : « أأنت بولس ؟ » وأعتقد أن أمه وشقيقاته كان يغلب عليهن تأنيب أنفسهن بنفس الطريقة ، ولكنهن لم يتكلمن قط عن ذلك • وعلى أية حال ، فان هذا التأنيب لم يعذبه فى البداية • ذلك لانه لم يصدق ، خلال فترة طويلة ، حقيقة موت أبيه • كان كلما سمع نكته طيبة يقول دائما لنفسه :«ينبغى أن أحكيها لأبى»• وكان خياله أيضا منشغلا بأبيه ، بحيث كان اذا ما سمع طرقا عـلى الباب يقول لنفسه : « هاهو أبى قد حضر » ، وعندما كان يدخل الى غرفة كان يتوقع أن يجد أباه فيها • وعلى الرغم من أنه لم ينس قط أن أباه قد مات ، فان توقعه لمثل هذا الظهور الاشباحى لم يكن ينطوى بالنسبة اليه على أى طابع مرعب ، بل على العكس من ذلك كان شديد الرغبة فى أن يتحقق ذلك • ولم يكن قبل مرور عام ونصف أن عاودته ذكرى تقصيره فى حق أبيه ، وبدأت فى تعذيبه بشكل مروع ، بحيث غدا ينظر الى نفسه على أنه مجرم • كانت المناسبة التى أدت الى ذلك هى وفاة زوجة عمه وزيارة عزاء قام بها الى بيتها • ومنذ ذلك الحين فصاعدا وسع من نطاق أفكاره الحصارية بحيث اشتملت على العالم الآخر • وكانت النتيجة المباشرة لهذا التطور أن أصبح معوقا بشكل خطير عن العمل (١) • قال لى بأن الشيء الوحيد الذى مكنه

---

(١) ان وصفا أكثر تفصيلا لهذه الواقعة قدمه لى المريض فيما بعد ، مكننى من أن أتفهم تأثير هذه الواقعة عليه . فقد قال عمه ، زوج المتوفية، وهو ينتحب : « ان الرجال الآخرين يسمحون لانفسهم بكل متعة ممكنة ، أما أنا فقد عشت لهذه المرأة وحدها » وقد أعتقد مريضنا أن عمه انما كان يلمح بذلك الى أبيه ، ويلقى بذلك الشكوك على وفاء هذا الاخير لزوجته، =

من أن يمضى فى الحياة فى ذلك الوقت انما كان ذلك العزاء الذى كان يتلقاه من صديقه ، هذا الذى كان دائما ما يمسح عنه تأنيباته الذاتية استنادا الى اسرافها فى المبالغة .

وقد انتهزت هذه الفرصة كيما أقدم اليه لمحة أولى عن المبادىء التى يستند اليها علاج التحليل النفسى ، بدأت أقول انه عندما يكون هناك عدم تناسب بين الوجدان ومضمونه الفكرى (فى المثال : بين شدة التأنيب الذاتى وسببه) يقول غير الاخصائى ان الوجدان يزيد كثيرا عن سببه — أى أن التأنيب مسرف — ومن ثم فان الاستدلال الذى يستند اليه يكون باطلا ، من قبيل اعتقاد الشخص — فى هذا المثال — أنه مجرم . وعلى العكس من ذلك يقول المحلل : « كلا . ان الوجدان له ما يبرره . فشعور الاثم لا يقبل الطعن . ولكنه ينتمى الى مضمون آخر مجهول (لا شعورى) ، ويتطلب التنقيب عنه . وهذا المضمون الاخير قد أخلى مكانه ببساطة ، وبفضل ترابط زائف ، للمضمون الفكرى المعروف (الشعورى) . نحن لم نتعود أن نستشعر وجدانات قوية دون أن يكون لها أى مضمون فكرى ، ومن هنا فعندما يكون المضمون متخفيا ، فاننا نقبض ، كبديل ، على مضمون آخر ، يكون ملائما بشكل أو آخر ، تماما كما تفعل الشرطة ، عندما تعجز عن القبض على القاتل الحقيقى ، فتقبض بدلا منه على متهم زائف . هذا الى أن حقيقة كونهما فى حالة ترابط زائف هو الوسيلة الوحيدة التى تفسر لنا عدم جدوى العمليات المنطقية فى محاربة الفكرة القهرية المضنية » وختمت حديثى بأن سلمت بأن هذه الطريقة الجديدة فى النظر الى الأمر من شأنها أن تولد للنظرة الاولى ألغازا هائلة : اذ كيف للمريض أن يسلم بأن تأنيبه الذاتى على أنه مجرم فى حق أبيه له ما يبرره ، بينما هو لابد يعلم أنه لم يرتكب فى الواقع أية جريمة ضد أبيه ؟

= وعلى الرغم من أن عمه قد نفى بأقصى القطع مثل هذا التأويل لكلماته ، فلم يعد من الممكن بعد ابطال تأثيرها عليه .

وفي الجلسة التالية كشف المريض عن اهتمام شديد بما قدمته له من تفسيرات ، ولكنه اجترأ ، على حد قوله ، على أن يتقدم ببعض شكوكه — سألني : كيف أن معرفة كهذه ، بأن التأنيب الذاتي أي شعور الاثم له ما يبرره ، يمكن أن يكون لها تأثير علاجي ؟ — أوضحت له أن ليست المعرفة هي التي لها هذا التأثير ، بل اكتشاف المضمون المجهول الذي يرتبط به في واقع الأمر التأنيب الذاتي — قال المريض : « نعم ، تلك كانت على وجه التحديد هي النقطة التي يستهدفها سؤالي » • وعندئذ قدمت له ملاحظات قصيرة عن الفروق السيكولوجية بين الشعور واللاشعور ، وعن كون كل ما هو شعوري يتعرض لان يبلى ، بينما كل ما هو لا شعوري يظل نسبيا غير قابل للتغيير ، وذللت على ملاحظاتي بالقطع الاثرية الموجودة في غرفتي • قلت له بأن هذه القطع كانت في الواقع مجرد أشياء تم العثور عليها في مقبرة ، وكان انطمارها هناك هو الذي حفظها من أن تبلى : فتدمير بومبيي انما بدأ الآن فقط باخراجها من تحت الاطمار • — بعد ذلك سألني المريض : « هل يمكن أن نتنبأ بشكل يقيني بما سيكون عليه اتجاه الفرد من الافكار التي يتم الكشف عنها ؟ فواحد يمكن أن يتغلب على التأنيب الذاتي ، بينما يمكن أن لا ينجح آخر في ذلك » • — قلت له : « كلا ، فمن طبيعة الامور أن الوجدان غالبا ما يتم التغلب عليه أثناء تقدم العمل التحليلي ذاته • فبينما تبذل كل الجهود للمحافظة على بومبي ، يسعى الناس بأي ثمن للتخلص من الافكار الاليمة من هذا القبيل » • — فمضى يقول : « لقد قلت لنفسي بأن التأنيب الذاتي لا يمكن أن ينشأ الا بانتهاك الفرد لقوانينه الإخلاقية الباطنية الخاصة به ، وليس بانتهاكه لاية قوانين خارجية — وافقته على ذلك ، وقلت بأن الفرد الذي ينتهك القوانين الخارجية غالبا ما ينظر الى نفسه على أنه بطل — فاستطرد المريض يقول : « ان هذه الظاهرة لا يمكن بالتالي أن تحدث الا اذا كان هناك بالفعل انشطار في الشخصية • واني لأتساءل ما ان كان من الممكن لي أن استعيد تكامل (وحدة) شخصيتي • فلو تحقق لي ذلك فانني على ثقة من أنني سأبلغ في حياتي الى نجاح ربما يتخطى بكثير غالبية

الناس » . — أجبته بأننى أتفق معه تماما فى تصوره هذا عن انشطار شخصيته . كل ما كان يلزمه هو أن يعتبر هذا التعارض الجديد ، بين الذات الاخلاقية والذات الشريرة ، مماثلا للتعارض الذى سبق لى أن ذكرته بين الشعور واللاشعور . فالـذات الاخلاقيـة هى الشعور ، والذات الشريرة هى اللاشعور (١) .

وعندئذ قال المريض : « اننى اعتبرت نفسى رجلا أخلاقيا الا أنى استطيع أن أتذكر بشكل قاطع أننى ارتكبت فى طفولتى أفعـالا صادرة من تلك الذات الاخرى » . — قلت له بانه ها هنا قد وقـع بالصدفة على خاصية من أهم خصائص اللاشعور ، هى على التحديد صلته بالطفولة . وأوضحت له أن اللاشـعور هو الطفلى فينـا ، فاللاشعورى هو هذا الجزء من النفس الذى انفصل عنها فى الطفولة، فلم يتابع المراحل اللاحقة من تطورها ، والذى أصبح بالتالى مكبوتا . ومشتقات هذا اللاشعور المكبوت هى منهل الافكار اللاارادية التى تشكل مرضه . فأضفت قائلا بأن بوسعه الآن أن يتبين خاصـية أخرى من خصائص اللاشعور ، وانه ليسرنى أن يبلغ بنفسـه الى اكتشاف هذه الخاصية — ولكنه قال : « اننى لا أجد جديدا اضيفه ، ولكننى أتساءل ما ان كان فى وسع المرء أن يبرأ من اضطرابات قديمة الى هذا الحد . وعلى وجه الخصوص ، ما الذى يمكن عمله فى فكرتى عن العالم الآخر ، وهى التى لا يمكن دحضها بالمنطق ؟ » — قلت له بأننى لا أنكر خطورة حالته ، لا ولا خطورة أفكاره المرضية ، ولكن فى نفس الوقت يعتبر شبابه نقطة فى صالحه الى أقصى حد ، وكذلك أيضا فى صالحه ما عليه شخصيته من تكامل . وفى هذا الصدد قلت كلمة أو كلمتين عما تكون لدى من رأى طيب عنه ، وقد أسبغ عليه ذلك سرورا ملحوظا .

وفى الجلسة التالية بدأ بأن أخبرنى بأنه يتحتم عليه أن يذكر

---

(١) كل ذلك بالطبع ليس صحيحا الا بصورة جد غليظة ولكن يصلح كمدخل تمهيدى للموضوع .

لى حادثة وقعت له فى طفولته : فمنذ السابعة من عمره • كما سبق أن أخبرنى ، كان لديه خوف من أن يحدس أبواه أفكاره ، وهـذا الخوف قد لازمه فى الواقع طيلة حياته كلها • وعندما بلغ الثانيـة عشرة كان يحب صبية صغيرة ، هى شقيقة صديق له (واجابة على سؤال منى ، قال بأن حبه لها لم يكن شهويا ، لم يشعر بالرغبـة فى أن يراها عارية لانها كانت جد صغيرة) • ولكنها لم تظهر له مـن الحب بقدر ما كان يتمنى • وعندئذ خطرت له هذه الفكرة ، بأنها يمكن أن تكون أكثر حبا له لو نزلت به كارثة ، وكمثال لهذه الكارثة فان موت أبيه قد فرض نفسه على ذهنه • رفض فى التو وبشدة هذه الفكرة وحتى الآن فانه لا يستطيع أن يسلم بأن ما خطر بذهنه على هذا النحو يمكن أن يكون « رغبة » ، كان من الواضح بالنسبة اليه أن المسألة لا تعدو أن تكون « تداعى أفكار » [1] • ومـن قبيـل الاعتراض سألته : « اذا لم تكن تلك رغبة ، فلماذا نفيتها عن نفسك بكل هذه القوة ؟ » — أجاب : « بسبب مضمون الفكرة ، ألا وهـو امكانية موت أبى » — نبهته الى أنه ينظر الى العبارة وكأنها تنطوى على جريمة عيب فى الذات الملكية ، فمن المعروف جيدا بالطبع بأنه مما ينطوى على العقوبة بالمثل أن يقول المرء : « الامبراطور حمار » أو أن يموه على هذه الكلمات المحرمة بقوله :

لو قال أحد ان الامبراطور •• فسوف أريه » • وأضفت بأننى أستطيع فى يسر أن أدس هذه الفكرة التى نفاها عن نفسه بكل هذه القوة ، ضمن سياق يستبعد كل احتمال لمثل هذا النفى • مثال ذلك : « اذا مات أبى فسوف أقتل نفسى على قبره » • صدمه كلامى هذا بشكل ظاهر ، ولكنه لم يتخل عن اعتراضه • وعندئذ وضعت حدا للجدل بقولى بأنى متأكد من أن تلك لم تكن المرة الاولى التى خطرت له فيها فكرة موت أبيه ، فمن الواضح أنها نشأت فى تاريخ أبكر ، وسيكون علينا ذات يوم أن نقتفى تاريخها الى الوراء • — وعندئذ

---

(١) ليس العصابيون القهريون وحدهم هم الذين ينعون بمثل هـذه العبارات التهوينية •

شرع يخبرنى بأن فكرة مماثلة على وجه التحديد قد ومضت فى رأسه مرة ثانية قبل موت أبيه بستة أشهر . فى ذلك الوقت [١] كان بالفعل واقعا فى حب السيدة الشابة ، ولكن الصعوبات المالية جعلت من المستحيل عليه أن يفكر فى الاقتران بها . وعندئذ خطرت له فكرة أن موت أبيه يمكن أن تجعله من الثراء بدرجة تكفى للاقتران بها . وفى دفاعه عن نفسه ضد هذه الفكرة بلغ الى حد أن تمنى أن لا يترك له أبوه أى شىء ، بحيث لا يحصل على تعويض عن خسارته الفادحة. ونفس هذه الفكرة خطّرت له ، ولكن فى صورة أهون بكثير ، للمرة الثالثة ، فى اليوم السابق على موت أبيه فعندئذ خطرت له فكرة « انى الآن على وشك أن أفقد أعز من أحب فى الحياة » . وفى مواجهة ذلك خطرت له فى التو فكرة مضادة : « كلا ، بل هناك شخص آخر سيكون فقدانه أشد ايلاما لى » [٢] . هاتان الفكرتان أثارتا دهشته الى أبعد حد ، لانه كان على ثقة من أن موت أبيه ما كان يمكن بحال أن يكون موضوع رغبة عنده بل فقط موضوع خوف .

وبعد هذه الكلمات التى نطق بها المريض فى حماسة ، بدا لى من المفيد أن أشرح بضع تصورات نظرية جديدة عليه . قلت له أنه بحسب نظرية التحليل النفسى فان كل خوف يناظر رغبة قديمة هى الآن مكبوتة ، ومن هنا فان هذه الاعتراضات من جانبه ينبغى أن تجعلنا نفترض وجود نزعات مضادة تماما . وذلك يتفق أيضا مع مطلب نظرى آخر ، هو على التحديد أن اللاشعور ينبغى أن يكون مضادا تماما للشعور . — كان شديد التأثر بما قلته وشديد الشك فيه . تساءل كيف يمكن بحال أن كانت لديه مثل هذه الرغبة ، بالنظر الى أنه كان يحب أباه أكثر من أى شخص آخر فى العالم ، لم يشك لحظة فى أنه لم يكن يتردد فى التنازل عن كل سعادة ممكنة فى الحياة لو أنه بذلك كان يستطيع أن ينقذ حياة أبيه . — أجبته بأن مثل

---

(١) كان ذلك منذ عشر سنوات .

(٢) هنا اشارة لا يمكن أن تخطئها الملاحظة الى التعارض بين موضوعى حبه : أبيه والسيدة الشابة .

هذا الحب الشديد هو على وجه الدقة الشرط لكبت الكراهية • فمن المؤكد أنه يستطيع فى يسر ، ازاء أشخاص لا يحفل بهم ، أن يستشعر جنبا الى جنب نزعات من الحب المعتدل مع نزعات مساوية من الكراهية المعتدلة : ولنفترض على سبيل المثال أنه موظف ، فمن الممكن عندئذ أن يعتبر رئيسه لطيفا كرئيس ، ولكنه فى نفس الوقت مخادع كمحام، وعديم الانسانية كقاض • وشكسبير يجعل بروتس يتحدث بطريقة مشابهة عن يوليوس قيصر : « كان قيصر يحبنى وانى لابكيه ، وكان محظوظا وانى لسعيد بذلك ، وكان شجاعا وانى لأمجده ، ولكن لانه كان طموحا فانى قتلته » [1] • ولكن هذه الكلمات تثير دهشتنا لانها أدنى الى الغرابة ، اذ كنا نتصور حب بروتس لقيصر أعمق من ذلك• فلنعد الى مريضنا • ذكرت له بأنه لو كان ازاء شخص جد حميم ، زوجته مثلا لو كان متزوجا ، لكانت تكون لديه نزعة الى توحيد مشاعره العاطفية ، مغفلا — كما هو الشأن عند كل البشر — النقائص التى يمكن أن تثير كراهيته لها ، بحيث يتعامى عن هذه النقائص • وهكذا فقد كانت شدة حبه هى على وجه التحديد التى منعت كراهيته وان كانت هذه التسمية ضربا من التغليظ — من أن تظل شعورية • هذه الكراهية لابد وأن يكون لها مصدرها • والكشف عن هذا المصدر هو بالتأكيد مشكلة • كانت أقواله تشير الى تلك الفترة التى كان يخاف فيها من أن يحدس أبواه أفكاره • ومن ناحية أخرى أيضا يمكننا أن نتساءل كيف أن مثل هذا الحب الشديد من جانبه لم ينجح فى اطفاء كراهيته ، على نحو ما يحدث فى العادة عند وجود حفزتين متضادتين • لا يسعنا الا أن نفترض أن الكراهية لابد وأنها ترتبط بمصدر ما جعلها مستحيلة على الازالة • وعليه كانت بالتأكيد رابطة من هذا النوع هى التى أبقت على كراهيته حية ضد أبيه ، هذا من ناحية بينما من ناحية أخرى ، كان حبه الشديد هو الذى منع هذه الكراهية من أن تصبح شعورية • ومن ثم لم يبق أمام هذه الكراهية

---

1. Julius Caesar (111.2)

الا أن تظل فى اللاشعور ، وان استطاعت بين حين وحين أن تبرز للحظة فى الشعور .

قال المريض بأن ذلك كله يبدو معقولا تماما ، ولكنه لم يكن بالطبع مقتنعا به بأى حال من الأحوال (١) . قال لى بأن بوده أن يسأل كيف أمكن لفكرة من هذا القبيل أن تكون لها عودات ، كيف أمكنها أن تظهر للحظة عندما كان فى الثانية عشرة ، وتظهر ثانية عندما بلغ العشرين ، ثم مرة أخرى بعد ذلك بعامين ، لتختفى فلا تظهر بعد ذلك . لم يكن بوسعه أن يعتقد أن كراهيته كانت خامدة فى الفترات الفاصلة ، ومع ذلك فلم يستشعر خلال هذه الفترات الفاصلة أية علامة على التأنيب الذاتى — أجبته على ذلك قائلا بأنه فى كل مرة يسأل شخص سؤالا كهذا فانه تكون لديه بالفعل الاجابة عليه ، وكل ما يلزمه هو تشجيعه على المضى فى الحديث . — عندئذ مضى ، دون ما ارتباط فى الظاهر بما سبق ، يقول بأنه كان أعز صديق لابيه ،وكان أبوه أعز صديق له . وفيما عدا هذه الموضوعات القليلة التى عادة ما يتجنب الآباء والأبناء بعضهم بعضا — (ما الذى يمكن أن يعنيه بذلك ؟) كانت بينهما علاقة حميمة باكثر مما عليه الآن علاقته مع أعز صديق له . أما فيما يتصل بالسيدة الشابة ، التى من أجلها استهان بأبيه فى تلك الفكرة التى خطرت له ، فقد كان يحبها فى الواقع حبا شديدا ، ولكنه لم يستشعر قط بالفعل أية رغبات شهوية تجاهها ، من قبيل تلك التى كان يستشعرها دواما فى طفولته . فعلى وجه الجملة ، كانت حفزاته الشهوية أقوى بكثير فى طفولته منها أثناء بلوغه : — وعندئذ نبهته الى أنه قد قدم الآن الاجابة التى كنا

(١) مثل هذه المناقشات لا تستهدف اقناع المريض فالغرض منها فحسب هو اجتذاب العقد المكبوتة الى الشعور ، واذا كان صراع حول هذه العقد فى مجال العمليات النفسية الشعورية ، وتيسير انبثاق مادة جديدة من اللاشعور . فالشعور بالاقتناع لا يبلغ اليه المريض الا بعد أن يتناول بنفسه من جديد المادة المستخلصة . وطالما لم يبلغ المريض بعد الى تمام الاقتناع فالمادة لم يتم استنفادها بعد .

ننتظرها ، وأنه كشف فى الوقت نفسه عن الخاصية الثالثة الاساسية للاشعور • فالمصدر الذى يغذى كراهيته لابيه ، ويجعلها مستحيلة على الازالة كان بكل وضوح من طبيعة الرغبات الشهوية ، وفى هذا الصدد لابد وأن يكون قد استشعر ، على نحو أو آخر ، وجود أبيه كعائق • وأضفت قائلا بأن الصراع من هذا النوع بين الشهوية وحب الطفل لابيه هو نمطى تماما • فاحتجاب الكراهية ، الذى سبق أن أشار اليه المريض ، قد حدث لان التفجر الباكر لمشاعره الشهوية قد ترتب عليه ، كنتيجة مباشرة ، تضاؤل بالغ فى شدة تلك المشاعر • ولم تظهر كراهيته من جديد الا حين استبدت به من جديد رغبات شبقية شديدة ، وكان ذلك بسبب ابتعاث الموقف القديم • وقد اتفق معى على أننى لم أوجهه لا الى موضوع الطفولة ولا الى موضوع الجنس، بل كان هو الذى أثار الموضوعين بمحض ارادته — ومضى المريض يسألنى لماذا ، فى تلك الفترة التى كان فيها شديد الحب للسيدة الشابة لم يتخذ ببساطة قرارا فى داخله بأن العقبة التى كانها أبوه فى طريق حبه لم تكن لترجح فى الميزان للحظة واحدة حبه لابيه — أجبت بأنه يكاد يكون من المستحيل القضاء على شخص فى « غيابه » • فمثل هذا القرار ما كان يقتدر على اتخاذه الا اذا كانت رغبته المستهجنة فى التخلص من الأب كعائق تظهر لاول مرة فى هذه المناسبة ، بينما هى فى الواقع رغبة كبتت منذ وقت طويل ، ومن ثم لم يكن بوسعه أن يتصرف ازاءها الا كما تصرف من قبل فى طفولته ، واذن كانت فى مأمن من القضاء عليها • فتلك الرغبة (رغبة التخلص من أبيه كعائق) لابد وأن تكون قد نشأت فى وقت كانت فيه الظروف جد مختلفة ، فى وقت ربما لم يكن فيه بعد يحب أباه أكثر من الشخص موضوع شهويته ، أو فى وقت كان فيه لا يقتدر بعد على اتخاذ قرار واضح • وعليه فلابد وأن ذلك كان فى طفولته جد الباكرة ، قبل أن يبلغ السادسة من عمره ، وقبل أن تشكل ذكرياته وحدة متصلة ، ولابد وأن تكون الامور قد بقيت على حالها منذ ذلك الحين • — وبهذا التفسير توقف حديثنا فى ذلك اليوم •

وفى الجلسة التالية ، وهى السابعة ، أستأنف المريض من جديد الحديث فى نفس الموضوع • قال انه لا يستطيع أن يصدق بأنه كانت لديه يوما مثل هذه الرغبة ضد أبيه • واسترسل يقول بأنه يذكر رواية للكاتب سودمان تركت فى نفسه انطباعا عميقا • هذه الرواية تصور امرأة استشعرت ، وهى تجلس الى فراش أختها المريضة ، الرغبة فى أن تموت أختها هذه بحيث تتمكن هى بعد موتها من أن تقترن بزوجها • وعلى اثر ذلك انتحرت المرأة اعتقادا منها بأنها ليست جديرة بالحياة بعد ما هوى بها الاثم الى هذه الخساسة • قال أن بوسعه أن يفهم ذلك تماما ، وأنه لن يكون الا عدلا أن تتسبب أفكاره فى موته هو ، لانه لا يستحق أقل من ذلك [1] • — نبهته الى أنه من الحقائق جد المعروفة لدينا أن المرضى يحصلون من مكابداتهم على نوع من الاشباع ، بحيث أنهم جميعا فى الواقع يقاومون الى حد ما شفاءهم • وطلبت اليه أن لا يغيب عن باله أن علاجا كعلاجنا هذا تصحبه دائما مقاومة ، ولم أتوقف عن تذكيره بذلك •

وعندئذ مضى يقول بأنه يرغب فى التحدث عن فعل اجرامى ، لا يتعرف فى مرتكبه على نفسه ، وان كان يذكر تماما أنه ارتكبه • وذكر نصا من نيتشه [2] : « انى فعلت ذلك » تقول ذاكرتى « كلا ، لا يمكن أن أكون قد فعلت ذلك » يقول كبريائى فى اصرار لا يلين • وفى النهاية تنهزم ذاكرتى • واستطرد يقول : « حسنا ، فان ذاكرتى لم تنهزم فى هذه النقطة » • — « ذلك على وجه التحديد لانك تستمد لذة من تأنيباتك الذاتية ، من حيث هى وسيلة لعقوبة الذات » • — « ان أخى الاصغر (وانى فى الواقع أحبه الآن كثيرا ، وهو يسبب لى فى الوقت الحاضر قدرا كبيرا من المشغولية ، لانه يريد أن يعقد زواجا

---

(١) شعور الاثم هذا أشد ، يكون تناقضا مع انكاره السابق لرغبته فى موت أبيه . وذلك نمط شائع من الاستجابة لفكرة مكبوتة بزغت الى الشعور : فالانكار يعقبه مباشرة اثبات ، وان يكن بشكل غير مباشر .

(٢) Tenaeits von Gut und Bose, iv, 68.

(فيما وراء الخير والشر) .

هو فى رأيى حماقة ، وقد خطر لى قبل الآن أن أذهب فأقتــل تلــك الشخصية حتى أحول بينه وبين الزواج منها) حسنا ، ان أخى الاصغر هذا وأنا كثيرا ما كنا نتعارك ونحن أطفال • وكان كل منا جد مغرم بالآخر فى نفس الوقت ، ولم نكن يفترق أحدنا عن الآخر • ولكنى كنت ببساطة أمتلىء غيرة منه لانه كان أكثر منى قوة وأكثر وسامة ، ومن ثم كان يحظى بالتفضيل » • — « نعم • فقد سبق أن وصــفت لى مشهدا من الغيرة يتصل بالآنسة لينا » • — « حسنا ، بعد حادث من هذا النوع (كان ذلك بالتأكيد قبل أن أبلغ الثامنة ، لاننى لم أكــن بعد قد ذهبت الى المدرسة ، وهى التى بدأت الذهاب اليها فى الثامنة) بعد حادث من هذا النوع ، فقلت ما يلى : كان لدينا نحن الاثنــين بندقيتان للعب من النوع العادى • عمــرت بندقيتى بعصــا تنظيف البندقية وقلت له أن ينظر فى الماسورة ليرى شيئا • وبينما كان ينظر الى داخل البندقية ضغت على الزناد • جاءت الضربة فى جبهته ولكنها لم تصبه بأذى • ولكن كان فى نيتى فى الواقع أن أؤذيه جدا • وبعد ذلك خرجت عن طورى تماما ، وألقيت بنفسى على الارض ، وساءلت نفسى كيف كان من المكن على الاطلاق أن أفعل شيئا كهذا • ولكنى فعلت ذلك » • — وانتهزت الفرصة للتدليل على رأيى • فاذا كان قد احتفظ بذكرى فعل غريب على نفسى الى هذا الحد ، فليس فى وسعه أن ينكر امكانية حدوث شىء مشابه ، نسيه الآن تماما ، اذ حدث له فى سن أبكر من ذلك ويتصل بأبيه — عندئذ أخبرنى بأنه على وعى مــن أنه استشعر أيضا حفزات انتقامية ، ولكن فى هذه المرة ضد السيدة الشابة التى كان يحبها حبا مليئا بالتبجيل ، والتى قدم عن شخصيتها لوحة فى حماسة متقدة قال ، ربما يكون من الصحيح أنها لا تستطيع أن تحب فى يسر ، ولكنها كانت تحتجز نفسها كلية لذلك الرجل الواحد الذى ستكون له يوما • لم تكن تحبه ، وعندما تيقن من ذلك ، تخلقت فى رأسه أخيولة شعورية عن مدى ما سيصير اليه يوما من ثراء عريض، فيتزوج من امرأة أخرى ، وعندئذ يصحبها لزيارة تلك السيدة الشابة كيما يؤذى مشاعرها • ولكن عند هذه النقطة توقفت الاخيولة ، لانه كان مضطرا لان يصارح نفسه بأن المرأة الاخرى (زوجته) لا يهمها

شيء من أمره ، وعندئذ اختلطت عليه الافكار ، وفى النهاية استقر فى ذهنه بوضوح أن هذه المرأة الاخرى يتحتم أن تموت فى هذه الاخيولة، تماما كما فى محاولته ضد أخيه ، تبين فى نفسه هذه السمة ، التى تروعه بشكل خاص ، وهى الجبن (١) • — وفيما تلا من حديث ، نبهته الى أنه يتحتم عليه أن يعتبر نفسه غير مسئول بحال عن أية سمة من مثل هذه السمات فى شخصيته ، لان كل هذه الحفزات المستهجنة نشأت من طفولته ، فهى تناظر مشتقات من شخصيته الطفلية ، ما تزال باقية فى لا شعوره • كما يتحتم عليه أن يعرف أن المسئولية الاخلاقية لا يمكن تطبيقها على الاطفال • وأضفت قائلا أنه انما بفضل عملية نمو يشب الراشد ، بمسئوليته الاخلاقية ، عن طوق مجموعة استعداداته الطفلية (٢) • وعلى أية حال ، فقد عبر مريضى عن شكه فى أن تكون كل حفزاته الشريرة قد نشأت من هذا المصدر • ولكنى وعدته بأن أثبت له ذلك فى مسار العلاج •

ومضى المريض يذكر أن مرضه قد استفحل بدرجة خطيرة منذ موت أبيه • وقلت له بأننى أتفق معه فى ذلك بقدر ما أعتقد أن حزنه على موت أبيه هو السبب الرئيسى فى استفحال مرضه • فان حزنه قد وجد فى مرضه ، ان جاز القول ، تعبيره الباثولوجى • وأخبرته بأنه بينما فترة الحداد العادية يمكن أن تمتد من عام الى عامين فان الحداد الباثولوجى ، من قبيل حداده ، يمكن أن يمتد الى غير نهاية •

ذلك من تاريخ الحالة هو كل ما أستطيع أن أعرضه فى تفصيل وتتابع منطقى وهو يطابق على وجه التقريب هذا الجانب الايضاحى من العلاج ، وهذا العلاج قد امتد أكثر من أحد عشر شهرا •

---

(١) هذه السمة عنده سوف تجد تفسيرا فيما بعد .

(٢) انى انما أوردت هذه الحجج لادلل لنفسى مرة أخرى على عدم جدواها . وليس بوسعى أن أفهم كيف أن معالجين نفسيين آخرين يستطيعون أن يؤكدوا انهم يهاجمون الاعصبة بنجاح بمثل هذه الاسلحة .

(هـ) بعض الأفكار القهرية وتفسيرها

ان الأفكار القهرية ، كما هو معروف تماما ، تبدو فى الظاهر عديمة الدافع أو عديمة المعنى ، شأنها تماما شأن الأحلام • والمشكلة الاولى هى أن نعثر لها على معنى ، وعلى مكان ضمن سياق الحياة النفسية للفرد ، بحيث نجعلها متاحة للفهم ، بل ومعقولة • ويحسن بنا فى محاولتنا ترجمة هذه الأفكار القهرية ، أن لا تتزعج أبدا مما تبدو عليه من استحالة على الفهم • فأكثر الافكار القهرية غرابة واغرابا يمكن توضيحها اذا ما تعمقنا بحثها بدرجة كافية • فنحن نعثر على تفسيرها متى تبينا العلاقة الزمنية بين الافكار القهرية وتجارب المريض ، أى بتقصينا متى ظهرت لاول مرة فكرة قهرية معينة ، وفى ظل أية ظروف خارجية يمكن أن تعاود الظهور عادة • وعندما لا تنجح فكرة قهرية — وهو ما يحدث غالبا — فى أن تستمر فى الوجود بشكل دائم ، فان مهمة توضيحها تكون أيسر بنفس الدرجة ومتى عثرنا على العلاقات البينية التي تربط الافكار القهرية بتجاربه المريض ، يكون من اليسير علينا أن تقتنع بأن ما من صعوبة تعترض بلوغنا الى أى شىء آخر يمكن أن يكون محيرا أو جديرا بالمعرفة فى البناء الباثولوجي الذى نحن بصدده : دلالة الفكرة القهرية ، وميكانيزم نشأتها ، والقوى النفسية الغريزية التى صدرت عنها •

وكمثال واضح بنوع خاص سوف أبدأ باجدى الحفزات الإنتحارية، هذه التى كثيرا ما تواتر ظهورها عند مريضنا • فهذا المثال يكاد يتضح تحليله من مجرد سرده • قال لى انه ذات مرة ضاعت عليه ثلاثة أسابيع بغير مذاكرة ، بسبب تغيب السيدة الشابة التى كان يحبها : كانت قد سافرت لتمريض جدتها التى اشتد عليها المرض • وبينما كان مستغرقا فى جزء جد عويص من مذاكرته خطرت له الفكرة : « لو تلقيت أمرا بأن تؤدى امتحانك عن هذه الفترة الدراسية فى أول فرصة تسنح ، فيمكنك أن تتدبر بحيث تطيع الأمر • ولكنك اذا تلقيت أمرا بأن تقطع رقبتك بموسى ، فماذا أنت فاعل ؟ » وفجأة

أحس بأن هذا الأمر قد صدر اليه بالفعل ، واندفع الى خزانة الملابس يفتش عن الموس ، وعندئذ خطرت له الفكرة : « كلا ليست المسألة بهذه البساطة . ينبغى (١) أن تذهب فتقتل هذه العجوز » . وفى اثر ذلك سقط على الارض فى مكانه مرتعبا . . .

وفى هذا المثال توجد العلاقة بين الفكرة القهرية وتجارب المريض ضمن الكلمات الافتتاحية من قصته . فالسيدة الشابة التى يحبها كانت متغيبة ، بينما كان هو مستغرقا فى جزء جد عويص من مذاكرته استعدادا لامتحانه ، حتى يقرب ما أمكن من يوم اقترانه بها . وبينما كان مستغرقا فى عمله استبد به الحنين الى سيدته الشابة ، ففكر فى سبب تغيبها . واستولى عليه ما كان من الممكن أن يكون ، عند رجل سوى ، نوعا من الشعور بالحنق ضد جدتها : « لماذا يتحتم أن تمرض هذه العجوز فى الوقت الذى أحن فيه بكل هذه الشدة الى رؤية حبيبتى ؟ » وينبغى أن نفترض أن شيئا مماثلا ، ولكن أكثر شدة بكثير ، قد حدث فى نفس مريضنا — نوبة غضب لا شعورية يمكن أن تأتلف مع حنينه فتترجم عن نفسها فى هذه العبارة : أوه ! بودى أن اذهب فأقتل هذه العجوز التى تسلبنى حبيبتى ! » وعندئذ يأتى فى اثر ذلك الأمر « أقتل نفسك ، عقوبة على هذه النزوات الهمجية السفاحة ! » كل هذه العملية تبرز فى شعور المريض القهرى مصحوبة بأعنف الوجدانات ، ولكن فى ترتيب معكوس : الامر بالعقوبة أولا ، وبعد ذلك ينفجر ذكر الرغبة الاثمة . ولست أعتقد أن هذه المحاولة للتفسير تبدو متعسفة ، أو أنها تنطوى على كثرة من العناصر الافتراضية .

وثمة حفزة أخرى يمكن اعتبارها انتحارية بشكل غير مباشر ، وقد لازمته فترة طويلة ، ولم يكن تفسيرها بنفس الدرجة من اليسر . ذلك أن علاقتها بتجارب المريض نجحت فى أن تتحجب وراء ارتباط

---

(١) يقتضى المعنى هنا ان نضيف كلمة أولا .

من تلك الارتباطات الخارجية الصرفة هذه التى ينفر منها كثــيرا تفكيرنا الشعورى •

ذات يوم بينما كان فى رحلة فى أجازة صيف خطرت له فجــأة فكرة أنه مسرف البدانة (بالالمانية Dick) ، وأنه يتحتم عليه أن ينقص من وزنه • ومن هنا بدأ يغادر المائدة قبل توزيع الحلوى ، ويندفع فى الطريق بغير قبعة فى الحرارة القائظة لشمس أغسطس ، ثم يشرع فى تسلق الجبل وهو يجرى ، فلا يتوقف الا بعد أن يغرقه العرق •• وفى احدى المناسبات برزت نواياه الانتحارية عارية مــن وراء هوسه هذا فى أن ينقص من وزنه • فبينما كان يقف ذات يــوم على حافة جرف شديد الانحدار تلقى فجأة الامر بأن يقفز الى أسفل، مما كان يؤدى به الى موت محقق • ولم يكن بوسع مريضنا أن يعثر على تفسير لهذه الحفزة القهرية اللامعقولة ، حتى خطر له فجــأة أن سيدته الشابة كانت فى ذلك الوقت تنزل فى نفس المصيف ، ولكنها كانت فى صحبة ابن عمومة لها من الانجليز ، كان شديد الحدب عليها، وكان مريضنا شديد الغيرة منه • كان ابن العمومة هذا اسمه ريتشارد، وبحسب العادة المألوفة فى انجلترا كانت شهرته ديك Dick • كان مريضنا يرغب فى أن يقتل هذا الــ « ديك » ، كانت غيرته منه وحنقه عليه أكثر بكثير مما يستطيع أن يعترف به لنفسه ، وكان ذلك هــو السبب فى أنه فرض على نفسه من قبيل العقوبة هــذه المكابــدات للانقاص من وزنه • هذه الحفزة القهرية قد تبدو جد مختلفة عــن الامر المباشر بالانتحار ، وهو الذى شرحناه آنفا ، ولكنهما يشتركان مع ذلك فى خاصية واحدة هامة • فكلاهما قد نشأ استجابة لغضب جد عنيف — غير متاح للشعور — يتجه ضد الشــخص الذى يعكــر الحب [1] •

---

(١) ان استخدام الاسماء والكلمات لخلق ارتباطات بين الافــكار اللاشعورية (حفزات واخاييل) من ناحية ، والاعراض من ناحية اخرى، يوجد فى العصاب القهرى بدرجة اقل تواترا بكثير واقل غلظة مما عليه =

ومع ذلك فان بعض القهور الاخرى عند المريض ، وان كانت أيضا تدور حول سيدته الشابة ، تكشف عن ميكانيزم مختلف وترجع بأصلها الى غريزة مختلفة . فبالاضافة الى هوسه فى أن ينقص من وزنه ، استحدث سلسلة بأسرها من القهور ، وذلك فى الفترة التى كانت فيها سيدته الشابة تنزل فى نفس المصيف ، وكانت هذه القهور، بشكل جزئى على الاقل ، تدور مباشرة حول هذه السيدة . فذات يوم ، وكان معها فى نزهة بالقارب ، وعصفت ريح شديدة ، تحتم عليه أن يرغمها على أن تلبس قلنسوته ، لان أمرا كان قد تكون فى ذهنه بأن ما من شيء ينبغى أن يحدث لها (٢) . كان ذلك نوعا من قهـر الحماية ، واليك أمثلة أخرى منه . ففى مرة أخرى بينما كانا يجلسان معا أثناء عاصفة رعدية ، اعتراه قهر ، لا يدرى له سببا ، بأنه يتحتم عليه أن يعد الى أربعين أو خمسين بين كل ومضة برق وقصفة الرعد التى تصحبها . وفى يوم رحيلها ارتطمت قدمه بحجر ملقى فى الطريق، فتحتم عليه أن يحمله بعيدا عن الطريق ، لان الفكرة خطرت له بأن عربة حبيبته سوف تمر بعد ساعات فى هذا الطريق ، ويمكن أن تتعرض لحادثة بسبب هذا الحجر . ولكن بعد دقائق قال لنفسه بأن ذلك سخف ، وتحتم عليه أن يعود ثانية ليعيد الحجر الى مكانه الاصلى فى منتصف الطريق . وبعد أن رحلت السيدة الشابة أصبح مريضنا فريسة لقهر الفهم ، مما جعله بلاء لا يطاق بالنسبة الى جميع رفقائه،

=

الحال فى الهستيريا . ومع ذلك ، يحضرنى مثال آخر جرى فيه استخدام نفس هذا الاسم « ريتشارد » استخداما مماثلا من جانب مريض قمت بتحليله منذ وقت طويل . فهذا المريض ، على اثر عراك مع شقيقة راح يقدح فكره بشكل قهرى للعثور على وسيلة يتخلص بها من ثروته ، معلنا أنه لم يعد يرغب فى أن تكون له أية علاقة بالمال ، وما الى ذلك . وكان اسم أخيه ريتشارد Rickard (ريشار) فى الفرنسية تعنى « رجل غنى » .

(٢) « مما يمكن أن تقع على لائمته » هذه الكلمات تنبغى اضافتها ليكمل المعنى .

كان يحتم على نفسه أن يفهم على وجه التحديد مغنى كل مقطع مما يقال له ، وكأنه لو فاته ذلك يضيع كنزا لا يقدر بثمن • ومن هنا فقد ظل يسأل : « ماذا كان هذا الذى تفوهت به الآن ؟ » • وبعدما كان محدثه يكرر عليه ما قاله كان يتحتم عليه أن يعتقد بأنه سمع شيئا مختلفا فى المرة الاولى ، ويغلبه شعور بعدم الرضا •

كل هذه المظاهر لمرضه كانت تستند الى حدث بعينه كان يحكم فى تلك الفترة علاقاته مع سيدته الشابة • هذا الحدث كان قد وقع فى فينا ، قبل رحيله الى الريف • فبينما كان يستأذن سيدته الشابة فى الرحيل فى أجازة الصيف ، قالت له شيئا فهمه على أنه رغبة من جانبها فى أن تتبرأ منه على مشهد من بقية الصحاب ، وقد جعله ذلك جد تعس • وأثناء اقامتها فى الاجازة بالمصيف ، سنحت الفرصة لمناقشة هذه المسألة ، واستطاعت السيدة الشابة أن تثبت له أن كلماتها تلك التى أساء فهمها ، كانت على العكس تستهدف حمايته من أن يكون موضع سخرية • وقد جعله ذلك جد سعيد من جديد • وكان أوضح تلميح لهذا الحادث متضمنا فى قهر الفهم ، هذا الذى أنبنى صرحه وكأن المريض يقول لنفسه : « بعد مثل هذه التجربة يتحتم عليك أن لا تسىء فهم أى شخص مرة أخرى ، لو شئت أن تـوفر على نفسك ألما لا داعى له » • وهذا القرار لم يكن فقط مجرد تعميم ابتداء من حدث وحيد ، بل كان أيضا نقل ــ ربما بسبب غياب السيدة الشابة ــ من شخصية وحيدة عالية المكانة عنده الى جميع الاخرين الادنى منها • وقهر الفهم هذا ما كان يمكن أن ينشأ ، ليس غير ، عن الرضا الذى استشعره من التفسير الذى قدمته اليه السيدة الشابة ، فلابد وأن هذا القهر يعبر عن شىء أو آخر بالاضافة الى ذلك، لان مريضنا ينتهى دائما ، فى هذا القهر ، بأن يشك ، فى عدم رضا ، فيما ان كان ما سمعه فى المرة الاولى قد أعيد عليه بشكل صحيح •

والاوامر القهرية الاخرى التى ذكرناها تضعنا على الطريق الى هذا الشىء الآخر • فقهر الحماية عنده لا يمكن أن يكون الا استجابة

— تعبر عن الندم والتكفير — لنقيض هو حفزة عدائية ، استشعرها حتما تجاه سيدته الشابة ، قبل أن توضح له حقيقة المسألة . وقهر الغد عنده أثناء العاصفة الرعدية يمكن فهمه — بالاستعانة ببعض المعطيات التى قدمها — على أنه اجراء دفاعى ضد مخاوف من خطر الموت . وتحليل القهور التى تناولناها فى البداية قد تنبهنا الى أن نعتبر الحفزات العدائية عند مريضنا عنيفة بشكل خاص ، وأنها من قبيل الحنق الارعن ، فها نحن نتبين ، حتى بعد أن أوضحت له السيدة الشابة حقيقة المسألة ، أن حنقه ضد هذه السيدة استمر يسهم فى تكوين قهوره . فقهر الشك عنده ، فيما أن كان قد سمع على نحو صحيح ، هو تعبير عن الشك الذى ما يزال يكمن متربصا فى نفسه ، فيما أن كان قد فهم حقا سيدته الشابة فهما صحيحا ، وفيما أن كان على حق اذ أعتبر كلماتها دليلا على حبها له . فالشك المتضمن فى قهر الفهم عنده هو شك فى حبها له . فهناك صراع بين الحب والكراهية يحتدم فى قلب هذا العاشق ، وموضوع كل من هاتين العاطفتين هو شخص واحد وبعينه . وهذا الصراع قد ترجم عن نفسه فى صورة عيانية فى فعل قهرى عظيم الدلالة فى رمزيته : ابعاده الحجر عن الطريق الذى كانت ستمر به عربتها ، ثم محوه هذا الصنيع العشقى باعادته الحجر الى مكانه الاصلى ، بحيث يمكن أن تتعرض عربتها للاصطدام به وتصاب هى نفسها بأذى . ولن يكون حكمنا صحيحا على هذا الجزء الثانى من الفعل القهرى اذا ما وقفنا فى تقديره عند السطح ، فاعتبرناه مجرد دحض منطقى لفعل مرضى ، وتلك دلالة يود المريض أن يضيفها عليه . فهذا الجزء من الفعل — بالنظر الى أن المريض قد قام به بشكل قهرى — يفضح بذلك كيانه كجزء من هذا الفعل المرضى ، ولكنه يرجع فى تحديده الى دافع مضاد لذلك الدافع الذى يحدد الجزء الاول من الفعل القهرى .

ان الافعال القهرية من هذا القبيل ، فى مرحلتيها المتعاقبتين ، والتى فيها المرحلة الثانية تمحو المرحلة الاولى ، هى ظواهر نمطية فى الاعصبة القهرية . وطبيعى أن يسىء التفكير الشعورى المريض فهم هذه القهور ، فيفسرها بردها الى دوافع ثانوية — أى يلجأ

باختصار الى تعقيلها (١) • ولكن دلالتها الحقيقية تكمن فى كونها تعبيرا عن صراع بين حفزتين متضادتين متساويتين فى "القوة تقريبا : وقد وجدت حتى الآن أن هذا التعارض كان دائما أبدا تعارضا بين الحب والكراهية • والافعال القهرية من هذا القبيل تنطوى على أهمية خاصة من الناحية النظرية ، لانها تكشف لنا عن نمط جديد فى تكوين الاعراض • فالذى يحدث بانتظام فى الهستيريا هو مصالحة يتم الوصول اليها تتيح للنزعتين المتضادتين كليهما فى نفس الوقت أن تترجما عن نفسيهما — مما يتيح ضرب عصفرين بحجر واحد (٢) ، بينما هنا فى العصاب القهرى تترجم كل من النزعتين المتضادتين عن نفسها على نحو منفرد ، احداهما أولا ثم تليها الاخرى ، وان كانت هناك محاولة بالطبع لاقامة نوع من العلاقة المنطقية (غالبا ما تكون مجافية لكل منطق) بين النزعتين المتضادتين (٣) •

---

(١) قارن ارنست جونز فى مقاله (التعقيل فى الحياة اليومية)
Rationalization in Every-day Life, 1908 (J. of Ab. Psy) .

(٢) قارن (الاخاييل الهستيرية فى صلتها بالجنسية الثنائية ، فرويد ١٩١٨) •
Hysterical Phantasies and their Relation to Bisexuality, Col. Papers, Vol. II.

(٣) مريض آخر بالعصاب القهرى حكى لى مرة القصة التالية ، كان يسير ذات يوم فى حديقة شونيرون (بفينا) عندما ارتطمت قدمه بفرع شجرة ملقى على الارض التقطه وقذف به بين الشجيرات التى تمتد على حافة الطريق . وفى طريق عودته الى البيت استبد به فجاة الانزعاج من ان فرع الشجرة فى وضعه الجديد يمكن أن يكون بارزا بعض الشىء فيتسبب فى ايذاء شخص يمر من نفس الطريق من بعده . تحتم عليه أن يقفز من الترام مهرولا الى الحديقة ومتجها الى نفس المكان ، فاعاد فرع الشجرة الى مكانه الاصلى على الارض .

وذلك على الرغم من أن اى شخص آخر غير المريض كان سيجد على العكس ان فرع الشجرة هو بالضرورة اكثر خطرا على المارة فى وضعه الاصلى على الارض منه حيث وضعه بين الشجيرات . والفصل الثانى العدوانى ، الذى قام به بشكل قهرى قد تزيد فى فكره الشعورى بدوافع تنتمى فى الواقع للفعل الاول الانسانى .

ان الصراع بين الحب والكراهية قد ترجم عن نفسه عند مريضنا فى مظاهر أخرى أيضا • ففى الوقت الذى عاودته فيه نزعته الى الورع ، كان من عادته أن يبتدع لنفسه صلوات كانت تستغرق منه وقتا أكثر فأكثر ، حتى بلغت ساعة ونصفا • وكان السبب فى ذلك أنه تبين ، على العكس من بلعام (١) ، أن شيئا ما يندس دائما بين كلماته الورعة فيقلب معناها الى الضد • فلو قال مثلا : « يحفظه الله » فان روحا شريرة تسارع فتدس كلمة « لا » • وفى احدى هذه المناسبات خطرت له الفكرة بأن يتلو لعنات ، اعتقادا منه بأنه فى هذه الحالة لابد وأن تندس الكلمات المضادة • وفى فكرته هذه استطاع مقصده الاصلى ، الذى كانت تكبته صلواته ، أن يشق طريقه • وفى النهاية وجد خلاصه من محنته فى أن يهجر الصلوات واضعا فى مكانها صيغة موجزة ، تتألف من الحروف أو المقاطع الاولى لصلواته المختلفة • وكان يتلو هذه الصيغة على نحو من السرعة بحيث لا يمكن أن يندس فيها شىء •

وحكى لى المريض ذات مرة حلما يترجم عن نفس الصراع فى طرحه على المحلل : حلم المريض أن أمى قد ماتت ، وكان يتوق أن يقدم لى عزاءه ، ولكنه كان يخشى أن ينفجر ، أثناء قيامه بذلك ، فى ضحكة وقحة ، على نحو ما تكرر ذلك منه فى مناسبات مماثلة ماضية • ومن ثم فقد فضل أن يترك لى بطاقته بعد ما يدون عليها حرفى العزاء P.C. ، ولكن الحرفين استحالا أثناء كتابتهما الى حرفى التهنئة P. F. •

كانت الطبيعة المتناقضة لعواطفه تجاه سيدته الشابة من الوضوح بحيث يستحيل عليها أن تفلت تماما من ادراكه الشعورى ، وان يكن لنا أن نستخلص ، من الطابع القهرى لهذه العواطف المتناقضة ، أنه كان يستحيل عليه أن يتبين مدى شدة حفزاته السالبة

(١) (نعرف من العهد القديم ان بلعام كان نافذ الدعاء ، فالذى يباركه مبارك والذى يلعنه ملعون) سفر العدد ٢٢ — (المترجمون) •

ضد هذه السيدة • كانت هذه السيدة الشابة قد رفضت منذ عشر سنوات أول طلب منه للزواج بها • ومنذ ذلك التاريخ تناوبت عليه فيما يعلم فترات : فترات يعتقد أثناءها أنه يحبها بشدة ، وفترات يشعر فيها أنه لا يحفل بها • وفى كل مرة أثناء العلاج تجابهه ضرورة اتخاذ خطوة تقربه من النهاية السعيدة لعلاقته الغرامية ، كانت المقاومة عنده تتخذ فى العادة صورة الاقتناع بأنه فى نهاية الامر لم يعد يحفل بها كثيرا — وان كان من الصحيح أن هذه المقاومة كانت سريعا ما تنهار • وذات مرة عندما كانت السيدة الشابة طريحة الفراش من شدة المرض ، وكان هو أشد ما يكون انشغالا عليها ، خطرت له ، وهو ينظر اليها ، رغبة فى أن ترقد هكذا الى الابد • وقد شرح هذه الفكرة بسفسطة عبقرية : مدعيا بأنه انما تمنى لها أن تظل أبدا مريضة حتى لا يكابد هذا الخوف المروع من أن تقع حبيبته من جديد فريسة للمرض ! (١) • وبين حين وآخر كان من عادته أن يشغل ذهنه بأحلام يقظة ، كان يتعرف عليها هو نفسه بوصفها « أخاييل انتقام »، وكان يستشعر الخجل من ذلك • ومن ذلك أنه ، اعتقادا منه بأن سيدته الشابة تولى أهمية كبيرة للمركز الاجتماعى لرجل يريد الزواج منها ، تكونت لديه الاخيولة التالية : تتزوج هى من موظف كبير ، ويدخل مريضنا فى نفس هذا المجال من العمل مع ذلك الموظف ، ويتقدم مريضنا بأسرع منه كثيرا ، بحيث يصبح ذلك الموظف تحت رئاسته • وذات يوم يرتكب ذلك الموظف فعلة تتنافى مع الامانة ، فتأتى زوجته وترتمى عند أقدام مريضنا وتتوسل اليه أن ينقذ لها زوجها • فيعدها بذلك ، ولكنه يكشف لها عن أنه لم يلتحق بهذا العمل الا بدافع حبه لها ، وتوقعا منه لمثل ما حدث • أما الآن ، وقد أنقذ لها زوجها ، فقد انتهت رسالته ، فيقدم استقالته •

وقد تكونت لديه أخاييل أخرى كان يسدى فيها خدمات كبيرة

---

(١) ليس من شك فى أن دافعا آخر قد أسهم فى نشأة هذه الفكرة التهرية : هو رغبته فى أن يراها عاجزة عن الدفاع أمام رغباته •

لسيدته الشابة دون أن تدرى هى أنها قد صدرت عنه . فى هذه الأحابيل لم يتعرف الا على جبه ، دون أن يتبين بدرجة كافية أصـل أريحيته هذه ، وما يستهدفه من كبت تعطشه للانتقام ، على طريقة الكونت دى مونت كريستو عند ديماس . ومع ذلك فقد اعترف بأنه احيانا ما كانت تستبد به حفزات جد واضحة الى أن ينزل الضرر بالسيدة التى يحبها .

(و) السبب المباشر للمرض

وذات يوم حكى لى المريض ، بشكل عرضى ، حادثة ، استطعت أن أتبين فيها على الفور السبب المباشر لمرضه ، أو على الاقل السبب المباشر الحديث لهذه النوبة التى تفجرت منذ ست سنوات ، والتى ما تزال مستمرة حتى اليوم . لم يكن هو نفسه على وعى بأنه أدلى بشىء ذى أهمية ، وهو لا يستطيع أن يتذكر أنه قد أولى يوما هـذه الحادثة أى اهتمام ، هذا الى أنه لم ينس الحادثة قط . مثل هـذا الاتجاه من جانبه يتطلب ايضاحا نظريا .

فى الهستيريا ، القاعدة هى أن الاسباب المباشرة الحديثة للمرض يجتاحها النسيان (الامنيزيا) بقدر ما يجتاح التجارب الطفلية التى بفضلها تتمكن الاسباب المباشرة الحديثة من تحيل طاقتها الوجدانية الى أعراض . وحيث لا يستطيع النسيان أن يكون مكتملا ، فانـه يفرض على السبب المباشر الحديث الصدمى عملية تآكل فيسلبه على الاقل أهم عناصره المكونة . فى مثل هذا النسيان نتبين الدليل عـلى الكبت الذى حدث . ولكن الامر مختلف فى الاعصبة القهرية . فالاصول الطفلية يمكن أن يكون قد اجتاحها النسيان ، وان يكن هذا النسـيان فى الغالب غير مكتمل ؛ أما الاسباب المباشرة الحديثة للمرض فهى عـلى العكس من ذلك تظل باقية فى الذاكرة . فالكبت هنا يستخدم ميكانيزما آخر (١) ، هو فى الواقع أبسط : فالسبب المباشر (الصدمة) ، بدلا

(١) يعرف الآن باسم ميكانيزم العزل فى الانجليزية والفرنسـية isolation (المترجمون) .

من أن يعانى النسيان ، يتجرد من شحنته الانفعالية ، بحيث أن ما يبقى منه فى الشعور لا يزيد عن المضمون الفكرى مجردا تماما عن كل لون ، فيبدو لصاحبه عديم الاهمية • والاختلاف بين ما يحدث فى الهستيريا وما يحدث فى العصاب القهرى ، أى بين هذين النوعين من الكبت ينحصر فى العملية النفسية التى بوسعنا أن نعيد بناءها وراء الظاهرة ، والنتيجة هى دائما على وجه التقريب واحدة فى الحالتين ، لان المضمون الفكرى العديم اللون نادرا ما يلتفت اليه المريض • فهو لا يلعب أى دور فى حياته النفسية الشعورية •

وكيما نميز بين هذين النوعين من الكبت ليس لدينا فى السطح ما يمكن التعويل عليه ، اللهم الا توكيد المريض بأنه يشعر فى حالة (العصاب القهرى) بأنه كان دائما يعرف الحادثة ، وأنه يشعر فى الحالة الاخرى (الهستيريا) بأنه قد نسى الحادثة منذ زمن بعيد (١)•

ذلك هو السبب فيما يحدث كثيرا من أن العصابيين القريبين ، الذين يعانون التأنيبات الذاتية ، والذين ربطوا وجداناتهم هذه بأسباب زائفة ، يذكرون للمحلل فى نفس الوقت الاسباب الحقيقية لتأنيباتهم الذاتية ، دون أن يتجه ظنهم قط ان هذه التأنيبات قد انفصلت ببساطة عن تلك الاسباب الحقيقية • وهم حين يذكرون مثل هذه الحادثة ، التى هى السبب الحقيقى لتأنيباتهم الذاتية ، فانهم أحيانا ما يضيفون فى دهشة ، أو حتى فى كبرياء « ذلك ما لا يحرك

---

(١) وعليه ينبغى التسليم بأنه فى حالة العصاب القهرى يوجد نوعان من المعرفة ، فمن المنطقى بنفس الدرجة أن نقول ان المريض « يعرف » صدماته ، أو أن نقول بأنه لا يعرفها . فهو يعرفها من حيث أنه لم ينسها ، وهو لا يعرفها من حيث أنه على غير وعى بدلالتها ، وغالبا ما يكون الامر كذلك فى الحياة العادية . فالخدم الذين كان من عادتهم أن يخدموا شوبنهور فى مطعمه المألوف كانوا « يعرفونه » بمعنى ما ، وذلك فى وقت لم يكن فيه عدا ذلك معروفا فى فرانكفورت أو فى خارجها ، ولكنهم لم يكونوا يعرفونه بالمعنى الذى نعنيه حين نتحدث اليوم عن شوبنهور .

عندي ساكنا » • كان ذلك هو ما حدث في الحالة الأولى من العصاب القهرى التى أتاحت لى ، منذ سنوات عديدة ، أن أفهم طبيعة هـذا المرض • كان المريض ، وهو موظف حكومى ، يعانى من وسوسات لا حصر لها • كان هو نفس الرجل الذى سبق أن وصفت فعله القهرى المنصب على فرع الشجرة فى حديقة شوتبرون • لفت انتباهى أن أوراق العملة التى كان يدفعها لى أجرا للجلسات كانت دائما أبـدا نظيفة ولامعة (كان ذلك قبل أن تظهر العملة الفضية عندنا فى النمسا)• وأشرت اليه ذات مرة بأن المرء يستطيع دائما أن يتعرف على موظف الحكومة بأوراق العملة الجديدة التى يتسلمها من خزانة الـدولة ، وعندئذ اخبرنى بأن أوراق العملة التى يقدمها لى ليست جـديدة بحال ، ولكنه كان « يكويها » فى منزله • وقال موضحا بأنها كانت عنده مسألة ضمير أن لا يقدم لاحد أوراق عملة قذرة ، لانها تأوى كل أنواع الميكروبات الخطرة ، ويمكن أن تسبب ضررا للذى يتسلمها• فى ذلك الوقت لم تكن لدى الا فكرة غائمة عن العلاقة بين الاعصبة والحياة الجنسية ، ومن هنا اجترأت فى مناسبة أخرى أن أسأل المريض عن موقفه من تلك المسألة • أجابنى فى مرح : « هذا على ما يـرام تماما • فانى لا أعانى على الاطلاق أى حرمان فى هذا المجال • ذلك أنى ألعب دور العم العزيز فى عدد من الاسر الراقية ، وبين حين وآخر استغل وضعى هذا لادعو شابة صغيرة لتخرج معى لقضاء يوم من النزهة فى الريف • وبعد ذلك أرتب الامر بحيث يفوتنا القطار الاخير للعودة ، فنكون مضطرين لقضاء الليل بعيدا عن المدينة • وأستأجر دائما غرفتين — اذ أنى أتصرف بسخاء • وعندما تكون الفتـاة فى فراشها أذهب اليها ، واستمنيها بأصابعى » • — « ولكن ألا تخشى أن يصيبها بأذى وأنت تعبث بيدك القذرة فى عضوها ؟ » — عند ذلك تنجر غاضبا : « أذى ؟ كيف يمكن أن يصيبها ذلك بأذى ؟ لم يسبب ذلك حتى الآن أى أذى لاية واحدة منهن ، وكن كلهن يستمتعن بذلك ! وبعضهن قد تزوجن الآن ، ولم يسـبب ذلك لهـن أى أذى على الاطلاق ! » — فهم اعتراضى بشكل جد سىء ، فلم يعد قط بعد ذلك • وليس فى وسعى أن أفسر التعارض بين تزمته فى أوراق العملة ولا

مبالاته فى استغلال الشابات الصغيرات اللاتى كان يؤتمن عليهن ، الا بأن افترض بأن وجدان التأنيب الذاتى قد عانى نقلا . كان الهدف من هذا النقل واضحا بدرجة كافية : فلو كان لتأنيباته الذاتية أن تبقى حيث يجب أن تكون ، لكان يتحتم عليه أن يتخلى عن شكل من أشكال الاشباع الجنسى الذى ربما كان مرغما عليه بفعل بعض المحددات الطفلية القوية . وعليه ، فالنقل قد ضمن له حصوله على ميزة هائلة من مرضه (الكسب الأولى) .

ولكن ينبغى الآن أن أعود الى السبب المباشر للمرض عند مريضنا بدراسة تفصيلية أمعن . نشأت أمه فى أحضان أسرة ثرية من أقاربها البعيدين . وكانت تلك الاسرة من أصحاب المصانع الكبيرة . وكان أبوه على أثر زواجه من أمه قد عمل فى مصانع هذه الاسرة ، بحيث أنه لم يبلغ الى ما بلغ اليه من ثراء عريض الا بفضل زواجه . ومن خلال المداعبات التى كان يتبادلها الزوجان ، اللذان كانا يعيشان معا فى تفاهم تام ، عرف مريضنا أن أباه كان ، قبل أن يتعرف على أمه ، قد تقدم الى فتاة جميلة ، لكنها معدمة من أسرة متواضعة . وحسبنا ذلك تمهيدا للموضوع . وبعد أن مات الاب قالت الام لمريضنا ذات يوم بأنها كانت تبحث أمر مستقبله مع أقاربها الأثرياء، وأن واحدا من أبناء عمومتها أعلن عن استعداده لان يزوجه من احدى بناته عندما يفرغ من تعليمه ، وكان من شأن علاقات العمل مع مصانع تلك الاسرة الثرية أن تهيىء له مستقبلا باهرا فى حياته المهنية . هذه الخطة من جانب أسرته أثارت عنده هذا الصراع : أيبقى مخلصا للسيدة الشابة التى يحبها على الرغم من فقرها ، أم يتبع مثال أبيه فيتزوج من الفتاة اللطيفة الثرية العريقة التى اختارتها الاسرة له ؟ وقد فض مريضنا هذا الصراع ، الذى كان فى الواقع صراعا بين حبه والتأثير العنيد لرغبات أبيه ، بأن وقع مريضا ، أو بتعبير أكثر صحة ، أنه بوقوعه فى المرض قد أفلت من مهمة فض هذا الصراع فى الحياة الواقعية (١) .

---

(١) يجدر بنا أن ننبه الى أن هروبه فى المرض قد أصبح ممكنا =

والدليل علي صحة هذا الرأي ينحصر فى أن النتيجة الاساسية لمرضه هى عجز عنيد عن العمل ، الامر الذى مكنه من أن يؤجل لسنوات الانتهاء من تعليمه ولكن نتائج مثل هذا المرض لا يمكن بحال أن تكون غير مقصودة ، فان ما يبدو نتيجة تترتب على المرض هو فى الواقـــع السبب أو الدافع الى الوقوع فى المرض ٠

وكما كان متوقعا ، فان المريض فى البداية لم يتقبل ايضاحى للمسألة ٠ قال بأنه لا يستطيع أن يتصور أن خطة الاسرة لزواجه يمكن أن تتمخض عن مثل هذا الاثر : فتلك الخطة لم تثر عنده أدنى اهتمام فى ذلك الوقت ٠ ولكنه فى المسار اللاحق للعلاج تحتم عليه أن يتأدى الى الاعتقاد بصحة افتراضى ، وذلك بطريقة فريدة الى أقصى حد ٠ فبفضل أخيولة تحويل عاش المريض ، بحسبانها جديدة وحالية ، نفس تلك الوقائع من الماضى التى كان قد نسيها ، أو التى لم تخطر بذهنه الا على نحو لا شعورى ٠ فقد جاءت فترة فى العلاج عسيرة وغامضة ، وفى النهاية تكشفت عن أن مريضنا كان قد ألتقى مرة بفتاة شابة على الدرج بمنزلى ، ظن فى التو أنها ابنتى ٠ وفى نفس الوقت رفع بخياله من ثروة أسرتى ومكانتها الى المستوى الذى يتفق مع الانموذج الذى فى ذهنه ٠ ولكن حبه الـــذى لا يتزعزع لسيدته الشابة كان يناضل فى نفسه ضد هذه الغواية ٠ وبعد ما اجتزنا سلسلة من أعتى المقاومات وأمر الشتائم من جانبه ، لم يعد بوسعه بعد ذلك أن يستمر فى الافلات من التأثير المقنع لهذا التماثل المكتمل بين أخابيل التحويل وواقع حياته فى الماضى ٠ وسأورد هنا واحـــدا من الاحلام التى رآها فى تلك الفترة ، كيما أقدم مثالا لطريقته فى تناول المسألة : رأى فى الحلم ابنتى تقف أمامه بقطعتين من الروث فى مكان عينيها ٠ وما من أحد يفهم لغة الاحلام يجد صعوبة كبيرة فى

= بالنسبة اليه بفضل توحده بأبيه ، فهذا التوحد قد مكن وجداناته من النكوص الى متخلفات طفولته ٠

ترجمة هذا الحلم : فالحلم يعلن أنه كان يتزوج ابنتى لا من أجل عينيها الجميلتين بل من أجل ثروتها •

(ز) عقدة الأب وتصفية قهر الفيران

ثمة خيط يربط ما بين السبب المباشر لمرض مريضنا فى سنوات الرشد وبين طفولته • فقد وجد نفسه (فى الرشد) فى موقف شبيه بالموقف الذى كان يعلم أو يعتقد أن أباه قد عاشه قبل زواجه • وبذلك أصبح بوسعه أن يوحد نفسه بأبيه ولكن أباه المتوفى كان من ناحية أخرى أيضا يلعب دورا فى نوبة مرضه الحالى • فالصراع ، الذى هو أساس مرضه ، كان فى صميمه نضالا بين التأثير العنيد لرغبات أبيه وبين تفضيلاته العشقية الخاصة • فلو وضعنا فى اعتبارنا ما أدلى به المريض أثناء الجلسات الاولى من علاجه ، تحتم علينا أن نفترض أن صراعه كان صراعا جد قديم ، وأنه نشأ فى وقت قديم قدم طفولته •

فبحسب كل المعلومات ، كان أبو مريضنا رجلا جد ممتاز • كان قبل زواجه صف ضابط • وكمتخلفات لتلك الفترة من حياته ، احتفظ بصرامة عسكرية الطابع ، وبميل الى استخدام اللغة الفاحشة • وبالاضافة الى تلك الفضائل التى نحفرها عادة على كل قبر ، كان يتميز بروح الفكاهة الودية وبتسامح عطوف تجاه أقرانه • أما أنه كان أحيانا متهورا وعنيفا فذلك بالتأكيد ما لا يتنافى مع بقية خصاله ، بل هو بالحرى نتمة ضرورية لها • ولكن ذلك قد عرض أطفاله لاشد العقوبات قسوة ، حين كانت تغلب عليهم « الشقاوة » فى صغرهم • وعلى أى حال ، فعندما كبروا ، كان الأب يتميز عن غيره من الآباء بأنه لم يحاول أن يفرض نفسه عليهم كسلطة قدسية ، بل بأنه كان يشركهم فى معرفة ما يعانيه هو فى حياته من اخفاقات وتعاسات صغيرة ، وذلك فى صراحة طيبة • كان ابنه بالتأكيد بعيدا عن المغالاة عندما أعلن أنهما كانا يعيشان معا كأعز صديقين ، اللهم الا فى نقطة واحدة (انظر ص ٣٨٩)•

ولابد أنه كان بسبب هذه النقطة ذاتها أن الأفكار حول موت أبيه قد شغلت ذهنه حين كان صبيا صغيرا وذلك بدرجة من الشدة مسرفة وغير مألوفة (ص ٣٦٩) ، وكان بسبب تلك النقطة أيضا أن تلك الافكار قد تبدت فى المضمون اللفظى لقهوره الطفلية ، ولم يكن من الممكن الا بسبب هذه النقطة ذاتها أنه استطاع أن يتمنى موت أبيه ، حتى يتمكن من اثارة تعاطف فتاة صغيرة بعينها بحيث تغدو أكثر لطفا معه (أنظر ص ٣٨١) •

لم يكن ثمة شك فى وجود شىء فى مجال الجنسية يقف بين الأب وابنه ، وفى أن الأب قد وقف موقف المعارضة من الحياة الشبقية الباكرة الازدهار عند الابن وعندما عاش للمرة الاولى الاحاسيس اللاذة للجماع، بعد موت أبيه بسنوات ، قفزت فكرة الى رأسه : « ولكن هذا رائع ! ان المرء ليقتل أباه من أجل ذلك ! » كان ذلك فى نفس الوقت صدى وتفسيرا للافكار القهرية فى طفولته • هذا الى أن أباه ، قبل موته بقليل ، عارض بشكل مباشر فى هذا الذى أصبح فيما بعد العاطفة المشبوبة التى تهيمن على مريضنا • كان قد لاحظ أن ابنه يسعى دائما الى صحبة السيدة الشابة ، فنصحه أن يبتعد عنها ، قائلا له ان ذلك تهور ولن يجلب عليه الا السخرية •

الى هذه المعطيات الجديدة تماما نستطيع أن نضيف مادة جديدة، اذا ما اتجهنا الى تاريخ الجانب الاستمنائى من الانشطة الجنسية لمريضنا • وفى مسألة الاستمناء يوجد تناقض بين آراء الاطباء وآراء المرضى ، وهو تناقض لم يلق حتى الآن حظه من الدراسة • فالمرضى يتفقون جميعا فى اعتقادهم بأن الاستمناء ، ويقصدون به الاستمناء أثناء مرحلة البلوغ ، هو أصل ومصدر كل اضطراباتهم • أما الاطباء فهم على وجه الجملة ، لا يعرفون ما ينبغى أن يكون عليه رأيهم ، ولكنهم، استنادا الى ما يعرفونه من أنه ليس العصابيون وحدهم بل معظم الاسوياء أيضا يمرون بفترة من الاستمناء أثناء مرحلة بلوغهم ، يميل أغلبهم الى رفض توكيدات المرضى بحسبانها مبالغات مسرفة • وفى رأيى أن المرضى هم من جديد أدنى الى الصواب من الاطباء ، وذلك لان

المرضى لديهم ضرب من حدس الحقيقة ، بينما يتعرض الاطباء لخطر اغفال حقيقة هامة • ان الرأى الذى يقرره المرضى هو بالتأكيد غير مساير للوقائع ، وذلك بالمعنى الذى يقصدون اليه وهو على التحديد أن الاستمناء أثناء مرحلة البلوغ (وهو الذى يمكن اعتباره دائمـا تقريبا ظاهرة نمطية) مسئول عن كل الاضطرابات العصابية • فرأيهم يتطلب تأويلا • ان استمناء البلوغ ليس فى الواقع ألا انبعـاث لاستمناء الطفولة ، هذا الذى لم يحظ حتى الآن بأية دراسة ، ان الاستمناء الطفلى ، كقاعدة عامة ، يبلغ ذروته ما بين الثالثة والرابعة أو الخامسة ، وهو أوضح تعبير عن الجبلة الجنسية للطفل ، هـذه التى ينبغى التفتيش فيها عن الاسباب المولدة للاعصبة اللاحقة • وعليه فان المرضى بهذه الطريقة المتنكرة يلقون بمسئولية مرضهم على جنسيتهم الطفلية ، وهم فى ذلك على حق تماما • ومن ناحية أخرى فان مشكلة الاستمناء تصبح مستحيلة على الفهم اذا ما حاولنا تناولها كوحدة اكلينيكية قائمة بذاتها متناسين أن الاستمناء يمكن أن يمثـل افراغا لكل حفزة من تشكيلة الحفزات الجزائية المكونة للجنسية ولكل ضرب من الاخاييل التى تولدها مثل هذه الحفـزات • ان التأثيرات الضارة للاستمناء ليست الا بدرجة ضئيلة جدا مستقلة بذاتها — أى راجعة فى تحديدها الى طبيعة الاستمناء ذاتها • فهـذه التأثيرات فى جوهرها ليست غير جزء لا يتجزأ مما للحياة الجنسية ككل من دلالـة فى توليد المرض • وكون كثرة كثيرة من الناس تقتدر على تحمل الاستمناء أى تحمل قدر معين منه — دون أن ينالهم ضرر ، فذلك ما يكشف ببساطة عن أن جبلتهم الجنسية ، وعن أن مسار التطور الذى سلكته حياتهم الجنسية ، كانا على نحو بحيث يمكنهم من ممارسة الوظيفـة الجنسية ضمن الحدود التى تبيحها الثقافة [1] بينما أناس آخرون ، جبلتهم الجنسية ليست مواتية الى هذا الحد ، أو مسار التطـور الذى سلكته حياتهم الجنسية قد تعرض للاضطراب ، يقعون مرضى بسبب جنسيتهم ، أى أنهم لا يستطيعون انجاز ما هو ضرورى من

---

(١) فرويد ، ثلاث مقالات فى نظرية الجنس ، ١٩٠٥ .

كبح أو اعلاء لحفزاتهم الجنسية الجزئيـة ، دون أن يلجأوا الى الكفوف أو التكوينات البديلة •

كان سلوك مريضنا فيما يتصل بالاستمناء أعظم ما يكون استلفاتا للانتباه • فهو لم يمارسه أثناء مرحلة البلوغ بأى قدر يستحق الذكر ، وعليه ، كان له أن يتوقع ، بحسب بعض الآراء ، أن يكون بريئا من العصاب • ولكن من ناحية أخرى ، اعترته اندفاعة الى ممارسة الاستمناء فى عامة الحادى والعشرين ، بعد موت أبيه بقليل• كان يشعر بالخزى الشديد من نفسه فى كل مرة يسمح فيها لنفسه بهذا النوع من الاشباع ، وسرعان ما تخلى عن هذه العادة ومنذ ذلك الوقت فصاعدا لم يعاود الاستمناء الظهور عنده الا فى مناسبات نادرة ، وجد خاصة • قال لى بأن رغبته فى الاستمناء كانت تستثار حين يعيش لحظات ، أو يقرأ فقرات ، تكون جميلة بنوع خاص • حدث ذلك على سبيل المثال ذات مرة عصر يوم جميل من أيام الصيف ، عندما سمع فى وسط فينا حوذيا ينفخ فى بوقه على أجمل نحو ممكن ، حتى أوقفه عن ذلك شرطى ، لان النفخ فى الابواق غير مسموح به فى وسط المدينة • وحدث ذلك مرة أخرى عندما قرأ فى « الحقيقة والاسطورة » (١) كيف أن جوته الشاب حرر نفسه فى غمرة حنان من آثار لعنة ألقتها عاشقة غيورة على أول امرأة من بعدها تقبل شفتيه كان من جراء هذه اللعنة قد عانى الحرمان أمدا طويلا ، بهذا التأثير الوهمى ، ولكنه الآن قد كسر قيوده ، فراح يقبل حبيبته طربا مرات ومرات •

ولم يكن مريضنا قليل الاندهاش من أن تنتابه هذه الاندفاعة الى الاستمناء وعلى التحديد فى لحظات بهذا الجمال وهذا الجلال فلم يسعنى الا أن أنبهه الى أن هاتين المناسبتين تلتقيان فى سمة مشتركة — التحريم ، ثم التصرف على نحو مضاد للنهى •

---

(١) Goete, Dichtung und Wabrheit.

وينبغى أيضا فى هذا الصدد أن نتفحص سلوكه الغريب فى وقت كان فيه يستعد للامتحان ، ويتلهى بأخيولته المحببة من أن أباه ما يزال حيا ، ويمكن أن يظهر فى أية لحظة . كان من عادته أن يرتب الامر بحيث تأتى ساعات عمله متأخرة ما أمكن فى الليل . وبين منتصف الليل والواحدة صباحا كان يتوقف عن العمل ليفتح الباب الخارجى للشقة كما لو كان أبوه يقف وراء الباب ، ثم يعود الى الردهة ، يخرج قضيبه ويتأمله فى المرآة . هذا التصرف الغريب يغدو متاحا للفهم اذا ما افترضنا أنه يتصرف كما لو كان يتوقع زيارة من أبيه فى الوقت الذى تخرج فيه الاشباح . كان على وجه الجملة متكاسلا فى مذاكرته أثناء حياة أبيه ، وكان ذلك فى الغالب مبعث ضيق لابيه . أما الآن ، والأب يعود شبحا ، فعليه أن يستشعر السرور اذ يجد ابنه منكبا على المذاكرة . ولكن كان مستحيلا على أبيه أن يستشعر السرور من الجزء الاخير من تصرفه ، ففى هذاالجزء لابد وان المريض كان يتحدى أباه وهكذا عبر المريض فى فعل قهرى واحد ، غير متاح للفهم ، عن كلا الجانبين من علاقته بأبيه ، تماما كما تصرف فيما بعد ازاء سيدته الشابة من خلال فعله القهرى المنصب على الحجر الملقى فى الطريق .

واستنادا الى هذه البيانات ، والى معطيات أخرى مماثلة ، اجترأت على أن أفصح له عن تصورى من أنه قد ارتكب ، وهو طفل دون السادسة ، سيئة من طبيعة جنسية ترتبط بالاستمناء ، وأنه عوقب عليها عقابا صارما من أبيه . وهذه العقوبة ، بحسب افتراضى ، قد وضعت حدا ، وهذا صحيح ، لاستمنائه ، ولكنها من ناحية أخرى خلفت وراءها حقدا لا ينمحى ضد أبيه ، وعمدت الأب بصفة دائمة فىدور المعكر لصفو الاستمتاع الجنسى عند المريض (١) . وما كانت أشد دهشتى عندما أخبرنى المريض بأنه قد سمع من أمه ، فى مناسبات عديدة ، حادثة من هذا القبيل ، ترجع الى أبكر طفولته ، ومن الواضح أن هذه الحادثة قد أفلتت من النسيان عند الام بسبب ما ترتب عليها

---

(١) قارن افتراضاتى من هذا القبيل فى احدى الجلسات الاولى. ص ٣٦٩ .

من نتائج هامة . أما هو نفسه فلا يذكر منها شيئا على الاطلاق . كانت القصة كما يلى : عندما كان جد صغير — كان من الممكن تحديد التاريخ بصورة أدق نظرا لحدوثها فى نفس الوقت الذى مرضت فيه أخت كبرى له مرض الموت — ارتكب شيئا مشينا ، ضربه من أجله أبوه . وتفجر الصبى الصغير فى ثورة شنيعة من الغضب ، وانهال بالشتائم على أبيه حتى وهو تحت ضرباته . ولكن نظرا لانه كان يجهل لغة الشتائم ، فقد شتم أباه بأسماء كل الاشياء المألوفة التى خطرت بذهنه ، فكان يصرخ : « أنت يالمبة ! أنت يا طبق ! » وهكذا . أما الاب ، وقد صدمه هذا التفجر من الغضب العاصف ، فانه توقف عن ضربه ، معلنا : « هذا الطفل اما أن يصبح رجلا عظيما أو مجرما خطرا ! » (٢) . ويعتقد المريض أن هذا المشهد قد خلف عنده ، كما خلف عند أبيه ، أثرا دائما . فقد قال ان أباه لم يعد مرة أخرى الى ضربه ، كما أنه ينسب الى هذه التجربة جانبا من التغير الذى طرأ على شخصيته . فمنذ ذلك الحين فصاعدا غدا جبانا — وذلك خوفا من عنف الغضب عنده . أضف الى ذلك أنه طوال حياته كلها كان يرتعب خوفا من الضرب . كان من عادته أن يتسلل بعيدا ويختبىء ، يملؤه الرعب والاستهجان ، عندما كان واحد من أشقائه أو شقيقاته ينضرب .

عاد المريض بعد ذلك فسأل أمه من جديد . أكدت له القصة ، وأضافت أنه كان فى ذلك الوقت بين الثالثة والرابعة من عمره ، وأن العقوبة قد نزلت به لانه كان قد عض أحدا ما . ولم يكن بوسع الأم أن تذكر من التفصيلات ما يزيد على ذلك ، اللهم الا فكرة أبعد ما يمكن عن أن تكون أكيدة ، وهى أن هذا الشخص الذى عضه الصبى

---

(٢) هذان الاحتمالان لا يستنفذان كل الامكانيات المحتملة . فقد نسى أبوه اكثر نتاجات هذه التفجرات السابقة لاوانها شيوعا — وهو العصاب .

الصغير ربما كان مربيته . ولم تنطو رواية الأم على أية أشارة للطبيعة الجنسية لهذه الفعلة السيئة (١) .

---

(١) كثيرا ما نلتقى فى التحليل النفسى بأحداث من هذا القبيل ، ترجع بتاريخها الى أبكر السنوات من طفولة المريض ، هذه التى فيها ، على ما يبدو ، يبلغ النشاط الجنسى الطفلى ذروته ، وينتهى غالبا الى نهاية كارثية بسبب صدفة تعسة أو عقوبة ، مثل هذه الاحداث يمكن أن تظهر بشكل غائم فى الاحلام . ولكنها غالبا ما تكون من الوضوح بحيث يعتقد المحلل أنه قد أحكم الامساك بها ، ومع ذلك فانها تروغ من أى استجلاء حاسم . وما لم يمض المحلل بأقصى براعة وحذر فقد يجد نفسه مضطرا الى أن يتركها دون أن يبت فيما ان كان المشهد المعنى قد جرى فى الواقع أم لا . ومما قد يعيننا على اتخاذ الطريق الصحيح فى تفسيرنا لهذا المشهد، أن نتبين أن اكثر من صياغة للمشهد (غالبا ما تختلف كل منها عن الاخريات اختلافا كبيرا) يمكن استخلاصها من أخاييل المريض اللاشعورية. واذا أردنا أن لا نضل فى حكمنا على الواقعية التاريخية لتلك الاحداث فينبغى قبل كل شىء أن نضع نصب أعيننا أن « ذكريات الطفولة عند الناس لا تتثبت الا فى مرحلة لاحقة ، عادة ما تكون فى سن البلوغ ، وأن هذا ينطوى على عملية معقدة من اعادة الصياغة ، تشبه من كل وجه تلك العملية التى تصوغ بها الشعوب الاساطير عن تاريخها الباكر ». وعندئذ يغدو للتو واضحا أن الفرد ، فى أخاييله عن طفولته ، يحاول ، ما تقدم به النمو ، أن يمحو ذكرى انشطته الشبقية الذاتية . وهو يبلغ الى ذلك بأن يرفع آثار ذكرياته الخاصة بها الى مستوى حب الموضوع ، تماما كما يفعل المؤرخ فى الواقع حين ينظر الى الماضى فى ضوء الحاضر . وفى ذلك ما يفسر العلة فى أن هذه الاخاييل تزخر بالغوايات والاغتصابات، بينما تكون الوقائع قاصرة على الانشطة الشبقية الذاتية ، والترتيبات أو العقوبات التى أثارتها . هذا الى أنه يغدو واضحا أن الفرد فى نسجه الاخاييل عن طفولته يشبق ذكرياته (يصبغها بالجنسية) ، بمعنى أنه يعقد صلة بين الوقائع العادية ونشاطه الجنسى ، فيبسط اهتمامه الجنسى عليها — وان كان وهو ، يفعل ذلك ربما يتبع آثار صلة قائمة بالفعل . وما من أحد يذكر مقالى « تحليل فوبيا عند صبى فى الخامسة » (وهو المقال الثانى من هذا المجلد) هو بحاجة لان يقال له بأن ليس من قصدى =

أما وقد ناقشت فى الهامش قيمة هذا المشهد الطفلى فحسبى أن انبه هنا الى أن ظهور ذكرى هذا المشهد قد زعزع عند المريض للمرة الاولى رفضه أن يصدق بأنه فى وقت جد باكر من طفولته قد استولى

=

فى هذه الملاحظات ان انتقص من الاهمية التى أضفيتها حتى الآن على الجنسية الطفلية بحيث لا تكون اكثر من اهتمام جنسى فى سن البلوغ . كل ما أريده هو أن اقدم بضع نصائح عن الفنيات التى يمكن أن تعين على ايضاح صنف من الاخاييل التى تستهدف تزييف لوحة نشاط الجنسية الطفلية .

ونادرا ما يسعدنا الحظ بحيث نقتدر ، كما فى المثال الحالى ، على التحقق من الوقائع التى تستند اليها هذه الاخاييل المنسوجة عن الطفولة الباكرة ، وذلك بالرجوع الى شهادة لا يرقى اليهـا الشـك من جانب راشد . وحتى فى هذه الحالة فان الشهادة التى ادلت بها أم مريضنا تترك الطريق مفتوحا أمام احتمالات متنوعة . فكونها لم تقرر الطبيعة الجنسية للفعلة السيئة التى عوقب عليها الطفل ربما كان مرجعه نشاط الرقيب عندها ، اذ انه عند جميع الآباء يكـون ذلك العنصر الجنسى من ماضى أطفالهم هو على التحديد الذى يتوق الرقيب — اكثر ما يتوق — الى حذفه وبنفس الدرجة من الاحتمال ربما يكون الطفل قد لقى التأنيب من جانب مربيته أو أمه نفسها بسبب « شقاوة » عادية من طبيعة غير جنسية ، وتكون استجابة الصبى كانت من العنف بحيث استدعت عقابه من جانب أبيه . وفى الاخاييل من هذا النوع عادة ما يحل محل المربيات والخادمات الشخصية الاكثر امتيازا وهى الام . وقد كشف التفسير الاكثر عمقـا لاحلام المريض المتصلة بهذه الحادثة عن أوضح العلامات الدالة عـلى وجود نتاج أخيولى فى ذهنه من طبيعة بطولية بارزة . وفى هذا النتـاج الاخيولى كانت رغباته الجنسية تجاه أمه وأخته ، وكذلك الموت الباكـر لهذه الاخت ، ترتبط بالعقوبة التى عاناها البطل الصغير على يدى ابيه . لقد كان من المستحيل على أن افكك هذا الرداء من النسيج الاخيولى خيطا خيطا ، فنجاح العلاج هو على التحديد ما حال بينى وبين ذلك . شـفى المريض وبدأت حياته العادية تفرض مطالبها : كانت تنتظره مهام كثيرة طال عهده باغفالها ، ولم يكن ذلك يتفق واستمرار العلاج . ومن هنـا فليس لى أن الام على هذه الثغرة فى التحليل . فالنتائج العلمية للتحليـل

=

عليه الحقد (الذى غدا فيما بعد كامنا) ضد أبيه ، هذا الذى كان المريض يحبه كثيرا • وينبغى أن أعترف بأننى كنت أتوقع أن يكـون لظهوره أثر أكبر ، اذ أن الحادثة كثيرا ما حكيت له — حتى من جانب أبيه نفسه — بحيث يستحيل أن يكون هناك أى شك فى واقعيتهـا الموضوعية • ولكن بهذه القدرة على تزييف المنطق ، والتى تثير دائما الحيرة بوجودها عند أناس بمثل هذا الذكاء الفـائق كالعصـابيين القهريين ، مضى يعارض القيمة التدليلية لهذه القصة استنادا الى أنه هو نفسه لا يستطيع أن يذكر المشهد • ومن هنا لم يكن الا من خلال الطريقة الاليمة للتحويل أن استطاع البلوغ الى اقتناع بأن علاقته بأبيه كانت تستلزم بالضرورة افتراض هذه التتمة اللاشـعورية • فسرعان ما وصلت الامور الى نقطة بدأ فيها ، فى أحلامه وأخاييل

=

النفسى ليست فى الوقت الحاضر غير نتاج جانبى لاهدافه العلاجيـة ، ومن اجل ذلك فغالبا ما تتحقق معظم الكشوف على التحديد فى تلك الحالات التى يفشل فيها التحليل .

ان مضمون الحياة الجنسية فى الطفولة ينحصر فى النشـاط الشبقى الذاتى من جانب الحفزات الجنسية الجـزئية المهيمنة ، وفى آثـار حب الموضوع ، وفى صياغة تلك العقدة التى يجدر تسميتها العقدة النـواة للاعصبة . وهذه العقدة هى التى تشتمل على أبكر الوجدانات ، حبـا وكراهة على السـواء ، تجاه الابوين والاخوة والاخـوات ، وذلك عـلى الاغلب بعد ان تكون اسـتطلاعية الطفل قد استيقظت فى العادة بميلاد أخ أو أخت . ان وحدانية الشـكل التى تميز مضمون الجنسية الطفلية (أى النزعات المتضمنة فى العقدة) ، بالاضافة الى الطابع الثابت للنزعـات المضطلعة بالتعديل والتى تظهر فيما بعد متصدية لنزعات الجنسية الطفلية تلك ، بوسعهما فى يسر ان يفسـرا التماثل الثابت الذى يخصص — كقاعدة عـامة — الاخاييل التى نصاغ عن مرحلة الطفولة ، وذلك بصرف النظـر عن عظم او ضآلة ما اسهمت به التجارب الواقعية فى اقامة هذه الاخاييل . ومما يميز بصفة اساسية العقدة النواة للطفولة ان أبا الطفـل يتحتم أن يضطلع بدور الخصم فى المجال الجنسى والمعوق للانشطة الجنسية الشبقية الذاتية . وغالبا ما تكون الاحداث الواقعية هى المسئولة فى العادة عن تحقق ذلك الموقف الوجدانى .

يقظته وتداعياته ، ينهال بأفظع الشتائم وأقذرها على شخصى وعلى عائلتى ، وان كان فى تصرفاته الارادية لم يعاملنى قط الا بأعظم الاحترام • كان سلوكه ، وهو يخبرنى بهذه الشتائم ، سلوك شخص غلبه اليأس • كان يتساءل « كيف يمكن لرجل عظيم مثلك سيدي الاستاذ ان يسلم نفسه على هذا النحو للتشائم من جانب وضيع تافه حقير مثلى ؟ ينبغى ان تلقى بى الى الخارج فما استحق سوى ذلك » وبينما كان يتكلم على هذا النحو كان ينهض من الاريكة ، ويجول فى الغرفة — وهو تصرف أرجعه فى بادىء الامر الى شعوره المرهف :

قال بأنه لا يستطيع أن يتصور التفوه بمثل هذه الاشياء الفظيعة بينما يستلقى على الاريكة بكل ارتياح • ولكنه سرعان ما عثر بنفسه على تفسير أكثر اقناعا ، هو على التحديد أنه كان يتجنب أن يكون على مقربة منى خوفا من أن أضربه • وحين كان يبقى على الاريكة كان يتصرف كشخص فى رعب يائس يحاول أن ينقذ نفسه من عقوبات لا حدود لها ، كان يدفن رأسه بين يديه ، أو يغطى وجهه بذراعه ، ثم يقفز فجأة ويندفع بعيدا ، وقد التوت ملامح وجهه من المكابدة ، وما الى ذلك • تذكر أن أباه كان حاد الطبع ، وأحيانا لم يكن يعرف فى عنفه أين يقف • وهكذا رويدا رويدا ، فى مدرسة المكابدة هذه ، بلغ المريض الى الشعور بالاقتناع الذى كان يعوزه — وان تكن الحقيقة بالنسبة لاى عقل محايد ، واضحة بذاتها • وعندئذ انفتح الطريق الى تصفية قهر الفيران عنده • لقد بلغ العلاج نقطة التحول، فغدت متاحة كمية من المعطيات الواقعية كانت حتى الآن حبيسة ، ومن ثم أتاحت اقامة الوحدة الكلية للاحداث •

وكما أشرنا من قبل ، فسوف أقتصر فى وصفى للاحداث على موجز عنها أكثر ما يمكن أن يكون اختصارا • ومن الواضح أن أول مشكلة تتطلب الحل هى :

لماذا كان للحديثين اللذين أدلى بهما النقيب التشيكى — قصته عن الفيران ، وطلبه الى المريض أن يسدد النقود للملازم ؟ — أن يثيرا مثل هذا التأثير المزعج وهذه الاستجابات الباثولوجية العنيفة ؟ كان افتراضى أنها مسألة « حساسية عقدية » ، وأن الحديثين قد

مسا بعنف نقطا بعينها مسرفة الحساسية من لا شعوره وقد تأكدت صحة ذلك فكما هو الشأن فى كل ما يتصل بالمسائل العسكرية ، كان مريضنا فى حالة توحد لا شعورى مع أبيه ، هذا الذى قضى عدة سنوات فى الخدمة ، وكان من عادته أن يحكى الكثير من وقائع هذه الفترة من حياته . اتفق بالصدفة — اذ أن الصدفة يمكن أن تلعب دوراً فى تكوين النكتة — أن احدى المغامرات الصغيرة لأبيه كانت تنطوى على عنصر هام مشترك بينها وبين طلب النقيب تسديد النقود . كان أبوه ، بصفته صف ضابط ، يحتفظ فى عهدته بمبلغ صغير من المال ، وقد ضيعه فى احدى المناسبات فى لعب الورق (وهكذا كان « فأر لعب ورق » (١)) .

وكان سيكون فى موقف حرج لولا أن أحد أصحابه أقرضه المبلغ . وبعد ما ترك أبوه الجيش ، وأصبح رجلا ثريا ، حاول العثور على ذلك الصاحب الشهم ليرد اليه المبلغ ، ولكنه لم يتمكن من اقتفاء أثره . لم يكن المريض على ثقة من أن أباه قد وفق فى رد المبلغ . كان تذكر المريض لخطيئة شباب أبيه هذه مثار ألم عنده ، وذلك لأنه على الرغم مما يبدو وفى الظاهر ، كان شعوره يزدحم بالانتقادات المريرة العدائية تجاه شخصية أبيه . وكلمات النقيب : « يتحتم عليك أن تسدد الـ ٣٫٨٠ كراونا للملازم٠أ » . قد دوت فى أذنيه تلميحا لهذا الدين الذى لم يسدده أبوه .

ولكن معرفته بأن الموظفة الشابة فى مكتب البريد فى س — قد دفعت عنه بنفسها الرسوم المقررة على الطرد ، وبأنها قد امتدحت شخصه (٢) قد زاد من شدة تطابقه مع أبيه ، وان كان ذلك فى اتجاه

---

(١) حرفيا تعنى فار لعب الورق ، كلمة المانية عامية تعنى « مقامر لعب الورق » .

(٢) لا ينبغى ان ننسى أن المريض قد عرف ذلك قبل ان يطلب اليه النقيب ، عن سوء فهم ، أن يسدد المبلغ الى الملازم.أ . كانت تلك هى النقطة الحيوية فى القصة ، ويحكمها هوى المريض الى ذلك النيه من التشويش ، وحال — لفترة ما — بينى وبين ان ابلغ الى اية فكرة عن دلالة الامر كله .

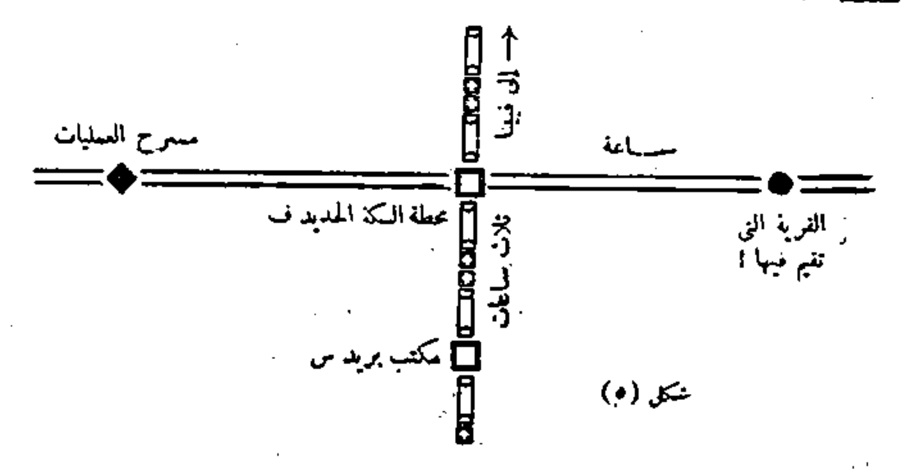
مختلف تماما • فى هذه المرحلة من التحليل أدلى المريض بمعطيات جديدة مؤداها أن المنزل الذى كان على مقربة من مكتب البريد كان لصاحبه بنت جميلة ، وكانت بشكل قاطع تشـجع ضابطنا الشـاب الوسيم ، بحيث أنه فكر فى العودة الى هناك بعد انتهاء المناورات ، ليجرب حظه معها • ولكن هذه الابنه الحسناء كانت لها منافسة هى الموظفة الشابة فى مكتب البريد • وكأبيه فى قصة زواجه كان بوسعه الآن أن يتردد الى أى الفتاتين يتجه بتفضيله عندما يفرغ من خدمته العسكرية • وبوسعنا الآن أن نتبين على الفور كيف أن تردده الغريب بين أن يسافر الى فينا أو أن يعود أدراجه الى حيث يوجـد مكتب البريد ، وكيف أن الغواية الدائبة التى كان يستشعرها فى أن يرجـع قافلا من رحلته (انظر ص ٣٧٥) لم يكونا عديمى الدلالة على نحو ما تبديا لنا فى البداية • وبالنسبة الى تفكيره الشعورى ، كانت الجاذبية التى تنطوى عليها بالنسبة اليه مدينة س — ، حيث يوجـد مكتب البريد ، ترجع الى ما يستشعره من ضرورة رؤيته للملازم •أ كيما يستعين به فى الوفاء بقسمه • ولكن ما كان يجذبه فى حقيقة الامـر انما كان هو الموظفة الشابة فى مكتب البريد ، ولم يكن الملازم غـير بديل مناسب لها اذ كان يقيم فى نفس المكان ، كان فى الوقت مسئولا عن البريد الحربى • وعندما سمع بعد ذلك أن الملازم • أ لم يكن هو القائم بالخدمة فى البريد فى ذلك اليوم ، بل الملازم ب ، أدخل هذا الاخير أيضا فى « توليفاته » ، وعندئذ كان بوسعه فى شبه هذاءاته[١] أن يكرر بازاء الملازمين ذلك التردد الذى كان يستشعره ازاء الفتاتين اللتين كانتا تبديان ميلا اليه (٢) •

---

(١) أنظر فيما بعد ص ٥٢٨ •

(٢) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) — لم يدخر مريضنا جهـدا فى تشويش القصة الصغيرة الخاصة بتسديد الرسوم عن نظارته الانفية ، بحيث ربما يكون عرضى لها قد فشل هو الآخر فى ايضاحها بشكل تام • ومن ثم فانى أقدم هنا خريطة صغيرة (شكل ٥) ، حاول بها مترجماى الى الانجليزية ، مستر ومسز ستراسى ، أن يجملا الموقف عند نهايـة =

ولتوضيح آثار قصة النقيب عن الفيران يتحتم علينا أن نتتبع مسار التحليل عن كثب • بدأ المريض بانتاج كمية هائلة من مـادة المستدعيات ، التي لم تلق مع ذلك فى البداية أى ضوء على الملابسات التى نشأ فيها قهره • ففكرة العقوبة التى يتم توقيعها عن طـريق الفيران قد لعبت دور المثير لعدد من غرائزه ، واستدعت كمية بأسرها من الذكريات ، بحيث أن الفيران ، فى الفترة القصيرة الفاصلة ما بين قصة النقيب عن العقوبة بالفيران وطلبه اليه تسديد الرسـوم ، واكتسبت سلسلة من الدلالات الرمزية ، كانت تتضاف اليهـا بـلا انقطاع خلال الفترة التى تلت ذلك دلالات جديدة • ويتحتم على أن بأنى لا أستطيع أن أقدم الا صورة جد ناقصة عن الامر كله • ان ما ابتعثته فكرة العقوبة بالفيران ، أكثر من أى شىء آخر انما كانت شبقيته الاستيه ، هذه التى لعبت دورا هاما فى طفولته ، والتى ظلت نشطه •



شكل (٥)

المناورات اكثر وضوحا . فقد لاحظنا بحق أن سلوك المريض يظل غـير مفهوم ما لم تنص صراحة على واقعة أخرى هى على التحديد ان الملازم.أ كان يقيم سابقا فى مدينة س •
حيث يوجد مكتب البريد ، وكان مسئولا هناك عن البريد الحربى ، ولكنه فى الايام القليلة الاخيرة اوكل هذه المهمة الى الملازم.ب ، اذ نقـل هو الى بلده أخرى . وكان النقيب (القاسى) على غير علم بهذا الانتقال ، وفى ذلك ما يقر خطاه فى افتراضه بان الرسوم ينبغى تسديدها للملازم.أ .»

لسنوات عديدة بأهاجة متصلة راجعة الى الديدان . وهكذا اكتسبت الفيران دلالة « النقود » (1) . فقد قدم المريض ما يشير الى هذه الرابطة بأن استجاب لكلمة Ratten (فيران بالمستدعية Raten (أقساط مستحقة) . وفى حالته القهرية شبه الهذائية صك لنفسه عمله نقدية من الفيران . فعلى سبيل المثال ، عندما أخبرته فى اجابتى على سؤال منه بمقدار ما اتقاضاه من النقود عن ساعة من العلاج قال لنفسه (وهو ما عرفنه بعد ذلك بستة أشهر) : كذا من الفلورينات — كذا من الفيران .. وشيئا فشيئا ترجم المريض الى هذه اللغة كل عقدة النقود عنده ، وهى التى كانت تدور حول ميراثه من أبيه ، ومعنى ذلك أن كل أفكاره المرتبطة بهذا الموضوع قد انتقلت — عن طريق القنطرة اللفظية : Raten-Raten (قسط مستحق — فأر) الى حياته القهرية ، وأصبحت تحت هيمنة لا شعوره هذا الى أن ما طلبه النقيب اليه من أن يسدد الرسوم المستحقة على الطرد كان من شأنه أن يدعم الدلالة النقدية للفيران ، ولكن عن طريق قنطرة لفظية أخرى Spieltratte (فأر لعب ورق) هذه التى رجعت به الى دين أبيه فى مقامرة لعب الورق .

ولكن المريض كان يعرف أيضا أن الفيران حملة أمراض معديه خطرة ، ومن ثم كان بوسعه أن يستخدمها رمزا لرعبه (وهو رعب له ما يبرره بدرجة كافية فى الجيش) من عدوى الزهرى . وكان هذا الرعب يحجب كل أنواع الشكوك فيما يتصل بنوع الحياة التى عاشها أبوه أثناء خدمته العسكرية . ومن ناحية أخرى ، لما كان حامل عدوى الزهرى هو القضيب نفسه ، فقد غدا بوسع المريض أن يعتبر الفأر عضوا تناسليا ذكريا . وتلك رمزية ترجع فى تحديدها الى سبب آخر أيضا ، ذلك أن القضيب (وعلى الاخص قضيب الطفل) يمكن مقارنته بدودة ، وكانت قصة النقيب عن العقوبة بالفيران تدور حول فيران

---

(1) أنظر Freud, Character and Anal Erotism, 1908. Collected Papers, Vol. II. (فرويد : الشخصية والشبقية الشرجية)

تتبش فى الشرج ، تماما كما كانت تفعل فى شرجه وهو طفل ديـدان الاسكارس • وهكذا كانت الدلالة القضيبية للفيران تستند هى الاخرى الى الشبقية الشرجية • وفوق ذلك فان الفأر حيوان قذر يتغذى من المخرجات ويعيش فى « المجارى » (١) وربما لا تكون هناك حاجـة لان نوضح الى أى حد من العظم غدا اتساع هذاء الفأر ممكنا بفضل هذه الدلالة الجديدة • فعلى سبيل المثال « كذا من الفيران ـ كـذا من الفلورينات » يمكن أن تكون تخصيصا ممتازا لمهنة نسائية معينـة كان المريض يحتقرها بشكل خاص • ومن ناحية أخرى ، فمن المؤكد أنها ليست مسألة خلوة من الدلالة أن احلال القضيب محل الفأر فى قصة النقيب قد أدى الى استدعاء موقف جماع عن طريق الشرج الامر الذى كان يستثير بالضرورة نفوره عند ربطه بأبيه وبالسـيدة الشابة التى يحبها • وعندما نضع فى اعتبارنا أن نفس هذا الموقف يظهر من جديد فى التهديد القهرى الذى تخلق فى نفسه بعدما طلب اليه النقيب تسديد الرسوم ، فسوف نذكر على الرغم منا بعـض الشتائم الشائعة بين السلافيين الجنوبيين (٢) • هذا الى أن كل هذه المعطيات ، وأخرى غيرها أيضا ، تدخل ضمن السياق الكلى لموضوع الفيران وذلك وراء التداعى الحاجب : Heiraten (يتزوج) •

ان قصة العقوبة بالفيران ، كما ظهر من حديث المريض عـن الموضوع ، ومن تعبيرات وجهه وهو يحكى القصة لى ، قد ابتعثت كل ما كان مكبوحا عنده قبل الاوان من حفزات القسوة ، الانانية ،

---

(١) اذا ما استشعر القارىء ميلا الى انكار امكانية شطحات الخيال هذه عند الشخص العصابى ، فبوسعى أن اذكره بأن الفنانين أحيانا مـا انغمسوا فى نزوات خيال من هذا القبيل . ذلك على سبيل المثال حال Diableries érotiques (شيطانيات شبقية) من عمل لوبوافتان Le Poivetin.

(٢) الكلمات الحرفية لهذه الشتائم يمكن العثور عليها فى المجـلة الدورية Anthropophyteia التى يقوم على نشرها ف.س.كراوس F. S. Krauss.

والجنسية على السواء ولكن على الرغم من كل هذه المعطيات الثرية ، ظلت دلالة الفكرة القهرية عنده بعيدة عن الوضوح ، حتى ظهرت ذات يوم فى تداعياته أثناء التحليل « امرأة الفيران » فى « أيولف الصغير » من مؤلفات ابسن ، وعندئذ لم يكن هناك بـــد من أن نســتنبط أن الفيران ، فى الكثير من الاشكال التى اتخذها شبه هذائه القهرى ، كانت تنطوى أيضا على دلالة أخرى — هى على التحديد الاطفال (١). وحين تقصيت منشأ هذه الدلالة الجديدة ، وجدتنى فجأة اصطدم بأصول من أهم وأبكر ما يمكن فذات مرة حين كان المريض يزور قبر أبيه ، رأى حيوانا ، ظنه فأرا ، ينحدر من فوق القبر (٢) • واعتقـــد أن هذا الحيوان قد خرج بالفعل من قبر أبيه ، بعدما فرغ لتوه من تناول وجبة من جثته • أن تصور الفأر يرتبط دائما بالاسنان الحادة التى تقرض وتعض (٣) • ولكن الفيران لا يمكن أن تكون حادة الاسنان،

---

(١) ليس من شك فى أن امرأة الفيران عندابسن ترجع الى أسطورة هاملان عن عازف المزمار الارقط ، هذا الذى بدأ باستدراج الفيران الى الماء ، ثم عاد بنفس الطريقة فاستدرج الاطفال الى خارج المدينة حيث لم يعودوا قط . وكذلك أيضا فان أيولف الصغير قد ألقى بنفسه فى المـــاء بسحر من امرأة الفيران . وفى الاساطير بصورة عامة لا يظهر الفـــأر ككائن منفر بقدر ما يظهر ككائن مشئوم يبعث على القلق والحيرة — كحيوان شيطانى chthonie ان جاز القول ، يرمز لارواح الموتى .

(٢) كانت ولا شك « عرسة » من تلك التى توجد بأعداد كبيرة فى المدافن الرئيسية بفينا .

(٣) قارن كلمات مفيستوفوليس (عندما يريد أن يدخل من باب يحرسه سحر « خمسة وخميسة ») :

'Doch dieser Schwelle Zauber zu zerspalten
Bedarf ich eines Rattenzahns.
Noch einen Biss, so ist's geshehn!'

(ولكن لابطال سحر هذه العتبة
تلزمنى سنة فأر « ويستحضر
بالتعويذة فأرا » عضة أخرى مـــن
السنة ، وينتهى الامر) .

Goethe, Faust, Part 1.

شرهة قذرة ، دون أن تنالها العقوبة : فهى تتعرض بقسوة للتعذيب ، وللقتل فى غير رحمة من جانب الانسان ، على نحو ما لاحظه المريض مرارا فى رعب منه • وكثيرا ما أشفق على هذه الكائنات المسكينة • ولكنه هو نفسه كان على التحديد ذلك الكائن الصغير التعس القذر المنفر ، الميال الى أن يعض الناس عندما يستبد به الغضب ، وكانت تناله العقوبة المروعه من أجل ذلك (انظر ص ٥٠٨ ، ٥٠٩) • وكان يمكن القول بحق أنه يجد فى الفأر (١) « صورته الحية » كان الامر وكأن القدر عندما سرد عليه النقيب القصة ، يضعه فى اختبار تداعى الكلمات : تفوه القدر بـ « كلمة — مثير للعقدة » فلم يكن منه الا أن استجاب بفكرته القهرية •

وعليه ، فبحسب أبكر تجاربه وأكثرها أهمية فى نتائجها ، كانت الفيران أطفالا • وعند هذه النقطة أدلى المريض بواقعة كان قد طال احتجازه لها بعيدة عن سياقها ، ولكنها تقدم الآن تفسيرا كاملا للاهتمام الذى كان يتحتم عليه أن يستشعره تجاه الاطفال • فالسيدة الشابة ، التى كان يهيم بها منذ سنوات عديدة ، والتى كان لا يستطيع مع ذلك أن يحزم أمره ليتزوج منها ، كان مقضيا عليها بالعقم ، بسبب عملية جراحية نسائية ، تمت فيها ازالة المبيضين معا • كان ذلك فى واقع الامر السبب الرئيسى فى تردده ، وذلك لانه شديد الولع بالاطفال •

كان عندئذ فقط أن أمكننا فهم تلك العملية الغامضة التى بها تكونت فكرته القهرية • فبالاستعانة بمعارفنا عن النظريات الجنسية الطفلية وعن الرمزية (كما تبيناها من تفسير الاحلام) يمكننا ترجمة

---

(1) 'Er sieht in der geschwollnen Ratte Sein ganz naturlich Ebeabild.'

ذلك انه يرى فى الفأر المزهو بنفسه
الصورة الحية لنفسه

Faust, Part 1, Scene in Auerbach's Cellar.

الامر كله والبلوغ الى دلالته . فعندما أخبر النقيب المريض ، أثنـــاء استراحة بعد الظهر التى فقد فيها نظارته الانفية عن العقوبة بالفيران فأن المريض لم يستلفته أول الامر الا ما يطبــع الموقف من قســـوة وشهوية واعرة . ولكن على اثر ذلك مباشرة نشأ ارتباط مع مشهد طفولته الذى فيه قام هو نفسه بعض أحد ما . فالنقيب ــ وهو الرجل الذى نافح عن هذه العقوبة ــ قد غدا عند المريض بديل أبيه ، ومن ثم اجتذب اليه جانبا من الغضب المبتعث ، وهو الغضب الذى كان قد تفجر فى الموقف الاصلى ضد أبيه القاسى والفكرة التى خطــرت فى شعوره للخط ، من أن شيئا من هذا القبيل يمكن أن يحدث لشخص عزيز عليه ، ربما يمكن ترجمتها الى رغبة من قبيل : « انما أنت الذى ينبغى فعل ذلك فيك ! » ، وهى رغبة تتجه ضد حاكى القصة ، ولكن من خلاله تتجه ضد أبيه . وبعد يوم ونصف (١) من ذلك ، عنـــدما سلمه النقيب الطرد ، وطلب اليه أن يسدد ٣٫٨٠ كراونا الى الملازم «أ» ، كان المريض عندئذ على وعى بالفعل بأن « رئيسه القاسى » قد وقع فى خطأ ، وبأنه (المريض) لا يدين بهذه الرسوم الا للموظفة الشابة بمكتب البريد . ومن ثم فقد كان من الممكن فى يسر أن يخطر له أن يفكر فى اجابة ساخرة من قبيل : « أفتحسبنى سأدفع مع ذلك ؟ » ــ أو « بل أمك هى التى تدفع ! » ، أو « أتراهن ان كنت أدفع لـــه المبلغ ؟ » ــ وهى اجابات ما من قوة قهرية ترغمه على التفوه بها . ولكنه بدلا من ذلك ، وقد ابتعثت عنده عقدة الأب وذكرى مشـــهد طفولته ، تخلقت فى ذهنه اجابة من قبيل : « نعم ! سوف أسدد المبلغ الى أ عندما ينجب أبى أو السيدة الشابة أطفالا ! » ، أو « بقدر ما هو من المؤكد أن أبى أو السيدة الشابة يمكن أن ينجبا أطفالا ،

---

(١) وليس فى مساء نفس اليوم كما أخبرنى أولا . فمن المستحيل تماما أن تكون النظارة الانفية التى ابرق فى طلبها قد وصـــلت فى نفس اليوم . ولكن المريض اقتضب الفترة الزمنية الفاصلة فى ذكرياته ، لانها كانت الفترة التى تكونت فيها الارتباطات النفسية الحاسمة ، والتى حدثت فيها الواقعة التى انكبتت ــ ونعنى واقعة التقائه مع الضابط الذى أخبره بالتصرف الودى من جانب الموظفة الشابة بمكتب البريد .

فسوف أسدد له المبلغ ! » وباختصار ، وعد ساخر يقترن بشرط غير معقول يستحيل تحقيقه (1) •

ولكن الآن وقعت الجريمة ، فقد أهان أعز شخصين لديه — أباه وسيدته الشابة • وهذه الجريمة اقتضت العقوبة ، وكانت العقوبة تنحصر فى أنه ربط نفسه بقسم يستحيل عليه الوفاء به ، ويستلزم منه طاعة حرفية لهذا الطلب المستند الى أساس خاطىء من جانب رئيسه • كان القسم كما يلى : « يتحتم عليك الآن أن تسدد المبلغ فعلا الى •أ » • وفى طاعته القسرية هذه كبت ما كان يعرفه على نحو أفضل من أن طلب النقيب كان يستند الى وقائع خاطئة : « نعم ، يتحتم عليك أن تسدد المبلغ الى •أ ، على نحو ما طلب ذلك منك بديل أبيك • فالأب لا يمكن أن يكون على خطأ » • وكذلك الملك أيضا لا يمكن أن يكون على خطأ ، فلو خاطب فردا من رعاياه بلقب ليس له ، فان هذا الفرد يحمل ذلك اللقب منذ ذلك الوقت فصاعدا •

ولم يبلغ الى شعور المريض الا وعى غائم بهذه الوقائع • ولكن ثورته ضد أمر النقيب ، والتحول المفاجىء لهذه الثورة الى ضدها ، كانا كلاهما متمثلين فى شعوره • فأولا جاءت الفكرة بأن لا يدفع المبلغ ، والا فانها (أى العقوبة بالفيران) سوف تقع ، وبعد ذلك جاء تحول هذه الفكرة الى قسم فى الاتجاه المضاد ، كعقوبة على ثورته •

ولنتمثل الآن من جديد تلك الملابسات العامة التى تكونت فيها الفكرة القهرية الكبرى عند المريض • كان الليبيدو عنده قد ازدادت شدته نتيجة فترة طويلة من الحرمان جنبا الى جنب مع ذلك الترحيب

---

(1) وهكذا فان اللامعقولية تعنى السخرية فى لغة التفكير القهرى، تماما كما تعنى ذلك فى لغة الاحلام (انظر فرويد ، تفسير الاحلام ، الطبعة السابعة الالمانية ص ٢٩٥) . وفى الترجمة العربية ، فرويد : تفسير الاحلام . دار المعارف بمصر . الفصل السادس ص ٤٢٥ وما بعدها .

الودى الذى يمكن لضابط شاب أن يعول عليه عندما يتجه الى النساء. هذا الى أنه ، فى الوقت الذى بدأت فيه المناورات ، كان هناك نوع من الفتور بينه وبين سيدته الشابة . وكان من شأن ازدياد شدة الليبيدو أن يهيىء ابتعاث صراعه القديم ضد سلطة أبيه ، فاجترأ على التفكير فى الاتصال الجنسى مع نساء أخريات . وراح ولاؤه لذكرى أبيه يتضاءل بقدر ما كانت تزداد شكوكه فى مزايا سيدته الشابة . وفى هذا الاطار النفسى ترك نفسه تنزلق الى سبهما هما الاثنين ، وبعدئذ فرض على نفسه العقوبة من أجل ذلك كان بذلك يكرر أنموذجا قديما . وعندما تردد طويلا فى نهاية المناورات بين ما ان كان يتحتم عليه المضى الى فينا أو أن يتوقف للوفاء بقسمه ، كان بذلك يجسد فى صورة واحدة هذين الصراعين اللذين كانا يعتصرانه منذ البداية — ما ان كان يتحتم عليه أولا أن يبقى مطيعا لابيه ، وما ان كان يتحتم عليه أولا أن يبقى مخلصا لسيدته الشابة (١) .

وبودى أن أضيف كلمة عن تفسير مضمون « العقوبة » التى كان مؤداهما كما ينبغى أن نذكر « والا فان العقوبة بالفيران سوف تنفذ فيهما هما الاثنين » . كان يستند الى تأثير نظريتين من نظريات الجنسية الطفلية ، سبق لى أن عرضت لهما فى مكان آخر (٢) . أولى هاتين النظريتين أن الاطفال يخرجون من الشرج والثانية — وهى

---

(١) ربما لا يخلو من اهمية أن نلاحظ مرة اخرى أن طاعته لابيه تطابق تخليه عن سيدته الشابة . فلو أنه توقف وقام بتسديد المبلغ الى أ.لكان بذلك يضطلع بتكفير ازاء أبيه ، ويكون فى نفس الوقت قد تخلى عن سيدته الشابة ، وذلك لصالح شخص آخر أكثر جاذبية وفى هذا الصراع انتصرت السيدة الشابة — وذلك بالتأكيد بفضل تفكير سوى من جانب المريض .

(٢) On the Sexual Theories of Children, 1908, Collected Papers, Vol. II.

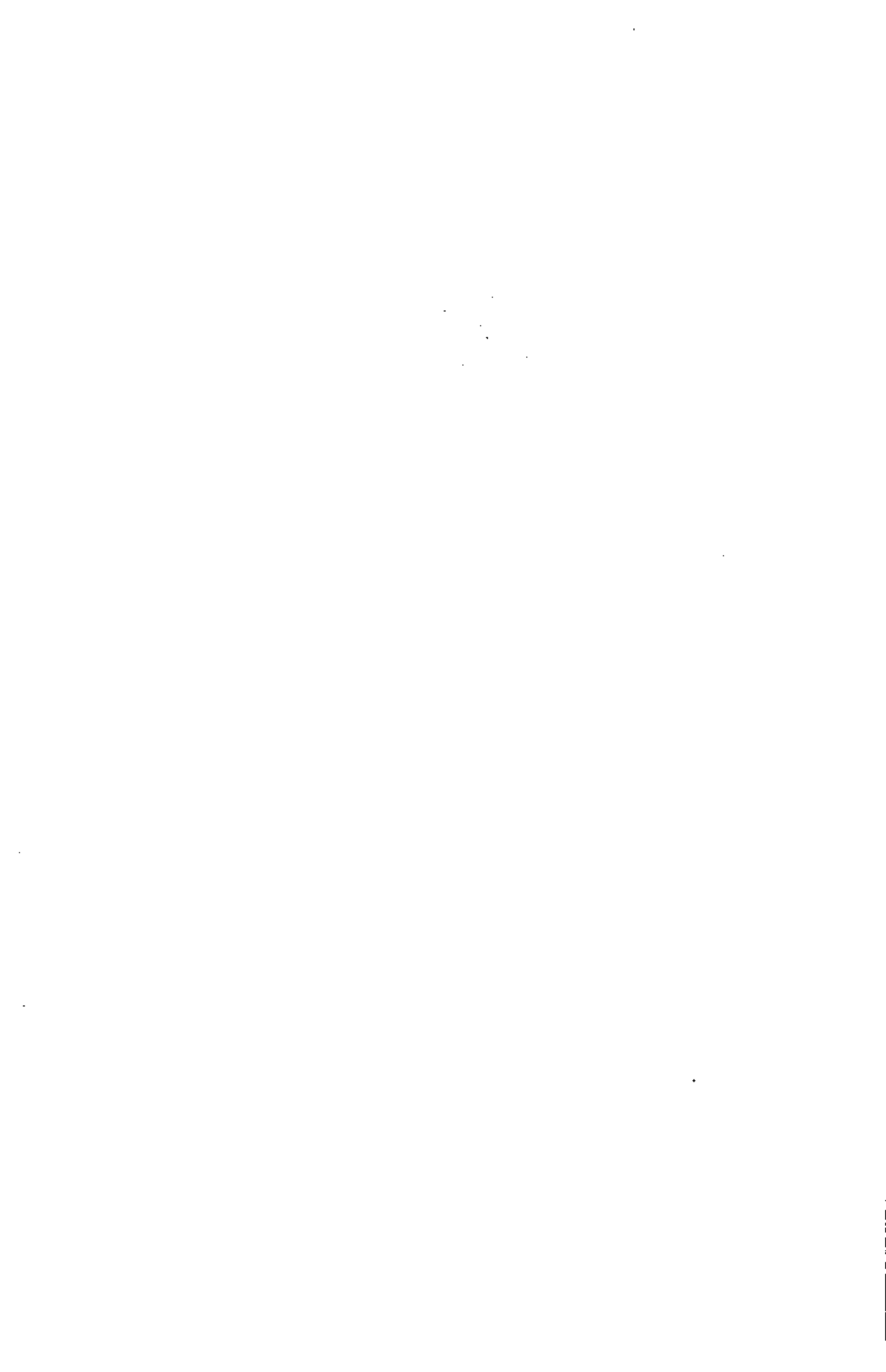
(فى نظريات الجنسية الطفلية ، المقالات المجموعة ، ترجمة مستر ومسز ستراشى ، مجلد ٢) .

نتيجة منطقية للاولى ـــ أن الرجال يمكنهـــم أنجاب الاطفال ، تماما كالنساء • وبحسب القواعد الفنية فى تفسير الاحلام ، يمكن لفكـــرة « الخروج من المستقيم » أن تتمثل فى الفكرة المضادة ، وهى « الدخول فى المستقيم » (كما فى العقوبة بالفيران) ، والعكس بالعكس •

وليس لنا أن نتوقع ـــ لافكار قهرية خطيرة من هذا القبيل الذى هى عليه فى هذه الحالة ـــ تفسيرا يكون أكثر بساطة ، أو يتحقق بأية وسيلة أخرى • فعندما بلغنا الى التفسير الذى قدمناه آنفا تلاشى قهر الفيران عند المريض •

٣

اعتبارات نظرية



(أ) بعض الخصائص العامة للتكوينات القهرية (١)

فى عام ١٨٩٦ قدمت تعريفا للافكار القهرية على أنها « تأنيبات تعود الى الظهور — فى صورة محرفة — من تحت الكبت ، تأنيبات تنتسب دائما أبدا الى فعل جنسى قام به المريض فى لذة أثناء طفولته » (٢) • وهذا التعريف ، كما يبدو لى الآن ، ينفتح للنقد من ناحية الشكل ، وان كانت عناصره المكونة لا يمكن الاعتراض عليها • كان التعريف ينزع أكثر مما ينبغى الى التوحيد ، وكان يتخذ كأنموذج له نفس تلك العملية التى يمارسها العصابيون القهريون ، عندما يكدسون معا — بميلهم المتميز الى اللاتحدد — تحت لافتة « الافكار القهرية » تكوينات نفسية أعظم ما تكون بعدا عن التجانس (٣) • وقد يكون من الاصح فى الواقع أن نتحدث عن « تفكير قهرى » ، وأن نبرز

---

(١) ان عددا من النقاط التى أتناولها هنا وفى القسم الثانى قد سبق بالفعل أو وردت فى الكتابات عن العصاب القهرى ، على نحو ما يتضح فى الدراسة الشاملة التى قام بها لوينفلد فى مؤلفه الذى يعد المرجع الرئيسى العميق لهذا النوع من المرض :

L. Lowenfeld, Die Paychischen Zwangserscheinungen, 1904.

(٢) Further Remarks on the Defence Neuro-Psychoses, 1896, Collected Papers, Vol. P. 162.

(ملاحظات اخرى عن دفاع الاذهنة العصبية ، ١٨٩٦ ، المقالات المجموعة ، ترجمة مستر ومسز ستراشى ، مجلد ١) .

(٣) هذا الخطأ فى تعريفى يلقى الى حد ما يصححه فى المقال نفسه . ففى ص ١٦٣ منه نجد هذه الفقرة : « ومع ذلك فان الذكريات المنبعثة والتأنيبات الذاتية المترتبة عليها لا تظهر قط فى الشعور على حالها دون تحريف . فالفكرة القهرية ، والوجدانات القهرية التى تظهر فى الشعور ، والتى تحتل فى الحياة الشعورية مكان الذكرى المولدة للمرضى ، هى تكوينات ائتلافية من الافكار المكبوتة والافكار الكابتة » . ومعنى ذلك أنه يتحتم فى التعريف أن نلح بشكل خاص على هذه الكلمات : « فى صورة محرفة » .

هذه الحقيقة وهى أن التكوينات القهرية يمكن أن تمثل أفعالا نفسية أشد ما تكون تنوعا مما يمكن تصنيفه بشكل متميز فى : رغبات ، وغوايات ، وحفزات ، وأفكار ، وشكوك وأوامر ، ونواه • وبصورة عامة ينزع المرضى الى طمس هذه التمايزات ، فيعتبرون ما تبقى من هذه الافعال النفسية ، بعدما تكون قد تجردت من شحنتها الوجدانية مجرد « أفكار قهرية » • وقد قدم مريضنا الحالى ، فى احدى جلساته الاولى ، مثالا لهذا النمط من السلوك ، عندما أراد أن يخفض رغبة الى مجرد « تداعى أفكار » (أنظر ص ٣٨٠ ، ٣٨١) •

هذا الى أنه يتحتم الاعتراف بأن فينومينولوجية التفكير القهرى ذاتها لم تلق حتى الآن عناية كافية • فأثناء النضال الدفاعى الثانوى الذى يشنه المريض ضد « أفكاره القهرية » التى شقت طريقها الى شعوره ، تظهر تكوينات نفسية تستحق تسمية خاصة • (من قبيل ذلك مثلا تلك السلسلة من الافكار التى شغلت ذهن مريضنا فى رحلة عودته من المناورات) • هذه التكوينات النفسية التى تظهر ليست مجرد اعتبارات منطقية خالصة تظهر مناهضة للافكار القهرية ، ولكنها ان جاز القول ، مزاج من كلا النوعين من التفكير ، فهذه التكوينات الدفاعية تندس فيها بعض مقدمات القهر الذى تناهضة ، وهكذا فانها وان استخدمت أسلحة المنطق الا أنها تستند الى أساس من التفكير الباثولوجى • وفى رأيى فان مثل هذه التكوينات الدفاعية تجدر تسميتها « شبه هذآءات » [1] • وكيما أوضح هذا التخصيص، فسوف أقدم مثالا ينبغى أن يوضع فى مكانه الصحيح من سياق تاريخ حالة المريض • فقد سبق أن وصفت السلوك الغريب الذى استسلم له المريض فى وقت ما بينما كان يستعد لامتحان ــ كيف كان من عادته أن يعمل فى وقت متأخر من الليل ، وأن يذهب فيفتح الباب

---

(1) deliria (E), delires (Fr.) نلاحظ هنا ان فرويد يطلق هذا المصطلح على ظواهر نفسية لا تطابق تلك التى يطلق عليها الطب النفسى هذا الاسم ــ وانما يستخدمه كما يستخدم مصطلح .[delire de toucher

الخارجى لروح أبيه ، ثم يتأمل عضوه الجنسى فى المرآة (أنظر ص ٥٠٨) • كان يحاول أن يعيد نفسه الى الرشد بأن يسأل نفسه عما يمكن أن يقوله أبوه عن هذا كله لو أنه كان حقا ما يزال حيا ولكن هذا التفكير لم يتمخض عن أية نتيجة طالما كان يظهر عنده فى تلك الصورة المنطقية • فالسلوك الغريب لم يتوقف الا بعد أن قام المريض بتحويل نفس هذه الفكرة الى تهديد « شبه هذائى » : لو أنه عاد مرة أخرى الى مثل هذه الحماقة فسوف ينزل بأبيه سوء فى العالم الآخر •

وليس من شك فى أن التمييز بين نضال دفاعى أولى ونضال دفاعى ثانوى يستند الى أساس متين ، ولكن قيمة هذا التمييز تتضاءل بصورة غير متوقعة عندما تتبين أن المرضى أنفسهم يجهلون منطوق أفكارهم القهرية • وقد يبدو هذا متناقضا ، ولكنه يستند الى المنطق التالى : فأثناء تقدم التحليل النفسى ليس المريض وحده هو الذى يستجمع شجاعته بل مرضه أيضا ، واذ يغدو من الجسارة بحيث ينطق بأصرح مما كان ينطق من قبل • فاذا ما تركنا لغة المجاز هذه ، يمكن القول بأن ما يحدث هو ما يلى : ان المريض الذى كان حتى الآن يدير عينيه فى رعب بعيدا عن نتاجاته الباثولوجية يبدأ فى التنبه اليها ، فيبلغ الى معرفتها بشكل أوضح وأكثر تفصيلا (١) •

هذا الى أنه توجد طريقتان محددتان للبلوغ الى معرفة أكثر دقة عن التكوينات القهرية • ففى المقام الاول تكشف التجربة عن أن « أمرا » قهريا (أو رغبة قهرية أو ما الى ذلك) ، مما لا يعرفه المريض فى حياته اليقظة الا فى صورة بتراء وشائهة ، كبرقية شوهها الايجاز ، يمكن أن يظهر منطوقه الصريح فى الحلم • مثل هذه المنطوقات تظهر فى الاحلام عبارات منطوقة ، ومن ثم تمثل استثناء للقاعدة التى تقضى

---

(١) كثير من المرضى يديرون اعينهم بعيدا ممعنين فى ذلك الى حد انهم يعجزون تماما عن تقديم مضمون فكرة قهرية او عن وصف فعل قهرى ، رغم انهم قاموا به مرات ومرات .

بأن المنطوقات فى الاحلام مستمدة من منطوقات الحياة الواقعية[1]. وفى المقام الثانى ، كثيرا ما تتأدى ، أثناء الفحص التحليلى لتاريخ حالة ، الى الاقتناع بأنه اذا ما تتابعت قهور ، الواحد بعد الآخر ، فانها غالبا ما تكون فى نهاية الامر — حتى وان لم تتطابق منطوقاتها — قهرا واحدا وبعينه . فربما يكون القهر عند ظهوره الاول قد تم التخلص منه بنجاح . ولكنه يعاود الظهور مرة ثانية فى صورة محرفة، بحيث لا يمكن التعرف عليه . فربما بسبب ذلك التحريف ، على وجه التحديد ، أنه يقتدر على الصمود بشكل أكثر فاعلية فى النضال الدفاعى. ولكن الصورة الاصلية هى الصحيحة وكثيرا ما تقدم لنا دلالتها فى صراحة تامة . وعندما تبلغ ، بعد عناء شديد ، الى استجلاء فكرة قهرية مستغلقة على الفهم ، فغالبا ما يحدث أن يخبرنا المريض أن فكرة أو رغبة أو هواية على التحديد ، كهذه التى بلغنا الى استجلائها، قد ظهرت لديه بالفعل فى احدى المناسبات قبل أن تنشأ عنده الفكرة القهرية ، ولكنها لم تستمر فى البقاء .

ولو أردنا تقديم أمثلة من تاريخ حالة مريضنا الحالى ، لجرنا ذلك لسوء الحظ الى استطراد مسرف الاسهاب .

فالفكرة التى نصفها من الناحية الرسمية بأنها « فكّرة قهرية » ، تكشف من ثم ، فى صورتها المحرفة ، من المنطوق الاصلى ، عن آثار النضال الدفاعى الاولى . وهذا التحريف الذى طرأ عليها هو الذى يمكنها أن تستمر فى البقاء ، ما دام التفكير الشعورى يعجز بذلك عن أن يفهم حقيقتها . تماما كما لو كانت حلما ، لان الاحلام هى الاخرى نتاج ائتلافات وتحريفات ، وهى الاخرى يعجز التفكير الشعورى عن أن يفهم حقيقتها .

وهذا العجز عن الفهم من جانب التفكير الشعورى يمكن أن

---

(١) أنظر : تفسير الاحلام ، الطبعة السابعة الالمانية ، ص ٢٨٣ . والترجمة العربية : تفسير الاحلام . دار المعارف بمصر ، ص ٤١٩ .

نتبين فعاليته ليس فقط فيما يتصل بالافكار القهرية ذاتها ، بل أيضا فيما ينصــل بنتاجات النضـــال الـــدفاعى الثانوى ، وذلك ، عــلى سبيل المثال ، هو حال الصيغ الوقائية ، وبوسعى أن أقدم مثالـــين مناسبين على ذلك • كان من عادة مريضنا أن يستخدم ـــ كصيغــة وقائية ـــ كلمة ينطقها بسرعة هى àber (لكن) مصحوبة باشارة استنكار • قال لى فى احدى المناسبات ان هذه الصيغة قد تعدلت أخيرا ، فلم يعد ينطقها (آبر) ولكنه ينطقها àber e (أبـــير) • وعندما سألته عن السبب فى هذا التعديل ، قال لى بأن حرف e الساكن لم يكن يحقق له شعورا بالامن ضد احتمال الاندساس ، الذى كان يرتعب منه ، من جانب بعض العناصر الغريبة المضادة ، ومن ثم عقد عزمه على أن ينطق بحرف é متحركا • وهذا التفسير (وهو عينـــة ممتازة من الاسلوب العصابى القهرى) كان قاصرا بشكل واضـــح ، فأقصى ما يمكن أن يكونه هو التبرير • أما الحقيقة فهى أن كلمـــة abér (أبير) كانت شبيهة فى نطقها بكلمة Abwebr (أبقير)«دفاع»، وهى كلمة تعلمها من خلال مناقشتنا النظرية فى التحليـــل النفسى • النفسى • فهو بذلك قد أستغل العلاج بشكل شبه هذائى وغـــير مشروع ، كيما يدعم صيغة وقائية •

وفى مرة أخرى تحدث الى عن كلمته السحرية الاساسية ، التى كان يتقى بها كل شر ، والتى صاغها من الحروف الاولى لاكثر صلواته قوة وبركة ، وذيلها بحروف amen (آمين) فى نهايتهـــا • وليس بوسعى أن أورد الكلمة هنا لاسباب ستتضح فى التو • ذلك أنـــه عندما ذكر لى هذه الكلمة لم يسعنى الا أن أتبين أنها ليست فى الواقع غير معكوس اسم سيدته الشابة • كان اسمها يشتمل على حرف (س) ، وقد جاء فى آخر الكلمة أى قبل حروف « آمين » مباشرة • ومن هنا يكون بوسعنا أن نقول انه بهذه العملية قد أتاح لسائله المنوى samen أن يلتصق بالمرأة التى يحبها ، ومعنى ذلك أنه فى الخيـــال قد استمنى عليها • ومع ذلك فانه هو نفسه لم ينتبه قط الى هـــذه

الصلة جد الظاهرة ، فقوى الدفاع عنده قد سمحت لنفسها أن تخدعها القوة المكبوتة • وذلك أيضا مثال طيب على القاعدة التى بمقتضاها :

ان الشيء الذى يراد كبته يبلغ — مع الوقت وبانتظام — الى أن ينفذ داخل الوسيلة التى تستخدم لكبته •

قد أكدت من قبل بأن الافكار القهرية قد عانت تحريفا شبيها بهذا التحريف الذى عانته أفكار حلم قبل أن تصبح المضمون الصريح للحكم ، فان ما يشد انتباهنا هنا هو الاسلوب الذى يتخذه هذا التحريف • ولا ينبغى أن يكون هناك ما يحول بيننا وبين بيان الأشكال المختلفة التى يتخذها هذا التحريف ، وذلك عن طريق مجموعة من القهور التى تمت ترجمتها وأكتمل استجلاؤها • ولكن ضمن الاطار الخاص بهذه الحالة يستحيل على أن أزيد على بضع عينات لم تكن كل قهور مريضنا من تعقيد البنية ، ومن صعوبة التفسير ، على النحو الذى كان عليه قهره الكبير عن الفيران • ففى بعض قهوره الاخرى ، كان الاسلوب المستخدم بسيطا جدا — هو على التحديد أسلوب التحريف بالحذف أو الاضمار • وهذا الاسلوب يتضح بشكل بارز فى النكات اللفظية ، ولكنه أيضا فى الحالة التى أمامنا يعمل كوسيلة للوقاية ضد الفهم •

وعلى سبيل المثال ، فان واحدا من أقدم القهور وأكثرها خطورة عند المريض (مما كان يمثل تذكيرا) كان كما يلى : « اذا تزوجت من السيدة الشابة فسوف ينزل سوء بأبى فى العالم الآخر ؟ » • فاذا أعدنا وضع الحلقات الوسيطة المحذوفة وهى التى تبيناها من التحليل ، نجدنا أمام هذه السلسلة من الافكار : « لو كان أبى حيا لغضب من مشروع زواجى من السيدة الشابة كما غضب فى مشهد طفولتى ، بحيث كنت أنفجر غاضبا ضده مرة أخرى متمنيا له كل

---

(١) هذه القدرة المطلقة سوف نتناولها فيما بعد ص ٤٤١ •

ما يمكن من سوء ، وبفضل ما لرغباتى من قدرة مطلقة (١) ولن يكون مفر من أن ينزل به كل هذا السوء » •

وثمة مثال آخر يمكن البلوغ الى فهمه اذا أعدنا وضع الجلقات الوسيطة المحذوفة وهو أيضا من طبيعة تحذيرية أو تحريمية زاهدة، كانت للمريض ابنة أخت صغيرة ساحرة وكان شديد التعلق بها • وذات يوم خطرت هذه الفكرة فى رأسه : « لو استبحت لنفسك جماعا فسوف ينزل سوء بايللا Ella (سوف تموت) » • فاذا ما أعدنا وضع الحلقات الوسيطة المحذوفة نجدنا أمام ما يلى : « فى كل مرة تستبيح جماعا ، حتى مع امرأة غريبة ، فلن يكون بوسعك أن تتجنب التفكير فى أن الجماع فى حياتك الزوجية لا يمكن قط أن ينجب لك طفلا (بالنظر الى عقم سيدته الشابة) • وسوف يحزنك ذلك كثيرا بحيث تحسد شقيقتك على ابنتها الصغير ايللا ، وسوف تحقد عليها بسبب طفلتها • هذه الرغبات الحسودة لن يكون مفر من أن تتأدى الى موت الطفلة » (١) •

---

(١) ثمة مثال من أحد مؤلفاتى الاخرى Der Witz (١٩٠٥) « النكات وعلاقتها باللاشعور » « الطبعة الرابعة الالمانية ص ٦٣ » ، يذكر القارىء الطريقة التى يستخدم بها أسلوب الحذف الاضمارى فى صنع النكات : « فى فينا صحفى داهية مشاكس ، أدت به طعونه اللاذعة الى أن يتعرض للاذى البدنى ، مرات ومرات ، من جانب ضحاياه ، وفى احدى المناسبات، حين تناول النقاش سيئة جديدة صدرت من واحد من خصومة المعتادين ، تعجب أحد الحاضرين قائلا : « لو سمع س بذلك ، فسوف تذوق أذناه اللكمات من جديد » • • واللامعقولية البادية فى هذه العبارة لا تلبث أن تختفى اذا ما وضعنا بين شقى العبارة هذه الكلمات : « سوف يكتب عن الرجل مقالا من المرارة بحيث • • الخ » — هذه النادرة القائمة على الحذف الاضمارى هى ، كما يمكن أن نلاحظ ، شبيهة فى مضمونها ، وأيضا فى شكلها ، بالمثال الاول الذى أوردناه فى النص • (من هذا القبيل ما يروى عن جحا فى النكات الشعبية،اذ جلس يوما أمام بيته يتناول تمرا ، فمر عليه صديق بادره بالتحية : « سلام عليكم يا جحا » ، فلم يكن من =

ان أسلوب التحريف بالحذف الاضمارى هو ، على ما يبدو ، نمطى فى الاعصبة القهرية فقد التقيت به أيضا فى الافكار القهرية لمرضى آخرين • وثمة مثال يتسم بالشفافية بنوع خاص ، وينطوى على أهمية خاصة ، بالنظر الى تماثل فى البنية بينه وبين قهر الفيران• كانت حالة من الشك ظهرت عند سيدة تعانى أساسا من أفعال قهرية • خرجت تلك السيدة فى نزهة مع زوجها فى نورمبرج ، واصطحبته الى متجر حيث انشغلت فى شراء أشياء مختلفة لطفلها ، ومن بينها مشط • أما زوجها فقد كانت عملية الشراء هذه بالنسبة الى مذاقه مهمة أطول مما يحتمل ، فأخبر زوجته بأنه قد لمح فى طريقه قطعا نقدية — فى محل للعاديات — يتوق الى اقتنائها ، وأضاف بأنه متى فرغ من شرائها فسيعود اليها ليلتقى بها حيث هما فى نفس المتجر • ولكنه تغيب عنها، بحسب تقديرها ، وقتا طويلا أكثر من اللازم • ومن ثم سألته حين عاد اليها أين كان • أجاب : « فى محل العاديات الذى اخبرتك عنه »• وفى نفس اللحظة استولى عليها شك مضن فيما ان لم يكن هذا المشط الذى اشترته الآن لطفلها ، لديها دائما من قبل فى الواقع • وكانت بالطبع عاجزة عن أن تتبين الحلقة النفسية البسيطة التى كانت مضمرة فى هذا الشك • فكل ما كان يلزم هو أن ننظر الى الشك على أنه عانى نقلا وأن نعيد بناء السلسلة المكتملة للافكار اللاشعورية كما يلى : « لو صح أنك لم تكن حقا الا فى محل العاديات ، ولو كان على حقا أن أصدق ذلك ، فعندئذيمكننى بنفس الدرجة أن أصدق أن هذا المشط الذى اشتريته منذ لحظة كان لدى دائما منذ سنوات » • ومن ثم فقد كانت السيدة بذلك ترسم خطا موازيا من التهكم الساخر ، تماما كما فكر مريضنا : « نعم ، بقدر ما هو صحيح أن أبى والسيدة الشابة سينجبان أطفالا ، فأننى بالتأكيد سوف أسدد الرسوم الى •أ » •

=

جحا الا أن أجابه : « كده يعنى كده ! » ولم يفهم الصديق هذه الاجابة فراح يستوضحه ، فقال « أرد عليك التحية فتسألنى : « ماذا تاكل ؟ » فأجيبك ، فتسألنى : « هلا اشركتنى معك فى هذا الطعام ؟ » فأجيبك « كده ! » فتسألنى : «كده ليه» فأجيبك «كده يعنى كده !» — المترجمون) •

كان الشك فى حالة الزوجة راجعا الى غيرتها اللاشعورية ، التى جعلتها تعتقد أن زوجها قد أمضى فترة غيابه عنها فى زيارة غرامية .

ولن أحاول فى هذا المقال أن أقوم بأية دراسة للدلالة السيكلوجية للتفكير القهرى . مثل هذه الدراسة يمكن أن تنطوى نتائجها على قيمة هائلة ، ويمكن أن تعمل على توضيح تصوراتنا عن الشعور واللاشعور، بأكثر مما تستطيعه أية دراسة للهستيريا أو لظواهر التنويم المغناطيسى . ولو أن الفلاسفة وعلماء النفس ، ممن يصوغون نظريات براقة عن اللاشعور استنادا الى معارفهم القائمة على التقولات أو الى تعريفاتهم التى يتواضعون عليها ، بدأوا بتلقى هذه الانطباعات المقنعة التى يمكن البلوغ اليها من الدراسة المباشرة لظواهر التفكير القهرى ، لكان ذلك أمرا مرغوبا فيه الى أقصى حد . وكان بودنا أن نمضى الى حد مطالبتهم بالقيام بذلك ، لو لم تكن هذه المهمة أكثر مشقة بكثير من طرائق العمل التى ألفوها . وفى الاعصبة القهرية ، حسبى أن أضيف بأن العمليات النفسية اللاشعورية أحيانا ما تقتحم داخلة الى الشعور فى صورتها الخالصة غير المحرفة ، وأن مثل هذه الاقتحامات يمكن أن تحدث فى كل مرحلة من مراحل العملية اللاشعورية للتفكير . كذلك فانه فى الوقت الذى يتحقق فيه هذا الاقتحام ، غالبا ما يمكن التعرف على الافكار القهرية على أنها تكوينات جد قديمة العهد . وفى ذلك ما يفسر تلك الظاهرة الشديدة الغرابة التى تنحصر فى أنه ، عندما يحاول المحلل مستعينا بالمريض ، تحديد التاريخ الذى ظهرت فيه لاول مرة فكرة قهرية ، يجد المريض نفسه مضطرا الى أن يرجع بذلك التاريخ الى الوراء وأكثر فأكثر كلما تقدم التحليل ، فلا يفتأ يعثر على مناسبة « أولى » جديدة لظهور القهر .

(ب) بعض الغرائب السيكولوجية للعصابيين القهريين

اتجاههم من الواقع والخرافة والموت

فى هذا القسم سوف أتناول بعض الخصائص النفسية عند العصابيين القهريين ، والتى وان لم تكن هامة فى ذاتها ، الا أنها مع

ذلك تسد على فهمنا الطريق الى أشياء أكثر أهميـــة • كانت هـــذه الخصائص جد بارزة عند مريضنا الحالى ، ولكنى أعرف بأنها لا ترجع الى مرضه ، وأننا نلتقى بها بصورة نمطية تماما عند عصابيين قهريين آخرين •

كان مريضنا يؤمن بالخرافة بدرجة كبيرة ، وذلك على الرغم مما كان عليه من تعليم عال وثقافة واسعة وفطنة كبيرة ، وعلى الرغم من أنه كان يقتدر أحيانا على أن يؤكد لى بأنه لا يؤمن بكلمة واحدة من كل هذا الهراء • وهكذا فقد كان معا مؤمنا بالخرافة وغير مؤمن بها ؛ وكان هناك فارق واضح بين اتجاهه وبين الايمان بالخرافة عند غير المتعلمين وهو ايمان لا يعرف الشك • كان فيما يبدو يفهم أن ايمانه بالخرافة يرجع الى تفكيرة القهرى ، وان كان فى بعـــض الاحيـــان يستسلم تماما لهذا الايمان • ومثل هذا السلوك المتناقض والمتذبذب يمكن أن نتبين دلالته بأقصى سهولة اذا ما نظرنا اليه فى ضوء فرض سوف أشرع فى تقديمه الآن • اننى لم أتردد فى أن أفترض بـــأن المريض كان لديه ، فيما يتصل بهذه الامور ، رأيان منفصلان ومتناقضان وليس رأيا واحدا لم يتحدد بعد • وتذبذبه بين هذين الرأيين يرجع بكل وضوح الى اتجاهه فى اللحظة من قهوره • فلا يكاد يتغلب على أحد هذه القهور حتى يبتسم فى فهم ساخرا من قابليته للتصديق ، وما من شىء يحدث يستطيع أن ينال من ثباته ، ولكنه ما أن يعانى من جديد تسلط قهر آخر لم تتم تصفيته ــ أو ما أن يعانى ، وهو ما يعد مكافئا ، تسلط مقاومة ــ حتى تقع أكثر المصادفات غرابة ، سندا لايمانه الساذج •

ومع ذلك فان ايمانه بالخرافة كان أيمان رجل مثقف ، فكان يتجنب الخرافات السوقية من قبيل الخوف من يوم الجمعة أو مـــن الرقم ١٣ وما الى ذلك • ولكنه كان يؤمن بالنذير وبأحلام النبوءة ، كان يلتقى دائما بنفس الشخص الذى كان ، لسبب لا يعرفه ، قـــد خطر بفكره منذ هنيهة ، أو يتلقى خطابا من شخص يكون قد خطـــر فجأة بباله ، بعد أن غاب عن ذهنه سنوات • وفى نفس الوقت كان

من الامانة — أو كان بالحرى من الولاء لشكليات ايمانه — بحيث لم يخس الحالات التى تتمخض فيها أقوى نذيراته عن شيء على الاطلاق. ففى احدى المناسبات على سبيل المثال ، عندما رحل فى اجازته الصيفية، استشعر فى نفسه احساسا أكيدا بأنه لن يعود قط الى فينا حيا . وكذلك اعترف أيضا بأن الغالبية العظمى من نذيراته كانت تتعلق بأمور ليست بذات أهمية شخصية خاصة ، وبأنه حين كان يلتقى بأحد معارفه، الذى لم يخطر بباله لسنوات طويلة الا منذ هنيهة ، لم يكن هناك شيء يحدث بينه وبين صاحب هذا الظهور الخارق . ولم يكن بوسعه بالطبع أن ينكر أن كل الاحداث الهامة فى حياته قد وقعت دون أن يكون لديه أى نذير عنها ، وأن موت أبيه على سبيل المثال ، قد مات فجأة على غير انتظار منه تماما . ولكن الحجج من هذا القبيل لم تغير شيئا من تنافر معتقداته . فهى لم تتمخض الا عن اثبات الطابع القهرى لايمانه بالخرافة ، وكان من الممكن بالفعل استخلاص ذلك من الطريقة التى بها يجيء ويذهب ذلك الايمان مع ازدياد مقاومته ونقصانها .

لم أكن بالطبع فى وضع يمكننى من تقديم تفسير منطقى لكل تلك الحكايات الخارقة من ماضيه السابق . ولكن فيما يتصل بالامور المماثلة التى حدثت أثناء فترة علاجه ، كان بوسعى أن أثبت له أنه كانت له هو نفسه دائما يد فى صنع هذه المعجزات ، وكان بوسعى أن أبين له الوسائل التى استخدمها . كانت وسائله فى العمل هى الرؤية والقراءة الهامشية ، والنسيان ، وأهم من ذلك كله خداعات الذاكرة وفى النهاية اعتاد أن يساعدنى بنفسه فى الكشف عن سر حيله المستندة — ان جاز القول — الى « خفة اليد » ، التى كانت بها تتحقق تلك الخوارق . وثمة أصل طفلى هام لاعتقاده فى صدق النذيرات والنبوءات تكشف لنا عندما تذكر المريض أنه كان يجرى تحديد موعد لشيء ما ، فكثيرا ما كان من عادة أمه أن تقول : « لن يكون بوسعى أن .. فى هذا اليوم أو ذاك . سوف أكون طريحة الفراش فى ذلك الحين » . وعندما كان يحين اليوم المحدد كانت أمه فى الواقع بلا استثناء تلازم الفراش ! .

ليس هناك من شك فى أن المريض كانت لديه رغبة فى العثور على خبرات من هذا النوع تكون تكئات لايمانه بالخرافة ، وأنه كان من أجل هذا السبب يشغل نفسه كثيرا بالمصادفات غير المفهومة فى الحياة اليومية ، وهى التى نألفها جميعا ، وكان يعوض عن قصور هذه المصادفات بنشاطه اللاشعورى • وقد التقيت برغبة مشابهة عند كثيرين آخرين من العصابيين القهريين ، واشتبهت فى وجودها عند كثيرين آخرين غيرهم • ويبدو لى أنها رغبة يسهل تفسيرها بالرجوع الى الخصائص السيكولوجية للعصاب القهرى • ففى هذا المرض ، كما سبق أن أوضحت (ص ٣٩٩) ، يتحقق الكبت ، لا النسيان ، بل بتقطيع العلاقات السببية ، وذلك بسحب الوجدان بعيدا • هذه العلاقات المكبوتة تبدو مستمرة فى البقاء على نحو قائم (سبق أن قارنته فى مكان آخر بادراج نفس المصدر (١)) ، وهكذا تنزاح هذه العلاقات ، بعملية اسقاط ، على العالم الخارجى ، حيث تكون شاهدا على ما تم استبعاده من الشعور •

وثمة رغبة أخرى يتشاطرها أيضا العصابيون القهريون ، وهى من بعض الاوجه تتصل بالرغبة السابقة الذاكر ، هى الرغبة فى « عدم التيقن » فى حياتهم ، أو الرغبة فى الشك • وتقضى هذه الخاصية يتأدى بنا الى تقص عميق للحفزات الغريزية • ان استحداث « عدم التيقن » هو احدى الوسائل التى يستخدمها العصاب لسحب المريض بعيدا عن الواقع وعزله عن العالم — الامر الذى يعد هدفا من أهداف كل عصاب نفسى • ومرة أخرى ، من الواضح الى أقصى حد مدى الجهود التى يبذلها المرضى أنفسهم كيما يكونون قادرين على تجنب اليقين والبقاء فى الشك • فبعضهم فى الواقع يترجمون عن هذه النزعة بشكل بارز فى نفورهم من الساعات والمنبهات (لانها على الاقل تحقق اليقين فى الوقت) ، وهم يلجأون الى وسائل لا شعورية يصطنعونها

---

(١) Zur Psychopathologie des Alltagslebens (1905)
(سيكوباثولوجية الحياة اليومية — الطبعة العاشرة الالمانية ، ص ٢٨٧) •

لابطال فعالية هذه الآلات المزيلة للشك • ومريضنا الحالى قد استحدث موهبة خاصة لتجنب معرفة أية وقائع يمكن أن تعينه على البت فى صراعه • من ذلك أنه كان يجهل تلك الامور الخاصة بسيدته الشابة ، والتى كانت على أعظم درجة من الارتباط بمسألة زواجه كان من الواضح أنه لا يستطيع أن يعرف من الذى أجرى لها العملية، وما ان كانت العملية قد استأصلت أحد المبيضين أو كليهما • كان يتحتم على أن أكرهه على أن يتذكر ما نسيه ، وعلى أن يتقصى المعلومات عما أغفل الانتباه اليه •

ان ما يستشعره العصابيون القهريون من نزوع الى عدم التيقن والشك يتأدى بهم الى أن يتجهوا بأفكارهم الى تلك الموضوعات التى يستشعر ازاءها كل البشر عدم التيقن ، والتى يتحتم على معارفنا وأحكامنا عنها أن تظل مفتوحة للشك • والموضوعات الرئيسية من هذا النوع هى :

الأبوة ، وطول العمر ، والحياة بعد الموت ، وأيضا الذاكرة — وهذه الاخيرة من عادتنا جميعا أن نصدقها دون أن يكون لدينا أدنى ضمان بأنها جديرة بالثقة (١) •

والعصابيون القهريون يفيدون الى أقصى حد من عدم يقينية الذاكرة فى تكوين أعراضهم ، وسوف نتبين الآن الدور الذى تلعبه فى المضمون الفعلى لافكار المرضى مسألة طول العمر ومسألة الحياة بعد

---

(١) كما يقول ليختنبرج Lichtenberg ان عالم الفلك يعرف ما ان كان القمر مسكونا أو غير مسكون بنفس الدرجة من اليقين تقريبا التى يعرف بها من هو أبوه ، ولكن ليس بنفس درجة اليقين التى يعرف بها من هى أمه . لقد عرفت الحضارة تقدما هائلا عندما عقد الناس عزمهم على أن يصنعوا استنباطاتهم فى نفس المستوى مع شهادة حواسهم ، وعلى أن يعبروا من النظام الامومى الى النظام الابوى — وتماثيل ما قبل التاريخ التى تصور كائنا بشريا أصغر يجلس فوق رأس شخص أكبر ترمز للخط السلالى الابوى ، والالهة اثينا لم يكن لها أم ، ولكنها خرجت من =

الموت . ولكن كحلقة انتقال ملائمة سوف أبدا أولا بتناول خاصية للايمان بالخرافة عند مريضنا سبق أن أشرت اليها (ص ٤٧١) ، ولابد وأنها قد أثارت الحيرة عند أكثر من واحد من قرائى .

وانى أعنى بذلك القدرة المطلقة التى كان ينسبها لافكاره ومشاعره ، ولرغباته سيان كانت خيرة أم شريرة . ويتحتم على أن أعترف بأن هناك ما يغرى ولا شك بالقول بان الامر هنا يتعلق بهذاء، وبأنه يتخطى حدود العصاب القهرى . وعلى أى حال ، فانى قد التقيت بنفس هذا الايمان بالقدرة المطلقة عند عصابى قهرى آخر ، شفى منذ وقت طويل ، ويعيش الآن حياة سوية . والواقع هو أن كل العصابيين القهريين يتصرفون وكأنهم يشاركون فى هذا الايمان بالقدرة المطلقة . وسيكون علينا أن نلقى بعض الضوء على ما لدى هؤلاء المرضى من تقدير زائد لقدراتهم . ولنسلم على الفور ودون تلكؤ بأن هذا الايمان بالقدرة المطلقة ينطوى على جانب كبير من الميجالومانيا (هوس العظمة) الطفلية ، ولنشرع فى مسألة مريضنا عن الاساس الذى يستند اليه ايمانه هذا . وقد أجاب يحكى واقعتين من حياته . فعندما عاد للمرة الثانية الى مصحة العلاج بالمياه حيث سبق أن تحسنت حالته للمرة الاولى والوحيدة ، أبدى رغبته فى أن ينزل بنفس غرفته السابقة التى يسرت له بفضل موقعها علاقته باحدى ممرضاته. أخبروه بأن الغرفة مشغولة بالفعل من جانب أستاذ عجوز . هذا الخبر قلل الى حد كبير ما كان يأمل فيه من علاج ناجح ، فاستجاب له بهذه الكلمات غير الودودة : « آه ، فليمت بالسكتة ! » وبعد أسبوعين من ذلك استيقظ من نومه تفزعه فكرة جثة . وفى الصباح سمع أن الاستاذ انتابته سكتة مخية فى الواقع ، وأنهم حملوه الى غرفته ، وذلك فى نفس الوقت تقريبا الذى استيقظ فيه مريضنا فزعا

=

رأس جوبتير . والشاهد الذى يشهد على شىء فى محكمة يسمى بالالمانية Zeuge (وتعنى حرفيا والد منجب) ، استنادا الى دور المذكر فى عملية الانجاب ، وكذلك أيضا فى الهيروغليفية كان يجرى تمثيل الشاهد فى صورة عضو الانسال الذكرى .

من نومه . أما الواقعة التالية فكانت تتعلق بآنسة متقدمة فى السن ، وان كانت تتوق بشدة الى الحب ، كانت قد أولته قدرا كبيرا من اهتمامها ، بل وطلبت اليه مرة فى صراحة ما ان كان بوسعه أن يحبها . وقد أجابها اجابة مراوغة وبعد ذلك بأيام قليلة سمع أنها ألقت بنفسها من النافذة . عندئذ بدأ يؤنب نفسه ، وقال لنفسه بأنه كان بوسعه أن ينقذ حياتها ، لو منحها حبه . وبهذه الطريقة تأدى الى الاقتناع بالقدرة المطلقة لحبه وكراهيته . ودون انكار منا للقدرة المطلقة للحب ، ينبغى أن نشير الى أن هاتين الواقعتين قد انتهيتا الى الموت، ومن حقنا أن نتبنى هذا التفسير الواضح الذى مؤداه أن مريضنا ، كغيره من العصابيين القهريين ، كان يتحتم عليه أن يغالى فيما لكراهيته من آثار على العالم الخارجي ، لانه كان يجهل شعوريا جانبا كبيرا من الاثار الداخلية ، النفسية ، لهذه الكراهية كان حبه ، أو بالحرى كراهيته ، طاغية فى الواقع ، وكانا على وجه التحديد هما اللذان ولدا الافكار القهرية ، هذه التى لم يكن يستطيع أن يتبين أصلها ، والتى ناضل عبثا ليحمى نفسه ضدها (١) .

وكان لمريضنا اتجاه غريب تماما من مسألة الموت . كان يبدى أعمق التعاطف كلما مات أحد ، ويشترك بكل خشوع فى الجنازات ، حتى اشتهر بين أشقائه وشقيقاته باسم « غراب البين » (٢) . وكان فى خياله أيضا لا يتوقف عن قتل الناس كيما يتمكن من ابداء تعاطفه القلبى العميق مع أقارب الفقيد . ان موت شقيقته التى تكبره ، وهو ما بين الثالثة والرابعة من العمر ، قد لعب دورا كبيرا فى أخاييله . وهذا الموت قد تكشف وثيق الصلة بالسيئات الصغيرة القليلة فى تلك

---

(١) (ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣) — ان القدرة المطلقة للافكار ، او بعبارة ادق ، للرغبات ، قد تكشفت منذ ذلك الوقت عنصرا رئيسيا فى الحياة النفسية للشعوب البدائية . انظر كتابى Totem and Tabu (الطوطم والتابو) .

(٢) (فى الاصل الالمانى Leichenvogel ، وتعنى حرفيا « طائر الجثث » من هامش الترجمة الانجليزية) .

الفترة من حياته . هذا الى أننا نعرف فى أى وقت باكر شغلت ذهنه الافكار عن موت أبيه ، وبوسعنا أن ننظر الى مرضه ذاته بحسبانه استجابة لذلك الموت الذى رغب فيه بشكل قهرى قبل ذلك بخمسة عشر عاما . ولم يكن الامتداد العجيب لمخاوفه القهرية الى « العالم الآخر » الا تعويضا عن تلك الرغبات فى موت أبيه . ظهر ذلك بعد موت أبيه بعام ونصف ، فى وقت ابتعث فيه حزنه على فقد أبيه ، وكان ذلك يستهدف — فى تحد للواقع ، وفى اذعان للرغبة التى كانت من قبل قد تبدت فى آلاخاييل من كل نوع — محو واقعة موت أبيه . ولقد تعلمنا فى عدة مواضع (أنظر ص ٤٢٨ وص ٤٣٢) أن نترجم عبارة « فى العالم الآخر » بالكلمات : « لو كان أبى ما يزال حيا » .

ولكن سلوك العصابيين القهريين الآخرين لا يختلف كثيرا عن سلوك مريضنا ، وحتى وان لم يكن من نصيبهم أن يجابهوا ظاهرة الموت وجها لوجه فى مثل هذه السن الباكرة . فهم دائما مشغولون بطول عمر الآخرين واحتمال موتهم ونزعاتهم الى الايمان بالخرافة لا تنطوى ، بادىء ذى بدء ، الا على نفس هذا المضمون ، وربما لا يكون لها على الاطلاق أى مصدر آخر . ولكن هؤلاء العصابيين القهريين يحتاجون ، قبل كل شىء ، الى العون الذى تنطوى عليه امكانية الموت ، لانه يمكن أن ينزل حلا لصراعاتهم التى تركوها بغير حل . فخاصيتهم الرئيسية هى عجزهم عن البت وخاصة فى أمور الحب ، فهم يحاولون تأجيل كل بت ، وهم اذ يترددون فى صالح من يكون البت ، وفى أية اجراءات ينبغى اتخاذها ضد شخص ما . يجدون أنفسهم مضطرين الى أن يتخذوا أنموذجهم من المحاكم الالمانية القديمة ، التى كانت تنتهى قضاياها ، قبل الحكم فيها ، بموت الجانبين المتخاصمين . وهكذا فانهم فى كل صراع يدخل حياتهم يتطلعون الى موت أحد ذى أهمية بالنسبة اليهم ، وعادة ما يكون موضع حبهم — وذلك من قبيل أحد أبويهم ، أو منافس ، أو واحد من موضوعات حبهم التى تتأرجح بينها ميولهم . ولكن عند هذه النقطة يبدأ نقاشنا لعقدة الموت فى الاعصبة القهرية يلمس مشكلة الحياة الغريزية عند العصابيين القهريين . فلنتحول الآن الى هذه المشكلة .

(جـ) الحياة الغريزية للعصابيين القهريين
ومصدر القهر والشك عندهم

اذا أردنا أن نتبين القوى النفسية التى أقام تفاعلها صرح هذا العصاب ، فانه يتحتم علينا أن نرجع الى الوراء ، الى ما سبق أن عرفناه من مريضنا عن الاسباب المباشرة لموضعه فى سن الرشد وفى الطفولة تفجر عنده المرض عندما كان عليه بعد العشرين أن يواجه غواية الزواج من امرأة أخرى غير تلك التى كان يحبها منذ وقت طويل ، وقد تجنب البت فى هذا الصراع بتأجيله كل الاجراءات التى كان من شأنها أن تهيىء الحل . وقد أمده عصابه بوسائل هذا التجنب . ان تردده بين السيدة الشابة التى كان يحبها والفتاة الاخرى يمكن ارجاعه الى صراع بين تأثير أبيه وحبه لسيدته الشابة ، أو بعبارة أخرى ، الى صراع اختيار بين أبيه وموضوعه الجنسى ، على نحو ما كان قائما (استنادا الى ذكرياته وأفكاره القهرية فى طفولته الباكرة . هذا الى أن مريضنا كان بكل تأكيد ، طوال حياته كلها ، فريسة صراع بين الحب والكراهية ، سواء بالنسبة الى سيدته الشابة أو بالنسبة الى أبيه . فأخاييله الانتقامية ، وقهوره ، من قبيل قهر الفهم عنده ، وتصرفه ازاء الحجر فى الطريق ، تقوم شاهدا على تناقض مشاعره ، وكان تناقضها هذا الى حد ما معقولا وطبيعيا ، ذلك أن السيدة الشابة برفضها الزواج منه أولا ، ثم بفتورها بعد ذلك قد هيأت بعض العذر لكراهيته لها ولكن علاقته بأبيه كان يحكمها أيضا تناقض عاطفى مماثل ، على نحو ما رأينا من استجلائنا لافكاره القهرية ، وأبوه هو الآخر لابد وأن يكون قد أمده ببعض العذر لكراهيته أثناء الطفولة ، على نحو ما تمكنا فى الواقع من تبينه بشكل يكاد يعلو على الشك . وكان اتجاهه من سيدته الشابة — وهو مزاج من الحب والكراهية — يدخل الى حد كبير ضمن نطاق معرفته الشعورية ، وأقصى ما استطاع أن يخدع نفسه فيه اقتصر على درجة وشدة مشاعرة السالبة . أما عن كراهيته تجاه أبيه فانها

على العكس ، على الرغم من أنه عاشها شعوريا مرة وبشكل حـاد ، قد اختفت منذ ذلك الوقت بعيدة عن ادراكه ، ولم يكن من الممكـن جلبها الى الشعور الا عبر مقاومة أقصى ما تكون شدة • ونستطيع أن نعتبر كبت كراهيته الطفلية ازاء أبيه بحسبانه العملية التى رفعت الى اطار العصاب بكل صراعاته اللاحقة •

ان الصراعات الوجدانية عند مريضـنا ، وهى التى عددناها منفصلة ، لم تكن فى الواقع مستقلة بعضـها عن بعـض ، بل كانت مترابطة فى أزواج ، فكراهيته لسيدته الشابة تتزاوج بالضرورة مـع حبه لابيه ، والعكس صحيح ، بمعنى أن كراهيتـه لابيـه تتزاوج بالضرورة مع حبه لسيدته الشابة • ولكن هذين التيارين من الصراع اللذين ينضمان من هذا التبسيط — وهما على التحديد تعارض علاقته بأبيه مع علاقته بسيدته الشابة ، والتناقض بين حبه وكراهيته داخل كل من هاتين العلاقتين ليس بينهما أى ارتباط على الاطلاق ، سيان من حيث مضمونهما أو من حيث أصلهما • والصراع الاول من هذين الصراعين يناظر التأرجح الطبيعى بين الرجل والمرأة من حيث هما موضوعات للحب وهذا الصراع نفرضـه أولا على انتباه الطفـل بالسؤال التقليدى : « أيهما تحب أكثر ، بابا أم ماما ؟ » ثم يلازمه بعد ذلك طول حياته ، كائنة ما كانت الشدة النسبية لمشاعره ازاء الجنسين ، أو كائنا ما كان الهدف الجنسى الذى يعدو فى نهاية الامر مثبتا عليه • ولكن فى الحالات العادية لا يلبث هذا التعارض حتى يفقد طابعه كتناقض صارم ، وتناوب لا سبيل الى الافلات منه ، بمعنى اما الواحد واما الاخر • فثمة مجال لاشـباع المطالب غـير المتكافئة للجانبين كليهما ، وان كان — عند الشخص السوى ذاته — دائما ما يدين التقدير الاعلى لاحد الجنسين ببروز لتقـدير أدنى للجنس الآخر •

وأما الصراع الثانى ، ونعنى التناقض بين الحب والكراهية ، فيثير دهشتنا بشكل أعظم • فنحن نعرف أن الحب فى بدايته كثيرا ما يكون ادراكه بحسبانه كراهية ، وأن الحب ، حين يحرم الاشباع ،

يمكن أن يتحول فى يسر وبصورة جزئية الى كراهية • ويحدثنا الشعراء عن أنه فى المراحل المشبوبة من الحب يمكن للعاطفتين المتناقضتين أن تتعايشا برهه جنبا الى جنب وكأنهما فى تنافس أحداهما مع الاخرى • وأما التعايش المزمن بين الحب والكراهية ، فى اتجاههما معا الى نفس الشخص ، وبأعظم شدة لهما ، فلا يمكن الا أن يثير دهشتنا • كنا نتوقع أن يكون الحب المشبوب قد اجتاح الكراهية ، أو اجتاحته الكراهية العرمة منذ زمن طويل والواقع هو أن البقاء الطويل الامد للنقيضين معا لا يمكن أن يتحقق الا تحت ظروف سيكولوجية خاصة تماما ، والا بتعاون الاوضاع القائمة فى اللاشعور • فالحب لم ينجح فى اطفاء الكراهية ، بل نجح فحسب فى دفعها أى كبتها فى اللاشعور ، وفى اللاشعور ، حيث الكراهية فى مأمن من أن تدمرها العمليات الشعورية ، يكون بوسعها أن تستمر فى البقاء ، بل وأن تنمو فى مثل هذه الظروف ، وكقاعدة عامة ، يبلغ الحب الشعورى ، من قبيل رد الفعل ، درجة عالية من الشدة بشكل خاص ، حتى يكون من القوة بحيث يتمكن من الاضطلاع بمهمته الدائبة فى الابقاء على خصمه (الكراهية) تحت الكبت • والشرط الضرورى لحدوث مثل هذا الوضع الغريب فى الحياة الشبقية لشخص ما ، هو على ما يبدو ، أن تنشطر عنده ، فى سن جد باكرة من طفولته ، فى وقت ما من الفترة قبل التاريخية من طفولته ان جاز القول ، العاطفتان المتناقضتان ، وأن تعانى احداهما — عادة الكراهية — الكبت (١) •

لو تفحصنا عددا من تحليلات العصابيين القهريين ، فلن يكون بوسعنا أن نتفادى الانطباع بأن علاقة بين الحب والكراهية ، كهذه التى وجدناها عند مريضنا الحالى ، هى خاصية من أكثر الخصائص تواترا وبروزا ، وربما بالتالى من أكثرها أهمية فى العصاب القهرى • ولكن كائنا ما كان الاغراء الذى ينطوى عليه ارجاع مشكلة « اختيار العصاب » الى الحياة الغريزية ، فان لدينا من الاسباب ما يكفى لتجنب هذا الاغراء • ذلك أننا فى كل الاعصبة نلتقى بنفس الغرائز مكبوتة

(١) قارن المناقشة حول هذه النقطة فى إحدى الجلسات الاولى (ص ٢٥) — « ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣ » — لهذا الوضع الانفعالى
=

وراء الاعراض • وهكذا فان الكراهية التى تبقى بفعل الحب حبيسة فى اللاشعور تلعب أيضا دورا كبيرا فى توليد المرض فى حالتى الهستيريا والبرانويا • ونحن لا نعرف الا النذر اليسير عن طبيعة الحب بحيث يمكننا هنا البلوغ الى أية نتيجة حاسمة ، وبصفة خاصة ، فان العلاقة بين العامل السالب [١] فى الحب والعناصر السادية من الليبيدو ما تزال غامضة تماما • ومن ثم فلا ينبغى النظر الى ما يلى على أنه يزيد على تفسير مؤقت • عندئذ يكون لنا أن نفترض فى حالة الكراهية اللاشعورية التى نحن بصددها ، أن العناصر السادية من الحب ، لاسباب جبلية ، كانت نامية بشكل غير عادي ، ومن ثم عانت بعد ذلك انكباحا مسرفا فى تبكيره وفى شدته • من ذلك نخلص الى أن الظواهر العصابية التى لاحظناها تنشأمن ناحية من الحب الشعورى الذى غدا مسرفا من قبيل رد الفعل ، ومن ناحية أخرى من السادية التى ما تزال قائمة فى اللاشعور فى صورة كراهية •

ولكن كائنا ما كان التفسير الذى نقدمه عن هذه العلاقة العجيبة بين الحب والكراهية ، فان واقعيتها حقيقة ترتفع ، بفضل ما لاحظناه فى هذه الحالة ، على كل امكانية للشك ، ومما يبعثنا على الرضا أن نتبين مبلغ اليسر الذى نستطيع به الآن أن نفهم الظواهر المحيرة فى العصاب القهرى متى أرجعناها الى هذا العامل وحده • فاذا كان هناك حب شديد تعارضه كراهية مساوية فى الشدة تقريبا ، وكان هذا الحب فى نفس الوقت يرتبط بتلك الكراهية ارتباطا لا ينفصم ،

= الغريب استحدث بلوبلر فيما بعد مصطلح « ثنائية الوجدان » • أنظر أيضا مزيدا من التطوير لهذا التصور فى مقالى « الاستعداد السابق للعصاب القهرى » ١٩١٣ :

Die Predispzsition zur Zwangsnevrose.

The Predrsposition to Obsessional Nevrosis, Collected Papers, Vol. II.

(١) يقول السيبياديس عن سقراط فى محاورة « المأدبة » : « كثيرا ما تمنيت أن يموت ، ومع ذلك فانى أعرف بأنى سأكون آسفا أكثر بكثير منى فرحا لو أنه مات : وهكذا أجدنى عديم الحيلة » •

فان النتيجة المباشرة والاكيدة هى شلل جزئى للارادة ، وعجز عن البت بقرار فى أى من هذه الافعال التى ينبغى أن تجد فى الحب قوتها الدافعة . ولكن هذا « اللابت » لن يستمر طويلا فى اقتصاره على صنف واحد بعينه من الافعال . وذلك لانه فى المقام الاول : ما عساها أن تكون تلك الافعال التى تصدر عن عاشق ولا تكون لها علاقة بدافعه الرئيسى ؟ وثانيا ، لان اتجاه الفرد من الامور الجنسية ينطوى على قوة الانموذج ، بحيث تنزع الى مسايرته بقية استجاباته . وثالثا ، لانها خاصية فى صميم سيكولوجية كل عصابى قهرى أن يستخدم ميكانيزم النقل أقصى استخدام ممكن . ومن هنا فان شلل قدرته على البت يمتد بالتدريج الى كل أنشطة المريض .

وهكذا تتشيد هيمنة القهر والشك على نحو ما نلتقى بهما فى الحياة النفسية للعصابيين القهريين . فالشك يناظر ما لدى المريض من ادراك داخلى عن « عجزه عن البت » ، هذا العجز الذى ، نتيجة الكف الذى نزل بحبه من جانب الكراهية ، يستولى عليه فى مواجهة أى فعل ينتويه . فالشك فى واقع الامر هو شك ينصب على حبه — هذا الذى ينبغى أن يكون أكثر الاشياء يقينية فى حياته النفسية كلها، ثم يمتد هذا الشك الى كل شىء آخر ، وهو بصفة خاصة قابل لان ينقل الى أتفه التفاصيل (١) . فالفرد الذى يشك فى حبه يمكن أن يشك أو بالحرى ينبغى أن يشك فى كل الاشياء الاخرى التى هى أقل قيمة من الحب (١) .

---

(١) قارن استخدام « التمثيل بشىء تافة » كوسيلة لصنع النكات . Freud, Der Witz (1905). (فرويد ، النكات ، ١٩٠٥ ، الطبعة الرابعة الالمانية ، ص ٦٥) .

(١) ذلك ما نتبينه فى الابيات التى يوجهها هاملت الى أوفيليا :

« فلتشكى فى أن تكون النجوم من اللهب ،
ولتشكى فى أن الشمس تدور ،
ولتشكى فى أن الحقيقة تكذب ،
ولكن لا تشكى أبدا فى حبى »

Hamlet, [11,2].

هذا الشك نفسه هو الذى يتأدى بالمريض الى عدم التيقن من اجراءاته الدفاعية ،والى تكراره الدائب لهذه الاجراءات حتى يتخلص من عدم تيقنه ، وهذا الشك نفسه أيضا هو الذى يتأدى فى النهاية الى أن تصبح اجراءات المريض الدفاعية ذاتها مستحيلة التنفيذ ، شأنها شأن قراره الاصلى المكفوف فيما يتصل بحبه • وكنت فى بداية أبحاثى قد وجدتنى مضطرا الى القول بأصل آخر أكثر عمومية لعدم التيقن عند العصابيين القهريين ، وهو أصل يبدو أقرب الى الحياة العادية • فعلى سبيل المثال ، اذا راح أحد يقاطعنى بالاسئلة وأنا أكتب خطابا ، فانى أشعر بعد ذلك بعدم تيقن مشروع تماما مما يكون قد فاتنى أن أكتبه بتأثير المقاطعة ، وكيما أتأكد ، يتحتم على أن أقرأ الخطاب من جديد بعد أن أفرغ منه وبنفس الطريقة يمكننى أن أفترض أن عدم تيقن العصابيين القهريين ، وهم يؤدون الصلاة مثلا، يرجع الى أخاييل لا شعورية تندس بلا انقطاع فى صلواتهم ، فتربكهم وهذا الافتراض صحيح ، ولكن يمكن فى يسر مصالحته مع رأينا الذى أوردناه قبلا • صحيح أن عدم تيقن المريض مما ان كان قد أنجز اجراء دفاعيا يرجع الى التأثير المربك لاخاييله اللاشعورية ، ولكن مضمون هذه الاخاييل هو على التحديد الحفزة المضادة — هذه التى كانت الصلاة تستهدف طردها بالذات • ولقد اتضح هذا بشكل بارز عند مريضنا فى احدى المناسبات ، اذ أن العامل المربك لم يبق لا شعوريا بل برز واضحا على نحو صريح • كانت الكلمات التى يريد أن ينطق بها فى صلاته هى : « يحفظها الله » ، ولكن انطلقت فجأة من لا شعوره الكلمة العدوانية « لا » فاندست فى كلماته ، وقد فهم أن ذلك انما كان محاولة للعنها (ص ٣٥٩) • ولو أن كلمة « لا » بقيت خرساء لكان يجد نفسه فى حالة من عدم التيقن ، ولاستمر يسترسل فى صلواته الى غير نهاية • أما وأن كلمة « لا » غدت منطوقة فقد كان بوسعه بالتالى أن يتوقف عن الصلاة • ولكنه قبل أن يفعل ذلك على أية حال ، حاول بكل وسيلة ، شأنه شأن غيره من العصابيين القهريين، أن يمنع العاطفة المضادة من أن تندس • ومن ذلك مثلا أنه كان يختصر صلواته أو يتلوها بسرعة • وبالمثل يناضل قهريون آخرون « لعزل » اجراءاتهم الدفاعية ، التى من هذا القبيل ، عن كل ما عداها • ولكن

ما من واحدة من هذه الوسائل تجدى فتيلا مع الوقت • فاذا ما أحرزت حفزة حب أى نجاح فى نقل نفسها على أى فعل تافه ، فان حفزة كراهية تنطلق لاحقة بها على أرضها الجديدة ، فتشرع من جديد فى محو كل ما فعلته •

وعندما يكتشف المريض القهرى نقطة الضعف فى أمن حياتنا النفسية — وهى عدم يقينية الذاكرة بحيث لا يمكن التعويل عليها — فان هذا الكشف يمكنه من أن يمتد بشكه الى كل شىء ، حتى الى الافعال التى تم بالفعل انجازها والتى لم تكن لها حتى الآن أية علاقة بعقدة الحب — الكراهية ، والى الماضى برمته • وهنا أذكر بمثل الزوجة التى فرغت لتوها من شراء مشط لابنتها فى متجر ، والتى ، وقد استولى عليها الشك فى زوجها ، شرعت تشك فيما ان لم يكن لديها هذا المشط فى واقع الامر منذ وقت طويل : ألم تكن هذه الزوجة تقول فى صراحة تامة : « ما دام بوسعى أن أشك فى حبك » (ولم يكن ذلك غير اسقاط لشكها فى حبها هى له) « فبوسعى عندئذ أن أشك فى هذا المشط ، وأن أشك فى كل شىء » — وبذلك تكشف لنا عن الدلالة الخبيئة للشك العصابى ؟

أما القهر فهو ، على العكس ، محاولة للتعويض عن الشك ، ولتصحيح تلك الظروف غير المحتملة من الكف ، هذه التى يشهد الشك عليها • فاذا ما نجح المريض آخر الامر ، بفضل النقل ، فى أن يبلغ بأحد مقاصده المكفوفة الى قرار ، فعندئذ يتحتم عليه تنفيذ هذا المقصد • صحيح أن هذا المقصد ليس هو مقصده الاصلى ، ولكن الطاقة الحبيسة فى هذا الاخير لا يمكن أن تسمح بأن تفوت على نفسها فرصة عثورها على مخرج للافراغ فى الفعل البديل • وهكذا فان هذه الطاقة الحبيسة يعيشها المريض أحيانا أوامر وأحيانا نواهى، تبعا لما ان كانت حفزة الحب أو حفزة الكراهية هى التى انتزعت السيطرة على طريق الافراغ • فلو حدث أن أمرا قهريا استحال تنفيذه ، فان التوتر يغدو غير محتمل ، ويعيشه المريض فى صورة قلق بالغ ولكن الطريق المؤدية الى فعل بديل ، حتى حين تكون النقل على فعل تافه ، تكون موضوع تنازع مرير ، بحيث أن مثل هذا الفعل البديل لا يمكن — كقاعدة عامة — انجازه الا فى صورة اجراء دفاعى

وثيق الارتباط بنفس تلك الحفزة التى كان يستهدف هذا الاجراء فى الاصل طردها •

وأكثر من ذلك ، وبفضل نوع من النكوص ، فان الافعال التمهيدية تصبح بدائل عن القرار النهائى ، فيحل التفكير محل الفعل، وبدلا من الفعل البديل فان فكرة ما من الافكار الممهدة لهذا الفعل تؤكد نفسها بكل ما للقهر من قوة • وتبعا لما يكون عليه هذا النكوص — من الفعل الى التفكير — من درجة البروز تكشف حالة العصاب القهرى عن خصائص التفكير القهرى (أى عن خصائص الافكار القهرية) أو عن خصائص الفعل القهرى بالمعنى الاضيق للكلمة • ومع ذلك فان الافعال القهرية بمعنى الكلمة من هذا القبيل لا تغدو ممكنة الا لأنها تمثل ضربا من المصالحة فى صورة تكوين ائتلافى من الحفزتين المتضادتين كليهما • ذلك أن الافعال القهرية تنزع الى أن تقترب أكثر فأكثر — وكلما طال عمر المرض غدا ذلك أوضح — من الافعال الجنسية الطفلية ذات الطابع الاستمنائى • وهكذا ففى هذا النوع من العصاب يتم انجاز أفعال حب على الرغم من كل شىء ، ولكن ذلك فقط بفضل نوع جديد من النكوص ، وذلك لان أفعال الحب من هذا القبيل لم تعد تتعلق بشخص آخر موضوع حب وكراهية ، بل هى أفعال شبقية ذاتية على نحو ما يحدث فى الطفولة •

والنوع الاول من النكوص ، ونعنى النكوص من الفعل الى التفكير ، يعين عليه عامل آخر يدخل فى توليد العصاب • فتواريخ العصابيين القهريين تكاد تكشف دائما أبدا عن ازدهار باكر وكبت سابق لاوانه للغريزة الجنسية النظارية (السكوبتوفيلية) والاستطلاعية (الابستيموفيلية) ، وجانب من النشاط الجنسى الطفلى لمريضنا الحالى كانت تحكمه ، كما نعلم ، هذه الغريزة [1] •

فقد سبق أن نبهنا الى الدور الهام الذى تلعبه العناصر الغريزية السادية فى نشأة الاعصبة القهرية • فحيث تكون الغريزة الجنسية الاستطلاعية (الابستموفيلية) غلابة فى جبلة العصابى القهرى ،

---

(١) ان المستوى جد المرتفع للقدرة العقلية عند العصابيين القهريين ربما يرتبط أيضا بهذه الواقعة •

يصبح الاجترار الفكرى العرض الرئيسى للعصاب . فعملية التفكير نفسها تصبح مشبقة (مصطبغة بالجنسية) ، وذلك لان اللذة الجنسية ، التى عادة ما ترتبط بمضمون التفكير ، تزاح على عملية التفكير ذاتها ، ومن ثم يعيش المريض الرضى المعرفى (الناتج من البلوغ الى نتيجة تلزم عن سلسلة من التفكير) بحسبانه اشباعا جنسيا .

وفى الاشكال المختلفة من العصاب القهرى التى تلعب فيها الغريزة الجنسية الاستطلاعية (الايستميوفيلية) دورا ، فان علاقة هذه الغريزة بعمليات التفكير تجعلها مهيأة بصفة خاصة لان تجتذب الطاقة التى نجاهد عبثا كيما تشق طريقها قدما الى الفعل ، فتحرفها الى مجال التفكير ، حيث تتوفر امكانية حصولها على اشباع لاذ من نوع آخر وبهذه الطريقة ، وبفضل الغريزة الجنسية الاستطلاعية (الايستميوفيلية) يمكن للفعل البديل بدوره أن يخلى مكانه لافعال تمهيدية من التفكير . ولكن المماطلة فى الفعل لا تلبث حتى تخلى مكانها لتلكؤ فى التفكير ، ومن ثم تنتقل العملية كلها فى النهاية ، وبكل غرائبها ، الى أرض جديدة ، تماما كما يحدث فى أمريكا حين ينتقل أحيانا بيت برمته من مكان الى آخر .

وبوسعى الآن أن أجترىء ، استنادا الى هذه المناقشة الاخيرة ، فأحدد الخاصية السيكولوجية التى طال البحث عنها ، والتى تسبغ على نتاجات العصاب القهرى طابعها « القهرى » . ان عملية التفكير تكون قهرية حين يجرى انجازها — نتيجة كف (ناجم عن صراع حفزتين متضادتين) ينال الطرف الحركى للجهاز النفسى — بانفاق من الطاقة هو (فيما يتصل بكمه وكيفه على السواء) مخصص فى العادة للافعال وحدها ، أو بتعبير آخر ، فان التفكير القهرى هو تفكير وظيفته أن يخل — بصورة نكوصية — لمحل فعل . وما من أحد ، فيما أعتقد ، يعترض على ما افترضه من أن عمليات التفكير عادة ما يجرى انجازها (لاسباب اقتصادية) بنقل طاقة أقل (ربما الى مستوى أعلى) من تلك التى تستنفدها الافعال فى افراغها لوجدان أو فى تعديلها للعالم الخارجى .

والتفكير القهرى ، الذى يشق طريقه الى الشعور بمثل هذا العنف المسرف . نتحتم بعد ذلك تأمينه ضد جهود التفكير الشعورى التى تنزع الى فضه.وكما سبق أن رأينا فان هذا التأمين يتحقق بفضل التحريف الذى عاناه التفكير القهرى قبل أن يصبح شعوريا . ولكن تلك ليست هى الوسيلة الوحيدة المستخدمة . فبالاضافة الى ذلك فان كل فكرة قهرية على حدة تنتزع دائما ابدا تقريبا من سياق الموقف الذى نشأت فيه ، والذى على الرغم من تحريفها ، يمكن ضمنه فهمها بمنتهى السهولة . ولتحقيق هذه الغاية ، ففى المقام الاول يندس فاصل زمنى بين الموقف المولد للمرض والقهر الذى تولد منه ، بحيث يضلل أى تفكير شعورى فى تقصيه عن العلاقة السببية ، وفى المقام الثانى فان مضمون القهر يتم ابعاده عن سياقه الخاص عن طريق تعميمه .

و « قهر الفهم » عند مريضنا هومثال على ذلك (انظر ص ٣٩٣) ولكن مثالا آخر ، ربما كان أفضل ، تزودنا به مريضة أخرى . كانت امرأة حرمت على نفسها أن تتزين بأى نوع من الحلى ، ولو أن السبب المباشر لهذا التحريم كان ينصب فقط على قطعة واحدة وبعينها من الحلى : كانت قد حسدت أمها على امتلاكها لهذه القطعة من الحلى ، وتمنت أن يأتى يوم ترثها منها . وأخيرا ، واذا ما حرصنا على التمييز بين التحريف اللفظى وتحريف المضمون ، فثمة مع ذلك وسيلة أخرى يبلغ بها القهر الى تأمين نفسه ضد المحاولات التى تستهدف فضه من جانب التفكير الشعورى . وهذه الوسيلة هى أختيار منطوق (نص لفظى للقهر) غير محدد أو غامض . وهذا المنطوق ، بعدما يتعرض لاساءة الفهم من جانب المريض يكون بوسعه أن يشق طريقه الى « شبه هذاءاته » ، وكيفما كانت عمليات التطوير أو الابدال التى يعانيها قهره بعد ذلك ، فانها تستند جميعا عندئذ الى اساءة الفهم . ولبس الى المعنى الحقيقى للمنطوق . وسوف تكشف الملاحظة مع ذلك عن أن « شبه الهذاءات » هذه عند المريض تنزع دائما الى عقد روابط جديدة أبدا بهذا الجانب ، من مضمون ومنطوق القهر ، الذى لم يبلغ الى الشعور .

وبودى أن أعود من جديد الى الحياة الغريزية عند العصابيين

القهريين ، فأضيف عنها ملحوظة واحدة . فقد تكشف أن مريضنا ، بالاضافة الى كل خصائصه الاخرى ، كان شميا (أو شهوى الشم) . وبحسب ما قاله ، فانه كان فى طفولته يعرف كل شخص برائحته ، شأنه شأن الكلب . وحتى حين كبر ، ظلت حساسيته الشمية تزيد على ما هى عليه عند معظم الناس [1] . وقد ألتقيت بنفس هذه الخاصية عند عصابيين آخرين ، سيان من الهستيريين أو من القهريين وقد أنتهى بى الامر الى أن أتبين أن نزعة من الشهوية الشمية ، خمدت منذ الطفولة ، يمكن أن تلعب دورا فى توليد العصاب [2] . وبودى هنا أن أتساءل بصورة عامة عما ان كان ضمور حاسة الشم (وهى نتيجة لم يكن منها مفر بالنظر الى الهيئة المنتصبة التى اتخذها البشر) ، وما ترتب عليه من كبت عضوى للشهوية الشمية،لم يلعب دورا هاما فى تهيئة الكائن البشرى للمرض العصبي : ذلك يمكن أن يزودنا بشيء من التفسير عن العلة فى أن الحياة الجنسية هى على وجه التحديد التى كان يتحتم عليها — مع تقدم الحضارة — أن تقع فريسة الكبت . فاننا نعرف منذ زمن طويل تلك الصلة الوثيقة ، فى الانتظام الحيوانى ، بين الغريزة الجنسية ووظيفة عضو الشم .

وفى ختام هذا المقال ، بودى أن أعبر عن أملى فى أن يكون فى بحثى هذا على الاقل ، رغم قصوره من كل ناحية ، ما يحفز باحثين آخرين على القاء مزيد من الضوء على العصاب القهرى بفضل مزيد من التعمق . أن ما يخصص هذا العصاب ، وما يميزه عن الهستيريا ، لا يمكن العثور عليه — بحسب رأيى — فى الحياة الغريزية بل فى العلاقات السيكولوجية .

ولا يسعنى أن أغادر مريضى قبل أن أسجل انطباعى بأنه كان ، ان جاز القول ، منقسما الى ثلاث شخصيات . الى شخصية لا شعورية،

---

(١) واضيف ان المريض كان لديه فى طفولته نزعات قوية من الولع بالبراز (كوبرونيليا) . وفى هذا الصدد سبقت الاشارة الى شبقيته الشرجية (انظر ص ٤٥٥) .

(٢) على سبيل المثال فى بعض الاشكال الفيتيشية .

وشخصيتين قبلشعورتين بينهما يتأرجح شعوره • فشخصيته اللاشعورية كانت تشمل على تلك الحفزات التى عانت الكبت فى سن باكرة ، والتى يمكن وصفها بانها حفزات مشبوبة وشريرة • كان مريضنا فى شخصيته العادية طيبا ، مرحا ، مرهف الحس انسانا مثقفا ذكيا • بينما كان فى انتظامة السيكولوجى الثالث يتكشف مؤمنا بالخرافة وزاهدا • ومن هنا كان بوسعه أن يكون له رأيان فى نفس الموضوع ، وتصوران مختلفان عن الحياة • وهذه الشخصية القبلشعورية الثانية كانت تشمل أساسا على التكوينات الضدية ضد رغباته المكبوتة ، وكان من اليسير أن نتوقع ، لو أن المرض استمر مدة طويلة من ذلك بكثير ، أن هذه الشخصية كانت ستبتلع شخصيته العادية • وتتاح لى الآن فرصة معالجة سيدة مريضة تعانى من عصاب قهرى خطير • وقد غدت هى الاخرى بالمثل منقسمة الى شخصية رضية مرحة وشخصية شديدة الكآبة وزاهدة • وهى تضع فى الصدارة أولى هاتين الشخصيتين على أنها اناها الرسمية ، بينما هى فى واقع الامر تحت هيمنة الشخصية الثانية • وكل من هذين الانتظامين النفسيين ينفتح أمامه الطريق الى شعورها • ولكن من وراء شخصيتها الزاهدة نستطيع أن نتبين القسم اللاشعورى من كيانها — وهو قسم نجهله تماما ، ويتكون من حفزات نزاعة قديمة طال كبتها [1] •

---

(١) « ملحوظة اضافية عام ١٩٢٣ » — استرد المريض صحته النفسية عن طريق التحليل الذى أوردت تقريرا عنه فى هذه الصفحات • ولكنه ككثرة كثيرة غيره من الشباب الممتاز الذين تعقد عليهم الآمال ، قتل فى الحرب العالمية (الاولى) •

أقرأ للدكتور مخيمر

أستاذ الصحة النفسية بكلية التربية بجامعة عين شمس

* سيكلوجية الموضة ـ الانجلو ـ ١٩٦٥
* شائعات معركة يونيو ١٩٦٧ ـ الانجلو ـ ١٩٦٧
* نحو نظرية ثورية فى التربية ـ الانجلو ـ ١٩٦٨
* تناول جديد للمراهقة ـ الانجلو ـ ١٩٦٩
* نظرية الجشطلت وعلم النفس الاجتماعى ـ الانجلو ـ ١٩٦١
* المدخل الى الصحة النفسية ـ الانجلو ـ ١٩٧٢
* الانماط الانفعالية للمكفوفين ـ الانجلو ـ ١٩٦١
* تاريخ تأهيل المكفوفين ـ الانجلو ـ ١٩٦٠
* المجال الفيزيائى والمهنى للمكفوفين ـ الانجلو ـ ١٩٦٠
* العمى «رعاية المكفوفين» للاب كارول ـ مؤسسة فرانكلين ١٩٦٩
* فى مجال الحياة الوجدانية الاجتماعية للمكفوفين ـ تحت الطبع

أقرأ للدكتور مخيمر والاستاذ عبده ميخائيل رزق

مؤلفـــات

* سيكلوجية الشخصية ـ الانجلو ـ ١٩٦٨
* المدخل الى علم النفس الاجتماعى ـ الانجلو ـ ١٩٦١
* المدخل الى سيكلوجية التعلم ـ الانجلو ـ ١٩٧١
* فى الاشتراكية العربية ، ماركس يدحض الماركسية ـ الدار القومية ـ ١٩٦٤
* دراسات فى القومية مع هيكل نظرية تفسيرية ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٦٢

مترجمات

* علم نفس الجشطلت لبول جيوم ـ سلسلة الالف كتاب ـ سجل العرب ـ ١٩٦٣
* وحدة علم النفس ـ لدانيل لاجاش ـ الانجلو ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٥
* سيكلوجية الاشاعة ـ لاولبورت وبوستمان ـ دار المعارف ـ ١٩٦٤
* علم الاجتماع عند ماركس الشاب • لجريفتش ـ الانجلو ـ ١٩٦٤
* الدعاية السياسية ، لدومنياك ـ الانجلو ـ ١٩٦٠
* سيكلوجية المرأة ، لمارى بونابرت ـ الانجلو ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٣
* سيكلوجية الشخصية ، لتوتكات ـ الانجلو ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٣
* نظرية التحليل النفسى فى العصاب ـ أوتوفيخل ـ ثلاثة أجزاء الانجلو ـ ١٩٦٩
* الاناوميكانيزمات الدفاع ـ أنا فرويد ـ الانجلو ـ ١٩٧٢
* مقدمة فى العلاج السلوكى عن ديفيد مارتن ـ الانجلو ـ تحت الطبع

المحتويات